

المركز القومى للترجمة

مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية

تأليف: أدريان بوس

ترجمة: على السيد على

المشروع القومى للترجمة

1602

مدينة بيت المقدس
زمن الحروب الصليبية

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1602
- مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية
- أدريان بوس
- على السيد على
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Jerusalem in the Time of the Crusades: Society Landscape and Art in the Holy City Under Frankish Rule
By: Adrian J. Boas

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

مدينة بيت المقدس
زمن الحروب الصليبية

تأليـف : أدريـــان بوس
ترجمة : على السيد على

2010

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

بوس ؛ أدريان

مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية / تأليف: أدريان بوس ؛

ترجمة: على السيد على

ط ١ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠

٤٢٤ ص ؛ ٢٤ سم .

١ - الحروب الصليبية فى فلسطين والشام .

(أ) على ، على السيد (مترجم)

(ب) العنوان ٩٥٣,٠٧٣٩٣

رقم الإيداع : ٢٤٥٤١ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى 978-977-479-008-9

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجم

من المعروف أن الحروب الصليبية (١٠٩٧-١٢٩١م) كانت صداما عسكريا، ومواجهة حضارية بين الشرق العربى تحت الحكم الإسلامى والغرب الأوربى الكاثوليكى، تمخضت أحداثها عن قيام كيان صليبى تحت سماء بلاد الشام "سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن " عبارة عن ثلاث إمارات صليبية، هى الرها وأنطاكية، وطرابلس، ومملكة هى مملكة بيت المقدس وعاصمتها بيت المقدس أولا ثم عكا بعد معركة حطين ١١٨٧م. هذا الكيان استمر ما يقرب من مائتى عام ما بين عامى ١٠٩٨م وهو العام الذى شهد تأسيس إمارتى أنطاكية والرها، وعام ١٢٩١م والذى شهد طرد البقايا الصليبية ببلاد الشام على يد السلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاوون.

وبالرغم من وفرة الكتابة عن تاريخ الحروب الصليبية، فما زال هناك الكثير ليكتب عنه، إذ إن موضوع الحروب الصليبية يمثل مجالا خصبا للبحث التاريخى . وقد ظهرت الآن حركة إحياء جديدة بين الجيل الحالى من المؤرخين وعلماء الآثار، إضافة إلى جهود أجيال سبقت، لدراسة الحركة الصليبية وإجلاء حقائقها، واستكمال جوانبها، عربية وغير عربية فى عصر المعلومات، وكلها دراسات نحتاجها كقراء متخصصين وغير متخصصين كما تحتاجها مكتباتنا.

ويسعدنى اليوم أن أقدم إلى قراء العربية الكرام كاتبا وكتابا أسهما بجهد وافر فى إثراء دراسات الحروب الصليبية، أما الكاتب فهو أدريان جى بوس مدرس علم الآثار للعصور الوسطى فى جامعة حيفا، والكتاب هو "مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية". وقد قام المؤلف بتقسيمة إلى ثلاثة أبواب، الباب الأول بعنوان : مدينة

العصور الوسطى ويتضمن ستة فصول هى : الموقع الجغرافى، وأضواء على فترة الحروب الصليبية، والتنظيم الإدارى، وأحداث مهمة فى حياة المدينة، والتعليم والحياة العقلية، ثم السكان. ثم الباب الثانى وهو بعنوان الآثار الباقية من مدينة بيت المقدس تحت الحكم الصليبى. ويشتمل على أربعة عشر فصلا هى : التحصينات، والقلعة، والقصور الملكية، وأحياء المدينة، وخارج الأسوار، والكنائس والأديرة، والشوارع والميادين، والأسواق، والمبانى العامة، والصناعات، والحرف، والتجارة والمنشآت التجارية والمالية، والأماكن الخاصة الخالية، ومصادر المياه ومواردها العامة، والصرف الصحى، والمقابر داخل وخارج المدينة. أما الباب الثالث فهو بعنوان : الفنون وتراث الحروب الصليبية، ويشتمل على فصلين هما : فنون العصور الوسطى فى مدينة بيت المقدس، وبيت المقدس فى فنون العصور الوسطى. ثم الخاتمة، فقائمة المصادر والمراجع وأخيرا الفهرس.

والكتاب وكما هو بين أيدينا قد تم تقسيمه إلى مقدمة للمؤلف واثنين وعشرين فصلا، يتراوح عدد صفحات هذه الفصول ما بين صفحتين، وثلاث صفحات، وأربع صفحات، وخمس صفحات، وست صفحات، وسبع صفحات، وثمان صفحات، وعشر صفحات، وإحدى عشرة صفحة، ثم ست عشرة صفحة، وخمس وعشرين صفحة.

والحقيقة أن مثل هذا التقسيم قد يجعل القارئ لأول وهلة يعتقد أن المعلومات الواردة فى كثير من الفصول وبهذا العدد الضئيل من الصفحات هى معلومات هزيلة على الرغم من أنها معلومات على جانب كبير من الأهمية، إذا تم تصنيف الكتاب بطريقة موضوعية يتم فيها دمج الفصول بعضها فى بعض. كأن يخصّص فصل واحد يتناول المقدمة، وكذلك مقدمة المؤلف، ثم الموقع الجغرافى وأثره فى أحوال المدينة، مع إلقاء الضوء على فترة الحروب الصليبية، والأحداث المهمة فى حياة المدينة. يليه فصل ثان يتحدث عن التقسيم الإدارى للمدينة : فيتناول أحياء المدينة والتحصينات، والقلعة، والقصور الملكية. ثم الفصل الثالث عن الحياة الاقتصادية :

مصادر وموارد المياه، والموارد المالية، والأسواق، والصناعات والحرف، والتجارة والمنشآت التجارية، والحج المسيحى وأثره فى أحوال المدينة الاقتصادية. أما الفصل الرابع فيكون بعنوان الحياة اليومية : يتناول فيه الشوارع والأحياء، والمنشآت الاجتماعية، والصرف الصحى، وأماكن الدفن، والفراغات الموجودة فى المدينة ومدى الاستفادة منها، ومنطقة خارج الأسوار. يلى ذلك الفصل الخامس عن سكان مدينة بيت المقدس والمنشآت الدينية من كنائس وأديرة. ثم الفصل السادس عن الحياة العقلية ويتناول فيه التعليم، والفن والتراث الصليبى، ثم مدينة بيت المقدس فى فنون العصور الوسطى. وأخيراً الخاتمة ثم قائمة المصادر والمراجع، ويجعل الكتاب فى ثلاثة أبواب.

ومع هذا فالكتاب غنى بالمعلومات الأثرية التى لا غنى عنها، فمن الفصول الممتعة حقا الفصل الثالث عشر الذى يتحدث فيه عن شوارع المدينة وطرقاتها وميادينها، وهى معلومات غزيرة عن بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، وإن كنا نرى لها مثيلا فى العصر المملوكى "١٢٥٠-١٥١٧م" فى كتاب مؤرخ القدس مجير الدين الحنبلى "الأنس الجليل بتاريخى القدس والخليل". ومع هذا فالمؤلف هنا لم يستفد بالقدر الكافى من الكم الهائل من المصادر والمراجع التى أوردها فى المعلومات التاريخية فى مجالات الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وهى معلومات لا شك غزيرة. وإن كانت تحتاج منه إلى مزيد من الجهد، إلا أن عدم إيرادها كان وراء قلة صفحات كثير من الفصول وظهورها بمظهر لا يرضى عنه الكثيرون من عشاق بيت المقدس من أبناء الديانات السماوية الثلاثة.

وإذا كان المؤلف قد عنى – فوق العادة – بالنواحى الأثرية، فإنه تجاهل كثيرا من المعلومات التاريخية المهمة، فعلى سبيل المثال فى الفصل الخامس وهو يتحدث عن التعليم والحياة العقلية، فقد كان الأجدر به أن يتحدث عن مؤرخى الحملة الصليبية الأولى والذين أتوا معها، وشاركوا فيها، وسجلوا أحداثها وهم شاهدو عيان لها، وتعد أعمالهم إلى جانب الوثائق والخطابات الصليبية، أهم مصادر المعلومات التاريخية

أصالة، مثل المؤرخ المجهول صاحب كتاب "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس"، وريموند أجيل صاحب كتاب "تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس"، اللذين يتوقف تاريخهما عند ذكر أحداث عام ١٠٩٩م، ثم فولشر الشارترى صاحب كتاب "أعمال الفرنجة الحجاج إلى بيت المقدس"، والذى يغطى الفترة ما بين عامى ١١٢٠-١١٢٧م - وبذلك فهو لم يذكر وليم الصورى فقط رئيس أساقفة صور والذى أكمل تاريخ الصليبيين حتى عام ١١٨٤م، ولم يشهد شيئا من أحداث الأربعين سنة الأولى من الوجود الصليبى فى بلاد الشام. فضلا عن ذلك فإن المؤلف كان بإمكانه أن يظهر التطور التاريخى الذى حدث لدى الصليبيين، فلم يقتصر التدوين التاريخى على نظام الحوليات وتحول إلى نظام الكتابة فى موضوعات متخصصة. وخير مثال لها كتابات المؤرخ اللاتينى ريمون داجيل صاحب كتاب "تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس" وقد كان مشاركا فى أحداث الحملة الأولى وشاهد عيان لها. والذى يلقى كثيرا من الأضواء على البدايات الأولى لكثير من نظم المجتمع الصليبى فى بلاد الشام، حيث يسرد رؤى بنى جلدته، وقصص زوارهم السماويين بما يعكس ثقافة الصليبيين وما تخللها من خزعبلات، وسذاجتهم الدينية مثل خدعة اكتشاف الحربة المقدسة فى أنطاكية.

كما كنا نود أن يورد لنا فى حديثه عن الحياة العقلية ولو بعض المعلومات عن السجلات الديرية، مثل سجلات فرق الرهبان العسكرية بوجه عام، وسجلات طائفة الاسبتارية بوجه خاص، وهى مدونة بلغة فرنسية قديمة ومتداولة ومسجلة على شرائط متوفرة على الإنترنت. وكذلك سجلات القبر المقدس، وسجلات طائفة الداوية. فضلا عن تقارير بعض الصليبيين العائدين إلى أوربا، وبعض الخطابات المتاحة والمحفوظة فى كثير من مكتبات الغرب الأوربى.

كذلك كان فى إمكان المؤلف أن يتحدث عن الرسائل والوثائق المتبادلة بين بابوات روما من جهة وقادة الفرنج من رجال دين وعلمانيين من جهة أخرى. مثل المراسلات التى تمت بين البابا هونريوس الثالث ومندوبه فى بلاد الشام عام ١٢٢١م بيلا جيوس

الذى جاء على رأس الحملة الصليبية الخامسة. والخطابات السبع التى بعث بها جاك دى فيترى أسقف عكا ١٢١٦م والذى توفى ١٢٤٠م إلى البابا هونريوس الثالث أعوام ١٢١٦م، ١٢١٨م، ١٢١٩م، ١٢٢٠م، ١٢٢٦م. التى نشرها هيجنز فى طبعة حديثة باللغة اللاتينية عام ١٩٦٠م فى كتابه "مجموعة خطابات جاك دى فيترى". وخطاب جيرواد بطريرك بيت المقدس (١٢٢٥-١٢٣٩م) إلى البابا جريجورى التاسع ١٢٢٩م يخبره فيه بتفاصيل بنود اتفاقية الإمبراطور فردريك الثانى مع الملك الكامل الأيوبى سلطان مصر والتى عرفت باتفاقية يافا. وخطاب توماس أجنى أسقف بيت لحم إلى ملوك أوربا يخبرهم فيه بما ورد فى إنذار هولاكو الصليبى مملكة بيت المقدس فى عكا، المؤرَّخ فى أول مارس عام ١٢٦٠م. فهو لم يذكر كل هذا ولو على سبيل الإشارة.

كما فات المؤلف وهو فى مجال الحديث عن الحياة العقلية أن يذكر آخر ما دون فى الشرق اللاتينى من مؤلفات وهو "حوليات الأرض المقدسة" Annales de Terre Sainte والتى نشرها روهرشت فى الجزء الثانى من أرشيف الشرق اللاتينى، لمؤلف مجهول ذكر فيها أهم أحداث التاريخ الصليبى فى بلاد الشام منذ عام ١٠٩٥-١٢٩١م : من تواريخ الحملات الصليبية، واستيلاء الفرنجة على المدن أو استرداد المسلمين لها، وتواريخ وفاة أشهر الشخصيات الصليبية، وأشهر حالات الزواج بين البيوت الصليبية الكبرى.

وكان طبيعيا أن يتأثر الكيان الصليبى بالتراث الحضارى لمنطقة بلاد الشام بوجه عام، والثقافة السائدة فيها بوجه خاص، ذلك أن الفرنجة قد طال مقامهم فى بلاد المسلمين وخالطوا أهلها، وتأثروا بهم، وأثروا فيهم، ففرضت الطبيعة البشرية عليهم أن يتقاتلوا حينا ويتهادنوا أحيانا. وفى أوقات السلم كان يتم الاتصال الحضارى بينهم على نطاق واسع. مما كان عاملا لتسرب كثير من الكلمات اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية إلى اللغة العربية. كما ترصد المصادر العربية بعض الحالات التى تفيد تعلم بعض المسلمين لبعض لغات الصليبيين. واشتغل بعضهم

كتراجمة فى السفارات المتبادلة بين حكام كل من الطرفين، إلى جانب تسرب كثير من الكلمات العربية إلى اللغات الأوربية فى تلك الفترة وخصوصا فى مجال الفلك والطب والكيمياء وفى شتى مناحى الحياة والعلوم المختلفة، وفى أسماء الملابس وأنوا ع الأقمشة، وفى مجال الوظائف الإدارية.

وكنا نود أن يحدثنا المؤلف عن الحياة الأدبية عند الفرنجة، إذ من المعروف أن كثيرا من الأمراء والنبلاء كانوا من رجال الثقافة والعلم. فالملك بلدوين الثالث والملك عمورى الأول شغفا بالآداب، وعرف عن همفرى الرابع سيد تبنين درايته التامة باللغة العربية وآدابها، كما أن رينالد جارنييه صاحب صيدا وشقيق أرنون اشتهر باهتمامه بالآداب الإسلامية. وقد تأثر أبناء الجيل الثانى والثالث من الفرنجة بالأدب العربى والثقافة العربية أكثر من الجيل الأول، سواء من النبلاء أو الأمراء ورجال الدين أو بعض أبناء الطوائف الدينية العسكرية، بالإضافة إلى عدد كبير من تجار البندقية حتى إنهم عملوا كتراجمة فى المفاوضات الدبلوماسية لعقد المعاهدات التجارية بين البنادقة وسلاطين الأيوبيين والمماليك زمن الحروب الصليبية. وتشير المصادر إلى برنارد سلفستر، وقد كان ضمن من عملوا على الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وكان معاصرا للملك عمورى الأول ملك بيت المقدس "١١٦٣-١١٧٤م" على نحو يعكس حجم اهتمام الفرنجة بترجمة علوم المسلمين آنذاك . وإنه لما يثير الدهشة أن يتجاهل المؤلف ذلك.

بل والأكثر من هذا غرابة أن يتجاهل المؤلف مدى تأثر الفن الحربى عند الفرنجة بما شاهدوه من نظم ونماذج إسلامية زمن الحروب الصليبية، يأتى فى مقدمتها أسلوب نقل المعلومات، وبخاصة الحربية الذى سهل عملية الاتصال بين الحصون والحاميات من الجبل إلى السهل عن طريق استخدام الحمام الزاجل، وهو أسلوب تعلمه الفرنجة من المسلمين فى الشرق. وبهذه الوسائل كانت الأخبار تنقل بسرعة من الأردن، عن طريق بيت المقدس إلى يافا وعكا، وكانت المواقع الصليبية الحصينة بمثابة مؤسسات عسكرية ثابتة، على حين كان الجيش هو العنصر المتحرك فيها.

ومما لا شك فيه أن الفرنجة فى بلاد الشام قد تعلموا نظرية عسكرية جديدة ومهمة - هى التى تطبقها إسرائيل الآن - وهى أن الأقلية التى تسعى لحكم أغلبية معادية لها ليس أمامها من سبيل لضمان وجودها سوى أن تتمركز فى أعداد صغيرة نسبيا وفى أماكن حصينة، سواء كانت مدنا أو قلاعا. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الوسيلة لم تكن كافية تماما لإحكام السيطرة على المناطق الريفية. ولضمان الاتصال وجعل الوجود الفرنجى فى الأرض المقدسة حقيقة ملموسة، فإن الصليبيين رصعوا شبكة الطرق الرئيسية والثانوية فى البلاد بالحصون، ونقاط المراقبة، التى هى أقرب إلى مراكز الشرطة منها إلى القواعد العسكرية، وقد كان من السهل أن تتصل الحصون والحاميات من الجبل إلى السهل عن طريق الإشارات بالنيران أو الإشارات الدخانية، وهو ما كان معروفا عند المسلمين باسم المناور "المنائر" والحراقات، وأخذها عنهم الصليبيون.

وفى مجال فنون اللهو والطرب فإنه من المعروف لدى دارسى الحركة الصليبية اعتمادا على المصادر اللاتينية والعربية المعاصرة، أن الفرنجة فى أفراحهم وحفلاتهم جلبوا كثيرا من أرباب الملاهى والرقص، كما جرت العادة لدى نساء الفرنجة بالجلوس على الدواوين مصغيات إلى ألحان العود وأنغام الرباب التى قامت بعزفها كثير من النساء العربيات.

وعن التأثير الأدبى للحروب الصليبية لدى الفرنجة، فقد كان للحروب الصليبية تأثيرها الأدبى، حيث استوحاها بعض شعرائهم وكتابهم مما أدى إلى ازدهار الشعر الملحمى بحيث فاق غيره من المجالات الأدبية عند الفرنجة، ودليلنا على هذا أن بعض الشخصيات الصليبية أمثال "جودفرى" و"تانكرد" و"بلدوين الأول" اتخذت موضوعات قصص للشعراء الجوالين الذين كانوا ينتقلون بين قصر وآخر من قصور الملوك والأمراء، كما أن قصائد جديدة عديدة تم نظمها مثل "قصيدة أنطاكية" Chanson d' Antioche التى يشكل موضوع حصار أنطاكية الموضوع الرئيسى فيها، وهى عمل من

المرجح أن يكون قد دونه أحد شهود العيان، وربما كان واحدا من الشعراء الجوالين في جيش بوهيمند . هذه الأنشودة عبارة عن تسجيل حي للأحداث، وهي بذلك ليست عملا خياليا، كما أنها أنشودة ذات طابع شعبي، أي تمت كتابتها من أجل الجموع العريضة من الإفرنج . كما تحولت قصة الحروب الصليبية إلى أسطورة تمثلت في أنشودة الضعفاء أو "الحقراء" Chanson de Chetif سنة ١١٣٠م والتي كان بإمكان المؤلف الإشارة إليها.

كذلك كان للحروب الصليبية أثرها الواضح في شعر المراثي، ففي آخر الكراسة الثانية من مؤرخة فوشيه الشارتري كتب مرثية الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس، الذي توفي في الثاني من شهر أبريل عام ١١١٨م، وأوضح فيها لوعته لفراق هذا الملك الذي عمل قسيسا خاصا له، والذي كان بمثابة الدرع الواقي للفرنجة والذراع الأيمن لهم، وذكر فتوحاته التي شملت عكا وقيصرية، وبيروت، وصيدا، وما بناه من حصون وقلاع، وبخاصة قلعة الكرك Montreal. وعلى الرغم من أن المؤلف ذكر أنه اطلع على مؤرخة فوشيه الشارتري، وكان بإمكانه الاستفادة منها في مجال الحياة الأدبية، إلا أنه لم يفعل.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف قد أظهر اهتماما فائقا بالآثار مما دفعه إلى التغاضي عن الحديث عن بعض الجوانب التاريخية وبخاصة الجانب الثقافي منها، ليس هذا فحسب، بل إنه لم يستطع أن يكون موضوعيا في تناوله لبعض القضايا التاريخية : ففي الفصل الأول يذكر أن الصليبيين قد قاموا بإنشاء عدد من المستشفيات، والأسواق، والشوارع المغطاة، والحمامات العامة على أنها منشآت جديدة على المدينة. وفي الواقع إنها كانت موجودة ومعروفة واستفاد منها سكان المدينة في ظل الحكم الإسلامي قبل قدوم الصليبيين وبعدهم. وفي الفصل الثاني ذكر أن المدينة كانت قليلة السكان تحت الحكم الفاطمي وأن عدد سكانها اقترب من العشرين ألفا مستشهداً بالرحالة الفارسي ناصرو خسرو، ولا ندري كيف وقع المؤلف في هذا الخطأ

التاريخى، حيث ذكر ناصرو خسرو فى رحلته ما نصه أن بها عشرين ألف رجل غير النساء والأطفال، وبذلك يكون عدد سكانها على أقل تقدير ما يقارب الخمسين ألفا إن لم يكن يزيد.

وفى هذا الفصل أيضا نراه يخالف الواقع التاريخى ومنطق الأحداث فى سرده لأحداث الاستيلاء على المدينة عام ١٠٩٩ من قبل الصليبيين، وخصوصا عندما يذكر أنه، ولمقاومة الغزوة الصليبية على بيت المقدس، فقد تم حشد السكان ومعظمهم من المسلمين واليهود على امتداد أسوار المدينة. وهو بذلك يحاول خلق موقف دفاعى لليهود، مناقضا بذلك الحقيقة وهى أن أهل الذمة من مسيحيين ويهود كانوا ممنوعين من الالتحاق بالجندية، وإنما تولت الجيوش الإسلامية مهمة الدفاع عن كل مدينة خضعت لهم، وقام أهل الذمة بدفع الجزية أو الجوالى نظير قيام المسلمين بمهمة الدفاع. وحتى لو قلنا إن الدولة الفاطمية قد استعانت بقوات من المرتزقة فى جيوشها فقد كانوا من الأرمن وذلك لطبيعة بلادهم الجبلية التى جعلت منهم عنصرا حربيا متمرسا على القتال ولكنها لم تستخدم اليهود فى جيوشها، فضلا عن أن النظام الحربى الإسلامى منذ نشأته جعل من كل مسلم قادر بالغ معاف رجل حرب فى وقتى السلم والحرب، ويصرف له راتب تحول إلى إقطاع نظير تلك المهمة، ومن أهل الذمة رجالا مدنيين لا شأن لهم بالعمليات الحربية دفاعية كانت أو هجومية.

ومرة أخرى بعد سرده لأحداث ما بعد الغزو، وقلة السكان الصليبيين لكثرة من عاد منهم إلى أوطانهم نراه يقول : إن قرار منع من نجا من الموت من مسلمين ويهود من العودة إلى بيت المقدس لم يكن مجديا. وهو هنا يحاول مرة ثانية خلق دور لليهود منذ بدايات الاستيلاء الصليبى على القدس. ذلك لأنه معروف جيدا لكل من يدرس تاريخ الحروب الصليبية أن الفرنجة كما أحدثوا فى المسلمين مذبحة رهيبة راح ضحيتها حوالى سبعين ألفا، فإنهم قضوا على الجماعة اليهودية فى معبدهم لأنهم لم ينسوا لهم موقفهم العدائى للمسيح عليه السلام.

وفى الفصل الرابع وهو بعنوان أحداث مهمة فى حياة المدينة، نراه يذكر أن العقيدة المسيحية قد فرضت عليها كثير من القيود والمعوقات تحت الحكم الإسلامى. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم معرفة المؤلف بحقيقة الإسلام الذى يعترف بكل من الديانة اليهودية والديانة المسيحية، وأن موقف الإسلام - باستثناء المدة البسيطة التى حكم فيها الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله - واضح تماما، فقد ترك لهم الحرية الدينية كاملة، فمن شاء منهم دخل فى الإسلام فيصبح عضوا فى المجتمع الإسلامى له ما لهذا المجتمع وعليه ما عليه، وإن لم يدخل تفرض عليه الجزية فى مقابل إعفائه من الجندية وتمتعه بالأمن والأمان وهو ما تحققه جماعة المسلمين، وحتى هذه الجزية فقد كان يعفى منها الأطفال وكبار السن والعجزة.

مرة أخرى فى الفصل العاشر يعمد إلى المغالطة التاريخية فى حديثه عن تقسيم المدينة إلى أحياء سكنية وفق الأصول العرقية والدينية، فيذكر أن المسلمين كانوا قلة عند بداية الحكم الإسلامى للمدينة، عاشت فى منطقة الحرم القدسى الشريف، وهذا شيء طبيعى، وأن اليهود عاشوا فى المنطقة الجنوبية الغربية من جبل صهيون. والمعروف أن مسيحيى بيت المقدس بزعامة البطريرك صفرونيوس قد طلبوا من الخليفة عمر بن الخطاب ألا يسمح لليهود بالإقامة معهم فى مدينتهم، وأن سماحة الإسلام قد سمحت لليهود بزيارة المدينة على أن يغادروها عندما يدخل الليل، احتراما لرغبة المسيحيين من أهلها ؛ فكيف سُمح لليهود إذًا بالعيش فيها ؟! وما هذه أو تلك إلا محاولات لخلق دور تاريخى لهم فى المدينة المقدسة. وهو دور مزعوم وباطل ومخالف للواقع التاريخى.

ثم نراه مرة أخرى فى الفصل الحادى عشر وعن طريق لىٍّ الحقائق التاريخية، يعمد إلى شرح الدرس الذى استفادته إسرائيل من الحركة الصليبية لتأكيد كيانها، فقد عمدت - مثلما سبق أن فعل الصليبيون منذ عام ١١٤٠م- إلى بناء العديد من المستوطنات ما بين عسقلان وبيت المقدس، ونشر عدد من القلاع على طول هذه المنطقة

لمنع إغارات المسلمين والتى اتخذت من عسقلان مركزا لشن حرب استنزاف على العدو؛ وعمدت كذلك إلى اتهام المسلمين أصحاب الأرض الشرعيين بأنهم "عصابات تشن الهجوم على المستوطنين الصليبيين".

ويبدو أنه أحس بخطورة تلك المحاولات، لذا فقد كان مضطرا فى الفصل الخامس عشر وهو يتحدث عن المنشآت الاجتماعية ألا يذكر شيئا منها يخص اليهود وخصوصا المستشفيات، وأنه رأى ألا يثير غضب المتخصصين أكثر من ذلك، حيث نراه يستجلب ود البعض منهم فيذكر عن مستشفى فرسان القديس يوحنا وهى أهم مستشفى فى القدس عصر الحروب الصليبية أنها كانت موجودة بعد استرداد صلاح الدين الأيوبى للقدس عام ١١٨٧م، وأنه سمح لبعض رهبان القديس يوحنا بالبقاء فيها لمدة سنة لعلاج المرضى الموجودين فيها.

ثم يعود مرة أخرى إلى طبيعته فى قلب الحقائق التاريخية فى الفصل السادس عشر عند حديثه عن الحرف، فيذكر أن صباغة الملابس كادت أن تكون وقفا على اليهود، ويستشهد فى ذلك بالرحالة بنيامين التطيلى الذى زار القدس حوالى عام ١١٧٢م، ويزعم أنه قال : إن بيت المقدس بها ورشة لصباغة الملابس يدفع عنها اليهود إيجارا سنويا بسيطا لملك بيت المقدس الصليبى، الذى اشترط عليهم عدم وجود أى مشتغل بالصباغة مع اليهود فى مدينة بيت المقدس.

وبالرجوع إلى نص رحلة بنيامين التطيلى فقد جاء فيها : "وفيها معمل للصباغة يستأجره اليهود من ملك القدس سنويا. فتنحصر بهم هذه المهنة دون غيرهم. ويبلغ عددهم فى هذه المدينة نحو المائتين" . ومع ما فى النص من تحوير فإننا نرى أن هذا العدد مبالغ فيه، ذلك أن الرحالة فتاحيه اليهودى الذى زار القدس بعد بنيامين بعشر سنوات فقط لم يجد فيها إلا يهوديا واحدا يدعى إبراهيم الصباغ كان يؤدى لملك القدس ضريبة فادحة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن حرفة صباغة الملابس لم تكن حرفة تدل على التميز، بل هى حرفة من ضمن الحرف الوضيعة غير مهنة الطب أو الصيدلة أو الصاغة وغيرها من الحرف.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن استرداد صلاح الدين الأيوبى لمدينة بيت المقدس بعد موقعة حطين عام ١١٨٧م يعد أمرا صعبا على نفس المؤلف، فما من سيئة إلا ويحاول أن ينسبها لصلاح الدين، ففى الفصل التاسع عشر، على سبيل المثال، وهو يتحدث عن الصرف الصحى فى المدينة يقول: "وربما تم تدمير الصرف الصحى على يد صلاح الدين عندما أمر بهدم الكنيسة العليا." وهذا لا يمكن أن يخطر ببال صلاح الدين الذى كان يعمل وفق مشورة هيئة ضخمة من رجال المخابرات ومن صفوة الخبراء فى شتى المجالات.

وفى خاتمة الكتاب فإن المؤلف يعترف صراحة بالقصور فى ذكره للنواحى التاريخية والاجتماعية فى بيت المقدس فى ظل الحكم الصليبى، ويرجع ذلك إلى الكم اللا متناه من المعلومات الأثرية بالنسبة لغيرها. وهو وإن اهتم بالمعلومات الأثرية فإن ذلك لا يعفيه من إهمال النواحى التاريخية والاجتماعية والتى تعتبر من وجهة نظرنا لا تقل أهمية أو توفرا فى المصادر نفسها والتى اعتمد عليها. ولو أنه أعطاها بعض الاهتمام لكان كتابه على مستوى رائع من الجودة، ولغطى كثيراً من الجوانب التى يحتاجها كل قارئ لهذا الكتاب متخصصا كان أو غير متخصص.

* * *

مقدمة المؤلف

إن فترة حكم الفرنجة لمدينة بيت المقدس ليست بالفترة الطويلة مقارنة بغيرها من الفترات الزمنية فى تاريخها. فهى تتضمن فترتين بارزتى المعالم، أولاهما وأهمهما تمتد من الاستيلاء على المدينة فى الخامس عشر من شهر يوليو عام ١٠٩٩م، عند نهاية الحملة الصليبية الأولى وحتى الفتح الأيوبى لها فى الثانى من أكتوبر عام ١١٨٧م فى أعقاب معركة حطين، وبعد حصار دام اثنى عشر يوما. أما الفترة الثانية والبارزة فهى التى لم يقدر لها الاستمرار طويلا باستيلاء الفرنجة على بيت المقدس بمقتضى شروط معاهدة يافا / تل العجول التى تم التصديق عليها فى الثامن عشر من فبراير عام ١٢٢٩م . عندما انقضى أجل المعاهدة بعد عشر سنوات سنة ١٢٣٩م، حيث قام الناصر داود صاحب الكرك باحتلال المدينة، وتدمير برج داود، ثم رحل عنها، فاستعادها الفرنجة عام ١٢٤١م. وكان هذا آخر احتلال صليبى لها والذى انتهى بغزو الخوارزمية لها عام ١٢٤٤م.

هاتان المرحلتان من الحكم الصليبى تشكلان معا فترة تزيد قليلا عن المائة عام. فإذا وضعنا فى الحسبان التغيرات التى حدثت فى ذلك المدى الزمنى القصير، فإنه يمكننا اعتبار فترة الحكم الصليبى لبيت المقدس من أهم الفترات فى تاريخ المدينة. وبالنسبة لفترة الحكم الرومانى / البيزنطى لبيت المقدس فإن الفرنجة أحدثوا تحولا داخليا كبيراً بالقياس لما حدث لها منذ عصر هادريان فى القرن الثانى للميلاد. إن تحول مدينة بيت المقدس إلى مدينة صليبية عبر عدة عقود كان هدفه مزدوجا: يتمثل فى استعادة العاصمة الدينية للعالم المسيحى، وتحويلها من مدينة إسلامية بسيطة إلى عاصمة مملكة مسيحية غربية. كما أن إعادة بناء مدينة بيت المقدس كان الهدف منه هو

التغلب على المشكلة السكانية التى تسبب فيها الفرنجة أنفسهم. فعندما احتلوا المدينة فإنهم نفذوا مذبحة فى السكان المحليين استمرت من الخامس عشر إلى الثامن عشر من شهر يوليو عام ١٠٩٩م. نجم عنها أن العاصمة الجديدة لم تتخلص فحسب ممن هم من غير النصارى بل أصبحت مدينة أشباح، ذلك لأن عدداً قليلا من الصليبيين قد تبقى فى المدينة فى أعقاب الغزو. وكنتيجة لتلك المذبحة – إلى جانب الرغبة العارمة فى إعادة الأماكن المسيحية المقدسة إلى سابق مجدها – ظهرت الحاجة الملحة إلى إعادة إعمار المدينة شبه الخالية تماما بالسكان. وسرعان ما بدأت عمليات استعادة المدينة وإعادة توطين السكان فيها فى أعقاب الاستيلاء عليها. وعلى أية حال، فإن استعادة المدينة تطلبت كثيراً من رؤوس الأموال، علماً بأن الدعم المادى القادم من الغرب فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى لم يكن سريعًا وكما هو متوقع ٠ ومع هذا فقد كانت هناك بعض المصادر المحلية التى أمكن الاعتماد عليها، وإن كانت قليلة، ومنها الثروات التى تركها الفاطميون والتى تم تقسيمها واستغلالها فى مشاريع جديد. منها على الخصوص ما تم إنفاقه فى إعادة بناء عدد كبير نوعًا ما من الكنائس فى النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلاد، لتحل محل الكنائس التى قام الخليفة الحاكم بأمر الله بتدميرها فى بداية القرن الحادى عشر للميلاد. هذه الكنائس لم تشمل فقط كنيسة الضريح المقدس، ولكنها شملت كذلك كنائس القديسة حنة، وكنيسة السيدة مريم فى جبل صهيون، وكنيسة قبر العذراء فى وادى يهوشافاط، وكنيسة القديس جيمس فى الحى الأرمنى، وكنيسة الصعود فى جبل الزيتون مع عدد كبير من الكنائس الأقل أهمية.

مع ملاحظة أن الجهود التى بذلت لإعادة إسكان المدينة تطلبت مبالغ أكبر بكثير جداً مما تطلبته عملية إعادة بناء الكنائس المختلفة. إن الاستعادة الحقيقية لمدينة بيت المقدس وتحويلها إلى مدينة جديرة بمكانتها فى العالم المسيحى أمر قد تحقق عندما أدرك كل من الزعماء الدينيين والقادة العلمانيين مدى القوة الكامنة فى الحج المسيحى،

كمصدر هائل للثروة، إلى جانب التجارة، وكذلك أهمية المستوطنين الجدد. وعلى هذا كان أهم ما يُميز مدينة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر للميلاد من ملامح هو التركيز على ما يمكن أن نسميه بلغتنا المعاصرة "صناعة الحج" أو ما نصطلح عليه فى العصور الوسطى باسم صناعة السياحة، فقد أخذت عمليات الحج المسيحى إلى الأراضى المقدسة فى الازدهار سريعًا فى أعقاب عمليات الغزو الفرنجي، وزادت بازدياد الأمن الداخلى. وعند ذلك ظهرت الحاجة ماسة إلى بناء عدد من النُّزُل، والمستشفيات، والمصارف، والأسواق المتخصصة، وقد قام الفرنج بإنشاء هذه المنشآت فى النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلاد.

ولدينا من منتصف القرن الثالث عشر للميلاد نص يصف تلك المنشآت، ويوضح لنا مدى ازدهار الحج المسيحى ودوره المهم فى حياة المدينة. فهذا هو أحد المرشدين من أصل فرنسى رغم كونه مجهول الاسم، يصف - وكما يفعل معظم المرشدين - الكنائس العديدة والأماكن المقدسة داخل مدينة بيت المقدس وحولها. هذا النص يصف، وبتفصيل أكبر من أى مصدر فى العصور الوسطى، الشوارع وعمليات الصرافة والأسواق والنزل العديدة والمستشفيات، مع العديد من المنشآت الأخرى التى بنيت من أجل خدمة وإراحة الأعداد الغفيرة من الحجاج المسيحيين. مما يجعلنا نقول إن مدينة بيت المقدس تحت الحكم الصليبى كانت مدينة يلقى فيها الحجاج المسيحيون كل الراحة.

* * *

الباب الأول

مدينة العصور الوسطى

لا تزال مدينة بيت المقدس القديمة فى مظهره وبشكل جوهرى.ا مدينة من مدن العصور الوسطى. ومع هذا فإنه منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ظهرت عدة تحولات فيما هو قائم بين أسوارها من عمائر: فالبوابات لم تعد تغلق ليلا، كما أن الأسوار لم تعد تستخدم كحصون توفر الحماية لمن بداخلها ضد عدو قادم أو متوقع مجيؤه من عالم خارج الأسوار. كما أن الحقول الفسيحة الممتدة داخل الأسوار، والتى كانت تستخدم لزراعة الفواكه والخضراوات، أو كأسواق مفتوحة، كلها تضاءلت أمام الأعمال العمرانية التى تم إنجازها أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للميلاد. فهناك الآن توجد الكهرباء، والغاز، ومياه الشرب التى يتم ضخها عبر الأنابيب، هذا إلى جانب نظام الصرف الصحى الحديث نوعا ما. وبالرغم من هذا - وباستثناء الحى اليهودى الذى تمت إعادة بنائه وتوسعته عام ١٩٦٧م - فإن المدينة تكاد تكون طبق الأصل لما كانت تبدو عليه منذ تسعمائة سنة مضت، لدرجة أن الزائر لها فى القرن الثانى عشر للميلاد لا يكاد يجد مشقة فى التجول فيها.

لقد كانت مدينة بيت المقدس طوال العصور الوسطى أكثر المدن المسيحية قداسة، بما كانت - ولا تزال - تضمه من مزارات تعج بالحجاج المسيحيين، مثلها مثل كثير من المدن الأخرى، حيث تشكل السياحة والحج المسيحى مصدرا مهما لبيع السلع والمصنوعات وتصديرها بالجملة. أما عن سكان المدينة فيمكن تقسيمهم إلى مجموعتين

متمايزتين : السكان الدائمين والزوار . وفى مثل هذه النوعية من المدن فإن النسبة العددية لهاتين المجموعتين تعكس درجة النجاح فى تلبية احتياجات الزوار أو السياح، فكلما ارتفعت نسبة الزوار أو السياح إلى السكان الدائمين كان هذا مؤشرا ودليلا على أن المدينة تبذل جهدا كبيرا فى تقديم خدماتها للسياح ؛ وكان ذلك مؤشرا على تحقيق عائد مادى كبير للسكان. وهو ما تحقق فعلا لمدينة بيت المقدس حيث كانت لها دوما جاذبيتها الدينية الخاصة والتى انفردت بها . كما أن العصور الوسطى لم تكن استثناء من هذه القاعدة. وليس هناك أدنى شك فى أن مدينة بيت المقدس قد حققت نجاحا ملحوظا وبكل المقاييس، على الرغم من عدم وجود إحصائيات لدينا تؤكد ذلك.

إذ كيف لنا أن نحكم على مدى نجاح مدينة بكل ما لها من مقومات أو مقدرات على البقاء منذ أكثر من ثمانمائة عام مضت ؟ والشىء الوحيد الذى يمكننا عمله هو أن نلقى نظرة على ما تبقى بها من آثار: وهناك عدد كبير جدا من المنشآت العامة التى ترجع إلى العصور الوسطى لا يزال موجودا فى المدينة. وفى أقل من تسعين سنة استطاع الفرنجة إعادة بناء العديد من الكنائس محل تلك التى تم تدميرها تحت الحكم الإسلامى، كما شيدوا عددا كبيرا من الكنائس الجديدة، وأحيوا ما تخلده من ذكريات، بل إنهم ابتكروا أسماء مقدسة ونسبوها إلى بعض ما بنوه من كنائس، فضلا عن أنهم قاموا بتقوية التحصينات، وشيدوا قصرا جديدا، وأقاموا عددا من الأديرة، والنزل، أو الاستراحات، والمشافى، والأسواق، والشوارع المغطاة، والحمامات العامة، إلى جانب بعض المنشآت الأخرى. إن المدى الذى وصلت إليه جهود الفرنجة فى عمليات البناء والتشييد ليس له ما يوازيه فى تاريخ المدينة منذ العصر البيزنطى، وبمثل تلك المستويات فإن مدينة بيت المقدس من الواضح أنها حققت نجاحا كبيرا كمدينة يقصدها الحجاج المسيحيون تحت الحكم الصليبى.

* * *

الفصل الأول

الموقع الجغرافى وأثره

تقع مدينة بيت المقدس فوق مجموعة من التلال يتراوح ارتفاعها ما بين ٧٥٠ و ٨٥٠ مترا فوق سطح البحر، وتبعد عن ساحل البحر المتوسط بحوالى ٥٨ كيلو مترا، كما أنها تبعد حوالى ٢٥ كيلو مترا عن الساحل الشمالى للبحر الميت غربا. وعلى الرغم من أنها تقع على امتداد أحد الطرق التجارية المهمة نوعا ما، والممتد من جنوب دمشق إلى نابلس، وعند ملتقى عدة طرق أقل أهمية منه، منها الطريق إلى الخليل جنوبا، وأريحا وعمان شرقا، والرملة ويافا غربا - فإن التجارة لم تشكل عاملا مهما فى تاريخ المدينة. ومع هذا كان لها دورها المهم فى المنطقة المحيطة بها لما تمتع به من مركز دينى وسياسى مهم.

والمدينة القديمة المحصورة بين أسوارها التى ترجع إلى القرن السادس عشر للميلاد، تغطى اليوم تقريباً نفس المساحة بزيادة أو نقص عدة أمتار مربعة مما كانت عليه تحت الحكم الصليبى. فهى تقع بين واديين، وادى القدرون إلى الشرق، ووادى جهنم إلى الغرب، وهما الواديان اللذان يتقاربان مع بعضهما البعض جنوبا عند موقع أهم مورد طبيعى للمياه وهو عين سلوان. وداخل هذا الإطار الجغرافى الطبيعى فإن الوادى الكبير يقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب، مقسماً إياها إلى تلين : جبل صهيون غربا، وجبل موريا (المختار) شرقا. وتعتبر عين سلوان أحد أهم المصادر الطبيعية للمياه، والتى لها أثر كبير فى الحد من توسع المدينة وتطورها. إلا أن مشكلة

المياه قد أمكن التغلب عليها بحلول صناعية، مثل بناء قنوات للمياه، وخزانات، وآبار، وصهاريج.

وكان لقيام مدينة بيت المقدس فوق منطقة صخرية صلدة من أحجار الكلس والرواسب الرملية أثره الواضح فى توفر الأحجار واستخدامها كمواد للبناء، هذه الأحجار تضم الأحجار القرنفلية اللون الناعمة، وهى من النوع الرخيص الذى استخدم بكثرة فى البناء، هذا النوع معروف محليا باسم "الحجر النارى". أما النوع الأشد صلابة منه فهو المعروف باسم "الحجر المزى"[١]. وهناك نوع آخر أبيض معروف باسم "الحجر الملكى" شاع استخدامه فى العديد من المبانى الضخمة، لأنه سهل القطع والتشكيل إذا تم رشه بالماء إلا أنه سرعان ما يكتسب صلابة عندما يجف ويتعرض للشمس.

لقد فضل الحجارون الصليبيون استخدام نوعين من الحجارة، النوع الأول هو الحجر المزى الذى تم استخدامه لرسم حدود كل قرية، وكذلك فى تشييد الأسوار ؛ أما النوع الثانى فهو الملكى، واستخدموه فى المبانى الأكثر فخامة، ونقشوا عليه كثيرا من الرسومات، وبنوا منه كثيرا من أطر المداخل والشبابيك، وصنعوا منه كثيرا من الحليات المعمارية[٢].

وفى فترة الحروب الصليبية كانت التلال المحيطة بالمدينة مجردة من الأشجار التى يمكن أن تمدها بالأخشاب اللازمة، كما تضافرت عوامل عديدة على عدم وجود غابات طبيعية، مثل كثرة عمليات الحصار، وتكرار حدوث الجفاف والقحط، إلى جانب نوع التربة والصخور. والمعروف أن الحصار الرومانى للمدينة فى القرن الأول للميلاد قد استنزف الغابات التى كانت قائمة، وقد لاحظ أحد الرحالة ممن زاروا المدينة قبل القرن الثانى عشر للميلاد بزمن طويل - حوالى سنة ٦٧٠م - أنه كان يتم جلب الحطب إليها من إحدى غابات الصنوبر الصغيرة والواقعة إلى شمال مدينة الخليل تقريبا[٣]. ومن غير المحتمل أن يكون قد حدث أى تحسن فى تلك الأحوال فيما بين القرن السابع

للميلاد والوقت الذى ظهر فيه الصليبيون على مسرح الأحداث فى المنطقة(٤). ولابد أن يكون الموقف فى تلك الآونة قد وصل إلى مرحلة أكثر سوءا، فلو أن الغابة التى كانت بالقرب من الخليل قد قدر لها البقاء طوال تلك الفترة الزمنية، فإنه من المحتمل أن يكون قد تم تدميرها عام ١٠٩٨م أثناء حصار الفاطميين للسلاجقة فى بيت المقدس، وربما حدث نفس الشىء مرة أخرى قبيل وصول الصليبيين، إذ من غير المستبعد أن يكون الفاطميون قد قاموا بقطع ما تبقى من أشجار للاستفادة من أخشابها ضد الحصار الصليبى الوشيك الوقوع. كما أن الفرنجة أنفسهم قد قاموا باستنفاذ كل مصدر يمكن أن يكون قد تبقى من أشجار بحثا عن الأخشاب لعمل آلات الحصار(٥). وطوال فترة الحكم الصليبى بل وبعدها ظل نقص الأخشاب المطلوبة كحطب أو للبناء مشكلة ظاهرة للعيان. فهذا هو الرحالة ثيودريك يشير حوالى سنة ١١٦٩م إلى أن الأخشاب المطلوبة كحطب أو فى عمليات البناء كانت نادرة هناك، لأن جبل لبنان، وهو الجبل الوحيد العامر بأشجار الأرز، وأشجار السرو، وأشجار الصنوبر كان بعيدا جدا بالنسبة لهم، أى بالنسبة للفرنجة، وأنهم لا يستطيعون الاقتراب منه خشية هجمات الأعداء، أى أهالى البلاد. وبعد ثيودريك وفى القرن الخامس عشر للميلاد يشير أحد حجاج بيت المقدس وهو فيلكس فابرى إلى صعوبة الحصول على الحطب لاستعماله فى مطابخ المنازل.

وفى فترة الحكم الصليبى أيضا شهدت المناطق المتاخمة لمدينة بيت المقدس حركة استيطان مكثف نوعا ما، فى المناطق الصالحة للزراعة، بجانب الاستيطان فى بعض المدن وبعض القرى، مثل بيت لحم جنوبا، وألبيرة "المحمودية الصغرى" شمالا، إلى جانب عدد من القرى الصغيرة والمزارع، وبعض المناطق الزراعية التى كانت بمثابة مراكز استيطانية ريفية، مثل بلدة الرامة، وجب يوسف، وعين الكارم، والنبى صموئيل إلى الشمال، والقبيبية "المحمودية الكبرى" وخربة ميتزا، ولفتا، وخربة لوزا، وسلوان إلى الغرب، وبيت أونية، وبيسان، وأريحا، وبيت جبريل، وبيت الأحزان إلى الشرق، وأبى غوش ؛ وحيث أقيمت كثير من الأديرة فى عين كارم ومنطقة النبى صموئيل،

وكثير من هذه المنشآت كانت ملكية لأصحابها من سكان المدينة، والقليل منها كان ملكا للأفراد، أما الغالبية فكانت تابعة للملك، أو الكنائس، وفرق الرهبان العسكرية. وقام معظم المستوطنين بإمداد المدينة بالمنتجات الزراعية، وقطعان الماشية، والطيور الداجنة، والحبوب، والفاكهة، والخضراوات، والمنتجات المصنعة، مثل منتجات الألبان، والنبيذ، والزيت(٦). كما قام بعضهم بإمداد المدينة باحتياجاتها من الأوانى الفخارية المختلفة، وبعض المنتجات التى تم تصنيعها فى الريف.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الأول

(١) تتواجد حاليا كميات كبيرة من الحجر الجيرى شديد الصلابة، يعرف باسم الحجر المزى اليهودى، والذى يتم الحصول عليه من أعماق أكثر، وهو شائع الاستعمال فى كثير من المبانى.

(٢) إن أسوار مدينة بيت المقدس والتى يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر الميلادى مشيدة من كثير من الحجارة ترجع إلى فترات زمنية متعددة، ولعل من أكثرها الحجر الملكى، وتوجد عليه علامات حجرية ترجع إلى أيام الفرنجة حيث أعيد استخدام هذا النوع من الحجارة مرة ثانية فى أسوار المدينة وبها القطع المائل الذى يميز الحجارة الفرنجية عن غيرها.

(٣) كتب الرحالة ناصرو خسرو فى حوالى منتصف القرن الحادى عشر للميلاد ما يفيد وجود أشجار التين، وأشجار الزيتون فى ضواحى المدينة المقدسة، إلا أنه لم يذكر شيئا عن الأشجار التى استخدمت فى آلات الحصار حيث يقول: "بالقرب من المدينة لا توجد أشجار، حيث أن المدينة شيدت فوق التلال."، ناصرو خسرو: كتاب سفرنامه، ترجمة تاكستون، نيويورك ١٩٨٦م، ص٢٠٥ .

(٤) يصف لنا وليم الصورى عمليات قطع الأشجار على بعد سبعة أميال من المدينة لعمل المنجنيقات، والكباش، على الرغم من أن تلك الأشجار لم تكن صالحة لمثل هذه الاستخدامات، كما لاحظ الجهود التى بذلها الفرنج فى جمع أغصان الأشجار لتغطية آلات الحصار. وليم الصورى، ج٨، ص٦ .

(٥) هناك العديد من الدراسات عن المؤسسات الصليبية والاستيطان الصليبى قد نشرت حديثا. من بين هذه الدراسات: الدراسة التى قام بها باجاتى عن القبيبة، والتى ترجمها إلى الانجليزية بونانو، القدس، ١٩٩٣م، والدراسة التى قدمها نفس مؤلفنا بعنوان: "قرية صليبية تم اكتشافها حديثا، فى راموت آللون، القدس". ودراسة عن الحملة الصليبية، وبعض المعلومات عن المجتمع الصليبى والشرق اللاتينى، قام بها كليرمونت فيراند، ٢٢-٢٥ يونيو. ١٩٩٥م، باريس ١٩٩٦م، ص٥٨٣-٩٤ ؛ والدراسة التى قام بها رونى إلين بلوم، الاستيطان الصليبى فى مملكة بيت المقدس الصليبية، كمبردج، ١٩٩٨م؛ ودينيس برنجل "المحمورية الكبرى (البيرة)": "علم الآثار الصليبى فى مدن فلسطين". فى مجموعة إدبورى، الحروب الصليبية والاستيطان، بحث مقدم فى المؤتمر الأول عن المجتمع لدراسة الحروب الصليبية والاستيطان، والشرق اللاتينى، مقدم إلى ر. س. سميل، كارديف، ١٩٨٥م، الصفحات ١٤٧-٦٨؛ دينيس برنجل، "قريتان من العصور الوسطى شمالى بيت المقدس. الحفريات الأثرية فى الجب والرام". مجلة المشرق، العدد ١٥، ١٩٨٣م، الصفحات ١٤١-٧٧؛ دينيس برنجل، "أكوا بيلا: تفسير حول حوش فى بناء صليبى، فى قرون حطين، المحرر ب. زد كيدار، القدس، ١٩٩٢م، ص١٤٧-٦٧ .

(٦) كشوف أثرية فى قرى القبيبة والكروم (انظر الحاشية السابقة عند باحاتى وبوس)، ومن المحتمل أنهما تم الحديث عنهما فى مجموعة قوانين كنيسة القبر المقدس، عن معاصر النبيذ والزبيب التى تم الكشف عنها.

* * *

الفصل الثانى

أضواء على فترة الحروب الصليبية

سبق أن رأينا الغزو الفرنجى لبيت المقدس عام ١٠٩٩، وما نجم عنه من مذبحة مروعة، وطرد من نجا من سكانها من تلك المذبحة، مما أثر فى البنية السكانية للمدينة، وحولها إلى مدينة شبه خالية من السكان. ومع هذا فلم تمض سوى عقود قليلة من السنوات حتى تم إعمارها، وبقيت مزدهرة فى أغلب سنوات القرن الثانى عشر للميلاد، كما غدت العاصمة الإدارية، وبؤرة يتجمع فيها العديد من الحجاج المسيحيين. وفى ظل الحكم الفرنجى أصبحت بيت المقدس ذات شهرة عالمية أكثر مما كانت عليه تحت الحكم الإسلامى. وأقيمت فيها كثير من المنشآت ذات الطراز الرومانسكى وسط العمائر ذات الطابع الشرقى المحلى، وزارها الحجاج المسيحيون من كل بلد من أنحاء العالم المسيحى، وكنت تراهم يختلطون بالسكان المسيحيين القاطنين فيها. وعندما استعادت مكانتها بعد عدة قرون كعاصمة، فإنها استفادت كثيرا من المنشآت التى كانت قد غابت عنها. فلقد أصبحت مرة أخرى عاصمة مملكة بيت المقدس اللاتينية، تضم قصرا ملكيا، تم اختيار موقعه بعد فحص وتمحيص فى موقع قصر هادريان إلى الجنوب من قلعة المدينة، وغدا لها دار ضرب لسك العملة، وخزانة ملكية، وبعض المنشآت الحكومية الأخرى. وكانت هذه فرصة للتحرر شيئا فشيئا مما كانت عليه فى ظل الحكم الإسلامى لها. وخصوصا بعد خضوعها للأمويين، وتبعيتها للعاصمة المؤقتة فى مدينة الرملة.

بيت المقدس عشية الحروب الصليبية

لقد مر على بيت المقدس أكثر من أربعة قرون ونصف منذ خضوعها للحكم الإسلامي، وبعد حصار استمر أربعة وعشرين يوما عام ٦١٤م استسلمت المدينة البيزنطية للغزو الفارسي لها، وعلى الرغم من أن المدينة قد تم استعادتها بعد أربعة عشر عاما على يد الإمبراطور هرقل، فإن الغزو الفارسي لها عام ٦١٤م كان مؤذنا (كان بمثابة إعلان) عن نهاية بيت المقدس المسيحية إذ سقطت المدينة في أيدي الجيش المسلم بعد عقدين من الزمان، في عهد الخليفة عمر . وخلال الأربعة قرون والنصف التالية، توالى على حكمها بعض الحكام العسكريين المسلمين، والذين كانوا يمثلون حكما أجنبيا بالنسبة لها.

حكمها الأمويون من دمشق حتى عام ٧٥٠م، ثم العباسيون في بغداد حتى عام ٨٧٨م، فالطولونيون في مصر منذ ٨٦٨م إلى عام ٩٠٥م، ثم الخلفاء الفاطميون منذ عام ٩٦٩م وحتى عام ١٠٧٣م، إلا أنه في شهر يونيو من تلك السنة قام الأتراك السلاجقة بالاستيلاء عليها . وفي عام ١٠٩٨م، أي قبل وصول الحملة الصليبية بعام واحد، عادت بيت المقدس إلى الحكم الفاطمي مرة أخرى.

وبوجه عام، فإن تخطيط المدينة الطبيعي تحت الحكم الإسلامي اختلف بعض الشيء عنه أيام كانت تحت الحكم البيزنطي. والتغير الرئيسي الوحيد كان في القرن الحادي عشر الميلادي، عندما تمت إعادة بناء السور الجنوبي لها، والذي جعل من مدينة داود وجبل صهيون خارج الأسوار، كما تم زحزحة السور الشمالي الغربي إلى مسافة أبعد في اتجاه الغرب. وعلى أية حال، فإن التغيرات الرئيسية التي تمت كانت في العمارة المدنية حيث تم تشييد العديد من المنشآت العامة الجديدة. وأهم هذه المنشآت كانت قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، والقصور الأموية إلى الجنوب من الحرم الشريف .

وفى فترة الحكم الفاطمى اقترب عدد سكان بيت المقدس من العشرين ألفا[١]. منهم عدة طوائف من اليهود، والعديد من الجماعات المسيحية الشرقية، والمسلمين. وبعد عدة مئات من السنين من الفتح الإسلامى، فإن المسلمين ربما كانوا لا يزالون يشكلون أقلية، كما أنهم – وعلى ما يبدو– لم تكن لهم السيطرة التامة على مقاليد الأمور فى المدينة. واستمر تدفق الحجاج اليهود والمسيحيين، على الرغم من الصعوبات والأخطار التى واجهوها[٢].

ويصف لنا الرحالة الفارسى ناصرو خسرو بيت المقدس بأنها مدينة كبيرة، محاطة بسور حصين من الحجر والجص وعليها بوابات حديدية، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة. وقد سدوا الجهات الجبلية والمرتفعات، وجعلوها مسطحة بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار"[٣]. كما أن الغزو السلجوقى للمدينة فى الفترة من ١٠٧٣ وحتى ١٠٩٨م لم يترك أى دليل على وجود منشآت مهمة لهم فى تلك الفترة. وهناك دليل على حدوث نهضة ثقافية فى المدينة بعد فترة ركود فكرى فى ظل الحكم الفاطمى. وفى شهر أغسطس ١٠٩٨م، فإن الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى استعاد مدينة بيت المقدس – استعدادا لوصول الجيوش الصليبية المتوقع، والتى كانت تقترب من أنطاكية فى تلك الآونة، كما قام الحاكم الفاطمى افتخار الدولة بحشد جيش كبير مدرب، وزود الحامية بعدد من خيرة الفرسان المصريين بلغ ٤٠٠ فارس. واستعد المسلمون لوصول الصليبيين بتقوية أسوار المدينة، وعلى وجه خاص من الجهة الشمالية حيث قاموا بتقوية بعض الحصون وبناء بعض الحصون الأمامية، كما حفروا خندقا، وفى جبل صهيون حفروا خندقا آخر، وقاموا بتقوية السور الأمامى، وتحصن سكان القرى المحيطة فى داخل الأسوار، فى حين تم استبعاد أكبر عدد من السكان المسيحيين من المدينة إلى القرى المجاورة. كنوع من الوقاية من حدوث خديعة من جانب المسيحيين والذين كان يحدوهم الأمل فى عودة الحكم المسيحى[٤].

الغزو والاحتلال فى القرن الثانى عشر الميلادى

فى اليوم السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥م، وفى مدينة كليرمونت فى وسط فرنسا وجه البابا إيربان الثانى الدعوة إلى أبناء الغرب المسيحى بتجهيز جيش لتحرير القبر المقدس من أيدى المسلمين(٥)، وفى العام التالى تم إعداد حملة صليبية خرجت متوجهة إلى الشرق وفى صباح السابع من يوليو عام ١٠٩٩م وصل جيش الحملة الصليبية الأولى إلى التل المسمى Montjoie ومن هناك أمكنهم رؤية بيت المقدس عن بعد . ومن المحتمل أن يكون ذلك المكان هو تل النبى صموئيل -أحد أعلى التلال فى سلسلة جبال الكرمل وهو المكان الذى دفن فيه النبى صموئيل- الواقع على بعد ٥ر٧ كيلو متر إلى الشمال الغربى من بيت المقدس. وفى غسق الليل اتخذ الصليبيون معسكرهم خارج أسوار المدينة. وبدأ حصار المدينة الذى استمر ستة أسابيع ؛ وأخذت الحملة الصليبية الأولى تجنى ثمار ما عانته طوال ثلاث سنوات.

ووفقا لما رواه المؤرخ الصليبى وليم الصورى، أسقف مدينة صور، فإن الجيش الفرنجى كان يتكون من ١٥٠٠ من الفرسان، و ٢٠٠٠ من الجنود المشاة، و ١٨٥٠٠ من الأتباع. وبالنسبة للجانب الإسلامى فإنه تم حشد ٤٠ ألفا من الجنود جيدى التسليح، حشدهم افتخار الدولة فى مركز قيادته فى القلعة (برج داود) الواقعة إلى جوار البوابة الغربية، وتم حشد السكان ومعظمهم من المسلمين واليهود على امتداد أسوار المدينة.

وتختلف الروايات فيما يتعلق بانتشار الجيش الصليبى لتشكيل جبهة فى السابع من يونيو. فبالنسبة لوليم الصورى، فإن هذه الجبهة تم تركيزها إلى الشمال الغربى من المدينة، من البوابة المعروفة اليوم باسم بوابة القديس ستيفان، التى تواجه الشمال، إلى البوابة الواقعة أسفل برج داود فى الجانب الغربى للمدينة وكان الأمير ريموند كونت تولوز أول من اتخذ موقعا مواجها للسور، فيما بين القلعة والركن الشمالى الغربى ؛ فى حين اتخذ الأمير تانكرد النورمانى من إيطاليا موقعه فى مواجهة قصر

الجالود (والذى يعرف أحيانا بالبرج رباعى الزوايا) والذى أطلق عليه مؤخرا اسم برج تانكرد) فى الركن الشمالى الغربى للمدينة، وعلى بعد منه إلى الشرق بامتداد السور الشمالى كانت قوات روبرت النورماندى، وروبرت أمير الفلاندرز، وفى وسط السور الشمالى بالقرب من بوابة دمشق كان يعسكر جودفرى البوايونى، بينما يذكر ألبرت من مدينة آخن (إيكس) أن موقع جودفرى كان فى مواجهة برج داود إلى الغرب، وعلى يساره تانكرد بقواته، وريموند التولوزى إلى يمينه، وأن روبرت أمير الفلاندرز وهيو أمير سانت بول فى الخلف، وأن روبرت النورماندى ومعه كانون أمير بريتانى عند بوابة دمشق.

وكان أول عمل حقيقى قام به الصليبيون هو شن غارة غير منظمة وهجوم أحمق على أسوار المدينة فى الثالث عشر من شهر يونيو. هذا الهجوم ربما قد أملته حالة قوات الفرنج المعنوية أكثر من الاعتبارات الحربية، لذا فقد كان مقدرا له الفشل منذ البداية. ففى الفن الحربى للعصور الوسطى فإن أى قلعة أو مدينة مسورة لا يمكن الاستيلاء عليها دون تجهيز المقادير الكافية من أخشاب الأشجار اللازمة لعمل السلالم وآلات الحصار اللازمة. وقد سبق لنا أن لاحظنا ومنذ وقت مبكر أن الجيوش الصليبية لم يكن لديها غالبا أى شيء منها. ومن المحتمل أن المسلمين كانوا قد أبادوا كل الغابات حول بيت المقدس قبل وصول الفرنج. وكتب فولشر الشارترى أن الأمراء قد أمروا بإعداد السلالم الخشبية، ولكن الشكوى الواضحة أن عدد هذه السلالم كان قليلا جدا، مما أدى إلى فشل الحصار إلى حين. بينما يذكر المؤرخ المجهول صاحب كتاب «الجستا» أو أعمال الفرنجة أنه لو كانت سلالم تسلق الجدران مكتملة لسقطت المدينة، كما أنه ذكر استخدام سلم واحد، ولاحظ أنه بعد اقتحام الفرنج للحصن الأمامى لسور المدينة، فإنهم وضعوا أحد الأبراج فى مواجهة السور الضخم للمدينة.

ولكن الأبراج المتحركة وحدها لم تكن كافية وبشكل واضح لشن هجوم على مدينة قوية التحصين على الرغم من أنه من غير المتصور أو المتوقع، أن الحافز لهذا الهجوم

المباشر لم يكن من الصعب فهمه فى ضوء التضاريس الصعبة للمنطقة، والتى كانت عاملا فى التقليل من احتمال أن تكون الأسوار منيعة تماما لمواجهة أى حصار إذ كان من الواضح أن الفاطميين كانوا مستعدين للرد على تقدم الصليبيين فى ممتلكاتهم وعلى هجومهم على بيت المقدس. كما تحتم على الصليبيين أن يستولوا على المدينة بأسرع وقت ممكن، وأن يجعلوا من أسوارها فاصلا بينهم وبين الجيش الفاطمى.

ونجم عن فشل الهجوم المباشر والمتوقع أن اقترب الصليبيون أكثر فأكثر من إيجاد حل لمشكلاتهم الحربية. ومع إرهاق وقلق الجيش الصليبى وشدة الحرارة، ونقص الإمدادات، والتهديد الواضح والآتى من مصر، فإن حصارا طويلا لم يكن شيئا مرغوبا فيه حقيقة. ولأن عامل الوقت كان مهما جدا، فإن قادة الصليبيين أخذوا اتجاهين، فمن ناحية كان عليهم أن يرفعوا الروح المعنوية للجنود، عن طريق إقامة القداسات، والصوم وإقامة الصلوات، ومن ناحية أخرى، فقد بذلوا كل جهد ممكن للحصول على الأخشاب اللازمة لبناء أدوات الحصار، وأن يستغلوا كل ما يجدونه من أخشاب فى بنائها(٦). ووفقا لما رواه فولشر الشارترى فقد تم إعداد قاذفات السهام وكذلك الكباش المتحركة والمغطاة بالجلود التى تحميها من نيران الأعداء. كما تم تشييد برج من قطع الخشب الصغيرة لعدم وجود قطع الخشب الكبيرة فى هذه المناطق. وتم إرسال بعض الأشخاص من غير المقاتلين إلى بيت لحم لجمع فروع الأشجار والأوراق لعمل درع واق لآلات الحصار. كما واصل الفرنجة بحثهم عن الأشجار فى أماكن أبعد من ذلك.

وفى يوم الثامن من يوليو قام الأساقفة والقساوسة بقيادة تطواف حول أسوار المدينة تمجيدا للرب، وهم حفاة يحملون الصلبان، وبعض الذخائر المقدسة، إلى أن وصلوا إلى جبل الزيتون وهناك خطب فيهم الأسقف أرنولف من مدينة **Choques** خطبة بليغة، ألهب فيها الحماس الدينى لدى المحاربين . وأخيرا نجح الفرنجة فى بحثهم عن الأشجار، فقد عثروا على غابة تبعد خمسين كيلو مترا، بالقرب من نابلس. ووفقا لما

رواه ألبرت من مدينة إيكس (آخن) فإن أحد المسيحيين المحليين أخبر الفرنجة بوجود غابة على بعد أربعة أميال في اتجاه الشرق[٧]. ويذكر وليم الصوري أنه تم العثور على غابة تبعد ستة أو سبعة أميال، وتم الاستفادة منها بعمل آلات الحصار مثل المنجنيقات، وقاذفات السهام، والكباش. بينما يذكر رالف من مدينة كين أن تانكرد الذي كان يعاني من مرض الدوسنتريا، وأثناء بحثه عن مكان منعزل لقضاء حاجته، في إحدى جولاته للبحث عن الأخشاب، عثر على كهف به حوالي ٤٠٠ حزمة من فروع الأشجار، وقد أخفاها الفاطميون هناك أثناء حصارهم للأتراك السلاجقة. وفي نفس التوقيت وصلت مجموعة من سفن الجنوية إلى يافا يوم ١٧ يونيو، وفي الوقت نفسه ظهر أسطول فاطمي كبير أمام يافا. وعلى الرغم من أن الجنوية قد غرقت بعض سفنهم على يد المسلمين، إلا أنهم قاموا بتفكيكها وانسحبوا إلى القلعة. ثم قاموا بإحضار أخشاب تلك السفن المفككة إلى ضواحي بيت المقدس، حيث استخدمت في بناء كثير من آلات الحصار.

وقد جاء في كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» أنه عندما سمع المدافعون ببناء الفرنجة لآلات الحصار، فكان رد فعلهم هو العمل على تقوية استحكامات المدينة وزيادة ارتفاع دفاعاتهم. أما عن آلات حصار الفرنجة فقد كانت عبارة عن ثلاثة أبراج ضخمة، تم وضعها على جبل صهيون وفي مكانين آخرين عند السور الشمالي. وكانت هذه هي الأجزاء التي تحتاج إلى تحصين حيث سمحت الطبيعة الطبوغرافية باستخدام أبراج الحصار، والتي تحتاج إلى أرض مسطحة نوعا ما لإقامتها عليها. كما يروي كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس أن العمل في ردم الخندق حول المدينة وإحضار آلات الحصار استغرق ثلاثة أيام وثلاثة ليال. وتم تدمير برجين تدميرا جزئيا في المناوشات بين الطرفين، أما البرج الثالث، فقد تم نقله بناء على توجيهات من الأمير جودفرى البوايوني إلى مقدمة السور الأمامي شرق بوابة القديس ستيفان أي بوابة دمشق. وفي يوم الجمعة ١٥ يوليو تم استخدام أحد الكباش لهدم الحصن

الأمامى ووفقا لما يرويه وليم الصورى، فإن المقاتلين المكلفين بآلات الحصار أشعلوا النيران فى أجولة مملوءة بالحطب والقطن، انتشرت منها سحابة من الدخان الأسود الكثيف أجبر المدافعين على ترك أماكنهم. وفى الساعة العاشرة فإن أخوين من الفلمنكيين، وهما ليثولد وجيلبرت من مدينة تورناى، تسلقا السور وتبعهما الدوق جودفرى، واقتحموا المدينة. وقد قام الفرنجة فيما بعد بوضع صليب على هذا الموضع من السور تخليدا لذلك الحدث.ثم قام جودفرى بإرسال عدد من الفرسان لفتح البوابة الشمالية ودخل منها كل جيشه(٨).

أما فى الجنوب، عند جبل صهيون، فإن رجال ريموند التولوزى استخدموا السلالم المتحركة والحبال فى تسلق السور واقتحموا المدينة من هذا الجانب. وهرب المدافعون المسلمون إلى القلعة، وبعد عدة مفاوضات سلم القائد الفاطمى القلعة للأمير ريموند، على أن يسمح للاجئين إلى القلعة من المسلمين واليهود بالخروج منها سالمين إلى مدينة عسقلان الساحلية.

وعلى أية حال فإن مصير معظم سكان بيت المقدس كان سيئا للغاية. ذلك أن الحملة الصليبية الأولى قد انتهت بذبح الجماعات اليهودية عبر بلاد الراين عام ١٠٩٦م، والمسلمين فى بلدة معرة النعمان بالقرب من أنطاكية فى يناير ١٠٩٩م، وبالمذبحة التى فاقتهما وقام بها الصليبيون فى بيت المقدس خلال الأيام الثلاثة الأولى لاستيلائهم عليها . وهناك عدد من الأوصاف التى تصور تلك المذبحة : فإن عددا من السكان لجأوا إلى سطح المسجد الأقصى، بعد أن نالوا وعدا من تانكرد بحمايتهم، وتم تسليمهم أعلام كل من تانكرد وجاستون بيرن كدليل على ذلك، إلا أنهم ذبحوا جميعا بلا رحمة، والعبارات التى تشدق بها ريموند الأجويليرى تؤكد ذلك منها : "إنه لمنظر رائع أن بعض رجالنا قطع رؤوس أعدائهم، والبعض الآخر أطلق عليهم وابلا من السهام لدرجة أنهم كانوا يتساقطون من أعلى الأبراج، والبعض الآخر مزقوهم كل ممزق وألقوا بهم فى النيران. وكنت ترى أكواما مكدسة من الرؤوس، والأقدام فى

شوارع المدينة كما أن الأسرى المسلمين واليهود والذين نجوا بشكل أو بآخر من المذبحة تم استخدامهم لنقل جثث الموتى" . والمصادر المعاصرة ترسم لك صورة مرعبة حافلة بالذكريات الوحشية والتى لا مثيل لها حتى عصرنا الحالى(٩). ومن المصادر اللاتينية كتاب "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس" الذى يروى أن القادة الصليبيين أصدروا أوامرهم بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم، ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم، فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم أمام البوابات، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا. أما ريموند الأجويليرى فإنه يقول : لقد كان من الصعب على الإنسان منا أن يشق طريقة وسط الأكوام المكدسة من أجسام الرجال والخيول. وفى أروقة معبد سليمان وشرفاته كان فرساننا يخوضون فى الدماء التى وصلت ليس فحسب إلى أعلى ركبة كل واحد منهم، بل إلى أسفل سرج فرسه. لدرجة أن المدينة كانت ممتلئة بجثث الموتى ودمائهم. وقد كان عدد الجثث هائلا، لدرجة أن فولشر الشارترى الذى زار المدينة بعد المذبحة بخمسة أشهر يقول : إن الرائحة الكريهة كانت لا تزال منتشرة فى كل مكان(١٠) : يا لها من رائحة نتنة حول أسوار المدينة، سواء فى الداخل أو الخارج، كنتيجة للجثث المتعفنة للشرقيين الذين ذبحهم رفاقنا وقت استيلائهم على المدينة، ترى جثثهم ملقاة حيث لقوا حتفهم.

هذه الصورة البشعة، والروايات المرعبة للأحداث يجب أن ننظر إليها بعين الاعتبار لما تمثله من واقع أليم. ومما لا شك فيه أن المصادر اللاتينية قد بالغت وبلا شك فى حجم المذبحة، وربما كان الدافع وراء ذلك هو دعوة البابوية بتدمير الأعداء الوثنيين. أما المصادر الإسلامية فقد بالغت هى الأخرى فى عدد القتلى لنيل شيء من التعاطف وللتأكيد على وحشية وبربرية الصليبيين. وذلك أن وصف ابن الأثير يصور لنا مدى خروج الأحداث عن الأوضاع المألوفة ، فقد كتب يقول : ففى المسجد الأقصى فإن الفرنجة ذبحوا أكثر من سبعين ألفا من المسلمين. وهذا التقدير يفوق أكثر التقديرات

عن عدد سكان بيت المقدس[11] وقت الحصار. بينما يذكر فولشر الشارترى أن عدد القتلى حوالى عشرة آلاف شخص فى المسجد الأقصى (معبد سليمان)، وذكر وليم الصورى نفس العدد، وأضاف أن عدد القتلى فى بقية أنحاء المدينة ليس أقل من عشرة آلاف شخص. ومع هذا فإن المذبحة كانت على نطاق كبير. أما بنيامين كيدر فقد قام حديثا بتقديم افتراض معقول[12]، وهو أن الروايات المختلفة والسريعة عن المذبحة ربما ترجع إلى نظرة أصحاب الروايات الدينية أكثر منها إلى وصف الوقائع التاريخية وصفا مبالغا غير دقيق، وأن ما حدث من وجهة نظر الفرنج هو عملية "التعميد عن طريق النار" وهو ما سوف تقوم عليه مملكة السماء[13].

النهضة

ربما كان المصطلح الحديث "التصفية العرقية" هو أنسب وصف يمكن أن توصف به هذه المذبحة التى جرت على سكان القدس. ومع هذا فإن الفرنجة لم يقوموا فى الحال بإحلال سكان من غير المسيحيين فى المدينة بديلا عن سكانها. ذلك لأن غالبية الصليبيين غادروا المدينة فى أعقاب استيلائهم عليها وتركت المدينة شبه خالية، كما أن نقص السكان بها قد جعلها عرضة لأى هجوم متوقع. ووفقا لما ذكره وليم الصورى، فإن أقل من ربع المدينة كان مأهولا بالسكان، كما عانت تحصيناتها من ندرة من يقومون بحراستها وكذلك بواباتها. وفى وصفه لأحوال بيت المقدس والمدن الأخرى التى تم للفرنجة الاستيلاء عليها فى تلك الفترة فإنه يقول : وحتى فى داخل أسوار المدينة، وفى المنازل من النادر أن تجد مكانا يستطيع أن يستريح فيه المرء فى أمان، ذلك لأن السكان كانوا قليلين ومتفرقين هنا وهناك، وأن الدمار الذى لحق بالأسوار جعل كل مكان فى المدينة معرضا لهجوم الأعداء. فقد هاجم اللصوص وقطاع الطرق جميع طرقاتها ليلا، وكثيراً ما اقتحموا المدينة شبه المهجورة من السكان، والذين كانوا مبعثرين فى عدة أماكن، هؤلاء السكان الجدد كانوا قد استحوذا على كثير من

المساكن عنوة، مما ساعد على انتشار كثير من أعمال النهب والسلب. وأخيراً قام كثير منهم بترك ما استولوا عليه من مساكن وعادوا إلى أوطانهم(١٤).

إن قرار منع من نجوا من الموت من مسلمين ويهود من العودة إلى بيت المقدس لم يكن مجديا لعدة أسباب : منها خلو المدينة من السكان، مما دفع الملك بلدوين الأول عام ١١١٥م أو ١١١٦م إلى تشجيع المسيحيين الوطنيين(١٥) في منطقة ما وراء نهر الأردن إلى المجيء إلى بيت المقدس والإقامة بها، في الحي الشمالي الشرقي للمدينة والذي كان قديماً حيا لليهود وظل يحمل اسمهم في القرن الثاني عشر(*).

وهناك سبب آخر غير إحلال سكان جدد في المدينة، وهو أنه – ولمنع السكان المقيمين بها من الرحيل عنها – تم وضع القانون الهادف لإتاحة الفرصة للتملك وحيازة الأرض. ووفقا لهذا القانون، فإن أي فرد في حيازته عقار أو أرض في المدينة ويغيب عنها لمدة سنة ويوم تتم مصادرتها ويفقد حقه في التملك لصالح من يحل محله فيها بالإضافة إلى ما اتخذه بلدوين الثاني عام ١١٢٠م من إجراء كان كفيلا بجعل المدينة مركز جذب للتجار، وهو الإعفاء من الضرائب على بعض السلع التي يتم جلبها إلى المدينة وخصوصا الحبوب، والخضروات، والبقول، والعدس، والبازلاء . هذه الضرائب كان يتم تحصيلها عند قلعة المدينة. وكان هدف بلدوين الرئيسي من هذا الإجراء، أن يجعل حياة المواطنين أكثر سهولة بتخفيض أسعار الأطعمة الأساسية داخل المدينة.

ومما لا شك فيه أن هذه الفترة كانت من الأوقات العصيبة بالنسبة للفرنجة. ذلك أن العرب قد نشطوا نشاطا كبيرا في الضغط على الصليبيين بكثرة الإغارات على زوار المدينة وهم في طريقهم منها وإليها، فقد حدث في العام السابق أن مجموعة من

(*) من المعروف أن الصليبيين قد قضوا على الجماعة اليهودية في القدس ولم ينسوا لهم موقفهم العدائي من المسيح عليه السلام، فكيف سمحوا لهم بالإقامة في حي لهم، وهذا مخالف تماماً لما رواه الرحالة اليهود أنفسهم الذين زاروا المدينة في تلك الفترة ولم يجدوا بها سوى يهوديين فقط.

الحجاج المسيحيين تقدر بحوالى ٧٠٠ حاج، خرجوا من المدينة فى طريقهم لزيارة المكان الذى تم فيه تعميد المسيح فى نهر الأردن ووقعوا فى فخ تم نصبه لهم، قتل فيه ثلاثمائة، وتم أسر ستين ؛ مما تطلب إجراءات إضافية ضرورية لتحقيق الأمن إذا كان مقدرا للحكم الصليبى الاستمرار. وفى هذا المجال تم اتخاذ عدة خطوات، أولها تأسيس أولى جماعات الرهبان العسكرية وهى الداوية أو فرسان المعبد، والذين كان عليهم أن يؤدوا دورا حيويا لتحقيق الأمن للمملكة، والسياحة بداخلها. والخطوة التالية والتى حدثت نتيجة لتأسيس جماعة الداوية، وما تلاها من تأسيس جماعة الرهبان الفرسان العسكرية المعروفة باسم الاسبتارية أو فرسان القديس يوحنا – فهى تطوير وتوسيع حركة الحج المسيحى. ذلك لأن الحج المسيحى كان أحد الأمور التى منحت المدينة حياة جديدة، وهذا لا يقل بحال من الأحوال عن النشاط التجارى للإيطاليين فى المدن الساحلية التى خضعت للحكم الصليبى ؛ لذا فقد تم تخصيص الكثير من الكنائس والمنشآت الأخرى، وتشجيع أكبر عدد من الحجاج للمجىء ؛ مما ساعد على ازدياد عدد سكان المدينة وازدهار تجارتها.

كما أن الدور الذى لعبته فرق الرهبان العسكرية لازدهار المدينة وبعثها من جديد كان وراء ما حققته فرق الرهبان هذه من الأمن والأمان للحجاج المسيحيين، بل لقد كان دورًا مؤثرا فى تحقيق الثروة والرخاء للمدينة التى كانت فى أمس الحاجة لهما كعاصمة . ولم تكد فرق الرهبان هذه تظهر على الساحة حتى تم لها الانتشار ليس فى بيت المقدس والشرق اللاتينى فحسب، بل وفى الغرب الأوربى. ففى القرن الثالث عشر الميلادى كان الاسبتارية يمتلكون ١٩٠٠٠ قرية فى الغرب الأوربى، يصل ثلث دخلها السنوى إلى بيت المقدس.

كذلك تم تنفيذ عدد من مشاريع البناء فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، فقد تمت إعادة ترميم سور المدينة، وإنشاء عدد من الأسواق . على أن أهم مشروع للبناء تم تنفيذه فى النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلاد هو إعادة بناء كنيسة القبر المقدس ؛ إلى جانب تشييد عدد من الكنائس الأصغر لتحل محل تلك التى تم تدميرها فترة الحكم الإسلامى، أو لمواجهة الاحتياجات المتزايدة للسكان المسيحيين.

وتم تشييد مقر لكل فرقة من فرق الرهبان الفرسان أو توسعته، كما ارتفع بناء المستشفى الكبير إلى الجنوب من كنيسة الضريح المقدس.

وفى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى تقريباً، استعادت بيت المقدس مكانتها، وربما توسعت وازداد عدد سكانها عما كان عليه قبل فترة الحكم الصليبى لها. واستمرت المدينة فى تطورها فى النصف الثانى من ذلك القرن(١٦). وتمت تقوية أسوارها، كما تمت توسعة القلعة بشكل معقول، وتم بناء قصر ملكى جديد، كذلك تم تحسين شبكة المياه والصرف الصحى بها كثيرا(١٧)، وبدأت مملكة بيت المقدس تدخل عصرا سياسيا جديدا منذ عام ١١٧٤م مع بداية حكم الملك الشاب بلدوين الرابع، والذى كان يعانى من مرض الجذام، وفى عام ١١٨٥م أصبح عاجزاً عن إدارة شئون المملكة بسبب شدة المرض.

وتم تسليم الحكم إلى بلدوين الخامس وهو طفل فى عمر الثامنة، وأصبح ريموند أمير طرابلس وصيا على العرش ويقوم بإدارة شئون المملكة، وبعد سنة توفى بلدوين الخامس، وجاء إلى العرش جاى لوزجنان زوج سبيلا أخت بلدوين الرابع. وأدت المنافسة بين جاى وريموند أمير طرابلس إلى إضعاف المملكة فى الوقت الحرج الذى كان عليها أن تواجه الخطر الإسلامى والجبهة الإسلامية المتحدة التى أقامها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعندما التقى الفرنجة بصلاح الدين عند حطين عام ١١٨٧م، فقد قُتل معظم فرسان مملكة بيت المقدس، أو وقعوا فى الأسر. وكانت النتيجة المحتومة السقوط شبه الكامل لمملكة بيت المقدس خلال عدة شهور.

سقوط بيت المقدس الصليبية

بعد استيلائه على عسقلان فى الخامس من سبتمبر، توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس. وفى منتصف سبتمبر كان قد استرد الأديرة والقرى التى فى ضواحى

المدينة، ومنها دير النبى صموئيل، والذى كان رهبانه يسابقون الزمن فى تكملة تحصيناته وحفر الخندق المائى حوله. ووصل صلاح الدين بنفسه إلى بيت المقدس يوم الأحد ٢٠ من سبتمبر. وفى ذلك الحين كان سكان المدينة قد تزايدوا إلى حد ما، بسبب لجوء كثير من الفرنجة إليها من عسقلان، والداروم، وغزة، والرملة، وبعض المدن والقرى الأخرى(١٨). وتم إحضار كثير من الإمدادات الضرورية من الريف المجاور استعداداً للحصار المتوقع.

وبعد هزيمة الفرنجة فى حطين، فإن باليان إبلين حاكم نابلس، تسلم تصريحا بالمجىء إلى بيت المقدس لأخذ زوجته ماريا كومنين وأسرته. ولقد سمح له صلاح الدين بذلك شريطة ألا يبقى أكثر من ليلة واحدة وألا يرفع سلاحه للدفا ع عن المدينة. وعند وصوله إلى بيت المقدس تم ترحيب كبار رجال الدين به وكذلك بقية الفرنج بها لأنه القائد المأمول للدفا ع عن المدينة. وقام مقدمو الداوية والاسبتارية بإقناعه بضرورة قيادة الجيش الصليبى المدافع عن المدينة، ولعب البطريرك هرقل دورا كبيراً فى هذه المرحلة. وقد كان بليان فى موقف حرج بسبب قسمه لصلاح الدين والذى كان عليه ألا يحنث فيه. واختار موقفا يدعو للدهشة بأن أرسل لصلاح الدين أن يعفيه من قسمه، ووافق صلاح الدين بما عرف عنه من تسامح على ذلك. وسرعان ما أقام باليان حكومة إنقاذ، وكون جيشا على عدة مراحل، حيث لم يكن بالمدينة أحد من المقاتلين، ويصف لنا عماد الدين بن شداد بيت المقدس التى سرعان ما امتلأت بأكثر من ٦٠ ألفا من المقاتلين، بينما يذكر ابن الأثير أنهم كانوا سبعين ألفا من الفرسان والمشاة. ومن الواضح أن هذه الأرقام مبالغ فيها وكنوع من الدعاية المضادة، الهدف منها تمجيد إنجازات الجيش الأيوبى. ووفقا لتاريخ إرنول وبرنارد الخازن فإنه كان هناك فارسان فقط ممن هربوا من حطين. ولكى يتغلب باليان على الموقف العصيب فإنه قام بمنح لقب الفروسية لكل شباب النبلاء فوق سن الخامسة عشرة. كما ضم أربعين من أبناء الطبقة البورجوازية إلى سلك الفرسان. وتم نزع الذهب والفضة من سقف كنيسة القبر المقدس وتم سكهما نقودا لدفعها للفرسان الجدد(١٩).

والأحداث التى تلت ذلك تعكس لنا - إلى حد ما - ما حدث عند حصار جيوش الفرنجة لبيت المقدس عام ١٠٩٩م، فإن المدافعين حصلوا على المؤن الضرورية والإمدادات من المناطق الريفية المتاخمة، وأخذوا مواقعهم على الأسوار. وفى اليوم الحادى والعشرين من سبتمبر تقدم الجيش المحاصر للمدينة تجاه السور الشمالى الغربى، واستمر الهجوم عند ذلك الموقع عدة أيام، ولكن على غير طائل، إلا أنه يبدو أن الفرنجة قد استعادوا زمام المبادرة التى افتقدوها فى حطين فى دفاعهم من خلف أسوار المدينة، وقد كان إحساسهم بأنهم يدافعون عن القبر المقدس من الأمور المهمة التى رفعت روحهم المعنوية.

ولقد كانت لمواجهة المسلمين عام ١٠٩٩م صداها مرة أخرى لرفع معنويات الصليبيين، ففى يوم ٢٦ سبتمبر اتجهت جموع الجيش الإسلامى إلى منطقة أبعد نحو الشرق فى مواجهة السور الشمالى فى المنطقة التى بها كنيسة القديسة مريم المجدلانية وفى مواجهة الجزء الشمالى من السور الشرقى للمدينة. والفارق الوحيد بين الحصارين، أن المسلمين فى حصارهم هذا كانوا مزودين بكل أسلحة وأدوات الحصار. فقد أقاموا المنجنيقات وبدأوا فى قذف الأسوار، كما قام أكثر من عشرة آلاف رام للسهام بإمطار المدافعين بسيل من سهامهم، مما كان سببا فى هروب المدافعين فوق الأسوار(٢٠)، وبكل المقاييس فقد أتاح ذلك الفرصة للمهاجمين المسلمين فى حراسة ما لا يقل عن عشرة آلاف من الفرسان المزودين بالرماح والأقواس باقتحام الخندق المائى، وبدءوا فى إشعال النار فى الأسوار حتى سقط جزء من السور الأمامى ؛ مما كان له أثره الواضح فى تحديد مصير بيت المقدس. فقد أدرك الصليبيون أنه لا أمل فى موقفهم هذا فطلبوا وقف القتال. لكن صلاح الدين رفض، وفى حالة من اليأس قام باليان بتوجيه تحذير لصلاح الدين بأن يوافق على وقف القتال. وحسبما يذكر ابن الأثير فإنه قال إن الفرنجة سوف يقتلون كل النساء والأطفال وكل الأسرى المسلمين لديهم والذين كان يتراوح عددهم بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف، ويحطمون كل شىء

فى المدينة وبخاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى، مما كان له أكبر الأثر فى أن يوافق صلاح الدين على أن يفتدى الفرنجة أنفسهم، وفى البداية طلب فدية مقدارها ١٠٠٠٠٠ دينار، وأخبره باليان أن ذلك المبلغ فى غير مقدوره أن يدفعه، وفى النهاية تم الاتفاق على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير، وتدفع المرأة خمسة دنانير، والطفل دينارا واحدا[٢١] ومنحهم فرصة أربعين يوما لدفع الفدية، وتم إعفاء الكثيرين منهم، والبعض الآخر أخذ أسيرا، ويذكر ابن الأثير أن عدد الفرنجة الذين غادروا المدينة كان ٦٠٠٠٠ وكان استسلام المدينة يوم الجمعة ٢ أكتوبر ١١٨٧م، وتم استكمال رحيل الفرنجة عنها فى ١٠ نوفمبر[٢٢]. وأقام المسلمون احتفالا باسترجاع المدينة بإقامة الصلوات فى المساجد التى تم استرجاعها. ووفقا لما رواه عماد الدين، فإن صلاح الدين أراد أن يطهر المدينة من نجس الفرنجة الملعونين، وأنه فعل ذلك بأن أعاد المساجد التى سبق أن حولها الفرنجة لكنائس إلى مساجد مرة أخرى عن طريق إزالة ما بها من أشياء كنسية، وإعادة ما أحدثوه فيها من مبان، بل وتحويل بعض المنشآت التى أقامها الفرنجة إلى مساجد ومدارس. كما نزع الصليب المموه بالذهب من فوق قبة الصخرة، وجرد كثيراً من المنشآت المسيحية فى المنطقة المحيطة بساحة المسجد الأقصى ومنها دير رهبان القديس أوغسطين إلى الشمال من مسجد قبة الصخرة. كما تم تنظيف مسجد قبة الصخرة وإزالة ما به من إضافات قام بها الفرنجة، بما فيها من رخام وضعه الفرنجة حول الصخرة لحمايتها من عبث الحجاج المسيحيين، وكذلك أعمال الفريسكو، والنقوش اللاتينية والمذبح، إلا أنه ترك الإطار الحديدى حول الصخرة، والشماعيد. ولحق الضرر بكثير من الكنائس داخل المدينة وخارجها[٢٣]، وبعضها تم تجريده من أبوابه، وأخشابه، والرخام المفروش فى أرضياته باستثناء كنيسة القبر المقدس التى لم يمسها أحد بسوء، وإن كانت هناك بعض الرغبة لدى أمراء جيشه لتحطيمها لوقف الحج المسيحى إليها، ولكن من الواضح أن هذه الرغبة لاقت معارضة شديدة، حيث قيل إن الخليفة عمر ابن الخطاب لم يفعل ذلك عندما فتح بيت المقدس فى القرن السابع الميلادى. وبدلا من تدمير هذه الكنيسة فقد تم غلقها فى وجه عامة الناس، وسمح

للزوار بزيارتها مقابل دفع عشرة دنانير. وفى يوم ٢٧ أكتوبر ١١٨٩م قام صلاح الدين بتحويل قصر البطريرك إلى خانقاة للصوفية وهى المعروفة بالخانقاة الصلاحية وبعد سنوات قليلة، وفى ٢٦ يوليو عام ١١٩٢م، تم تحويل كنيسة القديسة حنة إلى مدرسة لدراسة الفقه الشافعى تحت اسم المدرسة الصلاحية. كذلك تم تحويل كنيسة للاسبتارية إلى مدرسة للشافعية.

وفى عام ١١٩١م أخذ صلاح الدين فى إصلاح أسوار المدينة، لأنه أدرك أهمية إصلاح أسوار المدينة وتقويتها فى مواجهة الغزو المرتقب لريتشارد الأول ملك إنجلترا وجيشه. وفى تلك الفترة أقام صلاح الدين فى منزل معد لقساوسة القبر المقدس من المحتمل أن يكون قصر البطريرك أو فى مسكن جماعة رهبان القديس أوغسطين ليشرف بنفسه على العمل[٢٤]. ويذكر مؤرخ القدس مجير الدين (١٤٥٦-١٥٢٢) أن صلاح الدين أحضر ٢٠٠٠ من أسرى الفرنج إلى بيت المقدس لهذا الغرض، كما جيء بمجموعة من البنائين من الموصل بلغ عددهم خمسين فردا ليحفروا خندقا حول الأسوار. كما أعاد بناء عدة أبراج فى السور ما بين بوابة القديس ستيفان وبوابة داود، وتم جلب الأحجار اللازمة من المحاجر المجاورة للبناء ولتشييد بعض المبانى خارج الأسوار، ومن الأحجار المفككة لعدة كنائس منها كنيسة القديسة مريم فى جبل صهيون، والجزء العلوى من كنيسة قبر مريم العذراء فى وادى يهوشافاط، وربما كنيسة القديس لازار. وبناء على ذلك فإننا نستطيع أن نستنتج أن الدمار الذى لحق بأسوار المدينة أثناء حصار عام ١١٨٧م كان كبيرا جدا، إلى جانب الدمار الذى أصاب التحصينات فى الجنوب والذى لم يتم ذكره فى وصف الحصار، وهذا ما يفسر لنا السبب فى إعادة بناء الأسوار فى ذلك الوقت والتى شملت - إلى جانب جبل صهيون - إعادة بناء التحصينات مرة أخرى، والتى قام بها الملك العادل أخو صلاح الدين.

ولقد سمح للحجاج المسيحيين بزيارة المدينة طوال فترة الحكم الأيوبى، إلا أنهم تعرضوا لكثير من المعوقات. فقد تم حصر أعدادهم وتحركاتهم داخل المدينة، ومن

المحتمل أن يكونوا قد أجبروا على دفع مبالغ لكى يسمح لهم بدخول معظم الأماكن المقدسة. إلا أن المعاهدة التى عقدها ريتشارد قلب الأسد مع صلاح الدين عام ١١٩٢م وضعت حدا للضريبة التى كان يتم دفعها عند دخول كنيسة القبر المقدس والتى تقدر بعشرة دنانير. ولكى يتم التحكم فى تنظيم تحركات الحجاج داخل هذه الكنيسة، فإن البوابة الشرقية الرئيسية كان يتم غلقها، وكذلك كنيسة الصعود وكنيسة الفرنجة. ومن المحتمل كذلك أنه كان يتم إغلاق المدخل الغربى من شارع البطريرك والمؤدى إلى قبة الكنيسة. ووفقا لما جاء فى كتاب "مدينة بيت المقدس" فإن الحجاج المسيحيين كانوا مضطرين أن يسلكوا طريقا شماليا وسط مبانى الرهبان، وتم تحديد اتجاه واحد لمرورهم من عند كنيسة القديس لازار من ناحية السور الشمالى مباشرة إلى الكنيسة. وبالرغم من تلك المعوقات فإن حركة الحج المسيحى استمرت وقام المسيحيون بزيارة المدينة فى الفترة ما بين ١١٨٧ و ١٢٢٩م(٢٥). وبلا شك فإن أعدادهم كانت أقل مما كان عليه الحال تحت الحكم الفرنجى ؛ إذ إن هناك بعض الإشارات التى تفيد أن دخل المدينة تحت الحكم الأيوبى كان آخذا فى التناقص، وبلا شك فإن ذلك كان نتيجة مباشرة لقلة عدد الحجاج المسيحيين الغربيين الذين زاروا بيت المقدس . وهذا التدهور الاقتصادى قد أجبر الحكام على أن يدعموا مواردها بثلث موارد نابلس التى قام حكامها بتحمل نفقات بيت المقدس والحامية الموجودة بها. وفى ظل هذه الظروف فإنه ليس من المستبعد أن يكون قد حدث تغير مهم فى نظرة الحكام المسلمين إلى حركة الحج المسيحى وتعاطفهم مع الحجاج، مما أدى إلى اشتداد تيار الحج المسيحى إلى جانب أن صليب الصلبوت وهو من أقدس المقدسات المسيحية، والذى أخذه صلاح الدين فى موقعة حطين قد تمت إعادته إلى بيت المقدس، حيث كان يسمح برؤيته من حين لآخر للزوار الحجاج.

أما عن أوضاع المسيحيين المحليين الدينية والاجتماعية وهم أبناء الكنيسة الشرقية، والذين سمح لها بالبقاء فى بيت المقدس- فإنها لم تكن لتختلف عنها قبل عام

١٠٩٩م. كما أعيد كبار رجال الدين إلى مناصبهم قبل الغزو الصليبى. كما تفاوض الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى (١١٨٥-١١٩٥م) مع صلاح الدين لكى يستعيد رجال الدين اليونان مكانتهم بدلا من رجال الدين اللاتين، ووافق صلاح الدين على ذلك شريطة ألا تكون لهم أفضلية فى كنيسة القبر المقدس وفى بعض الكنائس الأخرى. وفى مرحلة ما غير معروفة تمت إعادة البطريرك اليونانى إلى المدينة.

وفى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر تمت تقوية استحكامات المدينة على يد حفيد صلاح الدين، الملك المعظم عيسى، إلا أنه فى عام ١٢١٩م قام بتدمير تلك الاستحكامات وبشكل غير عادى، بل وكذلك بعض مبانى معينة ببيت المقدس؛ فقد خشى أن تقع فى أيدى جيش الحملة الصليبية الخامسة والذى كان يتقدم فى ذلك الوقت فى مصر، فاختار أن يدمر تحصينات المدينة حتى إذا قدر للفرنجة الاستيلاء عليها فإنهم سيجدون مشقة فى الإبقاء عليها. وقد جاء فى وصف "ذيل روثلين على تاريخ وليم الصورى والذى كتبه بعد عقد من الزمان أن "المدينة كانت مفتوحة تماما وغير محمية(٢٦)"، ذلك أن العرب قد هدموا تماما كل تحصيناتها عدا برج داود". وقد كان لدمار أسوارها أكبر الأثر فى انتشار حالة من الذعر أدت إلى هروب كثير من سكانها إلى كل من مصر، والكرك، ودمشق(٢٧).

ولا أحد يدرى إلى أى حد كان دمار المدينة عندئذ، لكن يبدو أنه كان كبيرا جدا وأنه لم يشمل التحصينات فحسب، بل شمل كثيرا من مبانى المدينة .

ولقد برر الملك الكامل أخو المعظم عيسى اتفاقه عام ١٢٢٩م مع الإمبراطور فردريك الثانى - والذى تم بمقتضاه تسليم المدينة بالكامل للفرنجة عدا منطقة المسجد الأقصى - بقوله إنه سلَّم فقط بعض الكنائس وبقايا بعض المنازل. ولم يتم تدمير السوق المغطى والقصر الملكى. ولكن بمقدورنا أن نُرجع بدايات دمار المستشفى مع ذلك الحدث، على الرغم من بقائها فى حالة معقولة فى الفترة التى أقام فيها فردريك الثانى خلال إقامته القصيرة من عام ١٢٢٩م. إضافة إلى ذلك، فإن هذا الدمار ربما

كان مبرراً لعدم وجود بقايا أثرية لمنشآت مدنية فى بيت المقدس يعود تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى.

القرن الثالث عشر الميلادى

إن قيام فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة بزواجه عام ١٢٢٥م من إيزابيل ابنة حنا بريين جعله يزعم لنفسه لقب ملك بيت المقدس وضرورة الخروج فى حملة صليبية، إلا أن تأخره فى القيام بهذه الحملة وفشله فى إقناع البابا بمبررات التأخير أديا إلى إصدار البابا قرار الحرمان ضده بعد سنتين. إلا أنه فى نفس الوقت كان قد تلقى وعدا من الملك الكامل سلطان مصر (١٢١٨-١٢٣٨م) بالحصول على مدينة بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل إذ هو ساعده فى صراعه ضد أخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وعندما وصل فردريك إلى عكا عام ١٢٢٨م. كان المعظم عيسى قد توفى فى أواخر سنة ١٢٢٧م، إلا أن الملك الكامل لم يستطع أن يتنكر لوعده، وتم عقد اتفاقية بين الطرفين فى يافا فى ١٨ فبراير ١٢٢٩م لمدة عشر سنوات، وبهذه الاتفاقية استحوز الفرنجة على مدينة بيت المقدس عدا منطقة الحرم بما فيها من مسجد قبة الصخرة، وفى تلك الفترة كادت المدينة تخلو من سكانها باستثناء المنطقة المحيطة بقلعة المدينة وبالقرب من بوابة القديس ستيفان وبوابة جبل صهيون. كما كانت تحصينات المدينة قد تحولت إلى أطلال فيما عدا القلعة[٢٨]. ووفقا لبنود الاتفاقية فإن الفرنجة لم يستحوذوا على شىء خارج أسوارها.

وبعد تنفيذ الاتفاقية بوقت قصير قامت جماعات من المسلمين من الخليل ونابلس بغزو المدينة الخالية من أية دفاعات، واحتمى السكان بها في قلعة داود إلى أن وصلتهم نجدات من عكا وتم طرد هذه الجماعات.

وفى اليوم السابع عشر من مارس قام فردريك بزيارة المدينة، وتسلم مفاتيحها عند بوابة داود وأقام فى المستشفى. وفى اليوم التالى توج نفسه ملكا على بيت المقدس

فى كنيسة القبر المقدس، وأخذ يبذل جهده فى حماية المدينة، بادئا بمنطقة بوابة القديس ستيفان، إلا أن كبار رجال الدين ومقدمى فرق الرهبان العسكرية رفضوا أن يساندوا جهوده، فترك المدينة فى اشمئزاز فى ١٩ مارس وبذلك ضاعت على المدينة فرصة إعادة تحصينها.

كما أن قبضة الفرنجة الضعيفة على المدينة لم تسمح لهم بإحداث تطوير يذكر فيها فى تلك الفترة القصيرة. ومع هذا فمن المحتمل أنهم قاموا بتشييد بعض المبانى العامة، منها سوق القطانين، والحصن الأمامى لبوابة القديس ستيفان، والسوق المغطى فى قلب المدينة، إلى الجنوب من شارع داود.

وانتهت مدة الاتفاقية عام ١٢٣٩م، وقام حاكم الكرك الناصر داود بمهاجمة المدينة المقدسة، والتى سقطت بعد ٢٧ يوما من الحصار، فى السابع من ديسمبر. وقام الناصر داود بتحطيم ما تم إصلاحه من بوابة القديس ستيفان، وشرفاتها، كما قام بتحطيم جزء من ساتر وأبراج القلعة، وجرد برج داود من دفاعاته وفقا لما جاء فى "ذيل روثلين على تاريخ وليم الصورى".

وبمجرد استيلاء المسلمين على برج داود فإنهم سرعان ما أشعلوا فيه النيران التى أتت عليه وأصبح أثرا بعد عين. وأثار حجم الدمار كل من شاهدها. فقد كانت من الضخامة بمكان بحيث استخدمت معه أحجار الكلس والأسمنت، وتمت تقوية تلك النيران بالرصاص والحديد بحيث كان من الصعب حصارها إلا بجهد فائق.

تلى ذلك وصول حملة صليبية على رأسها ثيبوت الرابع ملك نافار أمير شامبنى عام ١٢٣٩م، فغادر الناصر دواد المدينة المقدسة، واستطاع الصليبيون الاستيلاء عليها عام ١٢٤١م، وامتد نفوذ الفرنجة إلى أن شمل منطقة الحرم القدسى عام ١٢٤٧م، إلا أن الخوارزمية استطاعوا الاستيلاء عليها خلال سنة أى عام ١٢٤٤م وهم الذين اضطرتهم غزوات المغول إلى الاتجاه جنوبا فوصلوا إلى الأراضى المقدسة عام ١٢٤٠م، وقاموا بالفتك بحوالى ألفين من الفرنجة تحت أسوار القدس، كما قتل آخرون

فى محاولتهم الهروب إلى الساحل، ولم يتركهم الخوارزمية سالمين وقتلوا الكثيرين منهم أثناء فرارهم، ولم يصل من الفرنجة سالمين إلى يافا سوى ٣٠٠. وكانت هذه آخر مرة يستولى فيها الصليبيون على بيت المقدس عصر الحروب الصليبية(٢٩)؛ إذ لم يقدر لجيش صليبى أن يدخلها خلال السبعة والأربعين سنة التى بقى فيها الفرنجة فى بلاد الشام، وظلت مدينة عكا عاصمة لملكة بيت المقدس بعد سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧م إلى أن سقطت هى الأخرى عام ١٢٩١م.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الثانى

(١) على الرغم من أن الرحالة الفارسى ناصرو خسرو الذى زار المدينة عام ١٠٤٧م، لم يعطنا عددا محددا لسكان المدينة، إلا أنه قال إن عدد السكان كان يزداد فى أوقات الحج، حيث يصل إلى المدينة أكثر من عشرين ألف حاج مسلم، انظر: سفرنامه، ص١٢ .

(٢) فيما يتعلق بالجماعات المسيحية كتب يوشع براور يقول: فى عصر الحروب الصليبية، شهدت المدينة، تدفق أعداد من المسيحيين لا حصر لها، بحيث لا يمكن مقارنتهم بأى مكان فى العالم، فقد توافد إليها من كل الأجناس والأنواع والذين استقروا فيها، يوشع براور: الأرض فى بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، فى كتاب للمحرر ميخائيل ستون عن الأرض والدراسات الخاصة بالكتاب المقدس، القدس، ١٩٧٦م، ص٢٢٢ .

(٣) يذكر المقدسى (حوالى ٩٨٥م) أن المسيحيين واليهود كانوا يشكلون أكثرية عددية فى كل مكان، بينما كانت المساجد خالية ممن يصلون فيها ومن رجال الدين، المقدسى، ص٢٧ .

(٤) بعد ذكره للمسلمين، فإن ناصرو خسرو كتب يقول: إن المسيحيين واليهود جاءوا من بلاد الدولة البيزنطية وبعض البلاد الأخرى لزيارة الكنائس والمعابد الموجودة هنا، ناصرو خسرو، ص٢١ .

(٥) انظر مصطفى حياري: "بيت المقدس الصليبية" فى كتاب: "بيت المقدس فى التاريخ، المحرر، كامل جميل العسلى، لندن، ١٩٩٧م، ص١٣٠-١٣١ ... وأن الأتراك انقسموا إلى مدرستين سنيتين للشافعية والحنفية، وقام عدد من مشاهير العلماء المقيمين فى القدس بإجراء كثير من الحوارات مع نظرائهم من المسيحيين واليهود.

(٦) فيما يتعلق بالحاجة الملحة لإصلاح ما تهدم، يذكر ابن الأثير أن حصار الفاطميين للسلاجقة فى بيت المقدس عام ١٠٩٨م كان السبب فى إصابة أسوار المدينة فى كثير من أجزائها بالدمار. انظر: فرنسيسكو جابر يلى، المؤرخون المسلمون للحروب الصليبية، ترجمة إى جى كوستللو، لندن، ١٩٦٩م، ص١٠ .

(٧) هناك سبب رئيسى للشك فى ولاء المسيحيين، والذين عانوا كثيرا تحت حكم المسلمين. وعلى الرغم من هذا، فإن عددا من سكان المدينة المسيحيين قد ظلوا فيها. حيث يذكر وليم الصورى أن الأطفال والنساء وكبار السن سمح لهم بالبقاء وعدم مغادرتها. أنظر: وليم الصورى، ص٧٢٣ .

(٨) هناك العديد من المناقشات التى دارت حول الحملة الصليبية الأولى. انظر على سبيل المثال جوناثان رايلى سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، لندن، ١٩٨٦م؛ جون فرانك: النصر فى الشرق، التاريخ الحربى للحملة الصليبية الأولى، كمبردج، ١٩٩٦م.

(٩) انظر: ألبرت أف آيخن، ص٤٦٣-٤ . هذه القصة استخدمها يوشع براور، بيت المقدس التى استولى عليها الصليبيون، اسهام فى طبوغرافية المدينة، فى كتاب: الاستيطان الصليبى. أوراق تمت قراءتها فى المؤتمر الأول للمجتمع لدراسة الحروب الصليبية والشرق اللاتينى. المحرر، بيتر. وليام، إدبورى، كاردف، ١٩٨٥م، ص١-١٦، ويفترض جون فرانك أن ألبرت أف آيخن قد أخطأ فى تسمية برج داود باسم البرج المربع، راجع جون فرانك: النصر فى الشرق، التاريخ الحربى للحملة الصليبية الأولى، كمبردج، ١٩٩٦م، ص,٣٤٣ كما أن فرانك قد تابع وصف رالف أف كين، فى أى اتجاه كان موقع روبرت النورماندى، وروبرت فلاندرز أمام بوابة دمشق، وأن تانكرد كان إلى اليمين منهما، وجودفرى كان إلى الشمال الغربى.

(١٠) راجع وليم الصورى، ص٨-٩، والذى انتهى إلى أن الاستيلاء على بيت المقدس يعد أحد الدلائل المهمة على أن أى السفن قد لعبت دورا رئيسيا فى الاستيلاء على بعض المدن الداخلية.

(١١) يقدر يوشع براور أنه لم يكن هناك أقل من ٣٠,٠٠٠ من السكان قبل زمن الحروب الصليبية. فى كتابه: المنشآت الصليبية، أكسفورد، ١٩٨٠م، ص,٨٨ بينما يذكر بنفنستى أن عددهم كان ٢٠,٠٠٠ ويذكر أن هذا العدد تضاعف عندما اقترب الجيش الفرنجى، وأن سكان القرى والمدن المحيطة هاجروا إليها طلبا للحماية. انظر: ميرون بنفنستى: الصليبيون فى الأرض المقدسة، القدس، ١٩٧٠م، ص٣٥ .

(١٢) هذه الملاحظات تم تقريرها فى المؤتمر الخامس لجمعية دراسات الحروب الصليبية والشرق اللاتينى، المنعقد بالقرب من القدس عام ١٩٩٩م، وسوف يتم طباعتها فى المجلد الرابع للحروب الصليبية.

(١٣) بالإضافة إلى رجال الدين الذين صاحبوا الحملة الصليبية، هناك العديد من الفرنجة الذين رغبوا فى البقاء فى المدينة. وهناك ما يقدر بما بين ٤٠-٦٠ ألفا من الصليبيين قد وصلوا إلى بيت المقدس فى السابع من يوليو عام ١٠٩٩م، كما أن عدد الذين شاركوا فى القتال فى عسقلان بعد شهرين من ذلك التاريخ قد بلغ عددهم عشرة آلاف، وفى المعارك الجانبية التى خاضوها استطاع الفرنجة تقديم حوالى ألف مقاتل، ذلك لأن معظم الصليبيين قد عادوا إلى الغرب الأوربى فور الاستيلاء على بيت المقدس.

(١٤) كتب وليم الصورى عن ذلك: بالإضافة إلى هذا، فإن السوريان، واليونان، والأرمن، والرجال من كل أمة حتى العرب. قد منحوا امتيازات الإعفاء من الضرائب لحمل القمح إلى المدينة المقدسة: "دعهم يحصلون على الترخيص بالدخول والخروج دون إعاقتهم من أى شىء فى إحضار القمح والشعير، وبيعهم لهذه المحاصيل سواء كانوا من المسلمين أو من المسيحيين"، انظر: وليم الصورى، ص١٢، ١٥ .

(١٥) ومن هذا النص نستطيع أن ندرك أنه فى هذا التاريخ المبكر (١١٢٠م) فإن التجار المسلمين قد كان مصرحا لهم بدخول المدينة ومعهم الترخيص بالدخول والخروج ويبيعون ما يحملونه بلا أدنى عائق، ويبيعون إلى من يرغبون سواء كانوا من المسيحيين أو المسلمين. انظر برسك بواتير، رقم٢٧ .

(١٦) انظر فى هذا: يوشع براور فى كتابه مملكة اللاتين فى بيت المقدس، من الاحتلال الأوربى فى العصور الوسطى، لندن، ١٩٧٢م، ص,٢٦٢ بالإضافة إلى ما يتعلق بالقرن الثالث عشر، بحيث نستطيع أن نزعم أنه فى القرن الثانى عشر فإن قدرا كبيرا من أموالهم قد وصل فعلا إلى بيت المقدس.

(١٧) والشىء الجدير بالملاحظة، أن الدفاعات كانت قد أوشكت على الانتهاء لحصن مونت جوا والتى تم الكشف عنها حديثا. ويبدو أن الرهبان كانوا مستمرين فى البحث عن القلعة. ذلك أن وجود أحجار ضخمة متبقية فى القلعة يعد دليلا على أنهم لم يكونوا قادرين على إتمام العمل.

(١٨) إن تقديرات عدد السكان فى تلك الفترة تتراوح ما بين ٦٠ ألفا و ١٠٠ ألف، عن ذلك انظر: "حيارى بيت المقدس الصليبية"، ج٢، ص١١٥ . وعلى أية حال فإن من المهم أن نشير إلى أن مثل هذه التقديرات يجب وضعها فى الاعتبار كمؤشرات هامة تدور حول الأعداد الفعلية.

(١٩) انظر: يوشع براور فى كتابه تاريخ الشرق اللاتينى فى بيت المقدس ج١، طبع باريس، ١٩٦٩م، ص٦٣٣، رقم ٦٠، نقلا عن سابين، الذى يقترح أن عددا من العملة الفضية منخفضة القيمة وكذلك الدنانير التى ربما كانت هى العملة التى تم سكها عندما استخدمت الفضة المستخدمة فى تحلية القبة. راجع: سابين: العملات المصورة لقبة داود والقبر المقدس. وهى عملة اضطرارية تم سكها أثناء حصار بيت المقدس، ١١٨٧، تاريخ العملة، ١٩، ١٩٧٩م، ص١٢٢-٢٣ . وعلى وجهها رسم لبرج داود محاط بالكلمات "ضرب في"، وعلى ظهرها رسم القبر المقدس وعبارة "القبر المقدس". ويبدو أن باليان وليس أى ملك صليبى هو الذى سك هذه العملة، حيث لا يبدو عليها اسم أى ملك.

(٢٠) وفقا لما جاء فى بعض المؤرخات فإن هذا جزء يطل على وادى القدرون؛ راجع: ر. ل نيكولوسون، جوسلين الثالث وسقوط الدويلات الصليبية، ١١٣٤-١١٩٩م، ليدن، ١٩٧٣م، ص١٧١، رقم ٣٤٦ . وعلى أية حال، فى مكان أخر، أعمال ريتشار، تحرير، و. ستابس، فى كتابه تواريخ وذكريات عن عهد ريتشارد الأول، لندن، ١٨٦٤م، ولقد تم العثور على جزء من السور الذى انهار حيث يوجد الصليب الذى يحدد المكان الذى عبر منه جودفرى سنة ١٠٩٩م.

(٢١) يقدر جين ريتشارد عدد الفرنجة الذين أفرج عنهم صلاح الدين دون دفع فدية، بأنه من بين مائة ألف، فإن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف هم الذين دفعوا الفدية، كما تم إطلاق سراح ٨٠٠٠ بعد دفع فدية جماعية لهم. وهناك حوالى ١٦ ألفًا تم أسرهم، انظر: جين ريتشارد، مملكة بيت المقدس الصليبية، ج٢، ترجمة جين شيرلى، أمستردام، نيويورك، وأكسفورد، ١٩٧٩م، ص.١٧٩ كما أن معظم المبالغ التى تم دفعها كفداء قدمها الاسبتارية والداوية.

(٢٢) راجع: جوناثان رايلى سميث، فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس وقبرص (١٠٥٠-١٣٣١م)، ج١، لندن، ١٩٦٧م، ص١٠٩، رقم.١ ربما يقصد كنيسة القديس يوحنا المعمدان ما قبل الحروب الصليبية، والتى كانت تقع إلى الجنوب من المستشفى والتى كانت الكنيسة الوحيدة من ثلاث كنائس للاسبتارية والتى قدر لها البقاء أكثر من غيرها يبدو أنها كانت الأساس المتين لمعبد فى الجهة الجنوبية من الكنيسة. كذلك يجب أن نلاحظ أن كل كنيسة من الكنائس الثلاث التى تظهر على خريطة كمبرأى قد كان لها ديرا.

(٢٣) انظر كتاب الأنس الجليل بتاريخى القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى والذى ترجم إلى الفرنسية من العربية، وقام بترجمته هنرى سوفير، باريس، ١٨٧٦م، ص٨٠-٨١ . وليس هناك شك فى أن الهدف منه هو إيضاح بل وربما تعميق الخندق الممتد بطول السور الشمالى. وسبب إحضار أحجار من الموصل لمثل هذا العمل، وهو شىء غير واضح تماما. ومن المحتمل أن الهدف من ذلك كان تشييد الأسوار، والتى تطلبت مهارة أكثر من مجرد حفر خندق.

(٢٤) هذا السور كان يمكن رؤيته فى خرائط القرن الرابع عشر للميلاد عند مارينو سانوتو، وبوركهارد من جبل صهيون، راجع: ميلكا ليفى: "خرائط العصور الوسطى لبيت المقدس: عند يوشع براور وهاجيا بن شمعى، تاريخ بيت المقدس زمن الحروب الصليبية والأيوبيين (١٠٩٩-١٢٣٠م)، القدس، ١٩٩١م، ص٤٨٤-٤٨٨ .

(٢٥) كان فى مقدور الفرنجة دخول منطقة الحرم لأداء الصلوات، ولكن كان عليهم أن يظهروا احتراما واضحا للأماكن المقدسة. وعلى الرغم من حرص فـردريك الثانى على استعادة المدينة المقدسة دون إراقة دماء، إلا أن المعاهدة كانت تحمل فى طياتها بذور حتمية ضياع المدينة وخسارتها مستقبلا. وهذا كان واضحا من تردده فى عودة الاسبتارية إلى ممتلكاتهم السابقة فى جبل المعبد. مما أدى بفردريك إلى الإلحاح فى طلب عودتهم واستعادة تحصينات المدينة.

(٢٦) ويشكو صاحب ذيل روثلين بمرارة عن أن فردريك لم يقم بإعادة تشييد الكنائس والأماكن المقدسة أو حتى تقوية المدينة (الحروب الصليبية فى بلاد الشام، ص٣٧)، حيث يتجاهل المؤلف المعارضة التى واجهها فردريك، وحتى رفض رجال الدين وفرسان القديس يوحنا التعاون معه، على الرغم من تواجده فى المدينة لمدة ثلاثة أيام.

(٢٧) ومن جهة أخرى فإن كنيسة العشاء الربانى فى جبل صهيون ربما قد تم بناؤها فى ذلك التاريخ، فى الركن الجنوبى الشرقى من كنيسة القديسة مريم فى جبل صهيون. وفيما يتعلق بالتاريخ المقترح لبناء هذه الكنيسة، راجع ص١١٢-١١٣ . أما بالنسبة للمبانى الأخرى، فإن مايكل بيروين قد افترض تاريخا فرنجيا يعود للقرن الثالث عشر (١٢٢٩-١٢٤٤م) وذلك للنصف الغربى لحائط سوق القطانين، راجع مايكل هاميلتون بيروين، بيت المقدس المملوكية، لندن، ١٩٨٧م، ص٢٧٣، هيلال جيفا، ودانى باهات قد أظهرا أن البناء البداية الأساسية لبناء أساسات بوابة القديس ستيفان يجب أن ينسب إلى فردريك الثانى (١٢٢٩م)، راجع عن ذلك: هيلال جيفا ودان باهات: ملامح أثرية وتاريخية فى منطقة بوابة دمشق القديمة، ١٩٩٨م، (الكشوف الأثرية الإسرائيلية) ٤٨، (٣-٤)، ص٢٣٥ . وفيما يتعلق بشارع السوق المغطى فى سوق المدينة، انظر، ص١٣٢ .

(٢٨) راجع شيرلى، الحروب الصليبية، ص٤٠ . إن الناصر داود لم يدمر تماما البرج بدليل أن الجسم الصلب له والذى يرجع إلى عصر هادريان مازال قائما. أما ما أزاله الناصر فهو عبارة عن مبانى العصور الوسطى الملحقة به.

(٢٩) راجع، شيرلى، سوريا الصليبية، ص٦٤ . فوفقا لما ذكره إراكل (ذيل عكا لوليم الصورى) فإن أكثر من ثلاثين ألفا من الرجال، والنساء والأطفال قد قتلوا، المرجع السابق، ص١٣٢ .

* * *

الفصل الثالث

التنظيم الإدارى

كانت بيت المقدس العاصمة الإدارية لملكة بيت المقدس، كما كانت أيضًا مدينة بكل معنى الكلمة ولم تكن فقط مقرا لحكومة الدولة بل ومقرًا لكثير من الإدارات المحلية. ونعم الملك في بيت المقدس بسلطة مزدوجة، أولاً لكونه حاكمًا، وثانيًا بصفته سيدًا إقطاعيًا، كما تمتع البطريرك فيها بسلطة مزدوجة مشابهة، فقد كان من جهة بمثابة أعلى سلطة دينية فى المملكة، ومن جهة أخرى فقد كان هو المسئول عن إدارة الشئون الخاصة بالحى البطريركى. وتركزت فى المدينة الأجهزة الإدارية الرئيسية، مثل المحكمة العليا والتى أدت دورًا مهما كجهاز إدارى حكومى فى المدينة، وأصدرت كثيرًا من القرارات المحلية التى تنظم أمور الناس محليًا فى بيت المقدس وقامت بوضع كافة التشريعات التى تتعلق بحياتهم، جنبًا إلى جنب التشريعات التى تخص الناس فى أنحاء مملكة بيت المقدس الصليبية.

المؤسسات المدنية والإدارية

تمتعت مملكة بيت المقدس الصليبية بتنظيم يبدو للوهلة الأولى وكأنه انتخابى، إلا أنه من حيث الواقع كان تنظيما موروثا[1]. فالقصر الملكى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى كان يقع إلى الجنوب تمامًا من قاعة داود وهو المركز الإدارى للحكومة وفيه تعقد جلسات المحكمة العليا وهى أهم مؤسسة إدارية فى

المملكة، وخصوصا عندما كان المقر الملكي هو بيت المقدس[٢]. حيث يلتقى أعضاؤها وهم صفوة نبلاء المجتمع الفرنجى، وربما كانوا يلتقون مرة واحدة كل سنة للمداولة فى أهم الأمور السياسية للدولة[٣]. إلى جانب أنه كان للمحكمة العليا سلطاتها التى تفرضها على الطبقة الأرستقراطية فى الأحوال المدنية والجنائية.

كذلك كانت هناك مؤسسات مختصة بالشئون المدنية، والتجارة، وجمع الضرائب، ومكافحة الجريمة، والتنظيمات الكنسية. منها المحكمة البرجوازية، ومحكمة السوريان، ومحكمة الكنيسة. كما عرفت المحكمة البرجوازية بمحكمة الفيكونت أو المحكمة الأدنى، والتى لها سلطاتها القضائية على عامة الناس من الأحرار وكانت مهمتها إصدار الأحكام القضائية المناسبة لأبناء هذه الطبقة بما فيها من أحكام تتعلق بالشنق أو الإعدام، أو بتر أحد أعضاء الجسم، ويشرف عليها الفيكونت كمؤسسة إدارية متمتعة باستقلال ذاتى أو محلى، وهو الذى كان يتولى أحيانا منصب والى قلعة داود. كما كان من ضمن اختصاصاته تنظيم عمليات التبادل التجارى داخل الأسواق، وتحصيل الضرائب، والغرامات وإيجارات المنشآت التجارية الملكية. وتلك الإيجارات كان يتم تحصيلها فى مواعيد محددة سنويا. ففى عام ١١٧١ م تم تحصيلها فى عيد الميلاد، وعيد الفصح، وعيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، وعيد ميلاد القديس ميكائيل فى اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر. وكان الفيكونت يحمل أحد المفاتيح الثلاثة لخزانة الدولة باعتباره واليا للقلعة، ويضع فيها الضرائب التى يتم تحصيلها عن المنطقة الواقعة ما بين حيفا وبيت المقدس، وهذه الضرائب كان يتم وضعها فى خزانة كنيسة الصليب المقدس، ولها ثلاثة أقفال، أما المفتاحان الآخران فقد كانا لدى كل من البطريرك، ورئيس دير رهبان القبر المقدس.

وفى أوقات كثيرة كان الفيكونت يقوم بتنفيذ بعض واجبات الشرطة، فقد كان عليه أن يتفقد الشوارع ليلا، ويقبض على المجرمين. وبالرغم من عدم وجود دليل مباشر على هذا، فإنه ربما كلف بعض الأشخاص الآخرين بالقيام بتلك المهام. كما أن فيكونت

بيت المقدس ربما كان يعاونه أحد الضباط مثلما كان الحال فى قبرص فى القرن الرابع عشر الميلادى والذى عرف باسم المحتسب، والذى شملت اختصاصاته التحكم فى الأسعار داخل الأسواق، والتأكد من عدم قيام أصحاب الدكاكين بممارسة عمليات الغش والخداع، والتأكد من توفر الخبز وعدم حدوث نقص فيه، وبالمرور المفاجئ على المطاحن والأفران والتفتيش عليها. ولقد كان لديه عدد من المعاونين الذين ساعدوه فى ذلك، ومنهم بعض الرقباء، الذين يقومون بسجن أى شخص عند الضرورة، كما يقدمون تقارير منتظمة إلى الفيكونت. وكان مسموحا لهم بتوقيع بعض أنواع العقاب البدنى على المخالفين(٤). كذلك قام الفيكونت بتعيين أحد الرجال ليكون مناديا فى المدينة.

وكانت محكمة السوريان تابعة للمحكمة البرجوازية، حيث كان لها سلطة قضائية على السكان المسيحيين المحليين. ومن بين الأمور الأخرى التى مارستها حل المشكلات اليومية، وإصدار القرارات المتعلقة بالشئون الدينية. وفى السنوات التالية فقد كان لها دورها البارز ضمن محاكم الأحوال المدنية فى المملكة، وإن كان هذا الدور أقل وضوحا فى بيت المقدس عنه فى أى مكان آخر، وذلك لأن مثل هذه المحاكم قد قامت بدور مهم فى قطاع كبير من السكان غير المسيحيين. وخصوصا فى الأحوال الخاصة المتعلقة بحالات الوفيات، والشئون السكانية والتى يتم تحويلها إلى المحاكم البرجوازية.

ولقد تأسست محكمة السوريان فى فترة مبكرة من القرن الثانى عشر الميلادى عندما طلب السوريان من الملك أن يمنحهم امتياز الفصل فى أحوالهم القضائية وفق تقاليدهم وتشريعاتهم، ووفق نظم قضائية كانت فعلا موجودة لديهم لتحقيق العدالة بينهم. وعادة ما يمارسها شخص منهم عرف باسم الرئيس. وقد كان تابعا لفيكونت المحكمة البرجوازية والذى ربما يتم اختياره عن طريق الملك. وكان يرأس المحكمة بنفسه دون تدخل من الملك فى القرارات التى يصدرها(٥).

أما محكمة الكنيسة والتى جرت الأمور فيها وفقا للقانون الكنسى، فقد كان لها سلطاتها القضائية على جميع المحامين أعضاء فرق الرهبان العسكرية من اسبتارية

وداوية وجماعة فرسان القديس لازار، وعلى جميع الرهبان من الديريين والعلمانيين والإخوة الرهبان. وكان مجال عملها هو الممتلكات الكنسية وما يتم فيها من مناقلات، ولها سلطة قضائية فى جميع الأمور المتعلقة بالمذهب الكاثوليكى وحالات الزواج، والعهد الجديد. إلا أن بعض الحالات الخاصة مثل حالات الوفيات، وقطع بعض أعضاء الجسد كانت تحول إلى المحكمة البرجوازية، أما حالات النزاع بين طبقة رجال الدين وغيرهم من سواد الناس فقد كانت تخضع لإشراف مشترك للمحكمتين.

وحتى مع الصحوة التى شهدتها المؤسسات الإدارية خلال القرن الثانى عشر الميلادى فإن بعض الأمور ظلت تخضع لسلطات الملك القضائية. ففى إحدى القضايا التى تم تدوينها، كان الملك بنفسه هو الذى يأمر بتنظيف الشوارع، وهى حالة كرهت المحكمة البرجوازية أن تقوم بها، لأنه لم يتم أخذ رأيها فيها. فقد حدث أن أصدرت الملكة ميليسند أمرا بإزالة إحدى الطواحين التابعة لجماعة فرسان القديس لازار من منطقة الحرم القدسى.

أما عن كبار الموظفين الإداريين فقد كان منهم القهرمان أو الوكيل الإقطاعى للملك، وحاكم القلعة، ومدير شرطة المدينة، والحاجب، والمستشار أو الخازن. وعلى الرغم من أن الأخيرين كانا موظفين حكوميين إلا أنهما لعبا دورا مباشرا فى التنظيمات الإدارية للمدينة. ومن الناحية الرسمية فإن الوكيل الإقطاعى للملك حاز المركز الأعلى فى المجال الإدارى، حيث لعب دورا مهما فى التنظيم الإدارى الحربى، فقد كان مسئولا عن القلاع الحربية وأماكن إقامة الحاميات العسكرية. كما كان بمقدوره أن يدعو المحكمة العليا للانعقاد وأن يترأسها. كذلك كان يترأس الاحتفالات الدينية، كما كان هو المنظم المالى بصفة أساسية، والمسئول عن ممتلكات التاج، وعن مواردها المالية. وتحت يده الخزانة الرئيسية وربما كان شبيها بمنصب السكرتير الخاص فى القرن الثالث عشر الميلادى فى قبرص، يعاونه فى عمله بعض الكتبة والصرافين.

كما كان حاكم القلعة على رأس الجيش، وهى وظيفة جعلته فى الواقع أعلى منزلة من الوكيل الإقطاعى للملك. وكما كان عليه الحال فى الغرب، فإنه ربما كان مسئولا أيضا عن أمن ممتلكات التاج. ووصلت مكانته فى الحكومة الصليبية إلى ذروتها فى عهد أحد حكام القلعة ويدعى Manasses Of Hierges. ومن خلال تعاونه مع أسرة إبلين، أصبح شبه حاكم فعلى فى عهد الملكة ميليسند بعد وفاة الملك فولك، والتى كانت وصية على ابنها بلدوين الثالث، وشغل هذا الرجل ذلك المنصب حتى عام ١١١٢م، عندما استغنى عنه بلدوين وكبح جماحه.

وكانت وظيفة مدير شرطة المدينة وظيفة حربية كذلك، فهو القائم مقام حاكم القلعة. وفى إنجلترا كان مدير الشرطة على صلة وثيقة بالملك أكثر من حاكم القلعة، لأنه كان مسئولا عن تنفيذ أوامر البلاط الملكى ويعمل على راحته. وقد كان نفس الشىء واقعا فى مملكة بيت المقدس اللاتينية، حيث كان الحاجب هو المسئول الأول عن الشئون المالية لشخص الملك. وهذا المنصب شهد بعضا من التطور بمرور الوقت، وخصوصا عندما تم اعتبار غرفة النوم الملكية من أكثر الأماكن أمانا وحيث وضعت فيها الخزانة العامة. وكان الخازن، وهو من رجال الدين، يصدر أوامره من خلال مكتب الخزانة. كما كان هناك كبير الخدم أو الساقى، وهى وظيفة غامضة إلى حد ما، وربما كانت كما هو الحال فى أماكن أخرى من الوظائف الوضيعة. ويعمل تحت رئاسته عدد من الخدم، ويقومون بتقديم النبيذ فى القصر الملكى. كما تصادفنا بعض الأسماء الأخرى مثل وظيفة من يقوم باستقبال الضيوف ويرشدهم إلى أماكن الجلوس، وهى وظيفة كانت موجودة على ما يبدو فى المحكمة البرجوازية ؛ والجابى وهو المسئول عن جمع الضرائب على السلع الواردة إلى المدينة عند القلعة ؛ والبواب، عند بوابة داود.

وحول مجموعة قوانين بيت المقدس، فمنها ما يتعلق بالضرائب المختلفة على السلع الضرورية للمملكة، والتى تمت كتابتها على مجموعة من الرق المنفصلة عن بعضها البعض، ويتم ختمها بخاتم الملك، وخاتم البطريرك، وخاتم الفيكونت، ثم تم حفظها فى خزانة خاصة فى كنيسة القبر المقدس[٦].

المؤسسات والتنظيمات الكنسية

كانت وظيفة البطريرك هى الوظيفة الأسمى فى الوظائف الكنسية فى مدينة بيت المقدس زمن الحكم الصليبى، وكانت تلى سلطة الملك من حيث الإدارة. وكان بطريرك بيت المقدس على رأس جماعة كبار رجال الدين ليس فقط فى المدينة، بل وفى شتى أنحاء مملكة بيت المقدس فى الشرق اللاتينى.

البطريرك

توفى البطريرك اليونانى سيمون قبل عدة أيام من استيلاء الفرنجة على مدينة بيت المقدس، وفى الأول من شهر أغسطس عام ١٠٩٩م أى بعد أقل من شهر من الغزو، حل محله أول بطريرك لاتينى، وهى القسيس المصاحب لروبرت النورماندى، ويدعى أرنولف من شوكيه. وقد تم تعيينه بعد اختيار جودفرى البوايونى قائدا مدنيا أعلى، على الرغم من أن أرنولف كان معارضا لاختيار حاكم لبيت المقدس من غير رجال الدين، وطالب بأن يكون الحاكم من رجال الدين وأن يكون تابعا لبطريرك بيت المقدس. أما وقد جلس فى منصب يلى الحاكم العلمانى، فإنه بتصرفه هذا قد أبعد الكنيسة عن تولى زمام الأمور[٧]. فبعد وقت قصير تم تجريده من ممتلكاته وعزله، وإحلال الأسقف دايمبرت البيزى محله، والذى ادعى ميراثه لكل مدينة بيت المقدس. وبالفعل فإن هذا الزعم البطريركى قد امتد ليشمل كل أنحاء المملكة، بالإضافة إلى الإمارات الصليبية فى الشمال.

وعلى الرغم من أن طلب تحقيق السيادة على بيت المقدس تم تأكيده بالحيلة فيما بعد، فإن حلم حكم الكنيسة للدولة فى الأرض المقدسة انتهى بعزل دايمبرت عام ١١٠٢م[٨]، وكانت القيادة الكنسية مضطرة لأن تستقر فى الحى الشمالى الغربى من المدينة، وقد كان فيما سبق مقرا للبطريرك اليونانى، حيث تسلم دايمبرت الحى فى عيد

الميلاد عام ١٠٩٩م كمكافأة للمساعدة التى قدمها الأسطول البيزى. وفى عيد الفصح عام ١١٠٠م، تسلم البطريرك بعض الامتيازات الإضافية تتضمن برج داود أى قلعة المدينة، وبقية بيت المقدس مع يافا، الميناء الوحيد الذى كان فى أيدى الصليبيين فى ذلك الوقت. وهناك على أية حال شرط مرتبط بتلك المنحة، وهو أنه سيتم تطبيق ذلك وبشكل ملائم عندما يتم الاستيلاء على مدينتين مهمتين. هذه الامتيازات الإضافية لم يتم تحقيقها، كما أن البطريرك لم يحصل على أكثر من الحى الشمالى الغربى لبيت المقدس، وكنيسة القبر المقدس. وبعد الغزو، تم طرد رجال الدين اليونان، وأحل جودفرى محلهم عشرين من رجال الدين اللاتين(٩). وقدمت كنيسة القبر المقدس خدمتها لحركة الحج المسيحى للمدينة والتى أقيمت حولها الأسواق، والنزل، والمستشفيات وبعض الكنائس الأخرى، مما حقق لهذه الكنيسة مكانة مرموقة ودخلا معقولا. وكان الحى البطريركى ظاهرا بوضوح فى الشمال والغرب من أسوار المدينة، ومن جهة الشرق بشوارع السوق وعلى طول امتداد الخط القديم للسوق، ومن الجنوب بشارع الملك داود، وحول كنيسة القبر المقدس وقصر البطريرك والذى كان يقع أمام الجانب الشمالى الغربى من الكنيسة. أما عن المنشآت الأخرى فى هذا الحى، فقد كانت حمام البطريرك ، والبركة أى بركة حزقيال، والإسطبلات. وأمام الجانب الغربى من أسوار المدينة، فى الفضاء الواسع، كان يوجد سوق الغلال. وفى نفس الضاحية كان هناك سوق كبير، ربما فى المنطقة الفسيحة شمالا أو جنوب سوق الغلال. وفى الركن الشمالى الغربى من المدينة، وداخل الأسوار، كان هناك برج تانكرد وباب خلفى ملاصق له فى أسوار المدينة وعلى مقربة من الشرق كانت هناك بوابة ثانية، هى بوابة القديس لازار.

وكان على رأس الجهاز الإدارى لذلك الحى البطريرك نفسه حيث كان يرأس المحكمة، وبجوارها مكتب السجلات الخاص بالمحكمة البطريركية. وكان رهبان القديس أوغسطين فى كنيسة القبر المقدس يقومون باختيار البطريرك، حيث يقومون باختيار

اثنين من المرشحين ويقدمانهما للملك لاختيار أحدهما، وبعد اختياره فإنه يوليه منصبه فى الحال. ويخضع للبطريرك أربعة من المطارنة هم كبار أساقفة كل من صور، وقيسارية، والناصرة والبتراء أى الكرك والشوبك. كما كان لديه أساقفة مساعدون. وحتى عام ١١٦٨م كانوا اثنين، أحدهما للد، والآخر لبيت لحم، ثم أضيف إليهما أسقف للخليل بالإضافة إلى أن كبير أساقفة قيسارية كان لديه أسقفا مساعدا فى سبسطية، وكبير أساقفة صور له أساقفة مساعدون فى بيروت، وعكا، وصيدا، وبانياس، أما كبير أساقفة الناصرة فقد كان له أسقف مساعد فى طبرية.

وعادة ما انغمس البطاركة فى الشئون السياسية، ولم يكونوا على وجه الخصوص ذوى سمعة طيبة فى حياتهم الشخصية. ففى عام ١١١٦م تم استدعاء أرنولف أمام المحكمة البابوية بتهمة إقامة علاقة مع امرأة متزوجة، وأيضا مع امرأة عربية أنجب منها ولدا[١٠]. أما البطريرك هرقل والذى تم انتخابه عام ١١٨٠م فقد كان يوصف بحبه للأمور الدنيوية، وبأنه رجل دين جاهل، يصطحب خليلته معه فى مواكبه علانية فى بيت المقدس[١١].

رئيس دير الرهبان ورجال الدين فى كنيسة القبر المقدس

إلى جانب سلطتهم الدينية تمتع رئيس دير الرهبان ورجال الدين بكنيسة القبر المقدس بكثير من الملكية الواسعة للأرض، أى أنهم كانوا من كبار الملاك للأرض، فضلاً عن العديد من الممتلكات فى ريف ومدن مملكة بيت المقدس اللاتينية. كما تلقت الكنيسة الكثير من المنح والهبات الملكية، والأوقاف التى بلغ مجموعها حسبما هو مسجل فى إحدى الوثائق واحدا وعشرين قرية فى مختلف ضواحى بيت المقدس. كما تسلمت الكنيسة أملاكا ضخمة داخل المدينة نفسها، عبارة عن منازل، ودكاكين، وطواحين، وأفران.كما أن تأثير وسطوة رجال الدين كانت واضحة، يؤكد ذلك كثير من التصرفات المدونة فى أرشيف الكنيسة،

ولنضرب على ذلك مثالاً واحداً بالاتفاق الذى تم عقده بين رجال الدين فى الكنيسة. ومواطن سورى يدعى موريج رئيز. ولأنه كان مديناً للكنيسة فإنه أجبر على قبول العبارات التالية والتى أملاها عليه رجال الدين، والتى جاء فيها أن من حقهم – إذا شاءوا ذلك – أن يبنوا أساسات لأعمدة للمبانى الملاصقة لمبناه أمام حوائط بيته، وأن يستخدموا حوائطه ليرفعوا عليها أعمدة لهم لبناء بعض جدرانهم، وأنه بإمكانهم غلق أبواب بيته وشبابيكه على ألا يطالبهم بتعويض عن ذلك إذا انهارت حوائط بيته نتيجة لأعمالهم.

كما تم ذكر عدد من الكنائس فى الحى فى المصادر المكتوبة على الرغم من أنه لا توجد كنيسة واحدة منها قد قدر لها البقاء باستثناء كنيسة القبر المقدس، وكنيسة القديس يوحنا المعمدان. وتلك الكنائس هى كنيسة القديس باسل، وكنيسة القديس يوحنا الإنجيلى، وكنيسة القديس ميخائيل، وكنيسة القديس إيوثيموس، والقديسة كاترين، وكنيسة القديس نيقولا، وكنيسة القديس ثيودور، وكنيسة القديس ديتمتريوس، وكنيسة القديس جورج، وكنيسة القديس جورج فى السوق، وكنيسة القديسة مريم الكبرى، وكنيسة القديسة مريم الصغرى فى حى الاسبتارية، وكنيسة القديسة حنة، وكنيسة القديس تكلا، وكنيسة القديس المحب. أما الشوارع الرئيسة لهذا الحى فقد كانت شارع البطريرك، وشارع كنيسة القبر المقدس.

رهبان القديس أوغسطين

إن جماعة رهبان كنيسة القبر المقدس قد ساروا على طقس رهبان القديس أوغسطين، ووفقا لما رواه وليم الصورى فإنهم أجبروا على ذلك أيام البطريرك أرنولف، والذى كانت له أسبابه فى اتخاذهم ذلك الطقس[١٢]. وهناك بعض الأديرة المهمة جعلت من طقس جماعة رهبان القديس أوغسطين شعاراً لها. وقد سمح لهم جودفرى بتأسيس أديرة لهم فى المسجد الأقصى، كما أن رهبان دير كنيسة الصعود قد انضموا إلى رهبان القديس أوغسطين،وقد كان ديرهم فى جبل الزيتون، كما انضم إليهم جماعة رهبان القديسة مريم فى جبل الزيتون كذلك.

رهبان القديس بندكت

إن جماعة رهبان القديس بندكت قد تأسست فى بيت المقدس قبل وصول الصليبين إليها[١٣]، وتنوعت ثرواتهم إلى حد كبير تحت الحكم الفرنجي، وإن كانت جماعة رهبان القديسة حنة قد حصلت على كثير من الرعاية الملكية، وحازت جماعة رهبان القديس بندكت كثيرا من الأماكن المهمة داخل وخارج بيت المقدس، بما فيها دير رهبان وكنيسة قبر العذراء فى يهو شافاط، ودير رهبان القديسة مريم اللاتينية، ودير القديسة مريم الكبرى فى حى الاسبتارية والدير القريب من بيسان.

فرق الرهبان العسكرية

تعد فرق الرهبان العسكرية إحدى أهم وأنجح ابتكارات الفرنجة الملحوظة فى القرن الثانى عشر الميلادى، والتى اعتبرها يوشع براور إحدى أهم إنجازات المملكة اللاتينية النادرة والجديدة والأصيلة لمواجهة التناقص العددى للفرنجة. وقد كان ذلك تنظيماً لجماعات الفرسان الذين عاشوا حياتهم وفق النظم الديرية بشكل أساسى. ففى خلال قرنين من الحكم الصليبى قامت جماعات فرق الرهبان العسكرية بدور بالغ الأهمية وفق قواعد جديدة، وأخذت تتزايد فى مجموعها وثرواتها. وأصبحت شيئا فشيئا المورد الرئيسى للحصول على الفرسان جيدة التسليح فى الشرق اللاتينى، ومالكة أكبر وأكثر القلاع أهمية، فضلاً عن كونها أهم مصدر للدخل الوارد إلى المملكة من الغرب الأوربى.

أما عن الفكرة التى كانت وراء تأسيس فرق الرهبان العسكرية، فقد كانت لها جذورها فى الورطة التى واجهت المسيحيين الغربيين فى القرن الحادى عشر الميلادى، وهل كان فى ظل دعوة المسيح للسلام أن تسوى الخلافات بإراقة الدماء ؟ ووفقًا لرأى البابا إيربان الثانى فقد كان ذلك ممكنًا، طالما كانت تلك الدماء هى دماء غير المؤمنين

وكان هذا حلاً، جعل من الممكن النظر إلى الأعمال الحربية على أنها أعمال دينية، وأن المساهمة فى حملة صليبية ضد الكفرة هو عمل يقصد به الحصول على الكفارة. وليس من الصعب أن نتصور إلى أى حد كانت هذه الفكرة وراء تأسيس جماعات من المحاربين الرهبان.

هذا التطور أيده أحد رجال الدين من ذوى النفوذ فى القرن الثانى عشر الميلادى، وهو برنارد من كليرفو، والذى كتب دفاعا كلاميا عن الجماعة التى تم تكوينها حديثا وهى فرقة الرهبان الداوية، ومدح فيه جماعة الفرسان الجديدة، كما أطرى فيه قيامها بحماية الشعب والدفاع عن الأماكن المقدسة فى إطار من الحياة الدينية. أما العقبة الرئيسية لإنشاء منظمة يقوم نظامها على ثنائية الجمع بين الأمور الحربية والحياة الدينية فقد تمثلت فى القوانين الكنسية التى تمنع رجال الدين من حمل السلاح. وهذه تم التغلب عليها بالتفريق بين أعضاء فرق الرهبان والذين كانوا قساوسة، وبين الفرسان الحقيقيين، أو العلمانيين الذين يمارسون حياة دينية داخل إطار المنظمة ولكنهم لم يكونوا أنفسهم رجال دين. وبذلك انفتح الطريق لإنشاء جماعات منظمة أمكن من خلالها الجمع بين الشئون الحربية والشئون الدينية.

وفى بيت المقدس تم تكوين جماعتين من فرق الرهبان العسكرية، فرسان مستشفى القديس يوحنا، وفرسان المعبد. وفيما بعد فإن مستشفى مرضى الجذام فى بيت المقدس تحولت إلى مقر لفرقة فرسان القديس لازار. ومن الصعب أن نبالغ فى أهمية الدور الذى لعبته هذه المؤسسات فى حياة المدينة. فإذا كانت صحوة حركة الحج المسيحى هى التى أدت إلى إحياء بيت المقدس باعتبارها أهم حركة إحياء فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى فإن دور فرق الرهبان العسكرية – وهو دور بلا شك كبير– أضفى على تلك الصحوة مزيدا من الاستمرارية، عن طريق تحقيق الأمن عبر الطرق، والإقلال من نسبة المخاطرة. كما شجع الداوية على كثرة الترحال داخل الأراضى المقدسة بما أقاموه من مستشفيات وأماكن للراحة، والإمداد بالطعام فى الوقت الذى قام فيه الاسبتارية بتوفير الاحتياجات الأساسية للزوار.

جماعة الرهبان العسكرية للقديس يوحنا

يرجع أصل فرقة رهبان القديس يوحنا العسكرية إلى المستشفى الذى أقامته مجموعة من تجار مدينة أمالفي، فى القرن الحادى عشر الميلادى حوالى عام ١٠٧٠م ، أو ربما قبل هذا التاريخ، عندما أنشأ الراهب بروبوس نزلاً للحجاج اللاتين عام ٦٠٣م وقامت جماعة من رهبان القديس بندكت فى كنيسة القديسة مريم اللاتينية بإدارة هذه المستشفى. وفى السنوات الأولى من الحكم الصليبى، خضعت المستشفى لرئاسة جيرارد المبجل، واستقلت عن كنيسة القديسة مريم اللاتينية. وفى مرسوم بابوى أصدره البابا باسكال الثانى عام ١١١٣م، كانت معروفة وبشكل عام على أنها مؤسسة مستقلة(١٤). وفى عهد الرئيس الثانى ريموند أف لوبويه (١١٢٠-١١٦٠م) تم تحويل المستشفى إلى فرقة للرهبان العسكرية عام ١١٣٠م على نمط فرقة الرهبان الداوية. ولقد وضع ريموند القواعد التى سارت عليها كل القوانين اللاحقة سواء من الناحية التنظيمية أو الدينية. كما حصل على مناصرة كل من البابوية والملوك وكذلك كثير من الهبات بما فيها الإعفاء من دفع ضريبة العشور على الممتلكات الديرية. وفى عام ١١٤٣م منح البابا كلستين الثانى جماعة الاسبتارية سلطة الإشراف على مستشفى القديسة مريم للألمان. كذلك وافق البابا إيوجين الثالث عام ١١٤٥-١١٥٣م على ميثاق جماعة الاسبتارية.

وعلى الرغم من أن المبنى الرئيسى لجماعة الاسبتارية كان يقع داخل حى البطريرك، إلا أنه من الواضح أن الجماعة تمتعت باستقلال ذاتى ليس فقط عن السلطة الملكية ولكن أيضًا عن السلطة الدينية مما كان سببا فيما نشب من الاحتكاك بين الاسبتارية والملك، أو بينهم وبين البطريرك. ويصف لنا وليم الصورى هذا الاحتكاك طوال بطريركية فولشر الأنجوليمى (١١٤٦-١١٥٥م)، وفى أثناء تلك الفترة يبدو أن الاسبتارية كانوا قد شيدوا مستشفاهم الجديد والذى كان حسب قول وليم أعلى وأكثر تكلفة من كنيسة السيد المخلص. وتطور الاحتكاك إلى نزاع صريح بين البطريرك

وجماعة الاسبتارية عندما كان يلقى خطبة فى كنيسة القبر المقدس. وعلى الرغم من تلك الخلافات فإن جماعة الاسبتارية بوجه عام كانت موضع إجلال لما كانوا يقومون به من دور حربى، ومن أعمال البر فى المدينة، كما كان ينظر إليهم على أنهم أكثر يقظة وتعاطفا مع الحجاج من جماعة الداوية. ووفقا لما ذكره جاك دى فيترى فإن فرسان الاسبتارية وإن كانوا قد أكثروا من أعمال البر ألا أنهم عاشوا على الكفاف وبشكل صارم، ألا أنهم كانوا رحماء واشتهروا بالسخاء والإغداق على الفقراء والمرضى، الذين اعتادوا أن ينادونهم بأسيادهم. وقد كانت لهم سمعة عريضة طيبة كمؤسسة للإحسان إلى الفقراء، على العكس مما فعل الداوية. وحسبما يذكر وليم من ورزبرج فإن الداوية كانوا يخصصون جزءا معقولاً من الزكاة لفقراء المسيحيين، إلا أن هذا لا يعدل عشر مقدار ما كان يقدمه الاسبتارية(١٥).

جماعة الرهبان الداوية العسكرية

ترجع نشأة هذه الجماعة إلى عام ١١١٩م أو عام ١١٢٠م فى بيت المقدس على أيدى اثنين من الفرسان وهما، هيو من باينز، وجود فرى من سانت أومير(١٦). وفى عام ١١٢٨م صدق البابا هونوريوس على ميثاق الجماعة. ومنذ عام ١١١٩م فإن مقدم جماعة الداوية فى بيت المقدس كان يقيم ومعه الوكيل الإقطاعى للجماعة فى معبد سليمان (المسجد الأقصى) فى الجناح الجنوبى حيث كان القصر الملكى. وكان المقدم على رأس الجماعة، بينما كان الوكيل الإقطاعى هو الرجل الثانى بعده وخصوصا فى إصدار الأوامر والتعليمات، يليه رئيس الشرطة أو المارشال، والذى كان صاحب المنزلة الأعلى فى الأمور الحربية. وحتى سقوط مدينة بيت المقدس فإن التسلسل الهرمى لجماعة الداوية كان يشتمل على قائد عام للجماعة فى بيت المقدس، وكان مسئولا عن حماية الحجاج عبر الطرق ما بين بيت المقدس ونهر الأردن. كما كان مسئولا كذلك عن الحالة الصحية لأفراد الجماعة وراحتهم، بالإضافة إلى جمعه ما بين هذه

الاختصاصات واختصاص حماية الصليب المقدس عند الخروج به لسبب من الأسباب. وقد كان له موكبه الدائم الذى خصص له فيه عشرة من الفرسان لمصاحبته باستمرار، ولمساعدته فى أداء واجباته المختلفة.

ولقد قامت جماعة الداوية جنبا إلى جنب الاسبتارية بأداء دور على جانب كبير من الأهمية فى إمداد الكيان الفرنجى فى الشرق بالفرسان جيدى التدريب والتسليح. وكمدافعين عن المسافرين عبر الطرق، فإن جماعة الداوية لعبت دورا على جانب كبير من الأهمية، فى تسهيل مرور الحجاج عبر الطريق الممتدة من الساحل إلى مدينة بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى نهر الأردن، وإلى مناطق زيارة الحجاج الأخرى[١٧].

جماعة فرسان القديس لازار الرهبان

إن مرضى الجذام فى العصور الوسطى من وجهة نظر مسيحية، هم أضعف الضعفاء، وأقرب الناس إلى الرب. لذا فإن رعاية مرضى الجذام كان ينظر لها على أنها عمل من أعمال الإيمان العميق والتواضع. كما أن مستشفى مرضى الجذام فى بيت المقدس لها تاريخ طويل سابق على فترة الحروب الصليبية، فى الوقت الذى يعتبر فيه تاريخ هذه الجماعة غير واضح. ومن المحتمل أن البدايات الأولى لمستشفى القديس لازار ترجع إلى منطقة بيت المقدس[١٨]. ولقد قام القديس باسل بإنشاء مستشفى لمرضى الجذام خارج أسوار قيسارية أواخر القرن الرابع الميلادى، وإن كان من المحتمل وجود مستشفى لهم خارج أسوار بيت المقدس فى فترة مبكرة من القرن الثالث الميلادى. كما أن أحد حجاج بيت المقدس من مدينة بياكنزا يشير إلى استخدام مرضى الجذام المياه من عين سلوان، والتى كانوا يعتقدون فى قدرتها على الشفاء من ذلك المرض[١٩]. وفى الفترة التى تلت الفتح الإسلامى للقدس، فإن مرضى الجذام تم وضعهم فى كنيسة القديس ستيفان وفقا لما ذكره مؤرخ مجهول حيث تم وضع حوالى

خمسين مريضا منهم فيها حوالى عام ٨٠٨ م، كما أن مستشفى مرضى الجذام كانت تقوم برعايتهم فترة الحكم الإسلامى وحتى زمن الحملة الصليبية الأولى كإحدى ثلاث مستشفيات فى المدينة لهم. وهى مستشفى القديسة مريم اللاتينية، ومستشفى القديس يوحنا موزع الصدقات، ومستشفى القديس لازار. وقد كانت تعرف إجمالاً باسم مستشفى بيت المقدس، كما كانت تخضع إداريا لمؤسس الاسبتارية جيرارد. وكان أول ذكر لمستشفى مرضى الجذام زمن الحروب الصليبية جاء فى قصاصة ورق من سجلات جماعة فرسان القديس لازار الرهبان والتى جاء فيها : جماعة رهبان القديس لازار فى بيت المقدس[٢٠]، كما جاء ذكر لموقعها فى قصاصة أخرى يرجع تاريخها لعام ١١٥٠م والتى تشير إلى الإخوة الرهبان الفرسان فى مدينة بيت المقدس. وهناك مؤلف جغرافى مجهول تم تدوينه عام ١١٥٧م وتم استخراجه من عمل مدون فى الفترة ما بين ١١٢٨ و١١٣٧م، جاء فيه أول دليل عن موقع هذه المؤسسة فى القرن الثانى عشر الميلادى. كما أنه يشير إلى مسكن مرضى الجذام الواقع بين برج تانكرد وبوابة القديس ستيفان.

وتحت الحكم الصليبى تحولت المستشفى إلى فرقة رهبان عسكرية تتبع طقس القديس أوغسطين. ومع هذا فإن تاريخ مستشفى مرضى الجذام من الصعب تتبعه، إلا أن مالكولم باربر يرى أن أول مصدر يمكن الاعتماد عليه فى ذلك يمكن الوقوف عليه فى إحدى القصاصات التى قدر لها البقاء من سجلات جماعة رهبان القديس لازار. هذه القصاصة التى يرجع تاريخها إلى عام ١١٤٢م، تذكر أن الملك فولك والملكة ميليسند وابنهما بلدوين منحوا كنيسة ودير القديس لازار قطعة أرض كانت سابقا من ممتلكات بلدوين من قيسارية، وهى واقعة " بين جبل الزيتون والصهريج الأحمر للماء على الطريق المؤدية إلى نهر الأردن ". هذا إلى جانب استحواذ هذه الجماعة على عدة ممتلكات خلف المستشفى فى بيت المقدس، وقد ضمت المستشفى إليها صهريجا آخر قام بمنحه راهب أرمنى مع وثيقة بيع لثلاثة عشر قيراطا من قطعة أرض بالقرب

من بيت لحم، مما يفيد التوسع الدائم لمستشفى مرضى الجذام. وعلى الرغم من أن مثل هذا التصرف يعكس لنا استحواذات مماثلة وتوسعات لفرق الرهبان العسكرية الكبرى، فليس هناك دليل على اشتراك جماعة فرسان مرضى الجذام فى الأنشطة الحربية فى ذلك الوقت. وقد جاء مثل هذا الدليل متأخرا كثيرا، فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، عندما شاركت هذه الجماعة مؤخرا فى القتال عام ١٢٤٤م، وفى حملة لويس التاسع على مصر عام ١٢٥٠م، وكذلك فى عدة معارك لاحقة. وقد كان لجماعة فرسان القديس لازار للرهبان دورها المهم فى بيت المقدس تحت الحكم الصليبى، حيث قام مرضى الجذام - أو بشكل أكثر دقة مرضى كثير من الأمراض الجلدية والتى تم إدراجها فى العصور الوسطى تحت اسم الجذام[٢١]؛ أكثر هذه الأمراض شيوعا - بدور حربى مهم. وقد كان من المتوقع أن ينضم لهذه الجماعة بعض الفرسان من غير رجال الدين، وبعض أعضاء فرق الرهبان العسكرية والذين تعاطفوا مع جماعة مرضى الجذام من أتباع القديس لازار، وخصوصا من جماعة فرسان الداوية، الذين نص ميثاقهم على ذلك، وإن لم تمارس ضدهم أى ضغوط لإجبارهم على الانضمام.

ولقد حظيت مستشفاهم بكثير من دعم البارونات، بل ومناصرة البلاط الملكى، وعلى وجه الخصوص من الملك فولك، والملكة ميليسند، وبلدوين الثالث، وعمورى، وبلدوين الرابع الذى كان أحد مرضى الجذام.

حواشى وتعليقات الفصل الثالث

(١) فى المؤتمر الذى عقده رجال الدين وطبقة النبلاء تم اختيار بلدوين دى بورج (بلدوين الثانى) ملكا لبيت المقدس، والذى كان حفيدا لبلدوين الأول، ووفقا لما ذكره ألبرت من أيخن، فهو أحد الملوك الذين توارثوا العرش. وقبيل وفاته عام ١١٣١م، قام ودون أخذ رأى كبار رجال الكنيسة أو كبار النبلاء بتوريث الحكم والملك ليس فقط لفولك الأنجوى، وهو الذى كان مقبولا من قبل طبقة النبلاء كخليفة، وإنما لزوجة فولك وهى ابنة بلدوين الكبرى ميليسند، ولطفلهما بلدوين. وتمت عملية التتويج بعد وفاة بلدوين الثانى من غير إجراء لعملية انتخاب. وعند وفاة فولك عام ١١٤٣م، فقد تم تتويج ميليسند وابنها الأكبر بلدوين الثالث. وهكذا سارت المملكة فى طريقها المحتوم، وأصبح نظام الحكام وراثيا وبشكل معلن فى بعض الحالات الاستثنائية.

(٢) للحصول على وصف تفصيلى لهذا الذى حدث، راجع أهم المناقشات عن مؤسسة الحكم فى مملكة بيت المقدس، وهو ما كتبه جون لامونت عن الملكية الإقطاعية فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١١٠٠-١٢٩١م، كمبردج، ١٩٣٢م، ص٨٧-١٠٤ .

(٣) انظر: يوشع براور، نظم بيت المقدس الصليبية، فى عمل كل من براور وبن شامى، تاريخ بيت المقدس، القدس، ١٩٩١م، ص١٥٢ (بالعبرية).

(٤) راجع: كوسلر، كتاب مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس، ج١، شتوتجارت، ١٨٣٩م، ص٢١٢، رقم٢٥٧، ومن بين السرجندارية كانت هناك وظيفة لشخص ما مهمته ترتيب حراسة وأمن المدينة. انظر: رايلى سميث، ١٩٧٣م، ص٨٧ .

(٥) نفس المصدر، ص٩٠، حيث جاء ذكر "الريس" فى وثائق القرن الثانى عشر فى القدس، مثل وثائق كنيسة نوتردام فى وادى اليوسيفات، فى الأرض المقدسة (١١٠٨-١٢١٩م)، مجلة الشرق اللاتينى، تحرير كوهلر، ١٨٨٩، رقم١٠، وبريسك بواتيير، أرقام ٩٥، ١١١ , وعن البلاط فى القدس راجع، بريسك بواتيير، رقم ٦٨ .

(٦) ووفقا لما رواه رايلى سميث، فإن الصندوق يتم فتحه فقط فى حضور الملك أو اثنين من كبار رجال الحرس واثنين من أفصاله، والبطريرك أو نائبه فى الضريح المقدس واثنان من رهبان الضريح المقدس، ورئيس شرطة بيت المقدس، واثنين من محلفى المحكمة البورجوازية. راجع: رايلى سميث، طبقة النبلاء الإقطاعية، ص١٣٣ .

(٧) يبدو أن أرنولف لم تكن له شعبية من البداية بين رجال الدين، حيث كتب ريموند الأوجيليرى أنه تم اختياره كبطريرك على عكس رغبة الرجال الطيبين من رجال الدين، والذين احتجوا بأنه لم يكن من كبار الأساقفة، إلى جانب أصله الوضيع. راجع: ريموند الأوجيليرى، باريس،١٩٦٩م، ص١٣١ .

(٨) وهناك بعض المزاعم البطريركية التى انتشرت فيما بعد، ففى عام ١١٢٨م فإن البطريرك ستيفن من شارتر زعم أن بلدوين الثانى اختاره بطريركا رابعا ليافا وكل بيت المقدس، وليم الصورى، ص١٣-٢٥ .

(٩) راجع: جين ريتشارد، المؤسسة السياسية والدينية فى الولايات الصليبية: فى تأسيس كنيسة اللاتين، فى كتاب سيتون: تاريخ الحروب الصليبية، ج٥، ماديسون، ١٩٨٥، ص٢٣٧ .

(١٠) انظر: كيدر "البطريرك هيراقليوس" فى كتاب: ما وراء البحار، دراسات فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، مقدم إلى يوشع براور، القدس، ١٩٨٢م، وأعيدت طباعته بواسطة كيدر: الفرنجة فى الشرق اللاتينى، القرن الحادى عشر -- القرن الرابع عشر، لندن، ١٩٩٣م، ص١٨٢ .

(١١) راجع: رايلى سميث، طبقة النبلاء الإقطاعية، ص١٠٥، وعن مصادر أخرى لهذا الفصل انظر: كيدر (الفرنجة فى الشرق، ص١٧٧-٨) والذى يلقى كثيرا من الضوء على ذلك البطريرك.

(١٢) والهدف من ذلك وفقا لما يرويه وليم الصورى أن ذلك كان محاولة قام بها أرنولف لصرف النظر عن سوء تصرفاته فى حياته، بإجراء العديد من الإصلاحات، ولم يبد وليم أى تعاطف نحوه، راجع: وليم الصورى، ص١١، ١٥ .

(١٣) كان فى الأرض المقدسة العديد من الأديرة البندكتية منذ عهد البابا جريجورى الأعظم. فبعد الغزو الفارسى لها عام ٦١٤م، انتعشت هذه الأديرة، كما أوقف شارلمان على الأقل ثلاثة من هذه الأديرة فى بيت المقدس. وهى القديسة مريم اللاتينية، ودير جبل صهيون، ودير الضريح المقدس. وربما انضم إليهم دير حقل الدم.

(١٤) إن جيرارد هذا مجهول الأصل. إذ يعرف أحيانا بأنه من مارتيجيه، وأحيانا يعرف بجيرارد المبارك. ولعل من آثاره ما يعرف باسم "الذخائر المباركة" والتى تم الاحتفاظ بها فى أحد القدور المغطاة بالفضة والأحجار الكريمة فى كنيسة الاسبتارية عام ١٢٨٣م. انظر: كنج، دور الاسبتارية ومكانتهم وعادتهم ١٠٩٩-١٣١٠م، لندن، ١٩٣٤م، ص١، جيرارد لـ: مستشفى مرضى الجذام فى أيرلندا العصور الوسطى مع ملخص للتاريخ الحربى لفرسان القديس لازار من بيت المقدس، دبلن وبورتلاند، ١٩٩٦م، ص٦٥، أنتونى لوريل "الاسبتارية، المسجلات المدونة مبكرا" فى كتاب جون فرانك: "الصليبيون ومصادرهم، مقالات مقدمة إلى برنارد هاميلتون، ألدرشوت، هامنشير. ١٩٩٨م، ص١٣٨ . لوريل مقال آخر: "الاسبتارية الباكرة" فى كتاب بنيامين كيدر، جوناثان رايلى سميث، رودلف هايستاند: مونت جوا، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية تكريما لهانز إيبر هارد ماير، ألدرشوت، هامبشاير، ١٩٩٧م، ص٣٩، رقم١٤ .

(١٥) يوحنا الورز برجى، ص١٣٥؛ حيث كتب عن "جشع الاسبتارية" والذى ربما كان سببا فى انهيارهم فى القرن الرابع عشر للميلاد.

(١٦) راجع، وليم الصورى (٧٠١٢) يبدو أنه فى حديثه عن عام ١١١٨م الذى اعتبره تاريخ نشأتهم، وكلامه أكثر دقة من غيره. انظر: مالكولم باربر، المملكة الجديدة، تاريخ طائفة المعبد، كمبردج، ١٩٩٥م، ص٨-٩ .

(١٧) عن قلاع الداوية بطول هذا الطريق راجع، دينيس برنجل، "قلاع الداوية على الطريق إلى نهر الأردن". وحديثا، باربر (المحرر): "فرق الرهبان العسكرية، ج١، الحرب من أجل العقيدة ورعاية المرضى، ألدرشوت هامب شاير، ١٩٩٤م، ص١٤٨-٦٦؛ دينيس برنجل. "قلاع الداوية بين يافا وبيت المقدس"، في كتاب هيلين نيكولوسون (المحرر) طوائف الرهبان العسكرية، ج٢، الرعاية الاجتماعية، والحرب، ألدرشوت، هامبشاير، ١٩٩٨م، ص٨٩-١٠٩ .

(١٨) للحصول على مزيد من المعلومات انظر: جورج لي: مستشفيات مرضى الجذام، ص٦٥-,٧٢ فإن القديس لازار، المغطى بكثير من البثرات، كان القديس الأنموذج لهذه المستشفى، وفي كثير من الأحوال يتم تحديد شخصيته بأنه لازار من بيسان.

(١٩) راجع كلستينا ميلاني (المحرر)، يوميات أنطونيتي بلاكتتيني، رحلة إلى الأرض المقدسة - سنة - ٥٦٠-٥٧٠، ميلان، ١٩٧٧م، ص١٦٦-٧، الترجمة الانجليزية،لجون ديلكنسون، حجاج بيت المقدس قبل الحروب الصليبية، القدس، ١٩٧٧م، ص٨٤ .

(٢٠) راجع: آثر دي مارسي (المحرر): قصاصة من وثيقة من وثائق جماعة القديس لازار في الأرض المقدسة، أرشيف الشرق اللاتيني، ج٢، باريس، ١٨٨٤م، وتمت طباعتها مرة أخرى في نيويورك، ١٩٧٨م، رقم٣ .

(٢١) إن مرض البرص الحقيقي ينجم عن ميكروب البرص، وهو ميكروب السل. وهو من الأمراض الجلدية الخمسة، والذي يحدث تشوهات كثيرة في جسم المصاب وفي العصور الوسطى، كانت هناك عدة أمراض جلدية يتم تصنيفها على أنها مرض البرص.

* * *

الفصل الرابع

أحداث مهمة فى حياة المدينة

صحب عودة الحكم المسيحى إلى بيت المقدس إظهار العقيدة المسيحية بشكل واضح للعيان، فى حين أنه قد فُرض عليها كثير من القيود والمعوقات تحت الحكم الإسلامى وتم تحديد أماكن معينة لممارسة شعائرها(*).

كما تم الاحتفال بعدد من الأعياد فى مدينة بيت المقدس، بعضها كانت تصحبه بعض المواكب، والبعض الآخر يتم الاحتفال به بإقامة الصلوات فى الكنائس، فعيد الفصح كان يجذب عددا كبيرا من الحجاج المسيحيين إلى المدينة ليشاركوا فى الاحتفالات التى تقام بهذه المناسبة. ومنها الموكب الذى يبدأ من بيسان[1] قبل شروق الشمس. ففى يوم أحد السعف يتجمع فى بيسان البطريرك ورجال الدين من العديد من الكنائس يصحبهم خازن كنيسة القبر المقدس حاملين صليب الصلبوت، وعندها يخرج سكان المدينة والحجاج المسيحيون حاملين سعف النخيل، وأغصان أشجار الزيتون ويتحلقون حول كنيسة القبر المقدس. وبعد مباركة سعف النخيل وأغصان أشجار الزيتون التى يحملونها، يقوم أحد الأساقفة بقيادة الموكب من منطقة جبل المعبد عبر بوابة وادى يهو

(*) عدم معرفة المؤلف للإسلام واضحة فى هذه العبارة إذ من الثابت أن موقف الإسلام من أهل الذمة واضح تماما، فقد ترك لهم الحرية الدينية كاملة، فمن شاء منهم دخل فى الإسلام وأصبح عضوا فى الجماعة الإسلامية له ما لها وعليه ما عليها، وإن لم يدخل تفرض عليه الجزية فى مقابل تمتعه بالأمن والأمان الذى تحققه جماعة المسلمين، وحتى هذه الجزية كان يعفى منها الأطفال وكبار السن والعجزة. (المترجم)

شافــاط إلى الوادى، حيث يتجمع الفريقان ويتبعان البطريرك إلى البوابة الذهبية، التى يتم فتحها لتسمح لهم بالدخول مرة أخرى إلى المدينة. كما يتضمن هذا الموكب الدوران بالصليب فى معبد سليمان (المسجد الأقصى) وتقام الصلوات خارج وداخل كنيسة القيامة .

وفى يوم الجمعة الحزينة السابقة لعيد الفصح، وفى يوم أحد عيد الفصح كانت تقام كثير من الاحتفالات والشعائر الدينية بهذه المناسبات. وفى عيد الفصح يتم الاحتفال بالنار المقدسة داخل قبة كنيسة القبر المقدس، وتقام الصلوات فى مختلف الكنائس فى المدينة احتفالا بهذه النار، التى عادة ما تظهر فى كنيسة القيامة(٢) أو فى كنيسة القديس يوحنا أكثر من كنيسة القبر المقدس حسبما يروى ثيودريك ذلك. وقد لاحظ كذلك أن موعد هذه النار لم يكن ثابتا، وبعد ظهورها، تدق الأجراس إيذانا بإقامة القداس فى كل كنائس المدينة. ووفقا لما رواه الأسقف الروسى دانيال من كييف، فإن الملك عادة ما كان يشارك فى هذا الحدث باعتباره أحد الأحداث المهمة فى التقويم الكنسى الدينى. ومن المحتمل أنه عند زيارته للمدينة عام ١١٠٧م، كان الملك بلدوين الأول حاضرا هذا الاحتفال ولعب دورا على جانب كبير من الأهمية فى إقامة طقوس ذلك اليوم الدينى(٣).

وكان الخامس عشر من شهر يوليو من كل عام من الأيام الخالدة لبيت المقدس تحت الحكم الصليبى، وهو العيد السنوى للاحتفال بغزو المدينة، وقد كان يعرف بعيد تحرير بيت المقدس. ويروى وليم الصورى أن مرسوما ملكيا قد صدر ينص على أن هذا اليوم يجب أن يكون يوما مميزا، وأن يكرس الجميع أنفسهم لتخليده. ففى اليوم السابق عليه وهو يوم الرابع عشر من يوليو كانت تعقد الاحتفالات فى كنيسة القبر المقدس، متضمنة إقامة الصلوات، وتلاوة المزامير، وتلاوة الترانيم الخاصة بصلاة الغروب، وصلاة منتصف الليل أو الفجر، وتسبيحة الضحى فى الساعات الأولى من النهار. أما اليوم التالى، وبعد الساعات الأولى من النهار يقود البطريرك موكبا من

كنيسة القبر المقدس إلى بقية أنحاء كنيسة القيامة حيث تقام الصلوات فى الجزء الجنوبى المواجه لمدخل معبد سليمان. ثم يغادر الموكب كنيسة القيامة خارجا من المدينة إلى مقبرة الشهداء الذين سقطوا أثناء حصار المدينة وحيث دفنوا هناك(٤). وأخيرا فإن الموكب يشق طريقه إلى المكان الذى اقتحم الجيش الصليبى المدينة منه عام ١٠٩٩ م عند السور الشمالى للمدينة، والذى تم تحديده بوضع صليب خشبى عليه. وهنا يلقى البطريرك خطبة وينتهى الموكب بإقامة الصلوات.

كما كان هناك احتفال على قدر كبير من الروعة حدث عام ١١٤٩م بمناسبة الذكرى الخمسين للغزوة الصليبية لبيت المقدس وفيه تم الاحتفال رسميا كذلك بإكمال الكنيسة الجديدة للقبر المقدس. وتم تخليد هذه الذكرى بإقامة قداس خاص فى الكنيسة الجديدة. وعن ذلك الاحتفال كتب يوحنا الورزبرجى يقول :" لقد كان الاحتفال بذلك اليوم بعد تجديد الصيانة بإقامة قداس إلهى بالإنشاد الدينى فى بداية القداس بالدعاء ببقاء بيت المقدس، وفى نهاية القداس بالدعاء لتكريس هذه الكنيسة لخدمة الرب بأن تكون مكانا له رهبته. ومن المحتمل أن يكون هذا الاحتفال قد تم فى حضور بلدوين الثالث والملكة ميليسند.

وقد لوحظ بعد أربعة أيام من هذا الاحتفال إقامة احتفال دينى آخر كان فى اليوم التاسع عشر من شهر يوليو حسبما يذكر يوحنا الورزبرجى، وقد كان تخليدا لذكرى الدوق جودفرى، بإقامة الصلوات فى كنيسة القبر المقدس، وتوزيع كميات وفيرة من الصدقات، فقد كان جودفرى البوايونى شخصية لها شعبيتها فى تراث الحروب الصليبية، وتم تكريمه ليس فقط لدوره القيادى فى الغزو وتأسيس المملكة ولكن أيضا لورعه وإخلاصه الشخصى. ولقد كان طبيعيا تخصيص يوم لذكراه والاحتفال بها والقيام بكثير من أعمال الإنسانية والمحبة.

كما كانت حفلات التتويج من أهم الأحداث فى حياة المدينة، بالرغم من أن حفلات التتويج الأولى لم تتم فى مدينة بيت المقدس، ذلك أن الدوق جودفرى لم يتم تتويجه ولم

يحمل لقب ملك بيت المقدس، وإن كان بلدوين الأول قد تم تتويجه فعلا ولكن فى كنيسة ميلاد المسيح فى بيت لحم. وكذلك – وعلى ما يبدو– فقد تم تتويج بلدوين الثانى فى عيد رأس السنة عام ١١١٩م، على الرغم من أنه قد تم دهنه بالزيت وتكريسه فى احتفال أقيم فى فترة مبكرة، فى الرابع عشر من أبريل عام ١١١٨م، ومن المحتمل أن ذلك كان فى كنيسة القبر المقدس(٥). ومنذ ذلك الحين فصاعدا وحتى تتويج سيبيلا وجاى صيف عام ١١٨٦م، فإن كل ملوك الفرنجة قد تم تتويجهم فى كنيسة القبر المقدس(٦). أما فى القرن الثالث عشر الميلادى فإن فردريك الثانى وحده هو الذى تم تتويجه فى بيت المقدس.

وهناك القليل من المعلومات التى أمكن التعرف عليها عن كيفية الاحتفال بعملية التتويج، وعن أفراد البلاط الملكى الذين شاركوا فى عملية التتويج هذه. فالمجوهرات الخاصة بالتاج كان يتم إحضارها من المكان الذى كانت تحفظ فيه، ومن المحتمل أن يكون هذا المكان إما فى كنيسة القبر المقدس، أو فى القلعة. وكانت مفاتيح هذا المكان فى أيدى كل من البطريرك، ومقدمى كل من الاسبتارية والداوية. كما كان القهرمان أو الأمير الإقطاعى للملك يترأس احتفال التتويج، حاملا الصولجان، بينما يقوم الياور أو الحاجب بإلباس الملك فى القصر، كما يقوم بحمل السيف الملكى، وعادة ما يقود الموكب من القصر الملكى وحتى كنيسة القبر المقدس، حيث تتم عملية التتويج. ثم يقوم بتسليم الملك التاج، والصولجان وبعض الشعارات والرموز الملكية الأخرى(٧). فى الوقت الذى يقوم فيه حاكم القلعة بحمل الراية الملكية طوال فترة الاحتفال، ثم يسلمها إلى رئيس شرطة المدينة بعد ذلك أثناء قيامه بمساعدة الملك ليركب حصانه. يتبع ذلك احتفال كبير يقيمه النبلاء المشاركون على نفقة الطبقة البرجوازية فى المدينة. وطوال فترة الاحتفال يكون رئيس شرطة المدينة رافعا العلم خلف الملك ويقوم وكيل الملك الإقطاعى بخدمة الملك إلا فيما يتعلق بتقديم النبيذ له، والذى عادة ما يعده الحاجب فى كأس الملك الذهبية. كما يقوم وكيل الملك الإقطاعى أيضا باختيار بعض أبناء الطبقة البرجوازية من بيت المقدس ليقوموا على خدمة الملك. أما عن المكان الذى يقام فيه الاحتفال فليس

من المعروف على وجه التحديد، لكن من الواضح أنه كان بعيدا عن القصر الملكى[٨]، حيث ورد أنه بعد الاحتفال كان حاكم القلعة عادة ما يرافق الملك حتى قصره.

ومما لا شك فيه أن احتفالات التتويج واتخاذ الشعارات الملكية للملوك الصليبيين قد تأثرت كثيرا بما كان معمولا به فى البلاط البيزنطى. حيث لاحظ بيانكا كوهنيل أن هناك تشابها بين شارات السلطة الصليبية، الموجودة على الأختام الصليبية، وبين تلك البيزنطية التى تظهر فى الاحتفالات. ففى تتويج أول إمبراطور فرنجى وهو بلدوين الأول، الذى تم تتويجه فى القسطنطينية فى السادس عشر من مايو عام ١٢٠٤ م ظهر أن عملية التتويج لم تكن مشابهة لما سبق ذكره[٩].

وهناك احتفالية أخرى ربما تم عقدها فى بيت المقدس، وهى احتفالية تقلد المناصب للقادة الفرنجة. فوليم الصورى يرجع إلى مثل هذه الاحتفالية التى حدثت فى عيد رأس السنة لعام ١٠٩٩م، والتى قام فيها البطريرك بمنح كل من جودفرى وبوهيموند قطعا من الأرض باسم الكنيسة[١٠].

كما كانت الأعراس الملكية مناسبات رائعة فى حياة المدينة تماما مثل الجنائز. فلقد وقع جودفرى البوايونى صريعا فى قيسارية فى بدايات شهر يونيو عام ١١٠٠م، بعد أن ظل طريح الفراش لمدة خمسة أشهر فى بيت المقدس، ومات فى اليوم الثامن عشر من يوليو عام ١١٠٠م وعم الحزن عليه في كل مكان لمدة خمسة أيام قبل دفنه، ولدينا بعض التفاصيل عن الاحتفال الجنائزى الذى أقيم له. فلقد عم الحزن كل مكان قبل أن يتم دفن جودفرى أمام كنيسة آدم الصغيرة أسفل الكنيسة التى صلب فيها المسيح. وهى عادةٌ كان يتم إجراؤها عند دفن الملوك حتى سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧م. فلقد مات بلدوين الأول فى اليوم الثانى من أبريل عام ١١١٨م فى العريش شمالى سيناء، ووصل جثمانه إلى بيت المقدس يوم أحد عيد السعف وجرى موكب دفنه مصادفة فى يوم الاحتفال بيوم أحد السعف، وكان على رأس الموكب الجنائزى بطريرك بيت المقدس عند هبوطه جبل الزيتون إلى وادى يهو شافاط، وتم دفن بلدوين جنبا إلى

جنب جودفرى فى نفس الرقعة أمام كنيسة أدم. أما الملك التالى، فهو بلدوين الثانى، والذى مرض صيف عام ١١١٣م، وتم حمله إلى أعلى قصر البطريرك، على أمل أن يلقى مصيره المحتوم قريبا من القبر المقدس. وفى اليوم الحادى والعشرين من شهر أغسطس تم دفنه فى احتفال ملكى بعد مسحه بالزيت فى رقعة من الأرض إلى الشمال من التابوت الحجرى لبلدوين الأول. أما الملك فولك فقد مات بالقرب من عكا فى العاشر من نوفمبر عام ١١٤٣م، وقامت جموع الشعب ورجال الدين باستقبال موكبه الجنائزى عند وصوله إلى بيت المقدس، وتم حمله إلى كنيسة القبر المقدس. وبالنسبة لبلدوين الثالث فقد مات بعيداً عن بيت المقدس فى بيروت فى العاشر من فبراير عام ١١٦٣م، وحمل جثمانه إلى بيت المقدس ليدفن جنبا إلى جنب الملوك الآخرين. وعن وفاة عمورى، فقد حدثت فى الحادى عشر من شهر يوليو عام ١١٧٤م وتم دفنه بجوار أخيه بلدوين الثالث. أما بلدوين الرابع فقد مات بعد فترة معاناة طويلة مع مرض الجذام فى مارس عام ١١٨٥م. وبالنسبة للملك الطفل بلدوين الخامس، فقد مات فى صيف عام ١١٨٦م، بعد أقل من عامين من توليه العرش. وبالرغم من عدم وجود أوصاف محددة عن الاحتفالات الجنائزية، إلا أننا نستطيع أن نزعم أنها قد أجريت من خلال مواكب دينية ضخمة، وكان يحضرها كثير من أفراد الأسرة الملكية، وكبار رجال الدين من أصحاب المقام الرفيع، وممثلون عن طبقة النبلاء.

ومن حين لآخر، كانت هناك بعض الأحداث القومية المهمة التى تم الاحتفال بها فى مدينة بيت المقدس، وخصصت لها كثير من المواكب، فمن بين هذه الأحداث، كانت المناسبات التى يتم الاحتفال بها عند عودة جيش الفرنجة منتصرا فى إحدى المعارك، حيث يذكر لنا فولشر الشارترى أنه فى اليوم التاسع والعشرين من مارس عام ١١٢٣م، وبعد عودة الجيش الفرنجى منتصرا فى معركة أشدود، عاد البطريرك إلى بيت المقدس ومعه صليب الصلبوت، حيث تم استقباله خارج بوابة داود بموكب للنصر، انتهى بتقديم أسمى معانى التكريم داخل كنيسة القبر المقدس على ذلك النصر الذى تم إنجازه.

كما أنه من الواضح أن بقايا الصليب الحقيقى كانت من أهم الذخائر المقدسة ذات المهابة والتبجيل والتوقير فى مملكة بيت المقدس. فقد كان يتم استخدامها فى الاحتفالات الخاصة بتتويج الملوك وتتقدم المواكب فى الأعياد، وعادة ما كان يتم حملها فى المعارك الحربية. ووفقا لما جرى عليه العرف فإنه تم اكتشافها على يد هلينا أم الملك قسطنطين، فى أحد الكهوف إلى الشرق من القبر المقدس، ومعها الشاكوش والمسامير التى استخدمت فى صلب المسيح وكذلك التاج المصنوع من الشوك. وتم الاحتفاظ بها فى كنيسة قسطنطين حتى عام ٦١٤م، حيث استولى عليها الفرس عند غزوهم للمدينة. وإن كان الإمبراطور هرقل قد استردها عام ٦٢٨م وأعادها إلى بيت المقدس حيث تم الاحتفاظ بها ووضعها فى صندوق فى كنيسة القبر المقدس. وفى عام ١٠٩٩م -من المحتمل فى بدايات شهر أغسطس- تم الكشف عن قطعة أخرى من الصليب مغطاة بالفضة فى ركن منعزل من الكنيسة. وتم العثور عليها حسبما يروى وليم الصورى عن طريق أحد السوريان حيث رآها مختبئة هناك منذ وقت مبكر. وقام الصليبيون بوضعها فى وعاء تحفظ فيه الذخائر الدينية، وصفه ابن الأثير بأنه مصنوع من " الذهب المحلى باللؤلؤ والأحجار الكريمة "، فى حين وصف ثيودريك ذلك الوعاء بأن به صليبا كبيرا أدخل فيه قطعة من صليب السيد المسيح، كما لاحظ أن جزءًا كبيرا من خشب الصليب الحقيقى تم وضعه فى صندوق مصنوع من الذهب والفضة. ولقد حفظه السوريان فى كنيسة صغيرة تم تكريسها للصليب المقدس تقع فى اتجاه الشمال على الجانب الأيسر من تلك الكنيسة. كما كانت هناك قطعة ثالثة كبيرة احتُفِظ بها فى كنيسة صغيرة أبعد قليلاً ناحية الشرق. هذه القطعة كانت مغطاة بالذهب، والفضة، والمجوهرات وتم حفظها فى صندوق جميل. وقد تم تعيين موظف حكومى يدعى The Scriniarius أى حامى الذخائر المقدسة لحراسة هذه الذخائر المقدسة مع الصليب الحقيقى(١١).

وعن أهمية الصليب المقدس، فليس مما يثير الدهشة أن نعرف أن الصليب الحقيقى قد لعب دورا على جانب كبير من الأهمية فى المفاوضات التى جرت بين صلاح

الدين والفرنجة فى أعقاب سقوط بيت المقدس الصليبية عام ١١٨٧م. كما أن صلاح الدين قام بنفسه بتقديم عرض للملك ريتشارد بمنحه الصليب أثناء إقامته فى الشرق عام ١١٩٢م، وأن رسول الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى قدم طلبا لصلاح الدين للحصول على الصليب فى محاولته للوصول إلى اتفاق مع صلاح الدين فى مايو. وإن لم يتحقق شىء من هذه المحاولات والعروض وبقى الصليب الحقيقى فى حوزة المسلمين، وقد كان يتم إظهاره من حين لآخر للحجاج المسيحيين الذين يزورون بيت المقدس وسرعان ما يختفى بعد ذلك(١٢).

حواشي وتعليقات الفصل الرابع

(١) لم يأت الحجاج المسيحيون من الغرب الأوربى فقط، بل ومن البلاد المسيحية المجاورة، وفى أحد المصادر المتأخرة، (يذكر المقريزى أن أعداد كبيرة منهم كانوا يأتون من مصر، وقد ذكر هذه المعلومة م. الحيارى فى كتابه "بيت المقدس الصليبية"، ص١٦٤، رقم ٨٨ .

(٢) وهناك وصف شيق لمعجزة النار المقدسة أورده ابن القلانسى، حيث ذكر استخدام قضيب معدنى مدهون بالزيت مشتعل، يسمح للنار بالمسير بين القناديل، حيث يقوم أحد رجال الدين سرا بإشعال النار فى خليط من البلسم وزيت الياسمين. انظر: إف إى بيترز: النار المقدسة، فى القرون الإسلامية، نيويورك، ١٩٩٣م، ص٩٤-٩٥ .

(٣) وفقا لما ذكره الحاج دانيال، ففى يوم السبت، فى حوالى الساعة السابعة، فإن الأمير بلدوين جاء مترجلا إلى القبر المقدس. وهنا وقف إلى اليمين من مدخل الضريح بالقرب من المذبح المقدس، وعند أواخر الساعة التاسعة، فجأة أضاءت النار القبر المقدس وبشكل يدعو للدهشة. ثم قام أحد الأساقفة يتبعه أربعة من الشمامسة بفتح أبواب الضريح، ثم دخل ومعه شمعة الأمير بلدوين لإشعالها أولا من النار المقدسة، ثم عاد إلى الأمير حيث سلمه شمعته بعد إشعالها بكل مظاهر البهجة، والسرور. راجع دانيال، ص٨٦-٨٨ .

(٤) انظر: يوحنا الورز برجى، ١٨٩٠م، ص٤٠، حيث يذكر أن هذا الحدث ربما لم يتم تخليده فى التاسع عشر، ولكن فى الثامن عشر من يوليو كذلك. وهو يوم وفاة جودفرى ويوم النصر عام ١٠٩٩م، وهو الذى يتم فيه تخليد ذكرى من ماتوا أثناء عمليات الحصار.

(٥) يذكر وليم الصورى أنه فى اليوم السابق على احتفالات التتويج التى كانت تحدث فى القدس عام ١١١٨م. ففى يوم عيد البعث المقدس، كان بلدوين دى بورج الوحيد الذى يتم تكريسه بالزيت حسب العادة، وحيث يقوم البطريرك أرنولف بوضع شارات الملك عليه. راجع: وليم الصورى، وفيما بعد كان يتم هذا فى عيد رأس السنة. ففى عام ١١٢٠م، تم تتويج بلدوين مع زوجته فى بيت لحم (وليم الصورى، ١٢٠١٢) على الرغم من أن التتويج قد سبق فى بيت لحم. إلا أن الترسيم كان يتم فى بيت المقدس. وبعد كل ذلك وحسبما يذكر هانز إيبرهاردماير: أن التتويج ليس هو الذى يجعل من الملك ملكا، ولكن ما يجعله ملكا هو الاختيار. أنظر: ماير: الملوك والوردات فى مملكة بيت المقدس الصليبية، أشجيت، ١٩٩٤م، ص٥٤٠ .

(٦) لقد تم تتويج فولك الأنجوى فى الرابع عشر من سبتمبر ١١٣١م، وتم تتويج ميليسند وبلدوين الثالث فى ٢٥ ديسمبر ١١٤٣م، وعمورى يوم ١٨ فبراير ١١٦٣م، وبلدوين الرابع فى يوم ١٥ يوليو ١١٧٤م، وبلدوين الخامس يوم ٢٠ نوفمبر ١١٨٣م.

(٧) عن تفاصيل الاحتفال راجع: يوشع براور، مملكة اللاتين، ص٩٨-١٠١ .

(٨) يرى براور أن التتويج قد تم فى معبد سليمان، انظر: براور، مملكة اللاتين، ص١٠١، وعلى أية حال، ومع مرور الوقت تطور الاحتفال، ولم يعد معبد الرب هو مكان القصر الملكى.

(٩) عن شارة السلطة، انظر: بيانكا كوهنل: فن الحب الصليبى للقرن الثانى عشر، برلين، ١٩٩٤م، ص٧٧، وعن وصف الاحتفال بالإمبراطور بلدوين انظر: ميخائيل .ف هنرى، كتالوج العملات البيزنطية، فى مجموعة دامبيرتون أوواكس وفى مجموعة ويتمور، ج٤، واشنطون، د.س، ١٩٩٩م، ص١٤٣ .

(١٠) يفترض آلان مورى أول أغسطس على أنه التاريخ الذى وجد فيه، ذلك لأنه تم فيه اختيار الحاكم والبطريرك، ولكن قبل معركة عسقلان والتى تم فيها الاستيلاء عليها. انظر فرانك وزاجاك (المحررين) (الحروب الصليبية ومصادرها)، ص٢٢٠ .

(١١) أهمية هذا الحدث، أنه تم على يد أرنولف من شويكى، انظر، هانز إيبرهار ماير، حوليات بيت المقدس، الأرشيف الألمانى للحروب الصليبية، ٤٤، ١٩٨٨م، ملاحظات رقم ٢٠، ٢٢ .

(١٢) نسخة ثانية من الصليب المقدس (ربما هى النسخة التى احتفظ بها السريان) والتى لم يتم اصطحابها فى المعارك عام ١١٨٧م، والتى كانت فى حوزة الفرنجة وقت سقوط المدينة فى شهر سبتمبر، راجع: بنفنستى، ١٩٧٠م، ص, ٤٤ وربما كانت نفس القطعة المتبقية والتى استخدمت فى رفع العلم الصليبى عليها أثناء الحملة الخامسة. والتى حملها بطريرك بيت المقدس. انظر: توماس س. فان كليف و"الحملة الصليبية الخامسة" فى كتاب، سيتون، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٩٠ .

* * *

الفصل الخامس

التعليم والحياة العقلية

إن الدليل على وجود مؤسسات للتعليم العالى فى مدينة بيت المقدس تحت الحكم الصليبى ضئيل جدا. وإن كانت هناك بعض المنشآت لهذا الغرض وبشكل واضح، فإن مجموعها على ما يبدو كان قليلا جدا، وخصوصا عندما نعقد مقارنة بينها وبين مثيلاتها فى الغرب الأوربى والمعاصرة لها. ومن المؤكد وجود مراكز للدراسات اللاهوتية في المدينة، مثل المدرسة الكاتدارئية فى القبر المقدس، والتى كان أحد رؤسائها هو الكاردينال يوحنا البيزى. وعلى أيامه ربما درس واحد من أشهر نتاج الحياة العقلية في مملكة بيت المقدس وهو مؤرخ المستقبل ورئيس الأساقفة وليم الصورى والذى تعد أعماله من أهم المؤرخات المعاصرة فى الشرق اللاتينى، ومنها تاريخ ما تم من أعمال فيما وراء البحار، وكتاب ضائع فى تاريخ حكام الشرق، وكلاهما تمت كتابته تحت رعاية الملك عمورى. وربما كانت مثل هذه المراكز وخصوصا تحت إشراف مثل هذه الشخصية المتميزة وهى شخصية يوحنا ذات إمكانيات محدودة، وشبه منعزلة عن الحياة العقلية فى الغرب الأوربى، لدرجة أن بنيامين كيدر يذهب إلى أبعد من هذا، عندما يقرر أنه من المستحيل تعقب التعليم فى مدرسة الكاتدرائية، أو فى أى مكان آخر فى الشرق اللاتينى[١]. ولهذا، فإن معظم أصحاب العقول المستنيرة، أمثال وليم الصورى، قضوا عدة سنوات للدراسة فى مؤسسات فى الغرب.فمن بين القلة المستنيرة في الأرض المقدسة بعض رجال الدين من بيت المقدس أمثال روجيرو فرتيل، الذى كتب رسالة عن الأماكن المقدسة، واثنان من

رؤساء أديرة الرهبان أتباع القديس أوغسطين هما أكارد وجيو فروى، وقد كتبا قصائد شعرية عن معبد الرب(٢).

وإذا ألقينا نظرة على المستشفيات فى بيت المقدس آنذاك، سنجد إحداها قد كانت كبيرة جدا وبها حوالى ١٤٣ طبيبا وممرضا، وتضم حوالى ألفين من المرضى، مما يجعلنا نفكر فى إمكانية وجود نوع ما من المؤسسات لدراسة العلوم الطبية(٣). ربما كانت كلية طبية صغيرة، ملحقة بالمستشفى نفسها(٤). ومما لاشك فيه أن الطب وبعض العلوم الأخرى كانت تدرس بشكل خاص، حيث إن هناك من الدلائل الواضحة ما يشير إلى أن بعض الفلاسفة، والأطباء، وبعض المتعلمين فى فروع أخرى من المعرفة قد قاموا بالتدريس فى مدينة بيت المقدس، وربما درسوا فى الغرب الأوربى أو فى البلاد المحيطة(٥).

ولذلك، إذا نظرنا إلى فترة التدريب على ممارسة كثير من أنواع التجارة وفق شروط نجد أن منها ما يعتمد على الممارسة العملية والتعليم المباشر فى الدكاكين والورش، بينما تمت دراسة بعض فروعها فى المدارس. وهو ما ينطبق تماما على عملية كتابة الوثائق، وعملية التثقيف، والحفر، والتلوين والرسم على اللوحات الجصية، وممارسة بعض الفنون الجميلة. ولسوء الحظ - وباستثناء بعض الأضواء التى سلطها هوجو بوختال وجيروسلاف فولدا على حجرة النسخ فى دير القبر المقدس أو المرسم- فإن المصادر، وبالتالى المؤرخين المحدثين صمتوا بهذا الخصوص.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الخامس

(١) راجع: بنيامين ز. كيدار: "الأنشطة الثقافية فى المدينة المقدسة، القدس فى القرن الثانى عشر، فى كتاب بنيامين كيدر، ويربلوسكى، الفضاء المقدس، المقدسات، المدينة، الأرض، نيويورك، ١٩٩٨م، ص١٣٥ .

(٢) هذه قائمة للأسف محيرة جدا. وهذا الأسف ناجم عن قلة الجهود العلمية التى تتعلق بالحياة الثقافية فى بيت المقدس زمن الحروب الصليبية. ويرى كيدار أن الشعر الذى نظمه جودفرى لم يتم نشرة بالكامل وهذا دليل واضح على قلة تلك الجهود، نفس المصدر، ص١٢٩ .

(٣) عن مستشفى القديس يوحنا انظر: بنيامين ز كيدر: "وصف من القرن الثانى عشر لمستشفى القديس يوحنا فى القدس، فى: نيكولسن، فرق الرهبان العسكرية"، ص٣-٢٦ .

(٤) راجع: رايلى سميث: فرسان القديس يوحنا، ص٣٣٥، حيث يذكر وجود مدرسة لتعليم الطب فى القدس.

(٥) راجع: إيتان كوهلبرج، بنيامين كيدر، "طبيب ملكى فى بيت المقدس زمن الفرنجة، وفى دمشق زمن الأيوبيين: موفق الدين يعقوب بن صقلب"، مجلة الدراسات الآسيوية والأفريقية، العدد ٢٢، حيفا، ١٩٨٨، (وتمت إعادة طبعها فى كتاب بنيامين كيدر: الفرنجة فى الشرق اللاتينى من القرن الحادى عشر إلى الرابع عشر، أشجات، ١٩٩٣م، ص١١٦-١٨ .

* * *

الفصل السادس

سكان بيت المقدس

كما سبق أن لاحظنا فإنه باحتلال بيت المقدس عام ١٠٩٩م، وبطرد سكانها المسلمين واليهود، بقيت المدينة فى غالب الأحوال شبه خالية من السكان. وغادر معظم الصليبيين بيت المقدس فور احتلالها، ومع بداية الحكم الفرنجي للمدينة حدث تناقص مستمر فى قوات الصليبيين(١). أما من تبقى فيها فقد كانوا عددا قليلا من الجنود، وبعض المسيحيين الشرقيين، وبعض أعضاء رجال الدين اللاتين.

وكانت الأحوال داخل المدينة تبعث على الأسى، حيث وصف لنا وليم الصورى كيف انتهز اللصوص الفرصة فى مدن مملكة بيت المقدس الخاوية من السكان، وكيف أن المشكلات السكانية من ولادة، ووفيات، ورعاية الشئون الصحية، وتوفير احتياجات السكان اليومية كانت على درجة كبيرة من الصعوبة بحيث لم يستطع أحد التخفيف من ويلاتها. إلا أنه بمرور حوالى عقد ونصف ظهرت بعض المؤشرات على حدوث بعض انفراج فى الأزمة(٢). وبمنتصف القرن الثانى عشر للميلاد تقريبا تحسنت الأحوال نوعا ما، حيث تشير بعض المصادر إلى جماعات من المستوطنين الذين أتوا من الغرب الأوربى ومن الشرق. من ذلك ما يرويه لنا يوحنا الورز برجى من إشارات تصور المناخ العالمى الذى ساد المدينة آنذاك، ذلك لأنه تواجد فيها يونان، وبلغاريون ولاتين، وألمان، وهنغاريون، وسكوتش، ونافاريون، وبريطانيون، وإنجليز، وفرنجة وأناس من بوهيميا، وجورجيون، وأرمن، ويعاقبة وسوريان، وهنود، ومصريون، وأقباط، وموارنة وآخرون

كثيرون من كل مكان. وبذلك تحققت للمدينة صفتها العالمية من خلال ما تم ذكره واستعادت مكانتها الدولية، وذلك إلى جانب استيطان عائلات مسيحية شرقية للجزء الشمالى الشرقى للمدينة، جاءوا إليها من الأردن، حيث جذبتهم التجارة مع بيت المقدس، وتحسين أحوال غالبية سكانها بإعفائهم من الضرائب التى كانوا يدفعونها على سلع معينة قام بجلبها التجار إلى داخل المدينة، فضلا عن ازدهار الحج المسيحى إليها، ووضع حد لغياب القوانين العامة التى كانت تعوق حق الملكية العامة للأراضى. وإن كان الحج المسيحى وازدهاره قد أعاد الشباب إلى حياة المدينة أكثر من أى شىء غيره، وذلك عن طريق تحديد الأماكن الخاصة بالحج، وإعادة بناء الكنائس، وبوجه خاص كنيسة القبر المقدس، وتشييد أماكن لنزول الحجاج وتوفير الرعاية لهم، والمستشفيات، والأسواق، وإيجاد أماكن للصرافة وبعض المنشآت الأخرى التى كان هدفها إحياء حركة الحج المسيحى، التى كانت مرادفة فى العصور الوسطى لصناعة السياحة حاليا. ولقد برهنت هذه التوجهات المتداخلة على مدى تأثيرها الفعال. وقد تم تقدير عدد سكان بيت المقدس بحوالى ٣٠,٠٠٠ ، وهو عدد مساو لسكان أهم ميناءين هما عكا وصور، وربما كان هذا العدد مساويا لسكان كل من مدينة بيزا، أو فلورنسا، أو لندن.

ولدينا تصوير رائع لسكان بيت المقدس جاء فى كتابات حجاج بيت المقدس المجهولين. ووفقا لهذا النوع من المصادر، فإن الفرنجة كانوا عراة الرأس، نظيفين، حالقى اللحى، بينما كان الروم من ذوى اللحى الطويلة. وكان يقوم السوريان بتهذيبها. أما الكرج أو الجورجيون فقد كانت لحاهم وشعور رؤوسهم طويلة. كما أن رجال دينهم كانوا يقصون شعورهم على شكل مستدير، أما غير رجال الدين فكانوا يجعلونها مربعة الشكل. ولسوء الحظ لا نجد شيئا من المعلومات التى تصف ملابس سكان بيت المقدس زمن الحكم الفرنجى. ومع هذا فإنه بمقدورنا التحدث قليلا عن مظهر أعضاء فرق الرهبان العسكرية وشكل ملابسهم مما جاء فى بعض المصادر التى تناولت نظم فرق

الرهبان العسكرية. فقد جاء فى إحدى الامتيازات البابوية للداوية أو فرسان المعبد عام ١١٤٥م أنه مسموح لهم بارتداء عباءة طويلة بيضاء ذات غطاء للرأس يتدلى منها، ولها حزام (مثل ملابس السسترشيان) ، وفى أعلاها قطعة قماش على شكل صليب أحمر اللون فى الجهة اليسرى العلوية من الصدر. ووفقا لما جاء فى وصف أكثر تفصيلاً عن نظامهم، فإن الرهبان الفرسان كانوا يرتدون ملابس الرهبان البيضاء، والسوداء، والبنية اللون ومعها عباءة تدل على الطهارة والنقاء والبراءة. كما أن ملابسهم لم يتم تزيينها بأية حلى مبهرجة مثل الفراء. بينما ارتدى فرسان الاسبتارية عباءة سوداء (مثل ملابس رهبان القديس بندكت وملابس رهبان القديس أوغسطين) وفى أعلى الصدر تم تزيينها بصليب أبيض. أما فرسان مرضى الجذام أو فرسان جماعة القديس لازار فقد ارتدوا أثوابا سوداء وبيضاء ذات صليب أخضر اللون. وبسبب الحر فى الصيف، فإن الداوية قد سمح لهم بارتداء قمصان بيضاء من الكتان. أما عن أرجلهم فقد ارتدوا أحذية طويلة الرقبة، أما الأحذية المدببة والأحذية ذات الأربطة فقد كانت ممنوعة، ومن هذا نستطيع أن نستدل على أن الأحذية المدببة وذات الأربطة كانت موضة شائعة لدى بقية السكان. وعن التسلسل الزمنى والهرمى لهذه الجماعة، فمن المعتقد أن ذلك يرجع إلى عام ١١٦٥م، وهناك ذكر لبعض الملابس المحلاة بفرو السنجاب، والتى كان فى مقدور مقدم الجماعة أن يمنحها كعطايا لبعض أصدقاء الجماعة من النبلاء.

طبقات المجتمع

تم تقسيم سكان بيت المقدس إلى طبقات من السهل التمييز بينها وهى طبقة النبلاء، والطبقة البرجوازية. كما كانت هناك تقسيمات أخرى داخل تلك الطبقات، فالطبقة البرجوازية كانت تضم العمال، والفقراء، الذين لم نسمع عنهم إلا نادرا، ولكنهم كانوا يشكلون جزءا معقولاً من جماعة مواطنى المدينة.

أما طبقة النبلاء اللاتين فقد كان لها تسلسلها الهرمي، فقد تكونت من كبار النبلاء، والبارونات، والشريحة الأقل وهم جماعة الفرسان. ولقد بنيت الفوارق على أساس الوضع الاقتصادى بشكل أساسي، والأصول العرقية العائلية[٣]. فالشريحة الأقل منزلة وهى جماعة الفرسان، شكلت الغالبية العظمى، وهم الذين سماهم المؤرخ يوشع براور "المحاربين البسطاء ذوى الرواتب ". فكثير منهم كان أكثر فقرا من العامة، ولكنهم تمتعوا بمكانة عالية وبالامتيازات التى استتبعتها.

أما الطبقة البرجوازية فقد كانت طبقة جيدة التنظيم من غير النبلاء، من التجار، وأصحاب العقارات (والتى كانت غالبا ممتلكات المدينة أو بعض المنشآت القريبة والتى تم امتلاكها داخل نطاق المدينة)، مع طبقة من أهل الزراعة ذوى أصل ريفى، أو ممن كانوا سابقًا من العبيد، إلا أنهم فى الشرق سرعان ما انخرطوا فى الحياة المدنية وإن كانوا مختلفين تمامًا بمقارنتهم بسكان المدن من غير النبلاء فى الغرب. وهؤلاء هم الذين شكلوا الهيئة المعاونة للخدمات الحربية، وبوجه خاص فى حالة الدفاع عن المدينة، وإن كانوا قد شاركوا فى الغزوات الحربية، ودفع الإيجارات الاسمية التى لا تكاد تذكر.

وكان أبناء الطبقة البرجوازية فى بيت المقدس منغمسين فى أمور الحياة اليومية. وكان منهم الدباغون، والحدادون، والخبازون، والطهاة، وباعة الخمور، وكثير من أرباب الحرف الأخرى والباعة. كما لم تكن هناك نقابات فى الشرق اللاتينى، ولكن هناك طوائف حرفية ربما كانت تجمعهم، مثل طائفة الصناع، والتى جاء ذكرها فى إحدى الوثائق لعام ١١٣٥م.

وفى داخل الطبقة البرجوازية كانت هناك شريحة تتكون من التجار الفقراء أو صغار التجار، وأناس لا ملكية لديهم. كما لم يكن هناك خدم من اللاتين فى الشرق، بالرغم من إمكانية وجود بعض التشابه بين الخدم فى أوربا والسكان غير المسيحيين فى مملكة بيت المقدس. وعلى أية حال، فإن هذا التشابه كان شبه منعدم فى بيت

المقدس الصليبية، حيث إن السكان غير المسيحيين لم يكن لهم وجود يذكر؛ وإن كانت هناك بعض الإشارات التى تُظهر وجود ما يمكن أن نسميهم الطبقة الفقيرة الحقيقية إلى حد ما. ففى المصادر المدونة يرد ذكرهم من وقت لآخر وخصوصا فى بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى. وأول هذه الإشارات، أن أحد الألمان على وجه التحديد قد بنى عدة أسبلة فى المدينة لتمد فقراء المدينة بمياه الشرب. وثانيها : أن هذا الشخص نفسه جمع عدة عمال فى أحد أحياء المدينة لتنفيذ أحد مشاريعه الإنسانية. هؤلاء العمال كانوا يمثلون جزءا من العاطلين عن العمل فى المدينة، والذين كانوا يتناقصون بسبب انهماكهم فى أى عمل يؤدونه من يوم لآخر. وثالث هذه الاشارات أن عددا كبيرا من الأطفال كان قد تخلى عنهم آباؤهم، وكانت جماعة فرسان الاسبتارية مضطرة لإعالتهم[٤]. ورابعا أنه بعد استرداد صلاح الدين للمدينة عام ١١٨٧م، فإن عدداً كبيراً من سكان المدينة ربما وصل إلى ٢٠,٠٠٠ لم يكن فى استطاعتهم أن يفتدوا أنفسهم على الرغم من أن الفدية المطلوبة لم تكن كبيرة، فهى عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، وديناراً واحداً للطفل[٥].

الجماعات

بعيدا عن المكانة الاجتماعية، فإن سكان بيت المقدس كانوا مقسمين إلى جماعات ذات نظم مشتركة دينية أو عرقية. والدليل على هذا ما ذكره كل من يوحنا الورزبرجى، والحاج المجهول، فقد قسما السكان إلى : الفرنجة (اللاتين)، والروم، والسوريان، والأرمن، والكرج، واليعاقبة، والنساطرة. فاللاتين كانوا يتكونون من الألمان، والاسبتارية، والفرنسيين، والإيطاليين وبعض الأمم الأوربية الأخرى. ومن الطبيعى أن تختلف العلاقات بين الفرنجة الحاكمين، والجماعات المسيحية. فقد سمح اللاتين لأتباع الكنيسة الشرقية أن يحتفظوا بكنائسهم، باستثناء كنيسة القبر المقدس والتى تم طرد جميع المسيحيين الشرقيين منها مباشرة بعد نجاح الغزو عام ١٠٩٩م. وعندما تم فتح

الكنيسة الجديدة عام ١١٤٩م، سمح للأرمن واليعاقبة بالعودة إلى الأديرة الصغيرة فى الجزء الغربى فى الفناء الجنوبى(٦). كما أن الزواج المشترك وعلى كل المستويات يدل على العلاقة بين اللاتين والجماعات المسيحية الشرقية، على الرغم من الإبقاء على الفوارق المذهبية. ويذكر لنا هانز إيبرهارد ماير أن الطبقة البرجوازية من الفرنجة قد قامت بعدة انتهاكات فى القرن الثانى عشر الميلادى، فى شئون الحياة اليومية، عند استقبال الملك أثناء عيد التتويج، أو الإدلاء بالشهادة على العقود الخاصة بالفقراء، ولم يحدث مثل هذا عند الروم أو المسيحيين السوريان الموجودين فى بيت المقدس.

الفرنجة (اللاتين)

إن مصطلح "الفرنجة" لا يعنى بالضرورة الشخص الذى من أصل فرنسى أو من الأراضى المتحدثة باللغة الفرنسية. فهو مصطلح عام كان يطلقه الشرقيون فترة الحروب الصليبية على أى شخص قادم من الغرب الأوربى(*).

وهكذا يمكن استخدامه للدلالة على أى شخص ألمانى، أو إيطالى، أو إسكندنافى(٧). فالألمان كانوا يشكلون مجموعة متميزة من بين الحجاج فى العصور الوسطى. وهذا حقيقى، ليس فقط فترة الحروب الصليبية، بل وفى الفترة الفاطمية، ففى إحدى الحالات المميزة فى عام ١٠٦٥م، وصل موكب من ١٢,٠٠٠ من الحجاج من ألمانيا وهولندا إلى بيت المقدس.

كما أن الإيطاليين، شكلوا جماعة مهمة من جماعات الفرنجة فى المدن الساحلية الكبيرة، وإن كانوا من الندرة فى بيت المقدس. كما تم التعرف على بعض الجماعات

(*) لقد جانب المؤلف التوفيق، ذلك لأن مصطلح الفرنج أو الفرنجة لم يطلقه الشرقيون فقط بل أطلقة المؤرخون اللاتين، مثل المؤرخ المجهول صاحب كتاب : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، (المترجم).

الأخرى من خلال ذكرهم وبشكل مختصر فى الوثائق، مثل الهنغاريين أو المجريين، والإسبان، وبعض الجنسيات الأخرى.

الروم (اليونانيون)

لقد عرف الروم (اليونانيون) كذلك باسم أتباع مجمع خلقيدونية وهو المجمع المسكونى الذى عقد عام ٤٥١م، والذى حرم القول بالطبيعة الواحدة للمسيح. وكانوا يشكلون أكبر جماعة مسيحية فى بيت المقدس قبل فترة الحروب الصليبية. وقد طردوا تحت الحكم الفرنجي من مراكزهم الدينية، وحل البطاركة اللاتين أمثال أرنولف، ودايمبرت محل بطارقتهم فى كنيسة القبر المقدس. ومع هذا فإن جماعة الروم الأرثوذكس كان لها حضور قوى فى المدينة المقدسة خلال القرن الثانى عشر الميلادى، ومن حين لآخر كان يتم إعادة بعض رجال دينهم إلى الكنيسة.

المسيحيون السوريان (السريان)

السريان مصطلح عام أطلقه الفرنجة على المسيحيين الشرقيين الذين يتحدثون اللغة العربية، ولكنهم يستخدمون اللغة اليونانية فى طقوسهم الدينية ويتبعون المذهب الأرثوذكسى. ولأنهم من أتباع المذهب الأرثوذكسى فإنهم كانوا يعرفون بالملكية، أى أتباع الكنيسة الملكية أو الكنيسة الإمبراطورية. وفى الفترة التى سبقت وصول الجيش الصليبى عام ١٠٩٩م، تم طرد غالبية جماعة المسيحيين السريان من المدينة مع رجال الدين الروم أو اليونان. وذلك لشك الفاطميين فى ولائهم وكإجراء تم اتخاذه تأهبا لمواجهة الغزو المرتقب. وفى الحقيقة فإن مشاركة المسيحيين الشرقيين فى الدفاع عن المدينة أثناء الحصار قد كان دفاعا فاترا ينقصه الحماس إذا وجد بالفعل[٨]. وغنى عن القول إنه يبدو أن الكثيرين منهم لم يلقوا معاملة أفضل من الجيش الغازى تميزهم

عن اليهود أو بعض المسلمين[٩]. إلا أن الأحوال تحسنت فيما بعد، ففى خلال فترة الحكم الفرنجى تلقت جماعة السريان فى مملكة بيت المقدس رعاية ملحوظة من قادة الفرنج. ووفقًا لما جاء عند يوحنا الإبلينى، فإنهم طلبوا ونالوا امتياز تصريف أمورهم القضائية وفق عاداتهم وفى محاكم خاصة بهم.

المونوفيزيون (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة)

إن معظم الجماعات المسيحية من غير اللاتين فى بيت المقدس زمن الحروب الصليبية كانوا ينتمون إلى القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح على ما بينهم من اختلافات، وكانوا يتحدثون اللغة العربية، ويستخدمون السريانية فى طقوسهم الدينية. هذه الجماعات اشتملت على اليعاقبة، والأحباش، والأرمن، والأقباط، والجورجيين أو الكرج. ولقد شكل اليعاقبة مجموعة من أكبر مجموعات الأقليات من مسيحيى بيت المقدس. وينتسب اليعاقبة إلى مؤسس هذه الجماعة يعقوب البرادعى. وقد تركزوا فى دير القديسة مريم المجدلانية الواقع فى الجزء الشمالى الشرقى للمدينة. وقد كانت لهم مكانة مميزة نوعا ما لدى الفرنجة، كما لقى المطران إجناتيوس (١١٢٥- ١١٣٨م) كل التقدير من قادة الفرنجة. وكان ينظر إليه بعض ملوك الفرنجة أمثال بلدوين الثانى وفولك على أنه أحد ملائكة الرحمة الإلهية[١٠]، بالرغم من أن بعض تقاليد اليعاقبة كانت تبدو غريبة نوعا ما بالنسبة للفرنجة حيث ذكر ثيودريك أنهم كانوا يستخدمون الطبول فى أيام أعيادهم كتقليد لما كان متبعًا عند اليهود.

أما الأرمن فقد كانوا موجودين فى بيت المقدس منذ خمسة قرون على الأقل، وربما تواجدوا فى فترة مبكرة عن ذلك. ولقد أصاب الأرمن نجاحا أكثر من أى جماعة من الشرقيين تحت الحكم الفرنجى. وربما كان مرجع هذا إلى قوة طبقة الحكام لديهم واستقلالها، وحيث عاملهم الفرنجة على أنهم أسوياء لهم. وحدثت بينهم وبين قادة الفرنجة كثير من المصاهرات السياسية. نذكر من ذلك على سبيل المثال أن أردا Arda

زوجة بلدوين الأول، كانت أرمينية الأصل. وعلى أية حال فإن تلك الرعاية التى لقيها الأرمن كان وراءها عامل سياسى مهم وهو تغلب المصالح الذاتية. وإن كان الأرمن حديثا قد تم طردهم من موطنهم حول بحيرة فان، فإنهم ومنذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى كانوا قد ارتحلوا إلى طوروس والمناطق الجبلية منها وقلقيلية، وحيث شكلوا وبسرعة فائقة قوة لا يستهان بها دينيا، كما كانوا يشكلون حاجزا قويا فى مواجهة الطموحات البيزنطية لاستعادة أنطاكيا من الفرنجة.

ولقد عاشت جماعة الأرمن ومنذ وقت مبكر فى بيت المقدس فى مناطق عديدة، ربما كان منها تلك المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربى، خارج أسوار المدينة، والمنطقة الواقعة فى جبل صهيون داخل أسوار المدينة الحالية، وحيث يقع الآن الحى الأرمنى، والمنطقة الموجودة فى أعلى جبل الزيتون. وإن كان يبدو أنه فى فترة الحروب الصليبية لم تكن المناطق الخاصة بهم خارج أسوار المدينة مأهولة بهم، ولكنهم كانوا قد حافظوا على حيهم فى الجنوب الغربى من المدينة.

وهنا يشير يوشع براور إلى أنه فى الوقت الذى زار فيه كبير رجال دينهم الكاثوليك جريجورى البهلاوانى بيت المقدس عام ١١٤٢م، للمشاركة فى المجمع الثقافى الدينى ، والذى عقد فى جبل صهيون - فقد حصل على تصريح ببناء نزل بالقرب من كنيستهم وهى كنيسة القديس جيمس لرعاية حجاج الأرمن. وفى نفس الوقت تقريبا، أو بعد ذلك بحوالى عشرين سنة، عندما قام ملك الارمن ثوروس الثانى (١١٥٢ - ١١٦٨م) بزيارة بلاط الملك عمورى فى بيت المقدس، تمت توسعة هذه الكاتدرائية. كما كان للأرمن أسقفهم فى بيت المقدس، والذى امتد نفوذه إلى منطقة ما وراء الكاتدرائية والنزل الملاصق لها، ليشمل عدة ممتلكات لهم فى المدينة، مثل دير القديسة مريم فى كنيسة القبر المقدس.

ويعتبر بطريرك الأرمن ثالث شخصية وصلت إلى بيت المقدس فى تلك الأثناء، حيث قدم إليها عام ١١٧٢م فى أعقاب استيلاء صلاح الدين على مصر عام ١١٦٨م،

وجلب معه خمسة وسبعين مخطوطة، كانت النواة الأولى لمكتبة القديس جيمس. ويرى يوشع براور أنه ربما استقر به الحال فى دير القديس سركيس (أبو سرجة) وهو دير أنشأه بنفسه خارج المدينة فى بيسان، حتى لا يدخل فى صراع مع قيادة الأرمن فى بيت المقدس. وعلى أية حال، فإنه يبدو أنه لم ينجح فى ذلك، إذ سرعان ما لقي حتفه، ومن المعتقد أن أسقف الأرمن كان وراء حادثة موته. وتم دفنه فى كاتدرائية القديس جيمس.

كذلك وجد بعض الأقباط فى بيت المقدس، وهم الذين أشار إليهم ثيودريك على أنهم من النوبيين. وهناك أقلية أخرى عاشت فى الأرض المقدسة منذ أزمان بعيدة وهم الجورجيون، وفى زمن الحروب الصليبية تواجدوا فى كنيسة القبر المقدس إلى الغرب خارج المدينة. وإن كان يرجع تواجدهم إلى ما قبل فترة الحروب الصليبية إلا أنهم استعادوا ممتلكاتهم فيها فى القرن الثاني عشر الميلادى. وفى الدير الخاص بهم توجد الشجرة التى من أخشابها عمل الصليب الذى صلب عليه المسيح.

المسلمون واليهود

بعد الغزو الفرنجى لبيت المقدس وطرد من قدر لهم النجاة من المدافعين، أصدر بلدوين أوامره بمنع غير المسيحيين من العودة إلى المدينة. وبالرغم من هذا الأمر فإن بعض المسلمين واليهود عادوا إلى المدينة خلال القرن الثاني عشر الميلادى، وقد جاء ذكرهم فى بعض المناسبات على أنهم كانوا تجارا، أو حجاجا أو من أرباب الحرف المهرة، وربما كانوا أيضا من نزلاء مستشفى القديس يوحنا. ففى عام ١١١٨م كان المسلمون من بين المشيعين لجنازة بلدوين الأول عندما تم حمل جثمانه فى يوم عيد السعف. كذلك لوحظ أن التجار المسلمين جاء ذكرهم عند تحرير كشف بأسماء التجار عام ١١٢٠م وهم الذين لم يتم إعفاؤهم من الضرائب المقررة على بعض السلع التى تجلب إلى المدينة. كذلك تم تسجيل أسماء الحجاج اليهود أثناء القرن الثانى

عشر الميلادى[11]. وعلى الرغم من أن الرابى الإسبانى أبراهام هيّا حوالى (١١٢٠-١١٢٩م) قد كتب يقول : " لا يوجد يهودى واحد فى بيت المقدس فى أيامنا "، إلا أنه تم تسجيل يهودى واحد يعيش فى بيت المقدس على الأقل فى بدايات عام ١١٤٦م، وحوالى عام ١١٧٠م، فقد ذكر الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى يهوديا واحدا يعمل بالصباغة ويسكن بالقرب من برج داود[12]. أما الرابى بتاحيا الراتسبونى، والذى زار المدينة ما بين عامى ١١٧٤ و ١١٨٧م فإنه يذكر يهوديا واحدا يعمل بالصباغة ويدعى الرابى أبرهام، وقد كان مطلوباً منه أن يدفع ضريبة ثقيلة للملك نظير السماح له بالبقاء فى المدينة. وربما تم الاستدلال على وجود مسلمين ويهود فى بيت المقدس تحت الحكم الصليبى من سجلات جماعة فرسان الإسبتارية، ومن وثيقة مجهولة موجودة فى ميونخ، تتعلق بمستشفى القديس يوحنا توضح أن غير المسيحيين لم يتلقوا علاجا فى تلك المستشفى.

ونجم عن استعادة المسلمين لبيت المقدس عام ١١٨٧م، إعادة إحياء للجماعة اليهودية فيها، فالشاعر الإسبانى اليهودى الحريزى والذى زار الأرض المقدسة حوالى عام ١٢١٧م يذكر مستوطنين يهود من فرنسا، والمغرب، وعسقلان. وعلى أية حال، فإن الفرنجة قد احتلوا المدينة مرة أخرى عام ١٢٢٩م، نتيجة لتوقيع معاهدة يافا بين الإمبراطور فردريك الثانى وسلطان مصر الملك الكامل الأيوبى، وبقيت منطقة الحرم القدسى الشريف فى حوزة المسلمين، وتم طرد اليهود مرة أخرى من المدينة. وخلال هذه الفترة البسيطة من الاحتلال الفرنجى تم السماح للحجاج اليهود بزيارة الأماكن المقدسة، وعاش فى القدس يهودى واحد يعمل بالصباغة. كما أن الملك الكامل طالب بوجود قاض ليتولى أمور المسلمين المقيمين والحجاج المسلمين كذلك. وبعد قيام الخوارزمية بغزو المدينة واستردادها عام ١٢٤٤م، تم إعادة تأسيس الجماعة اليهودية بها.

* * *

حواشي وتعليقات الفصل السادس

(١) يذكر فولشر الشارترى أنه لم يكن هناك أكثر من ثلاثمائة من الفرسان ومثلهم من الجنود المشاة للدفاع عن القدس، ويافا، والرملة وحيفا. بينما لاحظ وليم الصورى أنه لم يبق من قادة الفرنجة سوى جودفرى، وتانكرد فى الشرق، وبقى معهما حوالى ثلاثمائة من الفرسان وألفان من الجنود المشاة.

(٢) وفقا لما ذكره وليم الصورى، فإن المدينة كانت شبه خاوية بحيث لم يكن هنالك سوى قلة قليلة للدفاع عن بواباتها، وأن الفرنجة لم يشغلوا سوى شارع واحد، ووجد معهم عدد قليل جدا من السوريان، انظر: وليم الصورى، ج٢، ص٢٧ .

(٣) راجع: يوشع براور "الطبقات الاجتماعية فى مملكة بيت المقدس الفرنجة"، فى كتاب لينيت سيتون (المحرر)، تاريخ، ج٥، ص١٢٥-١٢٦ .

(٤) انظر بنيامين زد كيدر، "وصف لمستشفى بيت المقدس من القرن الثانى عشر"، فى هـ. نيكولسون، فرق الرهبان العسكرية، ص٦ .

(٥) لقد أخبر باليان إبلين صلاح الدين أن اثنين فقط من كل مائة من سكان المدينة يستطيعون دفع ذلك. فوافق صلاح الدين بكرمه على إعفاء الفقراء من دفع الثلاثين ألف دينار بسبعة آلاف من الرجال، وأطلق سراح عدد إضافى بلغ حوالى ألف وخمسمائة دون دفع شىء، وكذلك فعل أخوه الملك العادل.

(٦) ويذكر برنارد هاميلتون، "الكنيسة اللاتينية فى الدويلات الصليبية"، فى الكتاب الذى أشرف على تحريره كريجنى سيجار، وأولبرت ديفيز وهيرمان تويل، الشرق والغرب فى الدويلات الصليبية، تفاصيل المجمع الذى عقد فى مايو ١٩٩٣، ليوفن، ١٩٩٦، ص١١ .

(٧) لقد ذكر ذلك عام ١١٧٣ فى الوثيقة رقم ٥٠٢ التى وقع عليها أسقف غزة الأرثوذكسى ومعه مجموعة من الشهود الروم، وليس معلوما بالضبط اليوم والتاريخ.

(٨) هذا مثال للطريقة التى كان يشارك بها المسيحيون الشرقيون فى الدفاع عن المدينة أثناء الحصار الصليبى، وذلك فى الأسطورة التى شاعت عند مسيحيى الغرب، بأن جيرارد الذى أصبح رئيسا لجماعة أمالفيا فى مستشفى القدس، ووفقا لهذه الرواية، فإن جيرارد كان يلقى أرغفة الخبز أكثر من الحجارة على المحاصرين. ومن العجب أنه عندما قبض عليه أحد المسلمين فإن أرغفة الخبز تحولت إلى حجارة. عن ذلك راجع. أ لوتيل، فى كتاب بنيامين كيدر، مونتجوا، ألدرشوت، ١٩٩٧، ص٣٩، حاشية ١٨ .

(٩) هذا راجع بلا شك إلى الحقيقة أنه من الصعب التمييز بينهم وبين الآخرين بسبب ارتدائهم نفس الملابس وأنهم كانوا يتحدثون العربية.

(١٠) راجع ريتشارد فى: مملكة بيت المقدس الصليبية، فى الجزء الأول، والذى تمت ترجمته بواسطة جانيت شيرلى، فى أمستردام، نيويورك، وأوكسفورد، ١٩٧٩، ص١٣٨ .

(١١) انظر: يوشع براور، تاريخ اليهود فى مملكة بيت المقدس الصليبية، أكسفورد، ١٩٨٨، ص١٣٩-١٤٤، وأن بنيامين التطيلى قد اعتمد على حاج يهودى كان يزور الحائط الغربى للمسجد الأقصى (والذى ربما كان فى تلك الفترة كله معرضا) والبركة التى جاء ذكرها فى الأزمنة القديمة عند الكهنة قبل تقديم القرابين، راجع أدلر: رحلة بنيامين التطيلى، لندن، ١٩٠٧، ص.٢٣ والتى ربما كانت بركة إسرائيل. وحيث اعتاد بعض الزوار كتابة أسمائهم على السور. وهى عادة كانت تشاهد حتى عند السور الغربى فى ذلك الوقت.

(١٢) بوزنا نسكى (المحرر)، أبراهام بار حبا، سيفر، مجلة المجلة، برلين ١٩٢٤، ص٩٩-١٠٠، براور ١٩٨٨، ص١٣٩، أدلر، رحلة بنيامين التطيلى، ص٢٣، وما جاء فى رحلته تمت ترجمته على أنه ذكر أربعمائة أو مائتين من الصباغين.

* * *

الباب الثانى

الآثار الباقية من العصر الصليبى فى بيت المقدس

لقد أمدتنا الدراسات التاريخية والأثرية القديمة – والتى استغرقت أكثر من مائة وخمسين عاما– بصورة شبه واضحة إلى حد ما عن مدينة بيت المقدس تحت الحكم الفرنجى وذلك لاهتمام علماء الآثار الإنجليز والفرنسيين بمنطقة الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين للميلاد، وتركز اهتمامهم على فترة الحكم الفرنجى إلى حد ما، ولإظهار مدى اهتمام القوتين الاستعماريتين الكبيرتين بالمنطقة وتاريخها كتبرير لانشغالهما بها فى العصر الحديث. وقد كان طبيعيا أن ينصب هذا الاهتمام على مدينة بيت المقدس العاصمة الأساسية للدولة، والذى يبدو واضحًا من خلال ما تم إجراؤه من دراسات.

والعديد من هذه الدراسات، التى أخذت تظهر من حوالى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، أجراها علماء على مستوى فائق من الأهمية. وعادة ما وفرت لنا مادة ممتازة وواضحة[1]. نذكر من هذه الأعمال كتاب : "المدينة المقدسة"، والذى قام بنشره جورج ويليامز عام ١٨٤٩م ، ويحتوى على معلومات عن بعض مبانى القدس فى العصور الوسطى، إلى جانب دراسة مفيدة عن موارد المياه فيها؛ ثم يليه إدوارد روبنسون فى كتابه عن "الأبحاث التوراتية فى بيت المقدس" فى ثلاثة أجزاء، ويضم أوصافا مفيدة للآثار الصليبية؛ وفى عام ١٨٦٤م أصدر الإيطالى إرمت بيروتى جزأين من كتابه : "دراسة أولية استكشافية لبيت المقدس مترجمة من الإنجليزية"، وهى دراسة

متميزة تتضمن مناقشة حول عدد معقول من المبانى الصليبية، والكنائس، وأطلال حى الاسبتارية، وموضع حفظ جثث الموتى أو عظامهم فى مقبرة حقل الدم، وتفاصيل كثيرة عن موارد المياه فى القدس(٢). كما قام شارلز كلير مونت جانو بنشر العديد من الأبحاث عن فترة الحكم الصليبى، ومنها بحثه عن السوق المغطاة فى وسط المدينة، والنقوش المميزة لها وأن هذه السوق ضمن ممتلكات دير القديسة حنة، كما نشر دراسة مفصلة عن شواهد قبور الفرنجة فى مقبرة ماملا. وقام كل من شارلز وارن، وكلود رينيه كوندر بنشر فصل عن مسح منطقة غرب فلسطين فى الجزء الخاص بكتاب "بيت المقدس"، وقدما فيه عددا من الموضوعات عن الآثار الباقية من العصر الصليبى. وفى فصل يحمل عنوانا باسم مملكة بيت المقدس الصليبية تحدثا عن الشوارع، والتحصينات، والكنائس، والقصر الملكى، ومستشفى جماعة الرهبان الألمان، ومستشفى القديس يوحنا، وإسطبلات سليمان، ومكان حفظ جثث الموتى وعظامهم فى مقبرة حقل الدم، كما وصف كوندر أيضا مدينة بيت المقدس فى العصور الوسطى فى بحث له يحمل اسم: "مدينة بيت المقدس" وهناك مقالة كتبها كونراد شيك، تم نشرها بعد وفاته عام ١٩٠٢م، قدم فيها نقاشا واضحا عن الآثار الباقية لحى الاسبتارية فى البيمارستان، وضح منها أن الحى الخاص بالاسبتارية تم هدمه لتحل محله منشآت جديدة. وقيمة هذه الأعمال التى تعود إلى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين للميلاد تكمن فى أنها نوعية رفيعة المستوى من الدراسات، علما بأن الآثار التى دارت حولها تلك الدراسات لم يقدر لها البقاء فى الوقت الحاضر. كما أن هذه الأعمال مزودة برسومات وخرائط على مستوى عال، وفى بعض الأحيان بصور فوتوغرافية مبكرة.

واستمرت الأبحاث ذات المستوى الرفيع ومعها الاهتمام بدراسة فترة الحروب الصليبية فى القرن العشرين الميلادى وفى فترة الانتداب البريطانى. ومن بين الدراسات الخاصة بهذه الفترة المناقشات المتعددة والتى تضمنها الفصل الخاص بـ " بيت المقدس زمن الفرنجة" فى الكتاب الذى أصدره كل من ل. هـ. فنسنت و ف. م. آبل

بعنوان " مدينة بيت المقدس الجديدة "، والذى يتضمن الحديث عن العديد من مبانى المدينة فترة الحروب الصليبية، مثل كنيسة القديس جيمس، وكنيسة القديس توماس – وهما من كنائس الأرمن – وكنيسة الصعود فى جبل الزيتون، وكنيسة القديس ستيفن، ودير القديسة حنة، وكنيسة قبر العذراء في وادى يهوشافاط.

كذلك كتب يوشع براور عدة أبحاث عن بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، وفيها ذكر مسحا عاما للمدينة تحت الحكم الصليبى، وبعض الدراسات عن علم دراسة النقوش فى بيت المقدس، وبعض الأعمدة والمداخل الجنوبية لكنيسة القبر المقدس(٣). أما ميرون بنفنستي فقد ضمن كتابه : "الصليبيون فى الأرض المقدسة" فصلا عن المدينة هذا إلى جانب بعض الدراسات القصيرة التى جاءت من عمليات الحفر التى تمت ما بين ١٩٧٠ و ١٩٨٠م، وقام كل من دان باهات، ومير بن دوف، وميجان بروش وآخرون بنشرها(٤). وكتب باهات بيانا مفصلا عن الملامح الرئيسية لبيت المقدس تحت الحكم الصليبى تحت عنوان : "السمات السطحية والآثار القديمة زمن الحروب الصليبية فى تاريخ بيت المقدس"، وفى رسالته غير المنشورة للدكتوراه عن "السمات السطحية، ودراسة الموقع لبيت المقدس تحت الحكم الصليبى"، والتى تعتمد إلى حد كبير على معلومات وثائقية للقرن الثانى عشر الميلادى(٥). ومن" المؤلفات ذات الأهمية كتاب " بيت المقدس " لمؤلفه ف. إى. بيترز، وهو عمل مكثف لما ورد من أوصاف فى كتب حجاج العصور الوسطى. وهو يتضمن العديد من نصوص العصور الوسطى بترجمتها الإنجليزية وخصوصا فى الفصول من ١٢–١٧. وهناك محاضرة طيبة ألقاها دينيس برنجل فى الجمعية الإنجليزية الإسرائيلية لعلم الآثار، وفى منظمة دراسات الكشوف الفلسطينية فى لندن عام ١٩٩٠م.

ولقد قام كثير من علماء التاريخ والآثار بإجراء العديد من الدراسات عن الكنائس والفنون فى المدينة، وبوجه خاص تلك الدراسات التى قام بها كل من فنسنت، وآبل، وكاميل إنلارت، وجورسولاف فولدا، وبيانكا كوهنل، ونورث كنعان كيدر، وهيو بلومر،

ودينيس برنجل[٦]. كما قام وايت مان بدراسة مستفيضة عن تحصينات المدينة، فى حين قام بعض الأثريين الآخرين بدراسة بعض عناصر هذه التحصينات[٧]. وعن القوائم البيليوجرافية عن الدراسات حول بيت المقدس، هناك الأجزاء الثلاثة المفيدة والتى أعدها كل من كلوس بيبرشتين وهانزوولف بولدهورن بعنوان "بيت المقدس"[٨].

ومما لا شك فيه أن هناك بعض الثغرات فى هذه الصورة عن بيت المقدس على العكس تماما من عكا، حيث لا نعرف تماما أى شىء عن مبانى الخدمات فى بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، وعن بعض الموضوعات، مثل عمليات الدفن، والصناعات المدنية، والعديد من الأشغال العامة، مثل الصرف الصحى، وموارد المياه، والتى ما زالت فى حاجة أكثر إلى مزيد من البحث الدقيق عما تم إجراؤه حتى الآن. وحتى بالنسبة لدفاعات المدينة، والتى نالت نصيبا من جهود علماء الآثار، فإن المعلومات المتوفرة لم تصل بعد إلى الدرجة المرجوة، على الرغم مما تلقيه الاكتشافات التى تتم من وقت لآخر من أضواء جديدة على بعض النواحى الخاصة بالقدس زمن الحروب الصليبية. ففى السنوات الأخيرة اكتشف بعض علماء الآثار واحدة من البوابات زمن الحروب الصليبية ، ونظامًا لتحويل تدفق المياه عن مجراها الطبيعى المعروف، وهذا شىء جدير بالملاحظة، فى هذا القرن، وقد كان كل هذا مجهولا من قبل، هذا مع المسح التدريجى والتسجيل الإحصائى المستمر للمبانى الديرية المتشابكة حول كنيسة القبر المقدس[٩].

* * *

حواشى وتعليقات

(١) انظر تشارلز وارن وكلود ريجينيير كوندر، المسح الجغرافى لغرب فلسطين، القدس، ولندن. ١٨٨٤ (وأعيد طبعه فى القدس ١٩٧٠).

(٢) كلود ريجينيير كوندر، مدينة بيت المقدس، الفصل ١٣، "مملكة بيت المقدس اللاتينية"؛ ص٢٧٥-٣٠٧ والفصل ١٤، "الفرنجة والمسلمون"، لندن ١٩٠٩، ص ٣٠٨-٣٢٦ .

(٣) للمناقشة العامة انظر يوشع براور، "الاستيطان الصليبى فى بيت المقدس"، ومجلة دراسات العصور الوسطى، العدد ٢٧، لسنة ١٩٥٢، ص٤٩٥-٥٠٣؛ القدس التى احتلها الصليبيون، بعض الإسهام عن طبوغرافية المدينة، لدى إدبورى (المحرر)، ١٩٨٥، ص١-١٦؛ "الاستيطان اليهودى فى بيت المقدس الصليبية، آريل، بحث مرجعى فى الآداب والعلوم فى إسرائيل العدد ١٩، ١٩٦٧، ص٦٠-٦٦، "الأرض فى القدس تحت الحكم الصليبى"، ص٢٢٢-٢٣٦، مايل ستون (المحرر)، أرمنيا والدراسات الإنجيلية، القدس ١٩٧٦، "المدن الصليبية" فى مدينة العصور الوسطى، تحرير هـ . أ . هاسكمن، د. هيرلهى، أ.ل. أودوفتسن، نيوهافن، ١٩٧٧ .

(٤) دان باهات، "القدس: الحديقة الأرمينية"، ر.ب، ٧٨، ١٩٧١، ص٥٩٨-٩، "كنيسة مريم المجدلانية ومنطقتها"، حوليات إسرائيلية، العدد ١٨، ١٩٨٥، ص٥-٧، دان باهات و م بن آرى، "الكشوف الأثرية فى ميدان زاجال"، ١٩٧٢، ص١١٨-١٩، والكشوف الأثرية فى برج تانكرد"، ص١٠٩-١٠، وانظر كذلك: د. يادين (المحرر)، كشوف مقدسية، القدس ١٩٧٥، دان باهات وماجن بروشى: "كشوف أثرية فى الحديقة الأرمنية"، فى نفس المرجع، ص٥٥-٥٦؛ دان باهات وورونى ريتش، "كنيسة من العصور الوسطى فى الحى اليهودى فى القدس"، ر.ب رقم٩٣، ١٩٨٦، ص١١-١١٤؛ ميير بن دوف، تحصينات القدس: أسوار المدينة، البوابات، والمسجد الأقصى (بالعبرى)، القدس ١٩٨٣؛ فى ظلال المعبد، ترجمة أ. فرايد مان، القدس، ١٩٨٥ .

(٥) دان باهات، "الطبوغرافية والكشوف الأثرية. فترة الحروب الصليبية"، لدى يوشع براور و هـ بن شاماى (المحرر)، وتاريخ القدس، ص٦٨-١٢٠، طبوغرافية وأوضاع القدس زمن الحروب الصليبية، رسالة دكتوراة لم تطبع بعد، جامعة القدس العبرية ١٩٩٢ .

(٦) انظر فنسنت وآبل، القدس الجديدة، ٤ أجزاء مع ألبوم، باريس ١٩٠٤-١٩٢٦، كاميل إنلارت، آثار الفرنجة فى مملكة بيت المقدس الصليبية، الكشوف الأثرية الكنيسة والمدينة، والآثار التوراتية والتاريخية، ج٧، ٨ والأطلس، باريس ١٩٢٥-١٩٢٨، فولدا، فتون الصليبيين؛ هيو بلومر، السناكل فى جبل صهيون، ص١٣٩-٦٦، فى كتاب فنون الصليبيين لمؤلفه جيروسلاف فولدا (المحرر)، الفنون الصليبية فى القرن

الثانى عشر، أوكسفورد ١٩٨٢؛ بيانكا كوهنل، "تاريخ الكنيسة الصليبية للصعود فوق جبل الزيتون، (بالعبرية) فى "القدس فى العصور الوسطى، أبحاث منتقاة، (المحرر) بنيامين كيدر، القدس، ١٩٧٩، ص٢٥-٢٦ (ملخص بالإنجليزية)؛ الآثار الصليبية فى كنيسة الصعود فى جبل الزيتون فى القدس، الأعمال رقم ١٦، لسنة ١٩٧٧، ص٤١-٥٠؛ نوريت كنعان، "الفن المسيحى المحلى فى القرن الثانى عشر فى القدس"، أبحاث الجمعية الإسرائيلية للآثار رقم ٢٥، ١٩٧٣، ص١٦٧-١٧٥؛ نوريت كنعان - كيدر، "معانى رمزية في حفائر الصليبيين: قبة الضريح المقدس في القرن الثاني عشر في القدس، رقم ٣٤، ١٩٨٦، ص١٠٩-١١٧، دينيس برنجل، كنائس مملكة بيت المقدس الصليبية، ج٣؛ زهافا جاكوبى، "ورشة عمل منطقة المعبد فى القدس فى القرن الثانى عشر؛ أصلها، تقييمها، وأثرها"؛ التأثير البروفنسالى فى النحت الصليبى فى القدس؛ والدليل الأكثر وضوحا فى "منطقة المعبد المبكرة".

(٧) ج . جى . وايتمان، أسوار القدس منذ أيام الكنعانيين وحتى أيام المماليك، سيدنى، ١٩٩٣ (الجزء الثالث، الفصول من ١٠-١٢)، وانظر كذلك دان باهات، وميرون بن آرى، "الكشوف الأثرية فى برج تانكرد"، فى يادن (المحرر)، إعادة كشف القدس، ص١٠٩-١١٠؛ هيلد جيفا ودان باهات، "المؤشرات الأثارية والتاريخية في منطقة بوابة دمشق القديمة، الجمعية الإسرائيلية للآثار ٤٨ (٣-٤)، ١٩٩٨، ص٢٢٣-٢٢٥ .

(٨) كلوس بيبرشتاين وهانزوولف بلويدهودن، الآثار الصليبية، وعيرها فى القدس وحتى العصر العثمانى، ٣ أجزاء، فيسبادن، ١٩٩٤ .

(٩) واضح أن الأعمال الأولى فى هذه المواقع فى وقتنا الحاضر قد قامت بها هيئة الآثار الإسرائيلية. وعن المياه المتدفقة انظر ص١٧٨-١٧٨ .

* * *

الفصل السابع

التحصينات الحربية

تبلغ أسوار مدينة بيت المقدس حوالى أربعة كيلوات طولا وتحيط بمساحة تبلغ حوالى ٨٦ هكتارا. ولقد تمت إعادة بنائها فترة الحكم الفاطمى، ومن المعروف أنه تم تنفيذه مشروعين كبيرين للتحصين فى القرن الحادى عشر للميلاد: تضمن المشروع الأول منهما تعلية السور الشرقى إلى أكثر أو أقل من ارتفاعه الحالى، وقد تم فيه استبعاد منطقة جبل صهيون ولأول مرة منذ زمن الحكم البيزنطى. وهذا العمل التحصينى تم تنفيذه على يد الخليفة الظاهر وقبل حدوث الزلزال المدمر عام ١٠٣٣م بزمن قصير(١). وفى أثناء ذلك العمل تم هدم بعض الكنائس خارج أسوار المدينة للاستفادة من أحجارها فى عمليات بناء السور وقد حدث نفس الشىء بعد قرن أيام صلاح الدين الأيوبى. ووفقا لما رواه مؤرخ القرن العاشر يحيى بن سعيد فإن المسلمين كانوا على وشك هدم الكنيسة الكبيرة للقديسة مريم فى جبل صهيون عندما حدث ذلك الزلزال، ومن المحقق أن الكنيسة لم تسلم منه، بحيث كانت قد تحولت الى أنقاض عندما وصل الفرنجة بعد ستة وستين عاما. أما المشروع الثانى فقد كان عبارة عن إعادة بناء سور جديد وعدة أبراج فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة، وقد تم تنفيذه على أيدى الجماعة المسيحية عام ١٠٦٣م. وقد كان جزءا من إعادة تحصين المدينة كلها على يد جماعات بيت المقدس المختلفة بناء على المرسوم الذى أصدره الخليفة الفاطمى المستنصر " ١٠٣٥ - ١٠٩٤م " والذى أمر فيه بإعادة بناء جميع التحصينات فى المنطقة. ولقد وضع هذا المرسوم جماعة المسيحيين فى المدينة فى موقف

صعب، وذلك لأنهم كانوا يفتقرون إلى الوسائل المادية لتنفيذ ذلك المشروع للتحصينات حول حيهم. وقد أورد وليم الصورى العبارة التالية : إن الجزء الرابع من مشروع البناء هذا قد كُلف به المسيحيون البائسون، ذلك الشعب المؤمن الذى يعيش فى مدينة بيت المقدس، ومع هذا، كانوا مثقلين بتنفيذ العديد والعديد من أعمال السخرة، وبدفع الجزية وغيرها من الضرائب الأخرى، وبأداء العديد من الأعمال المخزية أو المذلة، لدرجة أن إمكانياتهم المادية كانت عاجزة حتى عن إعادة بناء برج أو برجين من أبراج المدينة. فلجأوا إلى الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين العاشر " ١٠٥٩ -١٠٦٧م " لطلب الدعم المالى. ولكنه وضع شرطا لتقديم العون، وهو أن يتم تخصيص الحى المخطط له داخل تلك الأسوار للمسيحيين والقبارصة تحت الحكم البيزنطى، وهم الذين سيقومون بالإشراف على الشئون المالية للمشروع. وبدأ العمل الذى تضمن إعادة بناء الخندق، والحصن الأمامى، والسور الرئيسى والأبراج على امتداد بوابة القديس ستيفان " باب العمود " فى الشمال وبوابة داود " باب الخليل " فى الغرب. وتم تشييد السور الغربى بشكل مائل إلى الغرب نوعا ما أكثر مما كان عليه الحال سابقا. وربما تم بناء قصر الجالود " برج تانكرد فيما بعد " أولا لحماية الطرف الشمالى الغربى من المدينة. وفى عام ١٠٩٨م وقبل عام واحد من وصول الصليبيين، نفذ الفاطميون عدة إصلاحات بعد أخذهم المدينة من السلاجقة(٢).

والمصادر الفرنجية التى تصف غزوهم للمدينة عام ١٠٩٩م تتضمن بعض الأوصاف كدليل على دفاعات المدينة التى تم بناؤها فترة الحكم السلجوقى والحكم الفاطمى. فكتاب أعمال الفرنجة " الجستا " يذكر السورين، كما يذكر وليم الصورى الحصن الأمامى والخندق المائى إلى الشمال من المدينة، كذلك يذكر ثيودريك الخندق المائى والحصن الأمامى(٣). وفى جنوب المدينة كان موجودا الخندق المائى والسور. وإن كان من غير الواضح وجود دليل عن حصن أمامى. ولقد نفذ الصليبيون مشروعين رئيسيين لإصلاح الأسوار أولهما فى عام ١١٢٦م، ومن المحتمل أنه كان إجراء سريعا

لإعادة ترميم ما تم تدميره أثناء حصار ١٠٩٩م، وربما لما حدث من زلزال وقع حوالى عام ١١١٣ - ١١١٥م(٤). أما المشروع الثانى فقد تم تنفيذه عام ١١٧٧م، وذلك لإعادة بناء أجزاء من السور وصلت حالتها لدرجة كبيرة من السوء والتهدم. ووفقا لما رواه وليم الصورى فإن كلا من رجال الدين والقادة العلمانيين فرضوا كثيرا من الأموال من أجل إعادة البناء هذه. وربما كان تنفيذ عملية إعادة بناء الأسوار عام ١١٧٧م تم لمواجهة أخطار الغزو المرتقب، وذلك أنه فى نهاية تلك السنة كان صلاح الدين قد شن سلسلة من الإغارات على المناطق الساحلية من عسقلان فى الجنوب وبطول الجبهة الشمالية إلى قلقيلية بالقرب من أرسوف. هذه الإغارات جعلت الفرنجة فى مدينة بيت المقدس يفرون إلى القلعة ويحتمون بها، إلى أن انتهت هذه الفترة بانتصار الفرنجة فى تل جازر.

وعندما عاد صلاح الدين إلى بيت المقدس عام ١١٩٢م بعد عدة سنوات قليلة من معركة حطين ١١٨٧م، فقد أخذ على عاتقه إصلاح أسوارها المتهدمة وعمل على توسيع الخندق المائى وأعاد بناء ستائر الأسوار والأبراج، مستخدما كثيراً من الحجارة التى تم الحصول عليها من عملية توسيع الخندق المائى ومن بعض الكنائس من خارج المدينة والتى أمر بهدمها. وربما كان منها كنيسة القديسة مريم فى جبل صهيون، والكنيسة العليا للقديسة مريم فى وادى يهوشا فاط ومن المحتمل كذلك كنيسة حقل الدم فى وادى جهنم، وكنيسة القديس لازار فى الشمال وبقايا كنيسة القديس ستيفان المتهدمة(٥). ووفقا لما ذكره مجير الدين الحنبلى فإن صلاح الدين أثناء تنفيذه لعملية التحصينات هذه استقر فى منزل القساوسة بالقرب من القبر المقدس حيث أرسل إليه حاكم الموصل كثيرا من العمال للمعاونة فى إعادة بناء التحصينات. ولقد كان هذا العمل بمثابة مشروع ضخم لإعادة التحصين وتكلف كثيرا من النفقات، حيث ذكر مجير الدين أنه استمر ما يقرب من سنة، وتم استخدام ألفين من أسرى الفرنجة فيه، فيما بين أجزاء السور التى أصلحها صلاح الدين فى المنطقة ما بين بوابة القديس

ستيفان " باب العمود "، وبوابة داود " باب الخليل "، وهى نفس المنطقة التى قام المسيحيون سابقا بتحصينها منذ قرن مضى، وهى المنطقة التى أصيبت بأضرار بالغة أثناء عمليات الحصار التى تمت عام ١١٨٧م. ويشير مؤرخ منتصف القرن الثالث عشر أبو شامة إلى التحصينات فى منطقة ثانية فى جبل صهيون فى ذلك الوقت. وقد تضمن المشروع إلى جانب إعادة بناء سور ممتد، بناء سلسلة من الدفاعات التى امتدت إلى منطقة جبل صهيون وإدخالها داخل أسوار المدينة لأول مرة خلال أكثر من ١٥٠ عاماً. فقد كتب أبو شامة يقول : إن صلاح الدين أدار سور المدينة حول سفح جبل صهيون، وبذلك ضم المنطقة إلى بيت المقدس، وأحاط كل المدينة بالخنادق المائية.

وفى بدايات القرن الثالث عشر الميلادى تمت عملية ترميم الأسوار على يد السلطان الأيوبى الملك المعظم عيسى وقد تم التفرق على هذا العمل من خلال الحفريات الأثرية بصورة أكبر من المصادر التاريخية، وتم تنفيذه بين عامى ١٢٠٢م – "عندما تلقى الملك العادل اعترافا بأنه الحاكم الوحيد لمصر ومعظم سوريا وتم تعيين ابنه المعظم عيسى نائبا له على سورية وفلسطين " – وعام ١٢١٢م(٦). ومن الملاحظ أنه فى عام ١٢٠٢م أثناء الاستعداد للحملة الصليبية الرابعة، وحدث زلزال كبير، وربما كان لهذين الحدثين أثرهما فى اتخاذ المعظم عيسى قراره بتقوية دفاعات بيت المقدس. وهناك ثلاثة نقوش عن هذا العمل فى جنوب المدينة تشير أو تدل على قيام المعظم عيسى بعمليات البناء هذه. من هذه الإشارات نقش على برج من العصور الوسطى لبوابة جبل صهيون، والنقش موجود على الحائط الشرقى لمسجد صغير إلى الجنوب الغربى من القلعة والنقش الذى تم اكتشافه فى المنطقة التى تلى أحد الأبراج فى الامتداد الجنوبى من السور الغربى للمدينة.

ومن قبيل السخرية، أن المعظم عيسى نفسه قام بتدمير أسوار بيت المقدس فى مارس ١٢١٩م، تاركا إياها فى حالة يرثى لها من الدمار وظلت كذلك إلى أن قام السلطان العثمانى سليمان العظيم بإعادة بنائها ما بين عامى ١٥٤٠م و ١٥٤١م. ولقد

كان هذا الدمار شاملا، بحيث تضمن هدم الأبراج وأجزاء من السور والحصن الأمامي. وبقيت القلعة سليمة لم يمسسها سوء. أما منطق الأحداث وراء ذلك العمل غير العادى فيبدو أنه يرجع إلى التهديد الذى شكلته الحملة الصليبية الخامسة وشيكة الوقوع، والتى أقلعت من الغرب قبل سنتين، وبعد الفشل الذريع الذى منى به الصليبيون فى الشمال، فإنهم أبحروا جنوبا فى اتجاه دمياط، والتى وصلوها فى الثانى والعشرين من مايو ١٢١٨م وفى نيتهم الاستيلاء على مصر. وبعد حصار طويل الأمد احتلوا المدينة فى التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٢١٩م، وقدم لهم السلطان الملك الكامل عرضا سخيا : ففى مقابل الجلاء والعودة عن مصر، يسلمهم كل منطقة بيت المقدس باستثناء الكرك والشوبك. ولكن الفرنجة، والذين كانت تنقصهم الرؤية الثاقبة، رفضوا العرض، وذلك لأنهم اعتقدوا أن بإمكانهم الاستيلاء على كل من مصر وبيت المقدس. لذلك قام المعظم عيسى وخوفا من سقوط بيت المقدس فى أيديهم بشكل من الأشكال بتدمير كل التحصينات التى سبق وأن أقامها بنفسه. وكان يعتقد أنه سيكون من الصعب على الفرنجة إحكام قبضتهم على المدينة ما دامت تفتقر إلى الدفاعات. ولربما كان يأمل أنه بإخلاء المدينة المقدسة فإن الفرنجة سيقبلون الرحيل عن دمياط لنيل الهدف السهل وهو بيت المقدس.

إلا أن مجرى الأحداث قد برهن على أن الفرنجة لم يهاجموا مدينة بيت المقدس، ومع هذا، وبعد عشر سنوات فإن معاهدة يافا مكنتهم من احتلال المدينة مرة أخرى. وعلى الرغم من أن شروط المعاهدة غامضة فيما يتعلق بطبيعة إعادة ترميم التحصينات، إلا أن النص الفرنسى للمعاهدة يفترض أن الفرنجة قد سمح لهم بإعادة ترميم تحصينات المدينة. ومع هذا فإن المصادر العربية تزعم غير هذا. ويبدو أن الفرنجة قاموا بتجديد التحصينات فى تلك الفترة، خصوصا إذا وضعنا فى اعتبارنا ما تم فى الحصن عند بوابة القديس ستيفان " باب العمود ". وفى عام ١٢٣٩م قام الناصر داود صاحب الكرك بتدمير تلك الأعمال الجديدة، وفى هذه المرة شمل

التدمير القلعة وربما القصر الملكى الملاصق لها. وربما تم تنفيذ بعض الترميمات على يد الفرنجة عندما استعادوا المدينة عام ١٢٤٣م. وهذا ما يمكن افتراضه نتيجة لأن المدينة، وعلى الرغم مما قام به الناصر داود من تدمير، فإنها كانت محصنة إلى حد ما عندما هاجمها الخوارزمية. وعلى أية حال، فربما لم تنفذ تلك الترميمات بشكل كامل، ذلك لتواجد الفرنجة فترة بسيطة من الزمن قبل أن تسقط فى عام ١٢٤٤م فى أيدى الخوارزمية. وبقيت الأسوار فى حالة من الدمار يرثى لها حتى القرن السادس عشر الميلادى. ويمكن رؤية مدى هذا الدمار فى مصادر العصور الوسطى وفى صور بيت المقدس التى رسمت قبل قيام سليمان العظيم بإعادة إعمار تحصيناتها(٧).

ووفقا لما ذكره إيكهارد أسقف أوريا " ت ١١٢٦م " وهو مؤرخ شارك فى الحملة عام ١١٠١م، فإن السور الخارجي بُنى " ومن المحتمل أنه رُمِّم فى " فترة الحكم السلجوقى " ١٠٧٣ - ١٠٩٨م " ذلك أن القائد السلجوقى أمر بهدم الأديرة والمبانى الأخرى خارج أسوار المدينة لكى يستفيد من حجارتها فى بناء السور. ولقد كتب ثيودريك يقول إن التحصينات الخارجية من بيت المقدس تضمنت خندقا مزودا بأجزاء ناتئة من حصن وفتحات لقذف النيران، وهو الذى عرف بأنه الحصن الأمامى للمدينة.

أما السور الأمامى فقد كان يسير ملاصقا للسور الرئيسى من عند بوابة داود "باب الخليل" إلى الطرف الشمالى الغربى للمدينة. ومن هناك فإنه كان يستمر حتى السور الشمالى، يتخلله بعض الفجوات حيث يقترب الوادى الكبير من السور عند وادى زهيرة إلى الشرق. ومن الطرف الشمالى الشرقى من المدينة فإن السور الأمامى يستمر حتى يلتقى بالسور الرئيسى عند نقطة ما إلى الشمال من بوابة يهوشافاط. ولقد لاحظ روبنسون أن ذلك كان إلى الغرب من بوابة دمشق وكتب يقول : هناك الكثير من بقايا سور قديم تشير إلى برج، ذى حجارة مائلة وخندق مائى. وتم الكشف عن أجزاء عديدة وتسجيلها فى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، فى حين اكتشفت أجزاء أخرى عام ١٩٧٩م. ومما يمكن رؤيته فى الجزء الملاصق للسور الغربى وفى

الأجـزاء الـتـى اكتـشـفـت فى الحفريات التى تمت بامتداد السور الشمـالى - ما يـدل عـلـى أن الحصـن الأمـامـى كـان قـد شـيّـد مـباشـرة فوق منحـدر الخندق المائى. وكـان عـرضـه فـى نقطـة عنـد الشـمـال يبلغ ٤,٥ متـر، ولكن فى مـعظم الأمـاكن يبلغ عرضـه حوالى ثلاثة أمتار. وقد بنُى السور التركى فى الغرب فوق بقايا السور الفاطمى / الصليبى، وقبله تم الكشف عن الحصن الأمامى فى الحفريات التى أجريت هناك. وهنا لدينا خطان للدفاع الفاطمى / الصليبى. ويبلغ ارتفاع الحصن الأمامى حوالى ٣,٥ متر، والمسافة بين الواجهة الأمامية للحصن الأمامى والواجهة الأمامية للسور الرئيسى حوالى ٩,٥ متر. وهى مسافة تسمح بأن يكون سمك السور ما بين ٣,١ - ٣,٥ متر، والمسافة بين السورين فى هذه المنطقة حوالى من ٦ -٦,٤ متر. وقد تم تشييده تقريبا من حجارة متشابهة. وهو مثل السور الرئيسى، به أبراج بارزة مقامة فوق منحدر الخندق المائى وقد تم تجهيزها بحيث يبلغ أقصى ارتفاع لها حوالى خمسة أمتار.

إن الحصن الأمامى فى الشمال مبنى من حجارة مربعة أو منحوتة مغطاة بحجارة لها حواف، تماما مثل السور الرئيسى فى الغرب. وتلك كانت الحجارة الضخمة الموجودة فى أطراف البرج، وهى التى أشار إليها كل من روبنسون وفن، كل على حدة.

ولا يوجد دليل أثرى على وجود حصن أمامى فى جبل صهيون، فيما عدا ما جاء ذكره مؤخرا هنا عند أبى شامة والذى سبقت الإشارة إليه، وحيث اكتشف كل من فردريك بليس وأرشيبالد دايكى سورا فى جبل صهيون، يضم منزل كيفاس، وهو المنزل الذى يعتقدان أنه قد بنى على يد فردريك الثانى عام ١٢٢٩م. وبالرجوع إلى هذا السور، فإن كوندر يرى أنه فعلا من العصور الوسطى. ولقد ذكر أن البناء يحتوى على حليات معمارية رومانية تم عملها بين الأحجار، ولها نفس سمات عملية الحليات المعمارية الرومانية، كما يبدو أن الحجارة المربعة المنحوتة قد تم استخدامها من قبل،

فى عمل السور، أو على الأقل الجزء الذى تم الكشف عنه والذى يرجع تاريخه إلى ما قبل عام ١١٨٧م[٨]. وعلى أية حال، فإنه يبدو أنه قد تم تشييده على يد صلاح الدين أو أخيه العادل "الذى استخدم حجارة من مبانى صليبية فى إعادة بناء السور " أكثر من فردريك، الذى ترك المدينة قبل تنفيذ أى عمل دفاعى رئيسى. وعلى أية حال فقد تم بناؤه قبل عام ١٣٢١م، وذلك التاريخ هو الذى يظهر على خريطة سانودو[٩].

وفى الشمال هناك جزء من السور أو الحصن الأمامى كشف عنه باهات وبن أرى. هذا الجزء كان أمام برج تانكرد وعلى بعد ثلاثة أمتار إلى الشمال منه. ويبلغ عرضه حوالى ثلاثة أمتار. وتم تجهيزه بحيث يكون ارتفاعه من صفين من المداميك. ولقد بُنى من قطع صغيرة من الحجارة مع قطع من الحجارة ذات الحواف المثبتة بالمونة. كما أن العمود المستطيل والتاج والقاعدة الناتئة بعض الشىء، والذى سبق استخدامه فى هذا السور كلها تنم عن أن هذا السور ربما يرجع تاريخه إلى تاريخ سابق عن عام ١١٨٧م.

سور الداوية

يصف لنا ثيودريك أحد الأسوار إلى الجنوب من جبل المعبد، حيث يذكر أنه عمل خارجى بناه الداوية لحماية مبانيهم وديرهم. وفى أثناء الحفريات الأثرية التى تمت فى بدايات عام ١٩٧٠م تم الكشف عن بقايا سور : " عبارة عن جزء من سور يبلغ طوله ٢٠ مترا ويصل سمكه إلى ٢,٨ متر " وهو يمتد بشكل مائل من الجانب الشرقى لتل أوفيل فى اتجاه الجنوب الغربى، مشكلا حصنا أماميا ملاصقا للسور الجنوبى لجبل المعبد. ولسوء الحظ فقد انهار هذا السور تماما بمجرد الكشف عنه وقبل تسجيل أية معلومات عنه والدليل الوحيد عنه اليوم هو الصور الفوتوغرافية المأخوذة له من الجو قبل أن تتم إزالته[١٠]. وليست هناك وسيلة لتأكيد هويته أو زمن تأسيسه. وقد تم تأسيسه فى الفترة الأيوبية. وعلى أية حال فهناك سبب وجيه لإعطائه تاريخا صليبيا

وهو وصف ثيودريك له عندما يقول : إذا اتجه الإنسان جنوبا من الكنيسة " كنيسة المهد والتى تقع فى الطرف الجنوبى الشرقى من جبل المعبد " أو من عند زاوية المدينة نفسها، متجها أسفل الجزء المنحدر من التل، وبامتداد الأعمال الخارجية التى بناها الداوية - فإن هذا السور كان يضم البوابة الوحيدة، والتى تشير إلى الأقبية المعروفة باسم أقبية إسطبل سليمان، والمدخل الشرقى لبوابة البرج الصليبى عند بوابة الهولدا التى تؤدى إلى الغرف المتعددة للمسجد الأقصى، والذى استخدم كأهم ممتلكات فرقة الرهبان الداوية.

الخندق المائى

إن الخندق المائى من المحتمل أن يكون قد شُيِّد فى نفس الوقت الذى تم فيه تشييد السور الخارجى فى الشمال حوالى عام ١٠٦٣م. وقد تمت الاستفادة منه كمصدر للحصول على حجارة بناء السور، وهو يسير والحصن الأمامى ملاصقا للسور الساتر من بوابة داود " باب الخليل " فى اتجاه الركن الشمالى الغربى، وعند نقطة ما يبلغ عرضه حوالى تسعة عشر مترا وعلى الأقل سبعة أمتار فى العمق، ومن عند برج تانكرد يستمر الخندق فى الاتجاه شرقا وحتى الوادى الكبير، بحيث يقترب من بوابة القديس ستيفان " باب العمود " من الشمال الغربى. وفى هذا المكان - ووفقا لما يراه علماء الآثار- كان يبلغ عرضه أربعة عشرة متراً. وإلى الشرق من الوادى الكبير فإن الخندق يعود للظهور حتى يصل إلى الوادى التالى، وادى الزهيرة، ويستمر بعده حتى الطرف الشمالى الشرقى من المدينة ثم إلى الجنوب، وربما إلى بركة السيدة مريم بالقرب من بوابة يهوشافاط. وفى الجنوب، فى صهيون، ربما امتد الخندق من الطرف الجنوبى الغربى لسور المدينة إلى نقطة قريبة أو إلى الشرق تماما من بوابة صهيون الحديثة، حيث ينحدر التل إلى الجنوب والشرق. وعلى أية حال، فاليوم لا يمكن رؤية أى أثر لهذا الجزء، كما لا يوجد تسجيل له فى أعمال الحفر الأثرية، كما لا يمكن

تتبعه فى الصور الفوتوغرافية المأخوذة من أعلى، وربما تم ملؤه فى عام ١١٨٧م أو بعد ذلك بقليل عندما تم تشييد السور الخارجى فوق منحدر جبل صهيون. وعلى الجانب الآخر، فإن الخندق الشمالى مازال يمكن رؤيته عند عدة نقاط، فعلى بعد حوالى ستين مترا إلى الشمال من بوابة يافا، كشفت الحفريات الأثرية عن جزء منحدر من الخندق المائى مع قاعدة حجرية لبرج وعدة سلالم حجرية منحوتة فى الصخر تؤدى إلى أسفل الخندق. ووجود سلالم هنا يشير إلى احتمال وجود ممر خلفى فى هذا المكان، تقريبا فى الجهة الجنوبية من البرج البارز[١١]، حيث عُثِر على تخطيط مماثل عند السور الشمالى، وحيث كان الممر الجانبى من الحصن الأمامى " جزءا من الممر الجانبى للقديس لازار " يؤدى إلى عدة درجات هابطة إلى الخندق. وعند برج تانكرد، فإن الحفريات الأثرية التى تمت عام ١٩٧١ - ١٩٧٢م كشفت عن جزء آخر من الخندق مع قناة لجر المياه تقطعه. كما تم الكشف عن العديد من أجزاء الخندق المائى فى الجهة الغربية من السور الشمالى. وعند بوابة دمشق إلى الشرق، هناك أجزاء من الخندق المائى يمكن رؤيتها، تتضمن فى بعض الأماكن، أجزاء منحدرة، وأجزاء أخرى غير منحدرة، وهذه يمكن رؤيتها وبشكل جيد فى الجهة المواجهة لمتحف روكفلر فى السور الشرقى فى الجزء الشمالى من الخندق، إذ إنها مازالت موجودة.

السور الساتر الرئيسى

معظم سور المدينة الذى يمكن رؤيته اليوم كان قد أعيد بناؤه فى القرن السادس عشر، بحيث تم دمج كثير من قطع الحجارة بعضها إلى بعض من أسوار المدينة السابقة، وهو المكان الوحيد الذى يوجد به امتداد للسور الصليبى والذى يمكن رؤيته مع الحصن الأمامى منه إلى الشمال من بوابة داود " باب الخليل "، والذى تم إعداده فى عدة أماكن بحيث يصل ارتفاعه إلى أحد عشر أو اثنى عشر مدماكا. وهذا هو الجزء الأصلى من السور والذى بُنى فى حوالى بدايات عام ١٠٦٣م، وفى مكان آخر

تم الكشف عن جزء صغير من سور المدينة فى العصور الوسطى فى الحفريات التى أجريت إلى الجنوب من بوابة صهيون للعصور الوسطى. وعلى أية حال، فإن ما يمكن رؤيته حاليا منه بناء حديث، وهناك أجزاء أخرى صغيرة قدر لها البقاء إلى الغرب من البوابة، وإلى الغرب من بوابة صهيون التركية، ولكن القليل جدا من هذه البقايا يمكن رؤيته فى الوقت الحالى.

وفى بعض المواقع القليلة وحيث يمكن رؤية بعض أجزاء من سور العصور الوسطى الرئيسة، فإن هذه الأجزاء قد بُنيت من قطع حجرية مختلفة وصلبة وثُبِّتت بالملاط الرمادى مع رقائق من الدبش وكما وضعت حشوات من كسارة الدبش مع المونة. ويتراوح عرض هذه القطع ما بين ٢,٥ متر إلى ٣ أمتار عند قلعة تانكرد، و٢٥,٣ متر فى منطقة جبل صهيون. ويمكن التفريق بسهولة بين سور العصور الوسطى الرئيسى الواقع بين بوابة داود والطرف الشمالى الغربى من المدينة. وبين السور التركى المبنى فوقه عن طريق الحجارة الضخمة المتينة والمتماسكة والحجارة المتماثلة نوعا فى حين أن السور التركى قد تم بناؤه تقريبا من قطع الحجارة ذات الأحجام المختلفة، ومع براعة فى العمل؛ كما أن معظم أجزائهما تدل على أنهما من فترات زمنية مختلفة. ولقد لاحظ كونراد شيك أن هذا السور لم يتم وضع أساساته على صخور صلدة، ولكن فوق طبقة من تربة الأرض تبلغ ما بين ٢٠ - ٣٠ قدما "حوالى ٧ أمتار - ١٠ أمتار " فى العمق وميزة هذا أنه أمكن تخفيض هذا الأساس فى المبانى الخارجية " الحصن والخندق " كما أن بقايا أربعة أبراج بارزة هنا من قاعدة الأبراج التركية، ويسهل التعرف عليها كذلك، لأنها مبنية من قطع حجرية منحوتة لها حواف وزوايا خارجية(١٢).

البوابات وأبراج البوابات

إن مدينة بيت المقدس زمن الحكم الصليبى كان لها خمس بوابات رئيسية، وعدد من الأبواب الصغيرة أو المداخل " والتى ربما وصل عددها إلى ثمانية ". أما البوابات

الرئيسية فهى بوابة داود " باب الخليل " إلى الغرب - حديثا بوابة يافا - " وبوابة القديس ستيفان باب العمود " إلى الشمال - وحديثًا باب دمشق -، وبوابة يهوشافاط - وحديثا بوابة الأسد أو بوابة القديس ستيفان -، والبوابة الذهبية " باب الرحمة " إلى الشرق، وبوابة جبل صهيون " بوابة صهيون " إلى الجنوب. وكانت هذه هى البوابة التى تظهر على خرائط العصور الوسطى. بينما يذكر كتاب المدينة بوابة يهوشافاط على أنها مدخل ويشير إلى أهميته بأن ذلك راجع لعدم وجود ممر خلال البوابة الذهبية، فمعظم الناس الذين يدخلون المدينة يتخذون طريقهم عبر بوابة داود. وربما كانت هناك ضرورة تطلبت من التجار الداخلين إلى المدينة ضرورة الدخول عبر بوابة داود لتنظيم عملية دفع الضرائب على المنتجات الواردة إلى المدينة، "بالإضافة إلى بعض المواد الغذائية والتى كانت معفاة من الضرائب ". وربما كان التجار مضطرين للدخول عبر بوابة القديس ستيفان، حيث كان يوجد مقر جمركى داخل القلعة. أما البوابات الأخرى فقد كانت مستخدمة من قبل سكان المدينة والحجاج المسيحيين.

وكأى مدينة مسورة، فإن بوابات مدينة بيت المقدس كانت تغلق عند غروب الشمس وحتى شروقها فى اليوم التالى. ومعظم البوابات، بل ربما كلها كانت تتم حمايتها عن طريق الأبراج ذات المداخل غير المباشرة(١٣).

بوابة داود . باب الخليل

منذ إعادة بناء بيت المقدس على أنها إيليا كابيتولينا فى القرن الثانى للميلاد فإن بوابة داود تعتبر واحدة من بوابتين رئيسيتين، يدخل منها الرحالة القادمون إلى المدينة من يافا وبيت لحم(١٤). وقد كانت تقع عند وسط السور الغربى، عند نهاية الطرف الغربى لشارع داود. وقبل أن يتم توسيع القلعة فى بدايات عام ١١٦٠م فمن المحتمل أن البوابة كانت تقع أمام برج داود "برج هيرود". وهذا هو الموقع الواضح، ومن

المفترض أنه – وكما يظهر على خرائط العصور الوسطى– يلى برج داود. ومما يدعم ذلك الرأى وصف سايولف ١١٠٢ – ١١٠٣م والذى حدد الموقع بأنه أسفل برج داود. وإن كان وصف رورجو فريتلوس " حوالى عام ١١٣٠م أو ١١٤٨م " أكثر غموضا بعض الشيء، والذى يقرر فيه أن البرج لم يكن " بعيدا عنا ونحن داخلون " على الرغم من أن وليم الصورى كتب يقول : إن البوابة كانت "أسفل برج داود"، فى الوقت الذى دون فى تاريخه أنه لابد وأن تكون البوابة فى الموقع الذى هى فيه الآن، إلى الغرب من البرج.

إن أهمية بوابة داود "باب الخليل" تظهر بوضوح من الطريقة التى تظهر بها على خرائط بيت المقدس للعصور الوسطى. ففى معظم هذه الخرائط يظهر طريقان فقط خارج أسوار المدينة، أحدهما قادم من النبى صموئيل فى الشمال الغربى، والآخر يتجه من بيت المقدس إلى بيت لحم. والطريق الأول الواصل إلى بوابة داود "باب الخليل" يعرف باسم الطريق إلى المدينة، أما الطريق الآخر فهو الذى يغادر المدينة من عند نفس البوابة.

ولم يقدر لأى أثر البقاء من هذه البوابة، وإن كانت هناك بعض الزخارف الكورنثية من عمل الفرنجة التى يمكن رؤيتها، وبالرغم من إعادة استخدامها مرة أخرى فى القنطرة غير الواضحة إلى الشرق من البوابة العثمانية، إلا أن أصولها غير معروفة. ومن المعقول أن نفترض أنه عندما أخذت القلعة فى التوسع وأخذت شكلها الذى تحتفظ به إلى اليوم، فإن بوابة داود تم ترحيلها إلى مكانها الحالى وبشكل أبعد شيئا ما إلى الغرب، بالقرب من البرج الشمالى الغربى للقلعة ولكن فى مواجهة شارع داود. وقبل أن يتم ترحيلها– إذا كان حقا قد حدث ذلك– فإنه يبدو أن منطقة البوابة قد خضعت لبعض التحسينات فى عام١١٥١م. ففى ذلك العام أمرت الملكة ميليسند بهدم طاحونة تخص جماعة القديس لازار يبدو أنها كانت تعوق المدخل، ومن المحتمل أن تلك الطاحونة كانت تخص مرضى الجذام من النساء، والذين كان مكانهن إلى جوار بوابة داود.

وفى خريطة كوبنهاجن تسمى هذه البوابة بوابة داود، وهذه تسمية توراتية إلى حد ما. أما بوابة الأسماك فقد جاء ذكرها فى كتاب نحميا. وإن كان بوركارد من جبل صهيون (حوالى ١٢٨٠م) يعطى تفسيرا مختلفا لهذه التسمية، فقد سماها بوابة الأسماك لأن : " الطريق المؤدى إلى الرملة ويافا كان يمر فى خلالها ثم إلى شاطئ البحر، وعلى امتداد هذا الطريق كان يتم جلب الأسماك ". والإنسان يتعجب لماذا لم يطلق عليها اسم آخر فى العصور الوسطى، وخصوصا وأنه كانت تتم الإشارة إليها عند ذكر البركتين المعروفتين : بركتى البطريرك، الواقعتين داخل وخارج البوابة. وهناك تفسير آخر ممكن - وإن كان غير مقنع- وهو أنه كان يتم تربية الأسماك فى بركة البطريرك الخارجية "بركة ماملا"، ذلك لأن الأسماك قد جاءت الإشارة إليها بأنها تربى فى مكان آخر فى بركة إلى الجنوب من بيت المقدس.

بوابة القديس ستيفان باب العمود

أما البوابة الثانية للمدينة، والتى تم بناؤها مثل إيليا كابيتولينا،فهى البوابة الحديثة، والمعروفة زمن الحروب الصليبية باسم بوابة القديس ستيفان وذلك لقربها من المكان الذى استشهد فيه القديس ستيفان وفى كنيسته. كما كانت تعرف أيضا باسم باب العمود، وهو اسم مازال يستخدم، ويشير إلى العمود المقام هناك منذ زمن الحكم البيزنطى والذى يمكن أن تراه على خريطة مأدبة الموزايكو من القرن السادس للميلاد. وأهمية هذه البوابة تكمن فى أنها تؤدى إلى الطريق الشمالى المؤدى إلى نابلس ومن هناك إلى عكا ودمشق. وفى القرن الثانى عشر للميلاد، وقبل أن تقع المدينة فى أيدى صلاح الدين، تظهر هذه البوابة وكأنها تستخدم بواسطة الحجاج المسيحيين أثناء دخولهم بيت المقدس. وقد جاء فى كتاب المدينة أنه " عن طريق هذه البوابة يدخل الحجاج إلى المدينة، وعن طريقها يدخل القادمون برا من عكا إلى بيت المقدس، وكذلك القادمون برا من عسقلان بعد الوصول إليها بحرا"[١٥]. وربما لم يكن الوضع كذلك

مبكرا فى القرن الثانى عشر، وذلك حسبما جاء عند روزجو فريتلوس بأن البوابة نادرا ما كانت تفتح.

ولقد تم التعرف ولأول مرة على البقايا الأثرية للبوابة الصليبية الخارجية من الحفريات التى تمت على يد تشارلز وارن وتم نشرها عام ١٨٨٤م. ولقد حدد العمل بأنه صليبى الأصل. ولاحظ وجود صليب يخص الداوية محفور عليه. وفى الفترة ما بين ١٩٣٧م و١٩٣٨م قام ر.و.هاميلتون بعدة حفريات عند البوابة. أما أهم كشف أثرى تم فيه التعرف على معظم بقايا الحصن الصليبى الأمامى فقد قام به عالما الآثار الإنجليزيان كريستال. م.بنت وباسيل هينيس عام ١٩٧٠م. وفى عام ١٩٨٩م تم نشر تقرير مفصل على يد ج. جى.وايتمان حيث حدد عدداً من مراحل البناء الخاصة بالحصن الأمامى من القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد. وأول مرحلة ذكرها هى عمل مقارنة ببناء البوابة الخارجية، والسور الخارجي للحصن، والأعمدة والأسوار المحيطة بها بطول امتداد الممر بين البوابتين الخارجية والداخلية. وقد افترض أن تلك المرحلة يرجع تاريخها إلى أيام الملك بلدوين الأول "١١٠٠-١١١٨م". أما المرحلة الثانية فتخص المبانى الموجودة على جانبى الممر، وتتضمن وجود كنيسة إلى الغرب، مع رفع سطح الطريق الممهد للممر. والمرحلة الثالثة تتضمن عدة تغيرات فى طريقة البناء الخاصة بالمبانى العديدة السابقة.أما المرحلة الرابعة فهى تتضمن شق قناة للصرف الصحى عند مخرج البوابة مع عمل بعض التعديلات الأخرى. وقد عثر على عملة معدنية ترجع إلى عهد حنا بريين "١٢١٠-١٢٢٥م" تحت مجموعة من الأنقاض عند الطريق النهائى، تظهر مرحلة أخرى توضح بأن عملية بناء البوابة قد تمت عام١٢١٠م أو ربما فى فترة لاحقة.

وعندما تمت إعادة فحص هذه البوابة وملامح تشييدها فى دراسة نُشرت حديثا على يد هيلال جيفا ودان باهات، فإنهما أعادا تاريخ بناء الأجزاء الرئيسية من البوابة إلى فترة أواخر الحكم الفرنجى فى القرن الثانى عشر للميلاد وإلى الفترة

المبكرة للحكم الأيوبى "١١٨٣-١١٩٢م"، وإلى فترة الحكم الفرنجى البسيطة فى القرن الثالث عشر للميلاد "١٢٢٩-١٢٤٤م"، واعتبرا مرحلة وايتمان الثالثة تعديلات تمت فى البوابة بعد تخريبها، وينبغى ألا ننظر إليها على أنها جزء من تاريخ البوابة، وليست أكثر من بوابة سابقة تم استخدامها فى المنطقة. كما نظرا إلى المرحلة الثانية على أنها المرحلة الأساسية ودعّما هذا الافتراض بالدليل التاريخى والرسم التوضيحى : ذلك أن خرائط العصور الوسطى المستديرة لمدينة بيت المقدس، تظهر الطريق الرئيسية وطريق الحج المسيحى إلى المدينة المؤدية إلى بوابة داود وليس إلى بوابة القديس ستيفان. والتعليق الذى ذكره فريتلوس هو أن البوابة نادرا ما كانت تفتح(١٦). كما أن هناك بعض المصادر التى تلقى مزيدا من الضوء على المبنى وتدمير الحصن الأمامى، حيث لاحظ وايتمان أن طريقة صياغة فقرة تناقش المدخل الشمالى للمدينة فى مصدر من أوائل القرن الثالث عشر للميلاد وهو كتاب المدينة،تظهر أن البوابة كانت موجودة فى ذلك الوقت. ووفقا لما جاء فى هذا المصدر، فإن كنيسة القديس ستيفان كانت إلى الجهة اليمنى بالنسبة لمن يدخل هذه البوابة. وحيث إن كنيسة القديس ستيفان كانت فى الجهة اليسرى من الطريق المؤدى إلى البوابة، فإنها - أى الكنيسة - يمكن أن تكون إلى الجهة اليمنى إذا كانت هناك بوابة أخرى خارجية، إلى الشرق من البوابة الرئيسية، وملاصقة للسور. ومن المحتمل أن المعظم عيسى قد هدم الجزء الناتئ من الحصن فى عام ١٢٢٩م عندما استعاد الفرنجة قبضتهم على المدينة، ومن المحتمل أنهم قد أعادوا ترميم ذلك الجزء الناتئ من الحصن - وعلى أية حال- وعلى ما يبدو فإن الناصر داود قام بتدميره، وربما لآخر مرة فى عام ١٢٣٩، ذلك لأنه من غير المحتمل أنه خلال فترة تواجد الفرنجة البسيطة والتى انتهت باستيلاء الخوارزمية على المدينة عام ١٢٤٤م، أن يكون الفرنجة قد بذلوا جهدهم فى إعادة بناء ذلك الجزء مرة أخرى، وخصوصا إذا وضعنا فى اعتبارنا حقيقة مهمة وهى أن غالبية تحصينات بيت المقدس كانت متهدمة وظلت كذلك.

وهذه هى البوابة الوحيدة من أربع بوابات رئيسية فى بيت المقدس زمن الحروب الصليبية. وهى الشىء الحقيقى الذى بقى، وترجع بكل تأكيد إلى فترة الحكم الصليبى. أما التغيير الأساسى الذى طرأ على البوابة الموجودة، فهو بناء الممر الخارجى والمدخل، والذى أثر بشكل واضح فى القدرات الدفاعية لهذه البوابة. فزاوية التسعين درجة للممر المؤدى إلى البوابة الرئيسية كانت عنصرا أساسيا فى طريقة البناء البيزنطية والتى قام الفرنجة بتقليدها. وكانت تتطلب من المهاجم أن يغير اتجاهه داخل مجمع مبانى البوابة مما يعرض الجزء الأيمن من جسمه وغير المحمى بدرعه إلى نيران العدو كما أن البوابة الخارجية كانت محمية عن طريق البرجين.

بوابة جبل صهيون

تقع بوابة جبل صهيون فى الجزء الجنوبى من السوق القديم، وذلك بعد إعادة تعمير السور الجنوبى لمدينة بيت المقدس فى القرن الحادى عشر للميلاد، وهى تبعد حوالى مائة متر شرق بوابة صهيون الحالية، والتى أعيد بناؤها فى القرن السادس عشر للميلاد فوق برج آخر من أبراج العصور الوسطى. ولقد كشفت الحفريات الأثرية التى تمت عام ١٩٧٤م عن برج بوابة صهيون الذى يعود إلى العصور الوسطى، كما عُثر على نقش فى كسارة الدبش المجاورة ومنه أمكن الاستدلال على أن هذه البوابة تم تشييدها خلال الفترة الأيوبية "١٢١٢" على يد حاكم دمشق الأيوبى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل. وربما كان المبنى الذى يُرى اليوم أيوبيا. ومن المعقول أن نفترض أن البوابة كانت تقع عند نهاية السوق القديم، قبل بناء برج البوابة على يد المعظم عيسى، وتم دمج أجزاء منه فى البوابة الجديدة، وموقعها عند النقطة التى يلتقى فيها السور بالسوق الجنوبى للعصور الوسطى، وهو نفس الموقع الظاهر على الخرائط الصليبية للمدينة. وفى فترة لاحقة، عندما تم تدمير هذه البوابة، وبطل استخدام الجزء الجنوبى من السوق القديم وأعيد بناؤه – تم ترحيل بوابة صهيون إلى موقعها الحالى، أى على بعد حوالى ١٠٠ متر نحو الغرب(١٧).

وكان للبوابة برج ضخم تبلغ مساحته ٢٣ مترا × ٢٣ مترا. ويمتد إلى ما وراء سور المدينة فى اتجاه الجنوب الشرقى، وهو فى معظمه داخل أسوار المدينة، وتم بناؤه من قطع من الحجارة المنحوتة مدببة الحواف وبها حليات معمارية ناتئة، وقد بقى منها حوالى اثنا عشر مدماكا وعدد من حجارتها عليها علامات حجرية موجودة على الجدران الثلاثة داخل السور الحالى للمدينة، وعلى العمود الرئيسى كذلك علامات تفيد استخدامه سابقا. كما أن هذا العمود الرئيسى يدعم الأجنحة ذات العقود والتى تستند على الدور الأرضى، وتبلغ مساحته ١٣ مترا × ١٢,١ متر ويبلغ سمك الجدران حوالى خمسة أمتار، بها فتحات لإطلاق النيران ولرمى السهام. ومما لاشك فيه أنه كان هناك طابق ثان والمدخل الملتوى كان خارج المدينة، إما فى الجانب الجنوبى من السور الشرقى للبرج، أو فى السور الساتر الجنوبى. أما الدخول من البرج إلى المدينة فقد كان إما عن طريق السور الجنوبى أو الغربى، وكل هذا يؤدى إلى بوابة كثيرة الالتواءات .

بوابة وادى يهو شافاط

لم يتبق أى دليل على وجود بوابة للعصور الوسطى. وعلى أية حال، فإنه من المهم أن نذكر أن الطريق المؤدية إلى هذه البوابة قد تغير مجراها عن طريق العصور الوسطى الذى كان يؤدى إلى بوابة يهو شافاط. ومن الممكن الزعم بأن بوابة العصور الوسطى كانت تقع بالقرب من البوابة التركية للقديس ستيفان أو بوابة الأسد، وربما كانت أبعد عنها قليلاً إلى الغرب(١٨).

وكما سبقت الإشارة، فإن هذه البوابة قد أشارت إليها مصادر العصور الوسطى على أنها ممر جانبى، أما البوابة الرئيسية الشرقية فقد كانت البوابة الذهبية. ومن ثم فإن البوابة الذهبية لم تكن تستخدم فى حركة المرور العادية باستثناء المواكب الدينية،

وتم استخدام بوابة يهو شافاط كبوابة رئيسية. وكما يظهر من الخرائط المعاصرة فمن خلال هذه البوابة يمكن لأى شخص أن يصل إلى وادى يهو شافاط وجبل الزيتون، مع بيسان والطريق إلى نهر الأردن.

ممر القديس لازار

في مصادر العصور الوسطى جاء وصف ممر جانبى يقع بالقرب من مستشفى مرضى الجذام للقديس لازار، وهو يسمح بالمرور إلى داخل المدينة من خلال المبانى الواقعة خارج أسوار المدينة شمالاً، ويتضمن مستعمرة الجذام. وبعد استرداد صلاح الدين للقدس، فإن هذا الممر كان الوحيد الذى سمح للحجاج المسيحيين بالمرور منه من الراغبين فى الوصول إلى الضريح المقدس. ووفقا لما جاء فى كتاب المدينة فإن الهدف من هذا هو منع الحجاج المسيحيين من الاطلاع على الأحوال التجارية فى المدينة. ولقد كشفت الحفريات الأثرية التى تمت فى المنطقة عن وجود بوابتين، بوابة فى السور الرئيسى تم التعرف عليها كمدخل مقدس بُنى من قطع حجرية ذات علامات مائلة والتى كشف عنها عند قاعدة السور الحالى للمدينة وكانت تقع فى طرف السور، حيث يبدأ امتدادها فى اتجاه الشمال الغربى فى الجانب الشمالى الشرقى من دير الفرنسيسكان، وليست بعيدة عن البوابة الحديثة - وهناك بوابة خارجية أخرى تم الكشف عنها عند الحصن الأمامى إلى الشمال منه، وهذه البوابة يبلغ عرضها حوالى متر، وتم العثور على كل من العتبة وفتحات هذه البوابة مع النافذة العليا، والمدخل المزود بالدرج الممتد من الغرب إلى الشرق وبأسفله الخندق المائى.

ممر القديسة مريم المجدلانية

في كتاب المدينة جاء ذكر هذا الممر على أنه ملاصق لكنيسة القديسة مريم المجدلانية فى جزء من السور الشمالى الشرقى، ويؤدى إلى الفضاء الخارجى بين

السورين، ومن خلاله يستطيع أى شخص أن يخرج إلى المدينة، والمسافة بين الحصن الأمامى والسور الساتر الرئيسى ربما استُخدمت لأغراض زراعية، أو ببساطة للدفاع عن المواقع المحصنة فى الحصن الأمامي.

البوابة الجديدة بوابة بيوكير

فى السور الجنوبى وبالقرب من الطرف الجنوبى الغربى من المدينة كانت توجد بوابة تعرف باسم البوابة الجديدة، هذه البوابة تم تشييدها لتسهيل دخول رهبان جبل صهيون إلى المدينة. وقبل وقت تشييدها كان عليهم دخول المدينة عبر طريق بوابة صهيون إلى الشرق أو بوابة داود، الأبعد قليلاً إلى الشمال، وفى عام ١٩٩٣م كتب وايتمان أن بقايا هذه البوابة " يمكن العثور عليها أسفل طريق البطريركية الأرمنية على بعد عدة أمتار داخل السور العثمانى ". وفى عام ١٩٩٦ م أجريت الحفريات الأثرية أمام السور، عند النقطة التى يتحول عندها الطريق شرقا، وتم الكشف عن جزء من السور مبنى من قطع الحجارة المربعة الشكل فى منطقة بارزة أسفل السور الحالى للمدينة فى اتجاه الشرق، ويقترح علماء الآثار أن هذا المكان كان هو السور الخارجى لما يمكن أن يكون بوابة لأحد الأبراج تم تشييدها فوق مبنى بيزنطى من السور الفاطمى الذى استُخدم كأساسات لسور القرن السادس عشر الميلادى الذى بناه السلطان سليمان. وحيث إن هذه البوابة قد شُيدت تقريبًا فى فترة العصور الوسطى وعلى وجه الدقة فى الموقع الذى تم فيه ذكر بوابة جديدة إبان نهاية الحكم الفرنجى فى القرن الثانى عشر للميلاد– فإن هذه البوابة وبلا أدنى شك هى البوابة الجديدة أو بوابة بيوكير التى جاءت الإشارة إليها عام ١١٧٨م بأنها " الجديدة ".

واسم بيوكير جرت العادة ومنذ أمد طويل على أنه مشتق من اسم أحد الأحياء داخل السور الجنوبى سكنه جماعة من جيش ريموند الصنجيلى، والتى

جاءت من مدينة بروفنسالية تحمل ذلك الاسم. وعلى أية حال، فإن باهات قد لاحظ أنه وفقا لما ذكره يوشع براور فإن أصل هذا الاسم ليس له علاقة بإقليم بروفانس ولكنه فى الحقيقة يعنى " التل الجميل ". وببساطة فإنه يشير إلى جبل صهيون.

بوابة المدابغ / البوابة الحديدية

وفقا لما جاء فى كتاب المدينة، فإن هذه البوابة كانت تقع عند الطرف الجنوبى لشارع صف الأعمدة الذى يبدأ من بوابة القديس ستيفان فى الجنوب الشرقى وبامتداد مجرى الوادى الكبير وحتى شارع المعبد. وقد تم الكشف عن بوابة ذات برج إضافى على بعد ١٥ مترا من بوابة القمامة وقد كشف ميير بن دوف عن البرج وتم ترميمه. وتم فتح هذه البوابة حديثا بعد إغلاقها لعدة قرون، وربما منذ أن حلت محلها بوابة القمامة فى القرن السادس عشر للميلاد. ويبلغ عرضها ١٩٥ سنتيمترا، إلا أنه من المحتمل أنها كانت مستخدمة لمرور المشاة. أما البرج الإضافى فهو عبارة عن كتلة من الأحجار تبلغ مساحته ١٤ مترا مربعا، وله حوائط يصل سمكها إلى أربعة أمتار ولكنه بسيط فى تصميمه، وهو برج بوابة طبق الأصل له مدخل خارجى إلى الغرب، به فتحات لرمى السهام فى الدور السفلى، ومن المحتمل أنه قد كان به فتحات لرمى السهام فى الطابق العلوى وتم تشييده فوق الشارع البيزنطى الممهد. ومن الخارج فإن البرج ربما كان له سلم خشبى، وربما كانت الأرض أعلى من مستواها الحالى. أما المدخل الخارجى لبوابة البرج فقد كان مدخلاً ملتويًا فى الطرف الشمالى الغربى من البرج. ولقد تم ترميم البرج عدة مرات، أما المداميك السفلية والدبش المستخدم فى الأساسات والأجزاء السفلية وعضادات الباب فهى أصلية، ومع هذا فإن عضادات الباب إفرنجية، فهى مغطاة بقطع حجرية تتطابق مع ما كان مستخدما عند الفرنجة، والنظرة الفاحصة لفتحات رمى السهام تبين أن إحداها تحتوى على حجر مربع من إحدى فتحات رمى السهام من زمن الفرنجة.

وهناك نظرية أخرى فيما يختص بموقع بوابة المدابغ: فالحفريات الأثرية التى أجريت في الشمال فى البوابة الحالية، على امتداد طول خط سور جبل المعبد، كشفت عن سور حجرى يمتد غربا من جبل المعبد، اعتبره علماء الآثار بقايا سور المدينة الجنوبى الصليبى، ولسوء الحظ فإن هذا السور لم يتم وصفه تفصيليا لذا فمن الصعب الآن تحديد تاريخه، ذلك لأنه قد تهدم تماما. فإذا كان هذا فعلاً السور الغربى للمدينة، فإن بوابة المدابغ بالضرورة لابد وأن تكون واقعة على هذا الخط، وعلى بعد معقول إلى الشمال من البوابة المذكورة بعاليه. والسؤال هو ماذا كانت وظيفة البوابة الموجودة والبرج، وهما وكما سبقت الإشارة يرجعان إلى فترة الحروب الصليبية ؟ فربما كانت البوابة بوابة خارجية لحصن أمامي. هذا مجرد تخمين، لأنه لا يوجد دليل أثرى باق كما لا يوجد ذكر لحصن أمامى فى هذه المنطقة فى أى مصدر معاصر. ومن جهة أخرى، فإن باهات قد سجل بالفعل العثور على بقايا صليبية داخل بوابة القمامة، فإذا كان السور الملاصق لجبل المعبد هو فعلاً السور الجنوبى للمدينة فى هذه الفترة، فإن البقايا الأثرية هذه من المحتمل أن تكون من خارج المدينة، ولهذا فإنه لمن المحتمل أن يكون السور الجنوبى للمدينة الصليبية على نفس خط السور التركى، وأن البوابة التى تم اكتشافها كانت فى الحقيقة بوابة المدابغ.

أما الاسم وهو بوابة المدابغ فهو مشتق من وجود ورش الدباغة فى هذه المنطقة، ومن المحتمل أنها كانت داخل وخارج الأسوار، فالحفريات الأثرية الحديثة والتى أجريت داخل البوابة قد كشفت عن مجمع صناعى من العصور الوسطى يتكون من برك وقنوات ذات جدران ناعمة، أرجع علماء الآثار تاريخها إلى العصر المملوكى. ومن المنطقى أن تكون صناعة دباغة الجلود موجودة هنا فهى ليست بعيدة عن سوق الماشية وقريبة من مصدر المياه من بركة سلوان، كما أن مصادر العصور الوسطى التى ذكرت هذه البوابة لم تشر إلى أنها أعطت بعض التسهيلات لبركة سلوان، ولذلك افُترض أن هذه البوابة لم تكن مستخدمة بواسطة جموع الناس، ولكنها كانت مستخدمة فقط بواسطة الدباغين. كما أنه من المقبول والمعقول فى نفس

الوقت أن يكون هذا هو موقعها لسهولة التخلص من الفضلات عن طريق كنسها وإزالتها عبر المنحدرات المتجهة جنوبًا(١٩). كما أن اسم بوابة الحديد استخدمه يوحنا الورزبرجى. ويقترح بيترز أن الاسم يرجع إلى السلاسل الحديدية التى استخدمت فى تقييد القديس بطرس فى السجن القريب، أو إلى الشرائح الحديدية التى تغطى أبواب البوابة. وفى القرن الثالث عشر للميلاد تم إطلاق اسم آخر على هذه البوابة وهو بوابة الماء. وهذا هو الاسم الذى استخدمه بوركهارد من جبل صهيون. ومن الواضح أنه يقصد بركة سلوان، ومرة أخرى يتم تحديد استخدام هذه البوابة كمنفذ لمصدر الماء الواقع إلى الجنوب منها.

بوابات جبل المعبد

إن خرائط بيت المقدس تظهر بوابتين فقط من بوابات جبل المعبد، وهما البوابة الجميلة، والبوابة الذهبية. وفى خريطة كمبراى تظهر بوابة ثالثة فى السور الجنوبى تؤدى إلى إسطبلات سليمان، ويذكر وليم الصورى أربع بوابات، بوابتين إلى الغرب، وواحدة فى السور الشمالى من جبل المعبد، وواحدة إلى الشرق. وإن كان وصف مارينو سانودو أكثر تحديدا: أربعة بوابات لجبل المعبد، وفوق كل واحدة منها توجد منارة: البوابة الجميلة وبوابة ثانية بدون اسم إلى الغرب، وبوابة إلى الشمال ليس لها اسم، والبوابة الذهبية إلى الشرق. أما كتاب المدينة فهو أكثر تفصيلا، حيث أضاف بوابة الأحزان، كما ذكر بوابة بيت المقدس.

البوابة الذهبية

هذه البوابة كان لها مكانة عظيمة فى المعتقدات المسيحية، فمن خلال هذه البوابة دخل السيد المسيح قبل عملية الصلب، وأثناء الفترة الصليبية، كانت تستخدم فى مواكب أحد السعف وفى أعياد رفع الصليب.

وإنه ليبدو من الأوصاف المختلفة أن البوابة الذهبية كانت تتكون فترة العصور الوسطى من بابين خشبيين فى مدخليها الداخلى والخارجي، ومغطاة مثل بوابات المدينة الأخرى بصفائح معدنية. قد بقيت حتى عام ١٥٤١م، عندما تم إغلاق البوابات بالحجارة. والبوابة المزدوجة المدخل هى بناء أموى. ويقترح برنجل أن القبتين المبنيتين فوق الأسطوانتين أعلى الجناحين الشرقيين لهذه البوابة قد تم بناؤهما خلال فترة الحكم الصليبى عندما تم تحويلها إلى كنيسة(٢٠).

بوابة بيت المقدس

سبقت الإشارة إلى أن هذه البوابة ورد ذكرها فى كتاب المدينة، كما ذكرها أيضا الحاج المجهول على أنها كانت تقع إلى الشرق من المسجد الأقصى (معبد الرب) وفوق البوابة الذهبية. كما أن اسم بيت المقدس يظهر مرتين فى خريطة كوبنهاجن فقد ظهر مرة على وسط المدينة، ومن المحتمل أن ذلك كان متعمداً كعنوان للخريطة ككل. (كما أنه يظهر كذلك وبنفس الطريقة فى خريطة مارينو سانودو، وسط جبل المعبد، كعنوان: مدينة بيت المقدس). كما يظهر مرة ثانية على جبل المعبد، ملاصقًا لعبارة معبد سليمان. زمن المحتمل أن هذا الظهور الأخير لاسم بيت المقدس، وبوابة بيت المقدس فى كتب الرحلات يشير إلى المدخل فى الجهة الجنوبية فى الهضبة العليا من جبل المعبد. وبشكل بديل فإنها يمكن أن تشير إلى البوابة الداخلية (الغربية) للبوابة الذهبية.

البوابة الجميلة

فى الطرف الشرقى من شارع المعبد، وعند نهاية القنطرة المقامة على الوادى الكبير، تقف البوابة المعروفة باسم البوابة الجميلة. وقد كانت المدخل الغربى الرئيسى لجبل المعبد. ووفقا لما جاء فى كتاب المدينة، فإن الاسم مشتق من التراث الذى يذكر أن

المسيح عليه السلام قد دخل بيت المقدس عبر هذه البوابة. وهذا يفسر لنا السر فى استخدام نفس التسمية فى العصر البيزنطى والتى أطلقت على البوابة الذهبية. وفى ظل الحكم الصليبى عُرفت كلتا البوابتين بأن المسيح قد دخل منهما.

وربما يبدو أن الفرنجة قد رغبوا فى تمييز هذه البوابة وبطريقة تتفق مع اسمها. وحتى قبل فترة الحكم الصليبى فإن البوابة كانت بناء مميزا. وفى وصف مبكر ذكره سايولف (١١٠٢ – ١١٠٣م) يذكر أنها: جميلة لصنعتها الفائقة وتنوع ألوانها. ولقد تم بناء هذه المنشأة فى وقت ما فى القرن الثانى عشر للميلاد على يد الفرنجة ومن المحتمل أنها كانت بناء جميلا. وربما يمكن رؤية بعض نواحى عظمتها فى فن النحت الذى أعيد استخدامه فى البوابة الأيوبية المزدوجة (باب السلسلة / باب السكينة).

بوابة الأحزان

إن كتاب المدينة يتحدث عن وجود بوابة تؤدى من جبل المعبد، من خلالها مر السيد المسيح فى طريقه إلى عملية الصلب. وموقع هذه البوابة يمكن وبسهولة التعرف عليه من الفقرة التى وردت فى ذلك الكتاب :

"والآن أعود إلى بوابة القديس ستيفان إلى الشارع الممتد يسارا، والذى يصل إلى موقع المدابغ، وبعد السير قليلا فى هذا الشارع، ستجد شارعًا على يدك اليسرى يسمى شارع يهو شافاط، وعلى اليمين بعد قليل ستجد تقاطعًا، حيث الطريق الشمالى يأتى من المعبد ويتجه إلى الضريح المقدس. فى أعلى هذا الطريق هناك بوابة عالية أمام المعبد تسمى بوابة الأحزان".

ولقد افترض إدوارد روبنسون أن بوابة الأحزان تشير إلى القوس المنحرف غريب الأطوار وأن الاسم تمت ترجمته فيما بعد إلى شارع الأحزان. وقد اتفق دى فوجيه معه فى الرأى، أما فنسنت فقد فهم أن الفقرة تشير إلى البوابة الثانية من جهة الشمال

فى السور الغربى لجبل المعبد (باب الناظر). وعلى أية حال، وحيث إن الوصف يذكر شارع يهو شافاط والذى تم الوصول إليه قبل الشارع المؤدى إلى بوابة الأحزان – ولم يقل أن الشخص يتجه إلى أسفل شارع يهو شافاط – فمن المحتمل أن الكاتب كان يشير إلى إحدى البوابات الشمالية للسور الغربى لجبل المعبد، باب الناظر أو باب الغوانمة.

البوابة الوحيدة

فى السور الشرقى لجبل المعبد، وعلى بعد حوالى ٣٢ مترا من طرفه الجنوبى الشرقى، هناك مدخل مقوس حاد مغلق، وفى الوقت الذى لا يوجد ذكر لهذه البوابة فى مصادر العصور الوسطى، فإن وجودها تم تسجيله فى خريطة كمبراى للقرن الثانى عشر للميلاد، حيث تظهر بوابة أسفل معبد سليمان وإسطبلات سليمان، وهذه هى البوابة الوحيدة من البوابات الموجودة فى أسوار المدينة والتى لدينا لها دليل مرسوم؛ فالقوس المدبب للبوابة يرجع تاريخه بشكل واضح إلى زمن صليبى، لأنه تم بناؤه من حجارة مربعة الشكل وتم قطعها بشكل مائل.

البوابة المزدوجة

وهناك أيضًا فى السور الشرقى لجبل المعبد بوابة هيرود المزدوجة بنوافذها العليا المحفورة والتى تمت إضافتها فى العصر الأموى. وفى العصور الوسطى فإن هذه البوابة التى تسمح بالمرور إلى معبد سليمان كانت مغلقة جزئيًا. فالمدخل الشرقى تم أُغلِق وتم بناء بوابة برج خارجية إضافية، تسمح بالمرور من الغرب، وكذلك من الشرق إلى المدخل الغربى والذى هو الآن داخل البرج.

وفى زمن الحروب الصليبية كانت هذه البوابة مهمة بالنسبة للداوية، حيث إنها كانت تسمح بالمرور مباشرة إلى مساكنهم فى معبد سليمان (المسجد الأقصى). أما البوابات الأخرى الخاصة بالداوية فقد كانت فى الأسوار الشمالية والغربية لجبل المعبد، أما البوابة الوحيدة فقد كانت فى الطرف الشرقى فى سور جبل المعبد، وهى التى تسمح بالمرور إلى إسطبلات الداوية. وهكذا كان فى إمكان الداوية عن طريق هذه البوابة فقط أن يدخلوا مباشرة إلى ممتلكاتهم من خارج أسوار المدينة. ومن الصعب تحديد أى جزء من بوابة البرج تم تشييده على يد الصليبيين وأيها تم على يد من بعدهم، فالحجارة التى استخدمت لسد المدخل ليس عليها علامات حجرية خاصة بالصليبيين، كما أن البرج الذى تم بناؤه أمام سور جبل المعبد لا يبدو أنه صليبى (على الرغم من أن السلم المبنى داخل سمك السور الشرقى يحمل ملامح صليبية طبق الأصل). وعلى ما يبدو فهناك استخدامات للمرة الثانية من أحجار صليبية فى المستويات العليا من البرج، كما أن هناك القليل من قطع الحجارة الصليبية المربعة الشكل فى الواجهة الغربية فى القوس الثانى الجنوبى. فهو مبنى من حجارة مربعة ملساء وبعض الحجارة المنحوتة بشكل مائل، ولها سطح أملس ولها حليات معمارية طبق الأصل من العصر الصليبى. وهكذا يبدو أن البرج تم بناؤه أمام البوابة المزدوجة، والتى يرجع تاريخها إلى فترة سابقة للفترة الصليبية، وهذه الفترة كانت متأخرة إلى حد ما وبنيت فيها معظم البوابة.

ومع هذا، فإن الجزء الجنوبى من هذا البرج يحتوى على قطع حجرية مربعة الشكل، وعلى وجه خاص فى واجهته الجنوبية، بعضها عليه علامات حجرية حيث تم الكشف عن ختم رصاصى للبابا ألكسندر الثالث " ١١٥٩ - ١١٨١م " أثناء الحفريات الأثرية التى تمت عام ١٩٧١م. وعلى الجانب الغربى لهذا البرج الذى يبدو أنه صليبى، وإلى الغرب من السور التركى للمدينة، هناك بقايا أثرية لبرج صليبى آخر، وهناك أيضًا حوائط وبقايا قوسين يستندان على عمود وحائط أبعد إلى الغرب هما بقايا قدر لها

البقاء من برج حجرى، وهذه هى علامات على وجود بناء صليبى. وباختصار، فإنه يبدو أن عمل الداوية أمام البوابة المزدوجة كان الهدف منه حماية المدخل الخارجى لمتلكاتهم، والذى تبعه كثير من عمليات البناء فى أوقات لاحقة.

البوابة الشرقية

لقد أشار كلود كوندر إلى بوابة السور الشرقى من جبل المعبد، إلى الجنوب من البوابة الذهبية، كما أن بيولتى أيضا يذكر هذا : " هناك بوابة صغيرة مغلقة بالحجارة إلى الجنوب قليلاً من البوابة الذهبية ". هذه البوابة ربما تم استخدامها لمواكب الجنائز وهى فى حالتها الراهنة من الصعب جدا تحديد تاريخ لها، وبأى شكل لا يمكن التأكيد من أنها من الفترة الصليبية.

الأبراج

لقد تمت إضافة عدد من الأبراج إلى أسوار بيت المقدس فى العصور الوسطى لتقوية نقاط الضعف فيها، والعديد من هذه الأبراج قد تم إرجاعه إلى العصر الأيوبى بشكل روتينى على يد علماء الآثار، حيث إنه ليس من الصعب تحديد طريقة استخراج الكتل الحجرية فى العصور الوسطى، ولكن من الصعب التفريق بين الإنشاءات الفاطمية، والصليبية، والأيوبية، والمملوكية فكل منها كان يعمل على الاستفادة من الأحجار المربعة المزينة بحليات معمارية ناتئة. ويختص البناء الصليبى بأن هذه الأحجار عادة ما توجد مع حجارة مقطوعة بشكل مائل، وعادة ما تكون عليها علامات حجرية، وفى مثل هذه الحالات فإن تاريخ البناء لا يعتريه الشك. ومع هذا، فإنه إذا لم توجد بعض العناصر المعمارية مثل الأبواب والنوافذ والأطر الخارجية، فربما لا يتم العثور على مبنى صليبى إلا وبه دليل واضح يمكن به تحديد تاريخ بنائه،

ولهذا ينبغى ألا نتعجل فى إرجاع تاريخ بقايا المبنى إلى فترة أخرى غير الفترة الصليبية لأنها لا تحمل علامات قطع الأحجار بشكل مائل. كما ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن الفرنجة ربما استفادوا من بناءين مسلمين فى بعض الحالات، فنحن نعرف على سبيل المثال أن الأسرى المسلمين استُخدموا فى بناء قلعة صفد والتى شيدت فى عام ١٢٤٠م، وفى مثل هذه الحالة يمكننا أن نفترض أن قاطعى الحجارة المسلمين قد استخدموا أسلوبا كان معروفا لديهم فى مثل هذه الحالات. ولهذه الأسباب فإننى لن أفترض تاريخا فرنجيا للأبراج، وهى بلا شك ترجع إلى تاريخ العصور الوسطى، كما أن العثور على نقش مخصوص فى كسارة الحجارة إلى جانب تلك المبانى يعد دليلاً ومؤشرا لتحديد تاريخ مثل تلك الأعمال. وعلى أية حال، فقد جرت العادة بإدماج بقايا عمل قديم فى أعمال أخرى جديدة، وعلى هذا الأساس يجب أخذ مثل هذا النقش بدرجة كبيرة من الحذر.

برج تانكرد، أو قصر الجالود، أو البرج رباعي الزوايا، أو برج نابلس

هذا البرج الكبير من المحتمل أن يكون قد بُنى أصلاً حوالى عام ١٠٦٣ م، كجزء من الدفاعات الجديدة لهذه المنطقة والتى قام بها جماعة المسيحيين الذين شغلوا الحى الملاصق، ذلك لأن الركن الشمالى الغربى من المدينة يعد واحدا من أضعف النقاط فى تحصينات المدينة، ذلك لأن المنطقة خارج الأسوار وإلى الشمال كانت ترتفع بشكل معقول، ومن أجل تعويض هذا الضعف فقد تم تشييد برج ضخم هناك يطل على التل الواقع إلى الشمال، وقد ذكر بوركهارد من جبل صهيون ذلك بقوله : إن الصخور -وكما سبق القول- والتى تم بناء السور الغربى للمدينة عليها كانت مرتفعة جدا، وبوجه خاص عند الطرف الذى يلتقى عنده الجزء الغربى من السور بالجزء الشمالى،هذا المكان كان أكثر ارتفاعا من البقية، وهنا تم بناء البرج المسمى برج نابلس، كما تم بناء قلعة قوية جدا، ما زالت بقاياها موجودة هناك. ومنها يستطيع الواحد أن يلقى نظرة على الجزيرة العربية، والأردن، والبحر الميت والعديد من الأماكن الأخرى.

وعلى الرغم من أن المأثورات الشعبية المتعلقة بجالوت تربط بينه وبين ذلك المبنى، فإن الاسم ربما كان ببساطة إلماحا إلى الحجم الكبير لذلك البرج. أما الاسم الصليبى فهو برج تانكرد، وهو تكريم لفارس نورمانى يدعى تانكرد، وهو الذى هاجم المدينة من هذا الموقع عام ١٠٩٩م، ويبدو أن هذا الاسم قد أطلق مبكرا، فقد استخدمه فريتلوس حوالى عام ١١٣٠م. وقد تم تصوير البرج وأطلق عليه اسمه فى خريطة كمبراى، كما أن البرج يظهر فى خريطة القرن الثالث عشر للميلاد لبوركهارد من جبل صهيون ومعه اسم برج نابلس وفى خريطة من القرن الخامس عشر للميلاد يظهر عليها البرج بشكل واضح وفى موقعه الصحيح وقد أشير إليه بأنه البرج الغريب.

وفى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد قام فيلكس سالس بفحص البقايا الأثرية -كما فعل شارلز وارن - واكتشف عمودا حجريا وعددا من الغرف مع عقد جديد، كما كشف عن جزء من حائطه الغربى الخارجى. واستمرت الحفريات الأثرية خارج أسوار المدينة فى عام ١٩٧٢ م وتم الكشف فيها عن الحائط الشمالى للبرج وسور المدينة الملاصق لها وخندق مائى إلى الشمال منها. وتبلغ مقاييس البرج ٣٥ مترا ×٣٥ مترا. وقد تم بناؤه من قطع من الأحجار المربعة المنحوتة مع حليات معمارية واضحة. وكان يمكن رؤية جزء كبير من البناء داخل سور المدينة حتى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد[٢١]. ويعتقد باهات أن البرج لم تتم إعادة بنائه على يد الفرنجة الذين استمروا فى استخدام البرج الفاطمى، وتمت إعادة بنائه بعد الفتح الأيوبى عام ١١٨٧م. وقد كانت البقايا الأثرية لبرج تانكرد متهدمة إلى حد كبير عندما تمت عملية بناء كلية الأخوة الرهبان عام ١٨٧٦م. ولقد تم الكشف عن الحائط الخارجى للبرج خارج السور التركى الشمالى للمدينة عام ١٩٧٢م، الذى يمكن رؤيته، ويبلغ ارتفاعه مدماكين فوق سطح الأرض. والفحص الدقيق للمبنى يجعلنا نفترض وجود جزئين ناتئين فى هذه الواجهة الشمالية. والمبنى كله تقريبًا بُنى من قطع الحجارة المربعة المنحوتة وعليها علامات ذات أطراف حادة وحليات معمارية بارزة قد سبق ذكرها. وتم تثبيتها

بالأسمنت الرمادى مع قطع الدبش. وعلى أية حال، ففى اتجاه الغرب من هذا الحائط هناك شق، وفى الطرف الغربى من هذا الشق هناك قطعة حجر مربعة منحوتة فى الطابق الأرضى، ومن الواضح تماماً أنها من عمل الفرنجة. وبما أنها قطعة واحدة، فيبدو أنه قد أعيد استخدامها للمرة الثانية. كما يبدو أن البرج الفاطمى كان يمتد إلى الغرب والشق كان فى الواجهة الغربية الأصلية. ويرجع باهات تاريخ البرج إلى "العصرين الفاطمى والأيوبى" معتمداً فى ذلك على تلك البقايا الأثرية.

البرج الجنوبى الغربى

فى الركن الجنوبى الغربى من المدينة وفوق جبل صهيون هناك برج مستطيل ضخم تم تشييده فى العصور الوسطى، وكان الغرض منه هو حماية المنطقة من أى هجوم قادم من الغرب. وهو يمتد حوالى ٢٥ متراً إلى السور التركى ويبلغ طوله ٢٦,٥ متر من الشمال إلى الجنوب. والبرج تم تشييده كلية من الحجارة المربعة المنحوتة ذات الحواف الحادة، وبها حليات معمارية، كما أن به حجارة مربعة مقطوعة بطريقة مائلة تعود إلى العصر الصليبى وأعيد استخدامها، بما يجعلنا نفترض أن البرج يعود تاريخه إلى أواخر العصر الصليبى أو العصر الأيوبى. والواجهات الداخلية للجدران تم تشييدها من الحجارة المحلية خشنة المظهر. والجدران سميكة، حيث يبلغ سمكها خمسة أمتار فى الجنوب، و٥,٨ متر فى الشمال. وهناك عمود مركزى يدعم الأجنحة المقبية للدور الأرضى. ويتم الدخول إلى البرج من المدينة عن طريق مدخل فى السور الغربى للمدينة، لم يعد موجوداً الآن.

برج الكبريت

على بعد حوالى مائتى متر إلى الغرب من بوابة الدباغين هناك برج من العصور الوسطى، ربما يرجع تاريخه إلى القرن الثانى عشر للميلاد، وقد تم بناؤه فوق بقايا

برج فاطمي. والبرج الأخير أى الفاطمى يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الحادى عشر للميلاد. وإذا كان التاريخ صحيحًا، فقد تم تشييده حوالى عام ١٠٣٣م، ومن المحتمل أنه تم تدميره أثناء حصار الفاطميين عام ١٠٩٨م أو أثناء الحصار الصليبى بعد عام، وربما تم بناؤه بعد ذلك عام ١١١٦م أو عام ١١١٧م. ويبلغ طوله ١٢ مترًا وربما كان متسعًا فى العرض " ذلك لأن الجهة الجنوبية منه لم يقدر لها البقاء". ويبلغ سمك جدرانه ٤,٥ متر، ولكنه بنى من قطع الأحجار مربعة الشكل والمنحوتة بشكل مائل ولها حواف مدببة، وبها حليات معمارية بارزة، وبعض قطع الأحجار المربعة ويبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار.

البرج الأوسط

لقد أطلق بعض العلماء هذا الاسم على البرج الواقع بين برج الكبريت وبوابة الدباغين، على بعد حوالى ستين مترا إلى الغرب من البوابة السابقة. وهو برج صغير نوعا ما، تم تشييده من قطع حجرية صغيرة وقطع حجرية مربعة الشكل ملساء، وقطع حجرية مربعة الشكل منحوتة بشكل مائل وتبلغ مساحته ١٠ أمتار × ٩,٧ متر. وهو عبارة عن عدة جدران منخفضة يبلغ ارتفاعها حوالى سبعة عشرة مدماكا، وجميع أجزاء المبنى الذى فوق الدور الأرضى لم يقدر لها البقاء. هذا البرج، مثل البرج السابق، كان يحمى الناحية الجنوبية من أى هجوم قادم من أسفل وادى القدرون.

كما أن الحجم الصغير للحجارة، ووجود كثير من الأحجار ذات الشكل المائل وبعض الحجارة الأخرى التى يبدو أنها من فترة لاحقة، أمور تجعلنا نفترض أن هذا البرج كان مملوكيا أكثر منه صليبيا وبالتحديد فهو برج راجع إلى ما قبل الفترة العثمانية ؛ ذلك لأن السور التركى قد بنى فوقه.

البرج الموجود فى كنيسة القديسة حنة

هذا البرج الكبير يبلغ طوله ٢٤,٥ متر من الشمال الجنوبى، ومن المحتمل أن يكون الثانى بعده فى الشرق الغربى مماثلاً له، ويبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار، وتم الكشف عنه فى القرن التاسع عشر للميلاد. ولقد تم بناؤه وفق نمط العصور الوسطى من قطع من الأحجار مربعة الشكل ومنحوتة بشكل مائل. وكما سبقت الإشارة، فإن موقعه، إلى الغرب نوعا ما من السور التركى، يجعلنا نفترض أن الخط الأساسى من السور الساتر فى الشرق -على الأقل- كان يبعد جنوبا مثل كنيسة القديسة حنة، وعلى بعد عدة أمتار إلى الغرب من السور التركى.

برجان فى السور الشمالى

لقد تم الكشف عن برجين فى السور الشمالى وإن لم يتم نشر معلومات عنهما حتى الآن. يقع أحدهما شرق بوابة هيرود الحالية ويبلغ طوله حوالى ٢٠ مترا " من الشرق إلى الغرب. " أما الآخر فقد كان يقع فى منتصف الطريق بين بوابة دمشق والبوابة الجديدة الحديثة، ويبلغ عرضه حوالى ١٧ متراً.

* * *

حواشي وتعليقات الفصل السابع

(١) لقد امتد تأثير زلزال شتاء ١٠٣٣-١٠٢٤ لمدة تزيد عن أربعين يوما، ولقد أصاب أسوار مدينة القدس بأضرار بالغة كما أصاب الكثير من الكنائس؛ د.هـ كالنر أميران، "كتالوج زلزال فلسطين"، الجمعية الإسرائيلية للآثار، العدد ١، ١٩٥٠-١٩٥١، ص٢٢٧ . ولربما تأخرت إصلاحات الظاهر للأسوار والتي أصابها زلزال قوى سابق حدث عام ١٠١٦، انظر: وايتمان ١٩٩٢، ص٢٤٥ .

(٢) وفقا لما جاء في إحدى المؤرخات، فإنه أثناء قذف الفاطميين الأسوار بالمنجنيقات وآلات الحصار التي أحضرها الأفضل بن بدر الجمالي، فقد انهار جزء من السور؛ هياري ١٩٩٧، ص١٣٦-١٣٧ .

(٣) يرى وايت مان أن سور المدينة الممتد إلى جبل صهيون، والذي تم تشييده في القرن الحادي عشر للميلاد، كان يبعد قليلا إلى الشمال من السور الحالي (التركي)، انظر: وايت مان، الأسوار، ص٢٤٧, وإذا كان الحال كذلك فإن الخندق الموجود في جبل صهيون والذي جاءت الإشارة إليه في وصف الحصار الصليبي، لابد أن يكون قريبا من السور الحالي، على الرغم من عدم وجود دليل أثري على ذلك، ولا أي مبرر لتحديد تاريخ للسور الذي تم الكشف عنه تحت السور التركي وإرجاعه للعصر الأيوبي بدلا من العصر الفاطمي.

(٤) عن زلازل أعوام ١١١٣ و١١١٤، و١١١٥م. الذي ربما سبب بعض الأضرار للأسوار (وإن كان لا يوجد ذكر صريح لهذه الأضرار)، عن ذلك انظر: كاليران - أميران: "كتالوج الزلازل المنقح" الصفحات ٢٢٧-٢٢٨؛ د.هـ.ك: أميران و.ت. توركوت، "الزلازل في إسرائيل والمناطق المجاورة": الملاحظات الاقتصادية منذ عام ١٠٠ ق.م، مجلة الكشوف الأثرية الإسرائيلية، العدد ٤٤، ١٩٩٤م، ص٢٦٩ .

(٥) لقد وصفت كنيسة القديسة مريم على جبل صهيون بأنها كانت مدمرة في القرن الثالث عشر للميلاد، انظر ص١١٢، ملحوظة رقم ,٦٣ كما أن كنيستي القديس ستيفان والقديس لازار كان قد تم هدمهما للحصول على مواد للبناء، راجع بنفنستي، الصليبيون في الأرض المقدسة، ص,٥١ وفي الحقيقة فإن كنيسة القديس ستيفان كانت خرابا، بعد تدمير الفرنجة أنفسهم لها قبيل الحصار الأيوبي عام ١١٨٧م، في محاولة لمنع صلاح الدين من الاستفادة منها في الاقتراب من الأسوار (لأنها تقع تقريبا بالقرب من السور الشمالي للمدينة).

(٦) لقد لاحظ وايت مان صمت المصادر المعاصرة إلى حد ما وخصوصا فيما يتعلق بجهود المعظم عيسى في عمليات تدمير الحصون والأسوار والتي كانت محل نقد وعدم استحسان، وقام بتنفيذها فيما بعد، راجع: وايت مان: الأسوار، ص٢٧٨ .

(٧) كتب الرحالة اليهودى الإيطالى الرابى موشلام بن الرابى مناحم الفولتيرى عام ١٤٨٤: (القدس الآن ليس بها أسوار باستثناء الجزء الوحيد الذى دخلت المدينة منه؛ راجع: أدلر، ١٩٣٠م، ص١٨٩ . وهناك رحالة يهودى إيطالى آخر وهو عوبديا البرا يتنيورى والذى كتب فى عام ١٤٨٨م قائلا: إن مدينة القدس فى معظمها مهجورة وخراب. وليست فى حاجة لأن أكرر أنها غير محاطة بالأسوار" راجع أدلر ١٩٣٠م، ص٢٣٤ . وهناك بعض الصور والرسومات التى تظهر بعض أجزاء مازالت باقية من السور إلا أنها عديمة الفائدة بسبب المناطق الكثيرة غير المحمية. انظر: إم ليفى، "خرائط العصور الوسطى". فى كتاب يوشع براور وبن شابعا، تاريخ بيت المقدس، الصفحات ٤١٨–٥٠٨، كذلك راجع من القرن الخامس عشر خرائط ميونيخ وكومينللى.

(٨) ينبغى ألا نصدر حكمنا على ما جاء فى تاريخ القرن الثانى عشر. فربما كان ذلك خاصا بالسور الأمامى أو الحصن الأمامى والذى جاء ذكره فى العديد من المؤرخات والتى تحدثت عن غزو عام ١٠٩٩م، وبأنه تم إصلاحه وأنه ربما امتد خلال القرن الثانى عشر. كما أن كلا من بلس وكوندر غير واضحين فى وصفهما. فهل كان كوندر يعنى أن هناك مبنى تم بناؤه فى السور يحمل علامة البناء الحجرية الصليبية، فإذا كان هذا حقا، فإن لدينا سور صليبى من المحتمل أنه يحمل تاريخ القرن الثانى عشر للميلاد.

(٩) هذا هو العام الذى قدم فيه الراهب الأبرص مارينو سانوتو نفسه للبابا يوحنا الثانى والعشرون فى أفينون. كما أن سانوتو نفسه لم يزر بيت المقدس. لذا فإن خريطته التى رسمها ربما اعتمد فيها على ما كتبه ورسمه بوركارد من جبل صهيون (حوالى عام ١٢٨٠م). والتى تبدو وكأنها النموذج الذى سار عليه سانوتو فى وصفه.

(١٠) إن أفضل صور للموقع تم أخذها فعلا قبل الحفريات بزمن طويل. وهناك صورة أخذها الألمانى لوفت ديف ونشرها جوستاف ولمان فى كتابه: مائة صورة عن القدس عام ١٩٢٥، اللوحة رقم ٥ وانظر كذلك الصور التى يرجع تاريخها إلى عام ١٩١٧م فى كتاب بنيامين زيفى كيدر، الأرض المتغيرة فيما بين نهر الأردن والبحر، صور أرضية ترجع لعام ١٩١٧م وحتى الوقت الحاضر، القدس، ١٩٩٩م، ص١٢٣ (صور مطوية).

(١١) إن بقايا البرج لا تدل على وجود أى دليل مقدمة حصن هنا، ولكن تلك البقايا (حيث مركز السور مازال باقيا) ربما ترجع إلى الفترة السابقة للمرحلة الصليبية، ربما الإصلاحات التى قام بها المعظم عيسى فى بدايات القرن الثالث عشر.

(١٢) إن الاستخدام المزدوج للأحجار العادية مع الأحجار ذات العلامات المائلة والواضح من العملة يعتبر نظاما خاصا بالعصور الوسطى، بل هو دليل لاشك فيه على العمارة الصليبية المميزة. راجع: رونى ايلنبلوم، "أساليب البناء فى المنشآت المدنية" فى كتاب بنيامين زيفى كيدار، قرون حطين، القدس، ١٩٩٩٢م، ص١٧٢، حيث يفترض أن امتداد السور الذى جاء وصفه هنا، والذى لوحظ فيه أنه قد تم بناؤه عام ١٠٦٣م، وأنه قد أعيد بناؤه أثناء القرن الثانى عشر للميلاد (حوالى ١١١٦م أو ١١٧٧م). أما الارتفاع أو الطول الذى قدر له البقاء والواضح من خلال السور التركى ربما يبين لنا إلى أى مدى كانت بقايا السور بعد تدميره على يد المعظم عيسى عام ١٢١٩م.

(١٣) هذا هو الحال في بوابة القديس سيتفان وبوابة صهيون وبوابة الدباغة، البوابات الثلاث التي ترجع إلى العصور الوسطى، والتي تدل بقاياها على زمن بنائها. من حيث موقع الحصن الأمامي في السور المزدوج (حصن سور القديس لازار في الشمال الغربي وربما كان كذلك في حصن كنيسة القديسة مريم المجدلانية في الشمال الشرقي). حيث تظهر البوابة الداخلية ليست في مواجهة البوابة الخارجية ولكن وبشكل منحرف عنها قليلا، مما كان يتطلب من أي أحد يقترب منها أن يتجه مرتين قبل أن يدخل المدينة.

(١٤) من المحتمل أن أهمية بوابة داود ظهرت منذ القرن الثاني عشر للميلاد، حيث إنه من المفترض أنها حلت محل أهمية بوابة القديس ستيفان كبوابة رئيسية في زمن سابق. تؤدي إلى المدينة. ويرى مايكي إيهرلتسن (وهو رأي شخصي) أنه في الفترة البيزنطية وتحت الحكم الإسلامي كذلك، فإن الحصن الأمامي كان بمثابة الممر الرئيسي المؤدي إلى داخل المدينة، وعلى هذا الأساس فإن البوابة الشمالية يفترض أنها هي البوابة الرئيسية لدخول المدينة. فمن الشمال يستطيع أي شخص أن يصل إلى كنيسة الضريح المقدس والتي كانت في ذلك الجزء المحصن. وعندما تم إعادة بناء هذه الكنيسة في القرن الحادي عشر (وفيما بعد بواسطة الفرنجة في القرن الثاني عشر)، فإن المدخل تم تحويله إلى الجنوب. وفي فترة الحكم الصليبي فإن كلا من هذه الكنيسة ومنطقة المسجد الأقصى كانا من المواقع المقدسة، كما كان شارع داود المؤدي إلى هذين الموقعين الممر الرئيسي للمدينة.

(١٥) انظر كتاب المدينة، ص١٩٩، وكتاب الحاج المجهول، ٥، والذي زار القدس قبل عام ١١٨٧م، وذكر أنه عبر المدينة من بوابة القديس ستيفان، أنظر: الحاج المجهول ٥،ص٢٢ . وعلى أية حال، ففي زمن الحكم الأيوبي، فإن الحجاج المسيحيين كانوا يعبرون المدينة خلال حصن كنيسة القديس لازار متجهين إلى الغرب، انظر: كتاب المدينة، ص٢٠٠، وفي زمن المماليك فإن هذا العائق تم التخلي عنه. فوفقا لما ذكره مارينو سانوتو (١٣٢١م) فقد كان الحجاج المسيحيون يدخلون عبر بوابة بنيامين (أي بوابة القديس ستيفان) (مارينو سانوتو، ص٣٨)، أو "بوابة الوادي" (ص٤٧-١٨)، وبالنسبة بوابة اليها شافاط والتي حدد سانوتو موقعها خطأ بأنها تبعد "رمية حجر من المعبد الكبير، في الجهة الجنوبية".

(١٦) واضح أن هذا المصدر يتفق مع ما ذكره كل من جيفا، وبهات فيما يتعلق بتاريخ لاحق للبوابة، على الرغم من أنه يرى أن المرحلة الأولى كانت قبل القرن الثاني عشر، وكما يرى وايت مان، ولكن كان استخدامها نادرا. كما أنه ليس هناك دليل يؤيد ما ذهب إليه كل من باهات وجيفا من أن الخرائط ينبغي أن تعود إلى فترة متأخرة من القرن الثاني عشر. وبخصوص هذه الخرائط راجع: ص١٩٩-٢٠٠ . وإنني أعتقد أن التاريخ الصحيح ينبغي أن يكون من النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد. وإن شكل كنيسة الضريح المقدس يدعم هذا الرأي.

(١٧) إن بوابة صهيون الجديدة هذه كانت هي البرج الموجود حاليا أسفل بوابة صهيون (التركية) والتي أجريت فيها حفريات عام ١٩٧٤م، وقام بنشرها كل من بروشي وزافرير، ويعتقدان أنها كانت معاصرة لبوابة صهيون الأيوبية (حوالي عام ١٢١٢م). راجع: ماجن بروشي ويورام زافرير، "حفريات أثرية في بوابة صهيون، القدس، ١٩٧٧م، مجلة الكشوف الأثرية الإسرائيلية، العدد ٢٧، ص٢٨-٣٧ . وإنني أعتقد أنه من غير المحتمل أن تكون هاتان البوابتان معاصرتين لبعضهما البعض.

(١٨) من المحتمل أن الخط الممتد من سور المدينة الشرقي من الركن الشمالي الشرقي، إلى هذه البوابة، أو بامتداد الطريق المؤدي إلى الركن الشمالي الشرقي من جبل المعبد، كان على بعد عدة أمتار قليلة من

السور الحالي. فقد تم اكتشاف برج من العصر الوسيط إلى الشرق من كنيسة القديس حنا يمتد موقعه إلى الغرب من السور التركى، ويوضح أن ستارة السور التى ينتمى إليها كانت إلى الغرب قليلا من السور الحالى (إلا إذا كان قد بنى منفردا)، وهذا البرج ربما قد تم تشييده فوق حصن تابع له، انظر: وايت مان، ص٢٨١-٢ .

(١٩) شهدت هذه المنطقة كثيرا من الحفريات، بحيث ارتفعت أرضيتها حوالى قدمين منذ العصر البيزنطى بسبب التراكمات الترابية هنا. كما أن اسم البوابة الأخير (هو بوابة الروث) ربما كان بسبب ما كان يلقى فيها من روث الماشية من سوق الماشية القريب منها فى هذه المنطقة.

(٢٠) جاء فى بعض المصادر أنه: بناء على رأى نيكولو البوجى بونسى الذى زار المدينة فى ١٣٤٦-١٣٥٠م، وكتب يقول: إن البوابة مملوءة بالحديد المثبت بالمسامير، أما الآن فكثير من المسامير قد أزيلت لأن المسيحيين كانوا يأخذونها كلما أتيحت لهم الفرصة، لأن لهم السلطة فى ذلك، أما الأخشاب الموجودة فى أعلى الكنيسة فقد كانت من خشب السرو، راجع الراهب نيكولو الباحونونسى: رحلة فيما وراء البحار (١٣٤٦-١٣٥٠م) ترجمة بيللوريني وهود، القدس، ١٩٤٥م، ص٤٥-٤٦؛ "شيلام الفولتيرى والذى وصلها عام ١٤٨٤م. وذكر أن البوابة "من الحديد المتشابك، والذى وصل عمقه فى الأرض إلى قامتين، وكان يرتفع إلى أعلى بمقدار أربعة أطوال، راجع: أدلر: الرحلة اليهود، ص١٩١؛ عوبديا البرايتنيورى الذى زارها فى أعوام ١٤٨٧-٩٠، ولاحظ أيضا أن البوابات كانت من الحديد وهى دائما مغلقة، نفس المصدر، ص٢٤٠ . كما ذكر أن طولها مرتفع فوق الأرض، والنصف الآخر قد تم غرسه فى الأرض ، ولاحظ أن المسلمين يحاولون دائما رفعها ولكنهم لا يقدرون. أما أرنولد فون هارف فقد كتب عام ١٤٩٨م: إن البوابة من خشب السرو المغطى بالنحاس، ويتم انتزا ع كثير من أجزائه لصهره ... "لقد دخلنا ونزعنا كثيرا من الخشب والنحاس والذى حملته معى فى رحلة العودة، راجع: مالكولم ليتس: رحلة الحاج أرنولد فون هارف، لندن، ١٩٤٦م، ص٢١١ .

(٢١) فى خريطة القدس لكومو نيللى من القرن الخامس عشر للميلاد، يظهر فيها البرج مع الأسوار انظر: ليفى: خرائط العصور الوسطى، ص,٥٠٢ وقبيل إنشاء كلية الإخوة الرهبان، يظهر فى بعض الصور التى أخذها منديل جون عام ١٨٦٠م، والتى تم نشرها فى كمبردج ١٩٩٣م، فإن البرج يظهر واضحا فى إحدى الصور، وكذلك فى الكتاب الذى نشره: س ديلسون عام ١٨٦٥م، والذى أعيد نشره فى القدس عام ١٩٨٢م.

* * *

الفصل الثامن

القلعـــة

فى الخامس عشر من يوليو عام ١٠٩٩م، وعندما أخذت القوات الصليبية تتغلغل فى مدينة بيت المقدس، هرب السكان المسلمون واليهود إلى برج داود. هذا البرج الواقع إلى جوار بوابة داود مباشرة كان قد تم بناؤه فوق الجدار الضخم المنخفض والذى كان يوما قاعدة لثلاثة أبراج من قلعة بيت المقدس بناها الملك هيرود فى القرن الأول قبل الميلاد. هذه القلعة تم تدميرها زمن ثورة اليهود (٦٦ – ٧٠م). وفى الوقت الذى قام فيه الإمبراطور هادريان بتدمير مدينة بيت المقدس، تم إعادة بنائها لتكون عاصمة مقدسة (إيليا كابيتولينا Aelia Capitolina) بعد عام ١٣٥م. وكل ما تبقى من أصول القلعة هو ذلك الجدار المنخفض الصلد وبعض بقايا البرجين الآخرين وسور المدينة الذى يربط بينهما. وربما تمت إعادة بناء أجزاء من هذا البرج أواخر العصر البيزنطى، وجرى العرف على نسبته إلى الملك داود. كما أصبح معروفا باسم محراب داود. وخلال هذه الفترة ربما تم استخدام هذا البرج كقلعة للمدينة، وهى وظيفة كانت مناسبة تماما له، لكونه قد بنى بالحجارة الضخمة القوية، وقد كان مبنى عاليا يقع فى مواجهة إحدى البوابات الرئيسة للمدينة. وبرج دواد هذا هو الذى استولى عليه الفرنجة عام ١٠٩٩م، وقام الراهب دانيال الروسى بوصفه بعد ذلك بعدة سنوات قليلة بأنه كان مبنيا على الجدار الهيرودى المنخفض[١]، وأنه عبارة عن برج دائرى وأجزاء من جدران تم الكشف عنها إلى الجنوب من البرج ربما تم بناؤها فى العصر الأموى[٢].

وفى زمن الغزوة الصليبية، وبعد السماح للمسلمين واليهود الذين فروا إلى برج داود بالرحيل إلى عسقلان، احتل ريموند التولوزى البرج واستولى عليه، متجاهلاً رغبة جودفرى البوايونى فى أن يسلمه إياه. وعلى أية حال، فإن ريموند واجه معارضة من أفراد جيشه المتشوقين للعودة لوطنهم وأسرهم، والذين كانوا يخشون من أنه لو احتفظ بالقلعة فإنهم لن يعودوا إلى وطنهم، مما جعل بوهيموند يرضى بتسليم القلعة للبطريرك دايمبرت البيزى، والذى قام بتسليمها لجودفرى. ومن المحتمل أن جودفرى قد استخدم البرج كمقر له عندما كان فى المدينة، وعندما مات فى الثانى عشر من يوليو عام ١١٠٠ م، فإن جماعة من أتباعه يقودهم أحد أقاربه ويدعى جارنييه من جرى Garnier de Grey استولى على البرج ليمنعوا سقوطه فى أيدى البطريرك أو أيدى تانكرد، وظلوا محتفظين به إلى أن وصل بلدوين أخو جودفرى من الرها ليتم تتويجه ملكا على بيت المقدس(٣).

ولقد زار الراهب دانيال البرج فى فترة مبكرة من القرن الثانى عشر (١١٠٥ - ١١٠٧م) ووصفه فى شىء من التفصيل. فحسبما يذكر دانيال : "أن البرج مبنى من حجارة ضخمة وأنه عال جدا، مربع الشكل، متين، لا يمكن اختراقه، وكأنه قطعة حجرية واحدة من قاعدته إلى أعلاه. وبه الكثير من المياه، وله خمس بوابات حديدية، وبه سلم يتكون من مائتى درجة يؤدى إلى أعلاه، وتم تخزين مقادير ضخمة من القمح به ".

هذا الوصف يوحى بأن هذا البرج ربما كان أعلى مما هو عليه الآن. ويستمر الراهب دانيال فى وصفه فيقول : " من الصعب الاستيلاء عليه، وهو يشكل نقطة الدفاع الرئيسة للمدينة. وتتم حراسته بدقة، ولا يسمح لأحد بالدخول إليه إلا تحت مراقبة دقيقة ". ويبدو من هذا الوصف أن القلعة وقت زيارته لها كانت تتكون فقط من البرج المبنى على الجدار الخفيض الذى بنى فى عهد هيرود وليس بها أى تحصينات خارجية. ولم يتم ذكر شىء عن البرج المستدير أو الأسوار لأن دانيال لم يذكر أيا من الأسوار، أو الأبراج الإضافية أو الخنادق المائية. على الرغم من أنه فى فترة مبكرة

فى عام ٩٨٥م، أعطى المقدسى نفس الانطباع الذى يعطيه وصف الراهب دانيال، حيث ذكر البرج فقط ولاحظ أنه كان ملاصقا لسور المدينة من كل جانب. ووفقا لما ذكره فولشر، فإن حجارة القاعدة الضخمة كانت مغطاة بالرصاص، كما ذكر أن حامية يبلغ عددها ما بين خمسة عشر إلى عشرين رجلاً كافية لحراسته.

وفى القرن الثانى عشر الميلادى تم استخدام القلعة كإحدى المنشآت الإدارية المدنية. كما أن أهمية البرج كحصن وكمركز قيادى رئيسى، وارتباطه التقليدى بالملك داود - قد أعطاه مكانة رفيعة فى عيون الفرنجة أدت إلى جعله رمزًا للسلطة الفرنجية فى بيت المقدس؛ بحيث ظهرت صورته على العملة والأختام، كما كان رمزا لا يقل أهمية عن كنيسة القبر المقدس. وظل من الممتلكات الملكية على امتداد فترة الحكم الفرنجى، لدرجة أن الرحالة ثيودريك وصفه بأنه من الممتلكات الخاصة بملك بيت المقدس. وأقام فيه محافظ القلعة الذى كان من بين اختصاصاته مراقبة دخول تجار بيت المقدس، وجمع الضرائب المفروضة على دخول البضائع للمدينة. وعلى الرغم من عدم وجود دليل مباشر لهذا، إلا أنه من المحتمل - ومثلما كان الحال فى القلاع فى الغرب الأوربى - اتُّخِذَ برج داود مقرًا ملكيًا وسجنًا فى المدينة، وأرشيفًا للسجلات. وبخصوص هذه النقطة الأخيرة فإن المصادر تذكر على وجه الخصوص وجود موظفين فى القلعة وهم موظفو قلعة داود. ومن المحتمل أن تكون دار سك النقود قد استقرت بها، وكذلك الخزانة الملكية التى تحفظ فيها المجوهرات والشارات الملكية. وبغض النظر عن وظيفتها الإدارية، أو كونها حصنًا قويًا فى أوقات الخطر، فقد كانت أيضا مكانا يمكن تحذير الجماهير منه للأخطار وشيكة الحدوث. من ذلك ما ذكره فولشر الشارترى عن إحدى الحالات التى وصلت فيها غارة فاطمية إلى ضواحى المدينة. ولكى يتم تحذير الناس من الخطر، والذى راح ضحيته ثمانية أفراد كانوا خارج أسوار المدينة تم قتلهم على أيدى المسلمين، فإن الطبول كانت تدق من أعلى برج داود للإعلان عن الخطر.

وفى عام ١١٥٢م تم اختبار قوة تحصين القلعة القديمة، وثبتت قدرتها. وفى تلك السنة احتمت الملكة ميليسند بالبرج عندما قام ابنها بلدوين الثالث بمحاولة فرض نفوذه على المدينة. وكدليل على قوة حصانة البرج، فإن استخدام المنجنيقات، والنبال، والآلات القاذفة لم تنفع، مما اضطر بلدوين إلى التفاوض مع الملكة الأرملة. وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى كان التزايد السكانى فى بيت المقدس مستمرا، وصحبه تزايد فى عدد التجار المترددين عليها، وكذلك الحجاج الذين دخلوا المدينة عبر بوابة داود. وكان من الواضح الحاجة الماسة إلى منشآت جديدة، بما فيها قصر ملكي جديد، وقلعة أكبر. ومن المحتمل جدا أن تلك المشاريع العمرانية قد تم تنفيذها على يد الملك عمورى في فترة حملاته على مصر ما بين عامى ١١٦٣و١١٦٩م.

وتعد إعادة بناء القلعة مشروعًا إنشائيًا مهمًا، وربما كان مساويا لإعادة بناء كنيسة القبر المقدس فى مدينة بيت المقدس. ووفقا لما ذكره وليم الصورى، فإن القلعة التى تم توسيعها قد اشتملت على عدة أبراج، والكثير من الجدران، والتحصينات الأمامية، وبالرغم من أنه ليس لدينا معرفة بالتاريخ الفعلى الذى تمت فيه تلك التوسعات في هذه المبانى، إلا أننا نستطيع أن نستنتج من الوصف الذى ذكره ثيودريك بأنه قد تم تحصين المدينة وبشكل قوى عن طريق إحاطة المدينة بعدة خنادق مائية، وبناء حصن أمامى، وأن ذلك المشروع قد تم تنفيذه عند زيارة ثيودريك للمدينة حوالى عام ١١٦٩م ، وأن البرج الذى بناه هيرود وما دخل عليه من أبنية علوية قد شهد توسعا بإضافة فناء جيد التحصين ملاصق للبرج فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى.

وغدت القلعة كبيرة بدرجة تكفى كملجأ لعدد أكبر من الناس، ربما لعدة آلاف من المستوطنين، عندما هاجم صلاح الدين المملكة عام ١١٧٧م(٤). واستخدمت مرة ثانية كملجأ فى القرن الثالث عشر الميلادى، بعد توقيع المعاهدة بين الإمبراطور فردريك الثانى والسلطان الكامل الأيوبى سنة ١٢٢٩م، حيث هاجم المدينة حوالى خمسة عشر ألفا من المسلمين المعارضين للمعاهدة.

ولقد أصاب القلعة الخراب أثناء الفترة التى شهدت تجديد الحكم الفرنجى لبيت المقدس فى القرن الثالث عشر الميلادى، وإن لم يتم تدميرها، ولذلك فقد أعيد ترميمها وتقويتها على يد المعظم عيسى. وعندما انتهت مدة المعاهدة عام ١٢٣٩م فإن الناصر داود صاحب الكرك هاجم القلعة وسقطت فى يده بعد ثلاثة أسابيع. واستسلم برج داود (القلعة) بعد ستة أيام أخرى، فقام الناصر داود بتدمير القلعة والبرج حتى القاعدة التى بناها هيرود وعمل على استرداد محراب داود، إلا أنه غادر المدينة سنة ١٢٤٠م قبل أن ينفذ مشروعه هذا. وتمت إعادة بناء القلعة بعد ذلك. وخلال العصرين المملوكى والعثمانى أخذت شكلها الحالى، والذى ربما كان شبيها بشكلها بعد التوسع الذى حدث أواخر القرن الثانى عشر الميلادى.

وفى السنوات ما بين ١٩٣٤م و ١٩٤٧م أجريت عدة كشوف أثرية منظمة فى القلعة قام بها عالم الآثار الإنجليزى س. ن جونز C.N. Johns، كما نفذت عدة كشوف أثرية فى الفترة من ١٩٦٨م – ١٩٦٩م. وفى الفترة من ١٩٧٩م – ١٩٨٠م[٥] تم عمل مسح شامل للأعمال الدفاعية التى تمت فى القلعة فى العصرين المملوكى والعثمانى. كما أجريت عدة كشوف أثرية فى فناء القلعة[٦]. وقد عثر جونز على بقايا آثار صليبية تضم أجزاء من جدران وأبراج، والجزء الجنوبى الغربى من جزء ناتئ من حصن كان يحتوى على إسطبلات وممر الحصن الخلفى.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الثامن

(١) يربط دانيال ما بين البرج والتراث التوراتي. "فالبرج أيضا كان منزله (داود)، الذى جلس فيه النبى المقدس وسجل فيه مزاميره، وقرض أشعاره انظر: دانيال فى مجموعة حجاج بيت المقدس، الجزء الثانى عشر، لندن، ١٨٩٥م، ص١٧.

(٢) راجع هيلد جيفا "كشوف أثرية فى قلعة بيت المقدس ١٩٧٩- ١٩٨٠، تقرير أولى، مجلة الكشوف الأثرية الإسرائيلية، العدد ٣٣، عام ١٩٨٣م، ص.٦٩ رونى إيلين بلوم يعارض هذا التاريخ معتقدا أن المائدة المستديرة والأسوار ربما كانت جزء من القصر الملكى الصليبى (تعليقا شخصية).

(٣) إن جارنييه أو وارن كونت جريز مات فى ٢٢ يوليو، بعد أربعة أيام من جودفرى، إلا أن تصرفاته كانت سريعة بدرجة كافية للتأكيد على وصول بلدوين للعرش. انظر: آلان فان موراى؛ "دايمبرت البيزى، موت جودفرى وخلافة بلدوين على عرش بيت المقدس" أبحاث فى العصور الوسطى، ج٣، من كليرمونت إلى بيت المقدس. الحروب الصليبية والمجتمع الصليبى ١٠٩٥-١٥٠٠، آلان فان موراى، بريبولس، ١٩٩٨، ص٨١.

(٤) راجع: س. إن جونز، القلعة، القدس، خلاصة الأعمال التى نفذت منذ ١٩٣٤م، مجلة قسم الدراسات القديمة الفلسطينية، العدد ١٤، عام١٩٥٠، ص١٢١-١٩٠، وأعيد طبعه فى قلعة الحجاج (عتليت) برج داود (القدس) وقلعة الربض (عجلون)، برنجلر، ألدرشوت، هامبشير، ١٩٩٧م، ص١٦٤ والملحوظة رقم ٦.

(٥) اكتشافات أعوام ١٩٦٨-١٩٦٩م فى فناء قلعة القدس، ١٩٦٨-١٩٦٩، مجلة معهد الكشوف الأثرية الإسرائيلى، العدد ٢٠، عام ١٩٧٠م، الصفحات ٩-,١٧ أما كشوف أعوام ١٩٧٩-١٩٨٠م فقد تم الإشراف عليها ونشرها على يد هـ. جيفا، "الكشوف الأثرية فى القلعة" الصفحات ٥٥-٧١.

(٦) لقد قام بعملية المسح جيورا سولات، وعن الكشوف الأثرية فى الفناء أنظر: رينيه سيفان، "برج داود"، متحف مدينة القدس، ١٩٨٣، الصفحات ٣-, ١٤

* * *

الفصل التاسع

القصور الملكية

إن ما كتب عن آثار القصور الملكية فى بيت المقدس قليل جدا. ومن المرجح فى السنوات الأولى للحكم الفرنجى أن يكون الملك قد عاش فى برج داود. وفى عام ١١٠٤ م انتقل الملك بلدوين الأول إلى معبد سليمان (المسجد الأقصى) الأكثر رحابة وفخامة واتساعا بحيث يبدو أنه تجاهل القصر الذى كان فى حاجة إلى الترميم، وعندما توفى عام ١١١٨م كان سقفه آيلا للسقوط، وقد كتب فولشر الشارترى عن ذلك يقول :

"ومما يدعو الآن للأسى أن السقف يحتاج إلى الكثير من الإصلاح وإعادة البناء، وذلك منذ أن آل إلى الملك بلدوين وشعبنا، وإنه لمن المتعذر القيام بذلك لندرة مواردنا المالية، وإذا حدث فعلاً أن سقط أى من رصاص السقف، أو تم سحبه تبعا لأوامر الملك فإنه كان يباع للتجار".

وعندما يراجع الواحد منا ما كتبه فولشر يجد أنه استخدم عبارات شديدة اللهجة فى وصفه للتلف التدريجى الذى يحدث فى هذا المبنى المهم، حيث كتب يقول : "وبسبب النقص الشديد في مواردنا المالية، لم يكن فى مقدورنا حتى العمل على صيانة هذا المبنى على ما كانت عليه حالته التى وجدناه عليها، ولهذا السبب فقد تخرب معظمه ".

كما أن بلدوين الأول قام بنهب المبنى عن عمد، لدرجة أنه كان يأمر بنزع الرصاص الذى يغطى سقفه والاستفادة به، بل ربما سمح بتفكيك بعض أجزاء من المبنى واستخدامها فى بناء الكنيسة الجديدة لضريح القبر المقدس، والتى ربما تم

الشروع فى بنائها مبكرا فى عام ١١٠٩م. بل إنه من المفترض أن بعض الزخارف التى أعيد استخدامها فى تحلية عقود كنيسة القديسة هيلانه والتى تمت الإشارة إليها عام ١١٠٩م، وفى جوقة المرتلين الجديدة - قد تم الحصول عليها بعد تنقيب دقيق ومدروس فى المسجد الأقصى[1]. ولهذا فإنه مما لا يبعث على الدهشة أنه عندما تم تأسيس فرقة الرهبان العسكرية لفرسان المعبد عام ١١١٩م، فإن بلدوين الثانى منحهم بعض مناطق مؤقتة فى الجناح الجنوبى لقصره. ومن المحتمل أنه كان يفكر فعلاً فى الانتقال، وأن المبنى ربما لم يعد مرغوبا فيه أو مريحا للسكنى كما كان عليه الحال سابقا عند اتخاذه قصرا ملكيا. وإلى جانب هذا فإن فرسان المعبد قد حصلوا من رهبان القديس أوغسطين المجاورين لهم فى مسجد الصخرة على حى قريب للقصر الملكى بالإضافة إلى أماكن إقامتهم فى المسجد الأقصى.

وفى السنوات التسع التى تلت تأسيس جماعة الداوية، لم تحدث أية توسعات فى أماكن إقامتهم. ومع هذا، فإن وليم الصورى يذكر أنهم بمجرد تسلمهم اعترافا بتأسيس جماعتهم من مجمع طروى عام ١١٢٨م، بدأت حركتهم التوسعية، بحيث إنه فى خلال سنوات قليلة تم لهم الاستيلاء على معظم المسجد الأقصى. وفى عام ١١٥٤م يذكر الإدريسى أنهم كانوا يقيمون فيه ولم يذكر الملك معهم. وفى بدايات عام ١١٦٠م يذكر يوحنا الورز برجى أماكن إقامة فرسان المعبد بالتفصيل فى الجزء الجنوبى من جبل المعبد - وكما فعل ثيودريك حوالى عام ١١٦٩م - دون ذكر شىء عن وجود مقر ملكى هناك[2]. ومن المفترض أن الملك قد اتخذ لنفسه مقرا فى مبانى أخرى فى المدينة فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حيث بقى فيها عدداً من السنين قبل أن يستقر فى القصر الذى تم تشييده إلى الجنوب من باب داود، وربما كان ذلك خلال عصر عمورى (١١٦٣م - ١١٧٤م).

وإن كانت خرائط العصور الوسطى لمدينة بيت المقدس تمدنا بمعلومات عن أماكن عديدة اتخذت كمقر ملكى، ربما شغلها الملك خلال تلك الفترة المؤقتة. ففى خريطة ترجع

للقرن الثانى عشر الميلادى وهى خريطة أبسالا، جاء فيها ذكر مبنى صغير يلى كنيسة الضريح المقدس وأشير إليه بأنه المقر الملكى، على الرغم من أنه – وعلى نفس الخريطة– يظهر إلى الشرق من الكنيسة. وإنه لمن المعقول أن هذا يمثل المبنى القائم على الجانب الجنوبى الشرقى من قبة الكنيسة والذى ذكره فيلكس فابرى عام ١٤٨٠م على أنه المقر الذى يشغله ملوك بيت المقدس. ومن وصف فابرى يبدو أن مدخل هذا القصر كان يقع فى الجانب الشمالى من الممر المؤدى إلى جنوب شرق الكنيسة. وبعد مغادرة فناء الكنيسة هناك باب إلى اليسار (وأنت تنظر إلى الكنيسة) يؤدى إلى بستان مزروع بأشجار البرتقال والرمان، ومن هذا البستان يتم الدخول إلى منزل كبير به العديد من الغرف، وفى الفناء الداخلى هناك شباك يطل على الضريح المقدس. ويذكر فابرى أن هذا القصر قد استولى عليه صلاح الدين فيما بعد، وكان يشغله آنذاك عدد من الفقراء الروم، وفى تلك الآونة كانت وصلت حالته إلى درجة كبير من الخراب.

وبالرغم من حالته المتهدمة هذه، فى القرن الخامس عشر الميلادى، فإن أجزاء كثيرة منه كانت موجودة، وكانت فى أيدى الروم. وفى القرن التاسع عشر الميلادى وصفه إدوارد ربنسون على النحو التالى :

" إنهم – أى الروم – أخذونا أولاً إلى كنيسة قنسطنطين وهيلانة العظمى الخاصة بالروم، والتى يمكن تمييزها عن كنيسة اللاتين. وهى مبنية على أرض مرتفعة، إلى الجنوب الغربى من القبة الكبرى، بينها وبين الشارع. ومنها وجهنا أبصارنا إلى أسفل من خلال شباك ضيق بحيث رأينا مباشرة الضريح المقدس نفسه ".

هذا الشباك مايزال موجودا إلى الآن ويمكن رؤيته فى كنيسة الروم، وإلى الأسفل منه وإلى الشرق عدة غرف متوازية ذات عقود، والتى ربما كانت جزءا من المقر الملكى[٢]. ومن الممكن القول إنه قبل أن يصبح هذا القصر مقرا ملكيا، قد كان يشغله البطريرك قبل بناء القصر البطريركى الجديد، أو قبل أن يكتمل بناؤه فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، بالإضافة إلى قصر ملكى آخر يظهر على خريطة

كوبنهاجن من القرن الثانى عشر الميلادى يظهر عند ملتقى الشارعين الرئيسيين. هذه المنطقة تم رسمها على أنها مكان السوق. وفيها يظهر القصر أو المقر الملكى على أنه قوىّ التحصين تحت عنوان " مقر الملك والقادة ". وعلى أية حال، ليست هناك معلومات مؤكدة عن وجود مقر ملكى فى هذه المنطقة، بل من المحتمل أن تكون هذه إشارة إلى قصر توراتى تم تخيله.

وآخر مقر ملكى فى بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى هو القصر الكبير الذى كان ملاصقا لبرج داود، والذى يبدو أنه قد تم تشييده فى الستينيات من القرن الثانى عشر الميلادى، وبالتحديد عام ١١٦٩ م وليس قبل هذا، فقد جاء ذكره عند ثيودريك عندما قال إن المبنى الجديد المكون من عدة غرف معرضة للشمس هو القصر(٤). وبعد عدة سنوات يذكر يوحنا فوكاس أن دير القديس سابا فى الحى الأرمنى كان يقع قرب القصر الملكى. هذا القصر يظهر على خريطة كمبراى على أنه القصر الملكى، الذى يعود تاريخه إلى القرن الثانى عشر الميلادى - ولا شىء أكثر من هذا - بالإضافة إلى عدم وجود صور له أو رسوم زيتية، علما بأن التفاصيل التى وردت فى خريطة كمبراى لا يمكن الاعتماد عليها كلية، وبخاصة ما يتعلق منها بقبة الصخرة على سبيل المثال. وإن كانت بعض المبانى مثل كنيسة الضريح المقدس، وكنائس أحياء الاسبتارية قد تم تصويرها من خلال الوصف المقتضب الذى أورده ثيودريك بإلقاء نظرة على تلك الخريطة. فهو يبدو وكأنه مبنى مصور، له سطح من الجملون، وبه برج صغير فى ناحيته الجنوبية، وبرج له عدة شرفات إلى الشمال. كما يبدو أنه محاط بسور حصين.

هذا القصر الجديد غير موجود فى العصر الحديث. وربما تم الكشف عن بعض أجزاء منه فى الحفريات التى تمت فى المنطقة الجنوبية من القلعة، حيث ظهر جزء فى الحديقة الأرمينية عام ١٩٧١م، إلى جانب بعض الآثار التى تم الكشف عنها فى منطقة القشلة إلى الشمال من الحدائق الأرمينية عام ١٩٨٨م - ١٩٨٩م(٥)، فى المنطقة

المكشوفة المعروفة باسم الحديقة الأرمينية الواقعة وسط المدينة بامتداد الجزء الجنوبى من السور الغربى للمدينة. حيث قام كل من باهات وبروشى بالكشف عما اعتقداه أنه بقايا الجناح الجنوبى من الدور الأرضى للقصر. وكان يتكون من إيوانين متوازيين لهما عقود بنيا فوق قاعدة صخرية تحتها صهاريج لتخزين المياه، ونقش فوق أحد هذه الصهاريج صليب بطريركى، مشابه تماما للصليب الذى عثر عليه جونز المصنوع من الجص وتم لصقه على أرضية الصهريج أسفل البرج الشمالى الغربى للقلعة. أما مخازن المبنى فربما تم استخدامها لحفظ النبيذ. ولقد كشف باهات عن بعض الغرف ذات العقود إلى الجنوب من القلعة مبنية بنفس نوع الحجارة المستخدمة تماما فى العصر الصليبى. كما كشف عن جزء من واجهة المبنى كان مزودا بكثير من الأعمدة ذات الزخارف.

وإنه لمن الصعب حقا معرفة السر فى اختفاء هذا القصر الملكى فى الوقت الذى قدر فيه البقاء لكثير من المبانى الأقل أهمية فى المدينة. كذلك من الصعب معرفة الوقت الذى حدث فيه دمار هذا القصر، ذلك لأن عماد الدين لم يذكر شيئا عن القصر أثناء فتح صلاح الدين للمدينة، فى الوقت الذى كنا نتوقع فيه سماع شىء عن احتلال صلاح الدين له. وبدلا من هذا فإننا نسمع أنه أقام فى خيمته خارج أسوار المدينة، أو فى قصر بالقرب من كنيسة الضريح المقدس.

كما لم يتم ذكر القصر فى قائمة الممتلكات التى حولها صلاح الدين إلى أوقاف[٦]. وعلى أية حال، فبالرغم من أنه فى الفترة من ١١٨٧م-١١٩٢م تم هدم الكثير من المبانى الصليبية، ومثلما حدث عام ١٢١٩م من هدم أسوار المدينة، فإن القصر لم يتم تدميره فى هذه الفترة. وكان مايزال موجودا فى وقت حملة فردريك الثانى (١٢٢٩م) حيث ذكر أنه تم تسليمه لجماعة الألمان[٧]. كما لم تذكر المصادر الإسلامية شيئا عنه فى القرن الثالث عشر الميلادى. وربما قام الناصر داود بتدميره عام ١٢٣٩م عندما قام بهدم القلعة، أو تم هدمه أثناء غزو الخوارزمية للمدينة عام ١٢٤٤م[٨].

* * *

حواشى وتعليقات الفصل التاسع

(١) راجع: جى. ويلكنسون، الحج إلى بيت المقدس فى الفترة من ١٠٩٩-١١٨٣م، لندن، ١٩٨٨، الصفحات ٣٦-٣٨، إعادة تعمير كنيسة القديسة هيلانة والتى تعد أحد المراحل المبكرة لعمليات البناء فى كنيسة الضريح المقدس فى القرن الثانى عشر للميلاد، والتى أعاد الفرنج بناء الأعمدة الأربعة المستديرة لها والتى سبق ذكرها عند أحد المؤرخين من القرن الثامن للميلاد وهو الراهب إبيفاميوسى، وفيها وصف "بناء له أربعة أعمدة" انظر جى. ويلكنسون، الحج إلى بيت المقدس قبل الحروب الصليبية، القدس ١٩٧٧م، ص١١٧ .

(٢) كتب يوحنا الورزبرجى أن ممتلكات الداوية كانت بالقرب من قصر سليمان، وربما ترجمت عبارته بما يفيد أن ممتلكاتهم لم تشمل القصر نفسه، راجع: يوحنا الورز برجى، ص. ١٣٤ وعلى أية حال، فإن الرحالة ثيودريك كان أكثر وضوحا فيما ذكره بهذا الخصوص، حيث ذكر أن الداوية قد شغلوا قصر سليمان مع بعض المبانى المرتبطة به، راجع: ثيودريك، ص١٦٤ .

(٣) فى كثير من أجزاء هذا المبنى تظهر العلامات الصليبية. على الحجارة، وإن كانت أبعاد العصور الوسطى للمبنى غير واضحة.

(٤) راجع: ثيودريك، ص٣٤٦ . والتى لم تذكر عند يوحنا الورز برجى، من المحتمل أنه كان سيذكرها لو كانت موجودة فى الفترة التى كتب فيها تاريخه (حوالى ١١٦٠م).

(٥) راجع: دان باهات، وبروشى، "الحدائق الأرمينية"، الصفحات ٥٥-٥٦، دان باهات فى الموسوعة الجديدة للكشوف الأثرية فى الأرض المقدسة، ص. ٧٩٧ أما البقايا الأثرية والتى كشف عنها باهات كانت تكون الركن من مبنى أثرى شيد تماما من الحجارة الصليبية المائلة القطع وله سقف حجرى؛ انظر: باهات. ملاحظات شخصية على الحفائر (فى يناير ٢٠٠١) والتى كشفت عن حائط حجرى إلى الشرق والذى ربما كان جزء من القصر (أنظر: الكشوف الأثرية تحت إشراف أميت ريم فى المتحف الإسرائيلى).

(٦) انظر يوشع فراينكل و"وقف المدرسة الصلاحية، منشأة دينية، (وقف) لصلاح الدين، ص٦٤-٨٥، فى مؤلف يوسف دروتى، فلسطين فى العصر المملوكى، القدس، ١٩٩٢م.

(٧) الإمبراطور، أو قصر الملك، أو القصر السابق لداود إلى الشرق من ممتلكات فرق الألمان الاسبتارية، تاريخ إرنول وبرنارد الحكيم، إشراف ماس لاترييه، باريس، ١٨٧١م، وكذلك أنظر ما كتبه يوحنا مفترضا أن

هذا الجزء ربما كان عبارة عن قطعة من القلعة. انظر: يوحنا، "القلعة"، القدس، مجلة موسوعة الكشوف الأثرية الجديدة، الربع سنوية، ١٩٥٠م، والتى أعيد طبعها (عام ١٩٩٧م)، ص١٦٧، وفى مكان آخر تم الافتراض بأن فردريك الثانى قد منح الألمان منزلا فى الحى الأرمنى، وتحول فيما بعد إل حدائق الملك (راجع: كوندر، مدينة بيت المقدس، ص٣١٨).

(٨) هذا الدمار، بالإضافة إلى تدمير المعظم عيسى للأسوار، كان بعيد الأثر. وبعد ثلاثة وعشرين عاما كتب العالم اليهودى نحما نيدس يصف بيت المقدس على أنها خراب، وأن بها فقط حوالى ألفين من السكان. راجع: كوبلر، خطابات من اليهود عبر العصور، منذ الأيام التوراتية إلى منتصف القرن الثامن عشر للميلاد، نيو يورك، ١٩٧٨م، الجزء الثانى، ص٢٢٦، ومن المحتمل أيضا أن نحما نيدس ربما أشار إلى التدهور السكانى لليهود أكثر من حديثه عن المدينة نفسها.

* * *

الفصل العاشر

أحياء المدينة

إن تقسيم إيليا كابيتولينا الرومانية (القدس) فى القرن الثانى الميلادى إلى أربعة أحياء متساوية الأحجام تقريبا يقطعها طريقان رئيسيان قد أدى الغرض فى الأزمنة اللاحقة باعتباره متأسساً على التقسيمات العرقية والدينية داخل المدينة. ففى بداية الحكم الإسلامى كان المسلمون أقلية فى المدينة، عاشت واستقرت أساسا فى منطقة جبل المعبد أى منطقة الحرم القدسى الشريف، فى حين عاش اليهود فى الجهة الجنوبية الغربية من جبل صهيون، حتى تم فصلها عن المدينة بعد إعادة بناء الأسوار فى أعقاب زلزال عام ١٠٣٣م. ومن ثم فإنهم استقروا فى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، فى الحى الذى أصبح معروفا فيما بعد باسم حارة اليهود. أما الأرمن فقد استقروا فعلا فى الجزء الشمالى من جبل صهيون داخل الأسوار الجديدة وفى الجهة الشمالية الغربية. كما أن الحى المسيحى شغلته أعداد من أبناء الكنيسة الأرثوذكسية، على الرغم من تواجد لاتينى ظاهر فى المنطقة الجنوبية من ضريح القبر المقدس والتى أصبحت فيما بعد تعرف بحى جماعة الاسبتارية من فرسان القديس يوحنا. إلا أن كل هذا قد تغير زمن الحكم الفرنجى، وذلك لأن بعض أفراد من أبناء الطوائف الدينية الأخرى مُنعوا من الإقامة فى المدينة فعلا، وأصبحت التقسيمات مقصورة على الطوائف المسيحية المتعددة التى أخذت فى التواجد فى المدينة والتى شغلت الأحياء الإسلامية واليهودية: فالجزء الشمالى الغربى استقرت فيه طائفة اللاتين تحت زعامة البطريرك اللاتينى، وأصبح معروفا باسم الحى البطريركى، أما الحى الشمالى الشرقى والذى

كان يشغله اليهود فيما سبق – والذى مازال يحمل اسم الحى اليهودى– استقرت فيه طائفة المسيحيين الشرقيين، وبقى الأرمن شاغلين للحى الجنوبى الغربى على ما كانوا عليه، وفى الجنوب الشرقى من المدينة كان الألمان. كما يبدو أنه وجدت جماعات أخرى استقرت فى مناطق مختلفة من المدينة، مثل البروفنسال، والمجريين واليونان وعلى أية حال يجب أن نكون حذرين إذا افترضنا وجود تقسيم واضح للمدينة وفق أصول عرقية. فعلى سبيل المثال ليس من المؤكد وجود ألمان يقيمون فى الشارع الألمانى باستثناء النزل الألمانى نفسه، ونفس الشىء بالنسبة للتقسيمات العرقية مثل الشارع الإسبانى الذى كان يقع إلى الشمال من المدينة(١).

الحى البطريركى أو حى البطريرك(٢)

كما سبق أن لاحظنا، فإن البطريرك، وهو الممثل الرئيسى للكنيسة والبابا فى الشرق اللاتينى، لم يصل إلى منصب القيادة فى المملكة الجديدة التى تم تأسيسها، أو حتى للمدينة المقدسة، بل امتد نفوذه فقط فى الحى الشمالى الغربى من المدينة. هذا الحى كان يمتد من البوابة الغربية وهى بوابة أو باب داود إلى برج تانكرد فى الشمال الغربى، ومن هناك شرقا إلى بوابة القديس ستيفان والمنطقة المحيطة بها، داخل أسوار المدينة، حيث يوجد شارع داود فى الجنوب والشارع المؤدى من بوابة القديس ستيفان إلى السوق، الذى تم بناؤه مكان السوق البيزنطى القديم جهة الشرق.

ولقد تمت مكافأة البطريرك وسمح له بممارسة سلطاته الواسعة فى داخل هذا الحى. ومما تجب الإشارة إليه أن هذا الحى كان أهم الأحياء فى مدينة بيت المقدس تحت الحكم الصليبى، وذلك لأنه يضم أكثر الأماكن المسيحية تقديسا، ولهذا فقد كان البؤرة التى يتجمع فيها الحجاج المسيحيون، وكانت حركة الحج المسيحى هى المصدر الرئيسى للموارد المالية ولحركة الاستيطان الجديدة. وبسبب وجود كنيسة الضريح المقدس، فإن هذا الجزء من المدينة احتفظ بأهميته بعد الفترة البيزنطية، وخلال

الفترة المبكرة من الحكم الإسلامى، والتى فى خلالها ربما احتفظ المسيحيون بمكانتهم العالية باعتبارهم أكبر الجماعات الدينية فى المدينة. ومما لا شك فيه أن وضع هذا الحى ومكانته الفائقة كانا وراء ما انهال عليه من هبات وإقطاعات منذ عهد شارلمان، كما أنه أصبح فيما بعد مركزا للنزل الذى أقامه جماعة التجار الأمالفيين، والذى تطور تحت الحكم الصليبى إلى أن أصبح أحد أحياء طائفة الرهبان العسكرية للقديس يوحنا وهم الاسبتارية.

أما عن بطريرك بيت المقدس الأرثوذكسى فقد عاش هنا زمنا طويلا قبل فترة الحكم الصليبى، وترجع الأصول التاريخية للحى البطريركى إلى الوعد الذى أصدره الخليفة الفاطمى المستنصر بالله للإمبراطور البيزنطى قسطنطين العاشر عام ١٠٦٣ م، بأنه إذا تحمل الإمبراطور نفقات إعادة تعمير وتحصين الحى الشمالى الغربى، فسوف يتم الاستقرار فيه للمسيحيين على وجه الخصوص[٣]. ولتحقيق وعد الخليفة فقد تم إخلاؤه من المسلمين، وإسكانهم فى أماكن أخرى من المدينة. وأصبحت إدارة شئون هذا الحى من اختصاص البطريرك وحده. وفى ذلك يقول وليم الصورى : " وبذلك تحققت للبطريرك سلطات قضائية وإدارية معقولة، وبعد ستة وثلاثين عاما بعد ذلك، خضعت المدينة للحكم الصليبى. واستمر هذا الحال على نفس ما كان عليه ".

أما عن موقع الجهاز الإدارى للبطريرك فى هذا الحى فقد كان قصرا يقع إلى الشمال الغربى من كنيسة ضريح القبر المقدس، وملاصقًا لمبانى رهبان القديس أوغسطين. هذا القصر قامت ببنائه الإمبراطورة إيودوكيا فى القرن الخامس الميلادى. ومن المحتمل أن هذا القصر لم يعد موجوداً فى القرن الثانى عشر الميلادى، فوفقا لما رواه الراهب دانيال الروسى، وقت زيارته أن البطريرك كان يعيش فى مبنى سكنى واسع فى الجزء العلوى من المبنى المستدير الذى تعلوه القبة والمسماه Rotunda، ومن المحتمل أن يكون قد تم بناؤه عند تطوير الكنيسة ومبانيها حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى. وبعد الفتح الأيوبى تم تحويله إلى خانقاة للصوفية على يد صلاح الدين الأيوبى وهى المعروفة باسم الخانقاة الصلاحية.

ومن الجـدير بالذكـر أن حى البطريرك كـان يشـتـمل على أكبـر بركـة مـاء وهـى المعروفة بـاسم بركة البطريرك. وهى البركة القديمة المعروفة اليوم باسم بركة حزقيا. وفى فتـرة الحكم الفرنجى عادة مـا كان يشار إليها باسم " بركة الحمام "، حيث إنها تمد حمام البطريرك بالمياه اللازمة، وهو الواقع على امتداد شارع البطريرك. إلى جانب بركة أخرى إضافية موجودة فى منطقة مـاملا وتعرف أيضـا باسم بركة البطريرك، تمد البركة السابقة بالمياه عبر قناة محفورة عبر بوابة داود؛ بما يفيد أن البطريرك كانت له بعض الممتلكات خارج حى البطريرك، وهى البركة والمقبرة الملاصقة لهـا حيث توجد شـواهد قـبـور أثرية وبعض التـوابيت الحـجـرية، وربما كـانت تخص رهبـان الضـريح المقدس.

وفى داخل حى البطريرك وجـدت عـدة كنائس: فـيـهـا كنيسـة الضـريح المقـدس، وكنيسة القديس جـورج فى السـوق، وكنيسة القديس شاريتون والقديس إبراهام. وفى حى الاسبتارية كانت توجد كنيستا القديسة مريم الصغرى والكبرى، وكنيسة القديس يوحنا المعمدان.

أما المبانى الدينية التى كانت تحيط بكنيسة الضريح المقدس فهى تتضمن المبنى الواقع إلى الجنوب من الروتندا الذى سبق ذكره، والذى يبدو أنه فى منتـصف القـرن الثانى عشر الميلادى تم استخدامه كقصر ملكى. كذلك كان يوجد حول الكنيسة المطبخ، وحجرة الطعام، وحجرة النوم، وحجرة مخصصة للعناية بالمرضى، والعديد من المبانى الأخرى(٤).

أما المنطقة الواقعة بين حى الاسبتارية وكنيسة الضريح المقدس، فقد كان يوجد بها السوق على طول امتدادها، حيث تباع الشموع للحجاج المسيحيين(٥). وبالقرب من حى الاسبتارية إلى حد مـا، وبقرب من بركة البطريرك كانت هناك سوق لبيع الخنازير. كمـا أن حى البطريرك ضم بالإضـافـة إلى قصر البطريرك، وكنيسـة الضـريح المقدس بمبانيها الدينية، حى فرسان الرهبان العسكرية للقديس يوحنا وهم الاسبتارية، والذين

سبقت الإشارة إليهم، إلى جانب بعض المبانى الأخرى التى لم تعد موجودة أو التى لم يتم ذكرها فى المصادر اللاحقة، ذلك أن قائمة الممتلكات التى حولها صلاح الدين الأيوبى إلى أوقاف بعد عام ١١٨٧م جاء فيها أن من بين الأوقاف طاحونة تعرف باسم " العصفور "، وفرن، ودير يعرف باسم " الجديد " ملاصق للفرن، وقبو ضخم معروف باسم " إسطبل البطريرك "، وقصر له حجرات سفلية يقع إلى الشمال من الإسطبل، وحمام البطريرك الذى سبق ذكره، وبركة البطريرك، والمجمع المكون من مستودعين كبيرين، وبركة ماملا، والأنبوب الذى يصل بين البركتين، وقطعة أرض زراعية تعرف باسم " البقعة"[٦]. وفيما عدا قطعة الأرض هذه، وبركة ماملا، فإن كل هذه الأماكن المذكورة كانت داخل حى البطريرك.

حى الاسبتارية

فى القرن الحادى عشر الميلادى قامت جماعة من تجار مدينة أمالفى بتأسيس دير يتبع طقس القديس بندكت، هذا الدير عرف باسم القديسة مريم اللاتينية. وكان يقع إلى الجنوب الشرقى من كنيسة الضريح المقدس بمدينة القدس، ثم أقاموا بجواره مستشفى وكنيسة صغيرة من أجل راحة الحجاج المسيحيين تحت اسم القديس يوحنا موزع الصدقات. ووفقا لما ذكره وليم الصورى، فإن التجار أحضروا أسقفا وجماعة من الرهبان من أمالفى لخدمة الدير، اشتمل على عدة أماكن لراحة الرهبان والنزلاء. كما تم إنشاء دير للراهبات بالقرب منه وفق الطقس البندكتى قبل عام ١٠٨١ – ١٠٨٢ م. وتم تخصيصه لنزول نساء الحجاج وكان يحمل اسم القديسة مريم المجدلانية.

وفى الحقيقة فإن التاريخ الفعلى لهذه المنشآت (سواء الدير الخاص بالرهبان أو الخاص بالراهبات ونزل ثالث للرجال يقع على بعد إلى الغرب، والمستشفى، وربما مستشفيين) غير واضح تماما. فالرحالة ناصرو خسرو الذى زار المدينة عام ١٠٤٧م،

وجد ذلك فعلا حيث قال : "وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف المقرر لهذه المستشفى ". وعلى أية حال فليس من المعروف ما إذا كان يقصد ذلك المستشفى، أو أنه يقصد مستشفى إسلامي في مكان ما بالمدينة. إلا أنه من الواضح أن أصول تلك المنشآت تعود إلى أزمنة بعيدة، هي القرن التاسع الميلادى. فإن برنارد الراهب – وهو حاج من المحتمل أن يكون فرنسيا، زار المدينة حوالى عام ٨٧٠ م– يصف المستشفى الفرنجي لشارلمان بأن بها مكتبة رائعة(٧). وأمام هذه المستشفى يقع السوق، كما أن لهذا المستشفى العديد من الممتلكات منها اثنا عشر نزلاً، وعدد من الحقول ومزارع الكروم في وادي يهو شافاط(٨).

هذه المؤسسات الوقفية، وتلك المنشآت كانت تشكل في القرن الحادى عشر الحى الخاص بفرقة الرهبان العسكرية لجماعة فرسان القديس يوحنا. هذا التحول من مجرد نزل لجماعة الأمالفيين البندكتيين إلى مؤسسة مهمة للاسبتارية، وأخيرا إلى فرقة رهبان عسكرية بدأ تحت قيادة رعاية شخصية ذائعة الصيت ومحيرة في نفس الوقت وهي شخصية الأخ جيرارد (١١١٨م أو ١١٢٠م). وهو مجهول الأصل. فربما كان أمالفيا، وإن كان يزعم بأنه بلجيكي أو بروفنسالي الأصل. ولقد ترأس النزل في السنوات الأخيرة من الحكم الإسلامي أى قبل وصول الصليبيين، وعاصر حصارهم للمدينة عام ١٠٩٩م، واستمر في رئاسة النزل تحت الحكم الفرنجي. كما أن التوسع السريع لهذه المستشفى أو هذا النزل تحت الحكم الفرنجي بدأ مبكرا تماما، حيث منح بلدوين البوايونى قرية السلسلة ومخبزين للمستشفى، في حين منحها بلدوين الأول عشر الغنائم التى تم الحصول عليها من الجيش الفاطمى في أعقاب النصر الذى حققه الفرنجة في عسقلان في شهر أغسطس عام ١٠٩٩م. وفي عام ١١١٢م فإن بطريرك بيت المقدس وكبير أساقفة قيسارية منحا الاسبتارية إعفاء من العشور. وعندما توفى جيرارد خلفه في القيادة ريموند من لوبوى، ولم يكن أقل منه كفاءة في إدارة

شئون الجماعة، وقد كان بروفنساليا وتمت على يديه عملية التحول الفعلى لجماعة الإخوة الاسبتارية الرهبان إلى فرقة رهبان عسكرية متبعة نمط جماعة فرسان الداوية.

وبعد حصول الاسبتارية على اعتراف البابوية بهم عام ١١١١م تحولوا إلى جماعة رهبان عسكرية عام ١١٣٠ م. وتمت إعادة بناء المساحة الواقعة إلى الجنوب من كنيسة الضريح المقدس إلى امتداد شارع داود وفيما بين شارع البطريرك والسوق الثلاثى (وهى مساحة تبلغ ١٣٠م × ١٣٠م). وتشتمل الآن على البازيليكيتين اللتين شيدتا فى القرن الحادى عشر الميلادى وهما بازيليكا القديسة مريم الكبرى، ثم القديسة مريم الصغرى أو اللاتينية، ومستشفى ضخم وعدد من المبانى الأخرى. وضم الحى الكنيسة ثنائية الطوابق والمزدانة بالأوراق النباتية لراعى جماعة الرهبان وهو القديس يوحنا المعمدان، إلى جانب مبنى يرجع تاريخه إلى العصر البيزنطى أضاف الصليبيون له برجا للجرس. وربما حصلت عليه جماعة المستشفى بعد غزو عام ١٠٩٩م[٩].

ولكى نفهم مخطط حى الاسبتارية يجب علينا أن نعتمد على مصدرين مهمين جدا تحدثا عن ذلك، أولهما عن القرن الثالث عشر الميلادى وهو وصف مدينة بيت المقدس وهو من أهم المصادر الوصفية فى العصور الوسطى التى تحدثت عن تلك المنطقة. والمصدر الثانى هو الكشوف والحفريات الأثرية والمسح الطبوغرافى الذى تم قبل دمار الآثار الصليبية وتحويل الموقع إلى مبنى للسوق الجديد فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى. ويعتبر وصف المدينة عملاً نفيسا بكل المقاييس، إلا أنه من الصعب تتبع هذا الوصف على طول الخط. والصعوبة الأساسية تكمن فى فهم استخدامات المؤلف لبعض الاتجاهات، (مثل أعلى، وإلى اليمين، أو إلى الشمال) دون التعرف على الجهة التى يواجهها. وعلى هذا الأساس فإمكانية ترجمتها إلى أكثر من اتجاه يمكن أن تغير معنى الوصف. ومن المعروف أن أكثر الآراء قبولاً لتحديد الاتجاه المباشر ذلك الذى قاله شيك وخصوصا فيما يتعلق بكنيستى القرن الحادى عشر الميلادى فى الحى. فمن وجهة نظر شيك أن الكنيسة الموجودة فى الشمال الشرقى من الحى حيث توجد الآن

كنيسة اللاتيران للسيد المخلص، كانت كنيسة القديسة مريم اللاتينية أو الكبرى، وأن الاضطراب فى تحديد كنيسة الشمال الشرقى على أنها كنيسة القديسة مريم الكبرى، والكنيسة الجنوبية الغربية على أنها كنيسة القديسة مريم الصغرى ربما كان مرجعه صعوبة متابعة ما جاء فى كتاب وصف المدينة.

وتنبغى الإشارة إلى أن مبانى الحى قد تم توسيعها وتطويرها فى عام ١١٥٠م وفى تلك الآونة كانت جماعة فرسان الرهبان الاسبتارية قد حصلت على قدر كبير من الثروة من خلال المنح والعطايا فى الدولة الصليبية وبوجه خاص فى الغرب الأوربى، ومن المحتمل أنه فى ذلك الحين كان الحى قد وصل إلى شكله النهائى : مجموعة من القاعات ذات العقود المتقاطعة، والكنائس بين الشوارع الضيقة، ومجموعة من الدكاكين ذات العقود المتوازية أو المستودعات إلى الجنوب. وبحيث ضمت المبانى المستشفى الكبير، وربما مستشفى ثانيا للنساء، والكنائس الثلاثة، والحمام وقصر مقدم الجماعة، وغرف نوم الفرسان وصالات الطعام، والإسطبلات، ومخزن للقمح، وربما بعض المبانى الإضافية الأخرى[١٠]. فوفقا لما ذكره بنيامين التطيلى،فإن أربعمائة من الفرسان كانوا يعيشون فى الحى وقت زيارته للمدينة أعوام ١١٦٥ - ١١٧٣م. ويعتقد شيك أن مكان إقامتهم كان فى الجزء الجنوبى الشرقى من الحى وكذلك إسطبلاتهم، فى حين يرى رايلى سميث على الجانب الآخر أن المبانى الخاصة بالرهبان من فرقة الرهبان العسكرية كانت حول كنيسة القديس يوحنا فى المنطقة الجنوبية الغربية من الحى.

حى السريان

إن الركن الشمالى الشرقى من مدينة بيت المقدس، أو المنطقة الممتدة شمالاً من جبل المعبد (الحرم القدسى الشريف) إلى سور المدينة الشمالى، وشرقا من بوابة القديس ستيفان إلى خط السوق البيزنطى المعروف بالكاردو -كانت معروفة زمن الحكم

الصليبى بحى السريان. هذه التسمية اشتقت من اسم الجماعة المسيحية الشرقية التى أحضرها الملك بلدوين الأول عام ١١١١م من إقليم الكرك فيما وراء نهر الأردن لتستقر فى المنطقة الخالية من السكان(١١). وقد كان هذا الحى فيما مضى خاصا باليهود الذين انتقلوا داخل أسوار المدينة عندما تم عزل منطقة جبل صهيون عن المدينة فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى. وفى ظل الحكم الصليبى كان يشار إليه بين الحين والحين على أنه الحى اليهودى. كما أن غلبة العنصر المسيحى الشرقى فى هذا الحى كان مشهودا وبشكل ساحق لقيام العديد من كنائس اليعاقبة، بما فيها كنيسة القديسة مريم المجدلانية، وكنيسة القديس إلياس، وكنيسة القديس بارتلميو وربما كنيسة القديس أبراهام (والتى ربما كانت خارج حدود الحى البطريركى). وعلى أية حال، فإن الحى لم يكن سريانيا فى غالبه، حيث يقع هنا أهم دير بندكتى للقديسة حنة. كما أن باهات قد لاحظ وجود تجمعات لجماعتين من المسيحيين السريان فى المدينة : التجمع الأول يبدو أنه قد كان قائما إلى الشرق من شارع قنطرة يهوذا، والتجمع الثانى من الهاربين من الغزو الساحلى الذى قام به صلاح الدين عام ١١٧٧م واستقروا فى الجزء الجنوبى من حى الأرمن، بحيث ظهرت فى العديد من الوثائق أسماء كثير من السريان فى بيت المقدس. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستنتج أن المسيحيين السريان شكلوا جزءا أساسيا من سكان المدينة تحت الحكم الصليبى.

ومن المحتمل وجود بعض تقسيمات قومية فى المدينة نتيجة لانتشار الجيوش أثناء حصار عام ١٠٩٩م. حيث يذكر وليم الصورى أنه أثناء اقتحام المدينة فى الخامس عشر من يوليو قام الفرسان الصليبيون بتشكيل عدة جماعات استقرت فى المنازل التى هجرها أصحابها. لدرجة أن أفراد جيش ريموند التولوزى والذين جاءوا من أقاليم بيوكير **Beaucayre** وبروفانس **Provence**، وبعد مهاجمتهم للمدينة من الجهة الشرقية الغربية، احتلوا جزءا من المدينة ملاصقا لحى الأرمن، قرب المكان الذى شيدت فيه فيما بعد البوابة الجميلة.

حى الأرمن

يرجع وجود جماعة الأرمن فى مدينة بيت المقدس إلى زمن الحكم البيزنطى. فوفقا للمصادر الأرمينية، فإن الأسقف أبراهام أصبح أول بطريرك، ولهذا جاء ذكره فى العهدة العمرية التى أصدرها الخليفة عمر بن الخطاب (على الرغم من وجود بعض الشك فى حقيقة ذلك اللقب والذى جاء ذكره فى المصادر الإسلامية، فى حين ترى بعض المصادر أن استخدامهم هذا اللقب كان فى القرن الحادى عشر أو الرابع عشر)(١٢)، وأن حركة استيطانهم كانت على نطاق أكبر تحت حكم الفرنجة مع بناء كنيسة القديس جيمس وكذلك الدير. وتركز الحى حول الكنيسة واشتمل على عدة كنائس أصغر مثل كنيسة القديس توماس، وكنيسة القديس جيمس. وبالإضافة إلى تلك الكنائس والدير ربما وجدت عدة مبانٍ للرهبان ومنازل خاصة.

حى الألمان

فى بدايات عام ١١٦٠م نرى يوحنا الورز برجى يشكو قائلاً : " إنه ليس هناك مكان فى المدينة بمعزل عن الألمان، ولا حتى الشوارع الصغيرة ". ويبدو أنه قد نسى هذا التعليق اللاذع، إذ بعد عدة صفحات نراه يصف المستشفى الألمانى والذى تم تشييده فى الحى الجنوبى الشرقى عام ١١٤٣م. كما أن كتاب وصف المدينة أيضا يصف هذا الحى بأنه يقع إلى الجهة اليمنى وأنت تقطع شارع المعبد، "فهناك شارع آخر يستطيع أى فرد أن يصل منه إلى المستشفى الألمانى، يسمى الشارع الألمانى(١٣)". كما أن البابا كلستين الثانى كتب إلى ريموند، رئيس مستشفى القديس يوحنا، فيما يخص المستشفى الجديد للألمان فى مدينة بيت المقدس، واضعا إياه تحت رئاسته وتحت رعاية كل رؤساء المستشفى مستقبلا شريطة أن يكون كل الرؤساء والخدم من الألمان. وقد تم التعرف على البقايا الأثرية لكنيسة القديسة مريم للألمان

عام ١٨٧٢م عندما قام بفحصها س. ف. تيرهويت دريك C . F . Tyrwhitt Drake، حيث تم الكشف عنها وعمل مسح لها عام ١٩٦٨م وأجريت فيها عدة كشوف فيما بعد بواسطة ميير بن دوف[١٤] Meir Ben Dov. ولقد خضع جزءان من الأجزاء الثلاثة التى ميزت مبنى مستشفى الألمان للكشف الأثرى وتم ترميمهما، فى حين تحول الجزء الثالث إلى حديقة عامة. أما المبنى ككل فقد كان يتكون من مبنى واسع له فناء إلى الشمال، وهناك بازيليكا ثلاثية الأضلاع، وإلى الجنوب توجد قاعة ذات طابقين، وبناء ذو عدة عقود متقابلة كبيرة وسط شارع الألمان إلى الغرب من الكنيسة، لم يتبق منه شىء باستثناء قواعد الأعمدة الضخمة المربعة، والتى ربما تخص المبنى، وبعض المبانى الأخرى من زمن الحكم الصليبى لم يتم الكشف عنها إلى الجنوب والغرب من الكنيسة[١٥].

جبل المعبد، دير أوغسطين وحى الداوية

إن ما قرر أن يفعله الفرنجة بالمبانى المقدسة الإسلامية كان واحدا من القرارات غير العادية بعد غزوهم لمدينة بيت المقدس عام ١٠٩٩ م. كما أن تنصير بيت المقدس فى العصور الوسطى يختلف تماما عما سبق ذلك من محاولات. ذلك أن الصليبيين اختاروا ألا يدمروا المبانى الموجودة فى منطقة جبل المعبد (الحرم القدسى)، وبدلا من ذلك فإنهم استغلوها لحاجتهم لها وحولوها إلى منشآت مسيحية[١٦]. وفى الماضى وعندما سقطت المدينة فى أيدى الغزاة، فإن المبانى المقدسة إما قد تم تدميرها تماما، أو سمح لها بأداء وظيفتها السابقة. فعندما استولى الإمبراطور تيتوس على المدينة عام ٧٠ م، فإنه دمر المعبد اليهودى، وأتبع ذلك ببناء معبد تم تكريسه لعبادة الإله فينوس فوق المكان الذى شهد عملية استشهاد المسيح، وربما بنى معبدا للإله جيوبيتر فى جبل المعبد. وفى عام ٣٢٥ م هدم الإمبراطور المسيحى قنسطنطين معبد فينوس وشيد مكانه كنيسة جديدة ورد ذكرها عام ٣٣٥ م. وتحت الحكم المسيحى جاء ذكر معبد

الجبل على أنه مكان للقمامة أو كومة روث. ومن جهة أخرى، ففى أعقاب الفتح الإسلامى لبيت المقدس عام ٦٣٨م، بقى العديد من الكنائس البيزنطية فى حوزة المجتمع المسيحى، ومع هذا فإن الصليبيين اختاروا الحل الوسط ؛ ذلك أنهم تعمدوا تنصير المدينة تماما. وكان تنظيمهم تجاه المبانى الدينية بسيطا للغاية، وخضع للحقيقة الواقعة وهى أنه لم يعد يوجد فى مدينة بيت المقدس أى تجمع للمسلمين. كما أن الأحوال المالية للفرنجة لم تسمح بإحلال منشآت مسيحية ذات شأن محل المنشآت الإسلامية فى منطقة جبل المعبد. ومن المحتمل كذلك أنهم كانوا مدركين أن تدمير أهم منشأتين إسلاميتين فى العالم الإسلامى ربما أدى إلى اتحاد القوى المسلمة فى المنطقة ضدهم، وفى غياب هذا الاتحاد استطاع الصليبيون الاستيلاء على بيت المقدس. وعلى أية حال، فإنه يبدو أن الفرنجة قد وجدوا وسيلة تبرر استخدامهم لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، واختاروها ببساطة بتجاهلهم لأهمية هذه المبانى الإسلامية؛ حيث اعتبروا أن قبة الصخرة معبداً للرب ونظروا إليها تقريبا على أنها المعبد الذى كان موجودا أيام المسيح، وأن المسجد الأقصى كان معبدا لسليمان. وإن كانت المصادر لم تكن دقيقة من حيث معنى هذا الاسم : فمن المحتمل أن ذلك راجع لأن المسجد الأقصى كان قصرا لسليمان أكثر من كونه – وفى فترة مبكرة – معبداً لليهود. كما أن الفرنجة قرروا أن هاتين المنشأتين ينبغى أن تكونا جزءا من التراث التوراتى للمسيحية، ولهذا فإنهم بدلا من تدميرهما قرروا استخدامهما كمنشآت مسيحية ولمنفعة الصليبيين(١٧). وبذلك غدت قبة الصخرة كنيسة، وكما سبق أن أشرنا. أما بالنسبة للمسجد الأقصى فقد استخدم أولاً قصرا ملكيا، وبعد عام ١١١٩م أصبح ضمن ممتلكات جماعة الرهبان العسكرية الداوية(١٨).

وسوف نشير إلى قبة الصخرة فيما بعد، فإلى يسارها، وربما فى الطابق الأسفل منها، شيد الفرنجة مبنى جديدا تماما، وديرا لرهبان القديس أوغسطين الذين نزلوا فى المعبد. هذا البناء قام صلاح الدين الأيوبى بتدميره كلية عام ١١٨٧ م. حيث

أشار جون ويلكنسون إلى احتمال وجود بقايا أثرية لتلك المبانى : حيث إن المدخلين الشماليين الغربيين المؤديين إلى الدرج السفلى للمبنى عليهما زخارف صليبية، فى حين توجد على كل المداخل الأخرى زخارف بيزنطية. ومن المحتمل أن معظم البقايا الأثرية المبعثرة فى منطقة جبل المعبد الآن يرجع أصلها إلى هذا المبنى ذى الطابع الرومانسكى. وإذا صح هذا الافتراض فإن هذا المبنى قد كان مبنى محكم البناء. ووفقا لما رواه الإدريسى الجغرافى فإنه كان ملاصقا للدير وكان عبارة عن حديقة جميلة زرعت فيها كثير من الأشجار ومحاطة بصف من أعمدة الرخام، كما يبدو أنه وجدت أيضا حديقة، أو على الأقل بعض الأشجار إلى الشرق من قبة الصخرة بينها وبين البوابة الذهبية.

وعن المسجد الأقصى فقد وصفه ثيودريك على أنه يمثل كنيسة ذات أعمدة وفى مؤخرته قبة، أى أن المبنى الأموى قد شهد عدة تغيرات لتحويله من مسجد إلى قصر ملكى ثم إلى مقر لجماعة فرسان الداوية. واستمرت عملية إضافة العديد من المبانى إلى المسجد الأقصى طوال فترة الحكم الفرنجى فى القرن الثانى عشر، هذه الأعمال كانت تشتمل على حائط فاصل وجزء ناتئ نصف دائرى من كنيسة تمت إضافتها إلى المسجد نفسه، وتوسعات إلى الرواق الشمالى، ودير جديد، وكنيسة جديدة، وبعض المبانى الأخرى. ووفقا لما رواه ثيودريك، والذى يعد أفضل مصدر لنا فى وصف هذه المبانى هناك مستودعات للأسلحة، وللملابس والطعام. كما أنه ذكر أيضا وجود عدد من الغرف الأرضية، وبعض المبانى الأخرى ذات الاستخدامات المتعددة، بما فيها الحمامات، والمخازن، وشون القمح، ومستودعات لتخزين الأخشاب وبعض المواد التى لا غنى عنها. وإلى الغرب من المسجد فإن الداوية شيدوا مبنى جديدا اشتمل على العديد من المخازن الأرضية، وحجرات الطعام، وبعض المستودعات، وحسبما يروى ثيودريك كانت ذات ملامح غير عادية بالنسبة لمنطقة الشرق(١٩)، لها أسقف من الجمالون. كما كان هناك دير إلى الغرب وحديقة إلى الشرق لها سور من الجانب

الشرقى منها، ووراء هذا السور هناك ردهة يتوصل منها إلى كنيسة مهد المسيح أسفل موقع منزل سيمون المنصف. ووفقا لما يرويه بنيامين التطيلى فإن ثلاثمائة فرد كانوا يقطنون فى هذا الحى.

وفى بدايات عام ١١٦٠م كانت الكنيسة الجديدة تحت الإنشاء، حيث ذكرها يوحنا الورز برجي، عندما تحدث عن كنيسة كبيرة تحت الإنشاء، وبعد سنوات قليلة فإن ثيودريك ذكر أن الكنيسة كانت لا تزال تحت الإنشاء، وأنه فى الركن الجنوبى الشرقى من جبل المعبد كانت كنيسة مهد المسيح. وفى هذه الكنيسة كانت توجد كوة حجرية تحدد مكان مهد المسيح بشكل ظاهر للعيان.

أما إسطبلات الداوية فقد كانت تقع فى السراديب الأرضية إلى الشرق من المسجد.هذه السراديب القديمة تمت المحافظة عليها فى العصور الوسطى، ومن المحتمل أن ذلك كان فى فترة الحكم الفاطمى. ووفقا لما ذكره يوحنا الورز برجى فإنها كانت معدة لإيواء أكثر من ألفين من الخيول، وألف وخمسمائة جمل. بل إن ثيودريك ذكر عددا كبيرا وهو عشرة آلاف حصان مع سواسها.

كما تم تشييد جزء ناتئ من حصن إلى الجنوب من جبل المعبد لحماية المداخل الجنوبية للحى، وكذلك البوابة الفردية التى تقترب من الإسطبلات والبرج الجديد والذى أقامه الداوية أمام البوابة المزدوجة القديمة.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل العاشر

(١) لقد لاحظ باهات أن الجزء الشمالي من شارع الواد، والذى سبق أن حدده كل من فنسنت وآبل على أنه السوق الإسباني، قد كان به ساكن إسباني واحد. أما باهات فإنه في سنة ١٩٩٠، ص١٩ (في الملخص الإنجليزى). فإنه يرى أنه ظهر بالصدفة أن الحى الأرمنى كان يوجد به بعض السكان من إقليم بروفانس والذين شاركوا فى القتال الدائر فى منطقة جبل صهيون والذى قاده ريموند التولوزى عام ١٠٩٩م. والذين احتلوا هذه المنطقة بعد تصرهم داخل السور الجنوبي. وكما لوحظ أعلاه.

(٢) الوثيقة رقم ٤٣٠، ٤٦٩، عن النقاش العام حول البطريرك والحى الخاص به انظر: يوشع براور، "ممتلكات البطريرك فى بيت المقدس"، فى كتاب المنشآت الصليبية، الصفحات ٢٩٦-٣١٤ .

(٣) كانت سلطات البطريرك القضائية في القرن الثاني عشر للميلاد معقولة، وإن كانت غير كاملة، فهى لم تتضمن على سبيل المثال سلطة الحكم على حالات القتل والتزوير، انظر: براور: المنشآت الصليبية، ص٢٩٨ .

(٤) حديثا، تم إجراء عدة أعمال قام بها المعهد الإسرائيلى للكشوف الأثرية فى المنطقة إلى الشمال من المدخل الشمالى، وتم الكشف فيها عن ساحة كبيرة ذات أعمدة (أسفل ما تم تحديده بأنه المشفى) تبلغ أبعادها ٩,١٢-٤,١٣ ٧,٣٠-٦,٢١ م، كما تم الكشف عن كنيسة صغيرة ترجع إلى فترة ما قبل الحروب الصليبية، وغرفة للمرتلين تبلغ أبعادها ١٣مترا × ٥,١٤مترا. انظر: جون سيلجمان وجدعون أفنى، القدس، كنيسة الضريح المقدس، حداشوت أركيولوجوت العدد ٣، عام ٢٠٠٠م، الصفحات ٦٩-٧٠ .

(٥) كتاب المدينة (ص٢٠١) يذكر الشارع ذى العقود بين منطقة الصرافين السوريان وكنيسة الضريح المقدس حيث (يبيع السوريان الأقمشة، ويصنعون الشموع).

(٦) يوشع، فرانكل، "الاعتبارات السياسية والدينية للأوقاف الدينية الإسلامية لصلاح الدين فى القاهرة (١١٦٩-١١٧٣م) والقدس (١١٨٧-١١٩٣م)، فى مجلة الدراسات الشرقية والأفريقية، العدد ٦٢، عام ١٩٩٩م، ص٧-٨ .

(٧) عادة قديمة تم ذكرها (فى ص٢٦) تحدد التاريخ بعام ٦٠٣ ميلادية، وأن البابا جريجورى هو المؤسس الأصلى لهذه المستشفى، انظر: رايلى سميث، فرسان القديس يوحنا، ص٣٤، وكذلك يشير رايلى سميث إلى عادات أكثر قدما، على الرغم من أن لها طبيعة غير منطقية، حيث يشير إلى أحد الإخوة من جماعة

فرسان المستشفى، وهو ويليام من سانت ستيفانو والذى كتب يقول إن الأصول الأولى لفرقة الرهبان هذه ترجع إلى فترة المعبد الثانية، نفس المرجع، ص٣٢-٣٣ .

(٨) أ.ديفيدز، "طرق الحج" فى كتاب كرجنى سيجار، الشرق والغرب فى الولايات الصليبية، أعمال المؤتمر المنعقد فى قلعة هرنان فى شهر مايو ١٩٩٣م، ليوفين، ١٩٩٦م، إف أى بيترز (١٩٨٥م، ص٢٧٥) حيث يرى أن هذه المنشأة قد تم تدميرها على يد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى أوائل القرن الحادى عشر للميلاد، مما دفع أهل أمالفى إلى إعادة بنائها، وإن كان وصف ناصرو خسرو لا يدل على ذلك.

(٩) إن ربط المستشفى بالقديس يوحنا قد جاء ذكره عند الرحالة الأنجلو سكسونى سايولف، والذى زار المدينة عـام ١١٠٢-١١٠٣م، فى السطور (٢٦٧-٢٦٩، ص٦٧). عن برج الجـرس انظر. س شـيك ١٩٠٢م، ص٤٨، ويعتقد فولدا أن كنيسة القديس يوحنا المعمدان كانت كنيسة منفصلة بناها الصليبيون، راجع: فولدا، فنون الحروب الصليبية، ص٢٧٨ .

(١٠) عن المستشفى، والكنائس، والحمام، والإسطبلات انظر الصفحات من ١٢١-١٢٥، ١٥٦-١٦٠، ١٦٢-١٦٤ . وفيما يتعلق بمستودع المستشفى فيمكن الرجوع إليه فى حديث الأخ جوبرت (١١٧٢-١١٧٧م). وانظر كذلك: كنج، قوانين وعادات الاسبتارية من ١٠٩٩-١٣١٠، لندن، ١٩٣٤م، ص٣٠ .

(١١) كان هذا أحد المقاييس المسجلة والتى كانت مستخدمة فى قياس الأزمات السكانية والتى نجمت عن إلقاء بعض الأضواء على معظم حالات تناقص أعداد السكان عام ١٠٩٩م، انظر: ص١٤ .

(١٢) ف. آزاريا، الحى الأرمنى فى بيت المقدس، الحياة المدنية خلف أسوار الدير، بيركلى، لوس أنجيلز ولندن، ١٩٨٤م، ص٦٠ .

(١٣) المصدر نفسه، ص١٣٣ . وفيما يخص نشأة هذه المنشأة أنظر: الوثيقة، رقم:٢١٤ .

(١٤) إن المسح الجغرافى قد قام بتنفيذه أشر أوفاديا وإيهود نتزر، انظر: أشر أوفاديا، "كنيسة صليبية فى الحى اليهودى فى مدينة بيت المقدس القديمة"، عام ١٩٧٣م، الصفحات من ٢٠٨-٢١٢ (باللغة العبرية)، الملخص الإنجليزى ص٢٩، انظر أيضا: مير بن دوف، "إعادة بناء كنيسة القديسة مريم لفرسان الألمان فى القدس، ص١٤٠-١٤٢، فى كتاب يورام تساوير، الكنائس القديمة المكتشفة، القدس، ١٩٩٣م.

(١٥) عوبديا ١٩٧٣م، ص٢١٢، انظر كذلك: رونى ريتش، "من العصر الهللينستى إلى العصور الوسطى ٦-١" فى كتاب: هيليل جيفا، *الحفائر الأثرية اليهودية الربع سنوية فى مدينة بيت المقدس القديمة والتى أجراها* نحمان أفيجاد ١٩٦٩-١٩٨٢م، ج١، العمارة والمبانى المهمة، المناطق أ، و، و٢ إكس، القدس ٢٠٠٠م، *الصفحات* من ١٠٢-١٠٥ .

(١٦) عن الحوار الذى دار حول التغيرات فى منطقة جبل المعبد انظر: سيلفيا شاين. "ما بين جبل موريا والضريح المقدس: *العادات المتغيرة فى منطقة جبل المعبد فى وسط العصور الوسطى*"، رقم ٤٠، ١٩٨٤م، ص١٧٥-١٩٣ .

(١٧) وفقا لما رواه بنيامين كيدار فإن البناء يرتبط بأحد الأباطرة المسيحيين القدماء، بنيامين زد كيدار، "الأنشطة الثقافية"، ص١٢٧-١٣٩، "فى كتاب كيدار و ويربلووسكى، الفضاء المقدس، ص١٢٩ .

(١٨) لقد أشار كل من يوحنا الورزبرجى، وثيودريك إليه على أنه قصر سليمان. راجع يوحنا الورز برجى، ص١٣٤، ثيودريك، ص, ١٦٤.، هذه التوضيحات كانت مفيدة وربما كانت مقبولة لدى الكثيرين، ولكن من حيث الأدلة فهناك القليل، مثل فولشر الشارترى والذى كان مدركا أن تلك المبانى لم يقم ببنائها سليمان: راجع فولشر الشارتى، الكتاب الأول، ص٢٦، ٥، ١٠ .

(١٩) راجع: ثيودريك، ص, ١٦٥ وفى عام ١٨٩٠ كتب إيبرى ستيوارت الذى ترجم كتاب يوحنا الورز برجى فى مجموعة حجاج بيت المقدس كتب يقول إن أساسات الكنيسة مازالت ترى (فى ١٨٩٠) خارج الجانب الشرقى للمسجد الأقصى، لندن ونيويورك، ١٩١٨م، ص٢١، ملحوظة رقم، ٢ سى. أم واطسون (قصة بيت المقدس، لندن ونيويورك ١٩١٩م) حيث يذكر أيضا أن الأساسات كانت إلى الشرق من المسجد (ص١٩١). واليوم لا يمكن رؤية شيء من هذه الكنيسة أو بقايا لها.

* * *

الفصل الحادى عشر

خارج الأسوار

فى الوقت الذى ظلت فيه المبانى السكنية لبيت المقدس من العصور الوسطى فى حالة جيدة داخل حدود الأسوار، كان يوجد خارج الأسوار عدد من المبانى العامة والمنشآت الدينية والعلمية والتى كانت مرتبطة أيضا بحياة المدينة. وبالإضافة لذلك فهناك الأراضى الزراعية، والمستوطنات الريفية والتى كانت جزءا من البناء الاقتصادى لبيت المقدس، تمد المدينة بالمنتجات الزراعية والمنتجات المصنعة.

المبانى والمنشآت خارج أسوار المدينة

إن مدينة بيت المقدس لم يقدر لها أن تتوسع بشكل كبير خارج أسوارها مثل مدينة عكا فى أخريات القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد، فلم تشهد قيام أحياء جديدة مثل تلك التى تطورت بشكل ملحوظ خارج أسوار عكا، مثل حى مونت موسارد، أو مثل يافا ونابلس، لسبب واحد وهو وجود مساحة داخلية قابلة للتوسع البطىء فيها داخل الأسوار. بالإضافة إلى أن بيت المقدس لم تكن مضطرة إلى التوسع الأفقى بسبب عدم تضخم أعداد سكانها مثلما كان الحال فى عكا والتى اضطرت إلى التوسع فى مساحة ضعف مساحتها مرتين وخصوصا بعد ضياع بيت المقدس والمنطقة الخلفية لها منذ عام ١١٨٧م. وعلى الجانب الآخر، فإن المنطقة المجاورة لبيت المقدس كانت حافلة بكثير من المبانى والمنشآت بما فيها من كنائس، وأديرة، وصوامع، وتجمعات

صناعية، ومستشفيات، وإسطبلات، وبرك مياه، وجبانات، ومقابر لحفظ جثث الموتى وعظامهم. كما كانت الأديرة وأماكن الصوامع قريبة من المدينة بسبب قداستها وكانت خارج أسوار المدينة لكى تكون بمنأى عن السلطة الزمنية. إلى جانب أن بعض المنشآت الأخرى كانت موجودة خارج أسوار المدينة بسبب توافر المساحات، والعوامل الطبوغرافية، والعوامل الصحية، ولكنها مع هذا كانت تؤدى دورا حيويا فى حياة المدينة بشكل واضح.

جبل صهيون والمنطقة إلى الجنوب

على الرغم من أن منطقة جبل صهيون تم عزلها عندما أعيد بناء أسوار بيت المقدس فى أعقاب الزلزال الذى حدث عام ١٠٢٣م، مثل بعض المناطق الأخرى والتى كانت دائما خارج أسوار القدس - ومع هذا فقد كان لها مكانتها أو شهرتها لوجود موقع مقدس فيها، وهو دير القديسة مارى فى جبل صهيون.

وكان يمكن الوصول إلى المدينة من منطقة جبل صهيون عن طريق بوابة جبل صهيون، أو الممر الخلفى من بوابة بيوكير. وبالإضافة إلى هذا الدير فإنه فيما يبدو كان هناك أحد الحمامات العامة، الواقع إما داخل أو خارج الأسوار، وهو ما لم يتم ذكره فى المصادر اللاتينية، ولكن جاء ذكره فى المصادر العربية كجزء من الأوقاف(١)، على المدرسة الصالحية حيث جعله السلطان صلاح الدين الأيوبى وقفًا عليها. ومن المحتمل أن هذا الحمام كان يستمد مياهه اللازمة من القناة القادمة من أرتاس أو من مجموعة برك سليمان إلى الجنوب من بيت لحم.

وعلى منحدر جبل صهيون كانت تقع كنيسة القديس بطرس، والتى ضمت الكهف الذى سجن فيه المسيح، حيث توجد بعض بقايا حجرية لمبانى من العصر الصليبى، بالرغم من عدم وجود أى دليل على إنشاء مبانٍ فى جبل صهيون. فالحجارة التى تم

الحصول عليها من المبانى الصليبية استخدمت وبشكل واضح فى إعادة بناء السور فى هذه المنطقة وتم الكشف عنها فى الحافة الجنوبية الغربية من جبل صهيون فى الحفريات الأثرية التى أجريت عام ١٨٧٤م، والتى وصفها كلير مونت جانو قائلا : "سرعان ما تأكدت أن هذه الحجارة - وبالشكل الذى هى عليه - لا يمكن أن تكون لفترة مبكرة عن فترة الحروب الصليبية، ذلك لأنها تبين الطريقة التى كانت متبعة طوال هذه الفترة فى تقطيع الأحجار وخصوصا فى المحاجر الغربية، حيث إن قطعتين حجريتين أو ثلاثة من هذه الأحجار تؤكد وجهة نظرى هذه."

ومن المحتمل جدا أن هذه الآثار التى عثر عليها "والتى تتضمن العديد من القطع المستخدمة فى عمليات البناء لدى الفرنجة، وشاهد القبر الخاص بشخص يدعى يوحنا الفلانسينى وقطعة من الفريسكو على النمط القوطى" جاءت من الدير، إلا أن الكنيسة لا تعد دليلا كافيا على وجود مبانى أخرى فى جبل صهيون.

وفى سفح جبل صهيون فى وادى هنوم "جهنم" كان يوجد المسطح المائى المعروف باسم بركة جيرمين "وفيما بعد باسم بركة السلطان"، وعلى بعد منه وإلى الجنوب، هناك الجبانة الخاصة بالمستشفى فى حقل الدم.

وادى يهو شافاط / وادى القدرون

إن البوابة الشرقية وهى بوابة يهو شافاط كانت تؤدى إلى المنطقة الخارجية الشرقية للمدينة من سور المدينة إلى جبل المعبد. وترجع أهمية هذا الوادى إلى ما قبل العصور الوسطى حيث تم استخدام وادى القدرون ولمدة طويلة كمنطقة لجبانة المدينة. وفى ظل الحكم المسيحى فإن منطقة أسوار المدينة وجبل الزيتون كان لها مكانة مهمة بسبب ارتباطها التاريخى بقصة دخول المسيح لبيت المقدس عبرها. ولهذا فإنه منذ الفترة البيزنطية فصاعدا ومنطقة الوادى حول مجرى الماء الموسمى المعروف لدى

اللاتين باسم بركة قدرون كانت موقعا لأهم الكنائس وهى كنيسة قبر مريم العذراء، وكهف الآلام فى الجثمانية أى الحديقة التى اعتقل فيها السيد المسيح، وكنيسة المخلّص، وعلى المنحدر الغربى للوادى كان يوجد مكان الدفن للفرسان الذين سقطوا صرعى الموت أثناء حصار بيت المقدس عام ١٠٩٩م. وعلى امتداد الوادى كانت هناك عدة كهوف يشغلها النساك. وإلى الجنوب من الوادى كانت بركة سلوام وبئر أيوب، والتى كانت تعرف باسم بئر عين روجل. وإلى الشرق يستطيع المرء أن يصعد لأعلى جبل الزيتون إلى كنيسة الصعود، وبيسان وإلى الطريق إلى الخليل ونهر الأردن.

شمال المدينة

إن التراث الرئيسى للمسيحية مرتبط أشد الارتباط بقصة استشهاد القديس ستيفان[٢] فى الجزء الشمالى المؤدى إلى مدينة بيت المقدس. وهنا أيضا يقع نزل الجذامى وأحد المسطحات المائية الأخرى للمدينة وهو بركة القديس لازار.

كنيسة القديس لازار وبعض السراديب المجاورة لها

فى العصر البيزنطى وحوالى عام ٤٣٩م شرعت الإمبراطورة إيو دوكيا فى بناء كنيسة إلى الشمال من أسوار المدينة تخليدا لذكرى مكان استشهاد القديس ستيفان[٣]. ولقد دفنت هى نفسها فى هذه الكنيسة عام ٤٦٠م بعد أربعة أشهر من وقفها لخدمة الرب. والمكان الذى شيدت فيه الكنيسة يحتله الآن دير القديس إيتين، ذلك لأن كنيسة إيو دوكيا قد تم تدميرها أثناء الغزو الفارسى عام ٦١٤م. وبعد حوالى عقدين من الزمان تم بناء كنيسة صغيرة مكانها على يد البطريرك صفرونيوس. هذه الكنيسة ربما تم تدميرها أيام الحاكم بأمر الله وتم بناء كنيسة جديدة بالقرب من مكانها إلى الغرب منها فى ظل الحكم الفرنجى.

إلا أن الكنيسة الصليبية هذه قد تم تدميرها على أيدى الفرنجة أنفسهم عام ١١٨٧م خوفا من أن يتخذها الأيوبيون ملجأ لهم أثناء إغاراتهم على بيت المقدس والاستفادة من موقعها قرب أسوار المدينة. وقد أشار ويلبراند من أولدنبرج إليها عندما كتب فى عام ١٢١١م يقول : "وفيها كان يتم حفظ مبالغ الضرائب التى فرضها السلطان. ومن بقايا الكنيسة تم تكوين تل من القمامة.." ومع هذا فإن البقية المتبقية الوحيدة من العصر الصليبى لكنيسة فى المنطقة هى عبارة عن جزء جانبى من كنيسة يضم عدة أعمدة تم الكشف عنه عام ١٨٨١م - ١٨٨٢م إلى الغرب نوعا ما من الكنيسة البيزنطية للقديس ستيفان وبالقرب منها عدة أعمدة متوازية تم التعرف عليها فى الكشف الأثرى الذى تم فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى.

ووفقا لما تذكره مصادر العصور الوسطى، ففى نفس المنطقة نجد الكنيسة التى كانت من ممتلكات جماعة الاسبتارية وكذلك الإسطبلات، والخزائن، والتى استخدمت أيضا كمأوى للحجاج المسيحيين أثناء زياراتهم للأرض المقدسة. وهناك مبنى مهم تم تأسيسه يقع إلى جوارها وهو سرداب مخصص لحفظ الموتى لحين أن يتم دفنهم ترجع أصوله إلى العصر البيزنطى، ويبدو أنه ظل مستخدما طوال فترة الحروب الصليبية. وقد تم الكشف عنه فى بدايات القرن العشرين الميلادى أثناء عملية للبناء كان يتم تنفيذها فى منطقة الممتلكات الألمانية الواقعة إلى الشمال الشرقى من بوابة القديس ستيفان. وربما كان هذا المكان مخصصا لدفن مرضى الجذام الذين يموتون فى المستشفى القريب.

حي مرضي الجذام فرقة الرهبان الفرسان لجماعة القديس لازار

خارج السور الشمالى لمدينة بيت المقدس، وإلى الغرب من بوابة القديس ستيفان، كانت تقع المبانى الخاصة بطائفة مستشفى القديس لازار[٤] حيث كان الممر الخاص لجماعة القديس لازار يقع إلى الشمال الشرقى من دير الفرنسيسكان الحديث ومكان

الطباعة، بما يرجح أن مستوطنة مرضى الجذام قد اتسعت من تلك البوابة أو بالقرب منها فى اتجاه الغرب فى اتجاه الركن الشمالى الغربى للمدينة وربما فى الاتجاه الآخر وهو الشمال الشرقى إلى بركة القديس لازار. ويفترض مصدران أن هذه المستوطنة قد امتدت إلى – أو كانت تقع إلى – الركن الشمالى الغربى من المدينة. المصدر الأول هو خريطة كمبراى فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى والتى تظهر عليها كنيسة القديس لازار عند ذلك الركن من المدينة. أما المصدر الآخر فهو ثيودريك الذى كتب يقول إن الكنيسة ومساكن مرضى الجذام كانت تقع بالقرب من الركن الغربى من المدينة. وعلى أية حال، فقد جاء فى كتاب وصف المدينة أن هذه المستوطنة كانت تقع جهة اليمين من بوابة القديس ستيفان بالقرب من السور، ومن هذا الوصف يتضح أن الموقع كان موقعا شرقيا أكثر من أى اتجاه آخر(٥). وإن كانت بعض المصادر الأخرى تصف المستشفى بأنه يقع قريبا من السور أو حتى ملاصقا للسور الأمامى، وعلى هذا الأساس لم يكن هناك سوى فراغ بسيط بين خطى الدفاع.

كما أن موقع مستوطنة مرضى الجذام خارج الأسوار كان الشكل المعتاد فى أوربا وفى الشرق. ففى عكا ربما كانت مستوطنة مرضى الجذام تقع خارج الأسوار تمامًا إلى أن توسعت المدينة بحيث دخلت فيها حوالى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى. كما أن الخوف من العدوى لم يكن السبب الوحيد وراء القناعة بضرورة عزل أماكن تواجد مرضى الجذام عن المجتمع بشكل أو بآخر. كما أن النصائح المتعلقة بالحياة كانت محدودة وواضحة فى العهد القديم بضرورة عزل مرضى الجذام، وتم التأكيد عليها من قبل الكنيسة. وعلى أية حال، ففى العصور الوسطى كان الخوف من انتشار العدوى هو الدافع القوى لمثل هذا الإجراء.

كذلك فإنه لم يتم الكشف عن البقايا الأثرية للفرنجة فى الحفريات الأثرية التى أجريت فى ميدان المدينة خارج الركن الشمالى الغربى للأسوار والتى أجريت عام ١٩٨٨م و ١٩٨٩م. وقام الأثريان دان باهات Dan Bahat وأرين مائير Aren Maeir

بالكشف عن بقايا لمبنى كبير كان يتكون من حائطين شمالى وغربى مدعمين بأربعة أكتاف ينقصها السقف. وضمت كسارة الحجارة عددا من الحجارة ذات الشكل المائل من العصر الصليبى، وعلى إحداها توقيع أحد البنائين. ويفترض باهات أن هذه الحجارة عبارة عن بقايا بناء أحد الأديرة الخاصة بجماعة رهبان القديس لازار العسكرية، أو بقايا خان مملوكى معروف أنه كان يقع فى هذه المنطقة.

ومن المعروف أن هذه المستشفى قد حصلت على الكثير من الهبات والأوقاف من ملوك بيت المقدس. ففى عام ١١٤٤م أكد بلدوين الثانى على هبة منحها الملك فولك عبارة عن بستان للكروم، وفى عام ١١٥٠م أوقف على هذه المنشآت بستانا آخر للكروم بالقرب من بيت لحم. كذلك أوقف عمورى عدة أوقاف عليها عام ١١٥٥م، كما منح همفرى من تورون مستشفى مرضى الجذام مبلغا سنويا مقداره ثلاثين بيزنته من العشور التى يجمعها من مقاطعته.والحقيقة أن المعلومات الخاصة بإدارة هذه المستشفى قليلة جدا، على الرغم من أننا نعرف شيئا ما عن رجلين قد لعبا دورا مهما فى رعاية مرضى الجذام، أحدهما ألبيرى يدعى جيرارد من الناصرة وكان يحمل بعض مرضى الجذام على أكتافه ويقوم بغسل أرجلهم، والآخر حاج مسيحى من المفترض أنه من فرسان المعبد اسمه بار توليو، خدم فى مستشفى مرضى الجذام قبل أن يتحول إلى حياة الرهبنة.

غرب المدينة

إلى الغرب من المدينة كانت تقع بركة البطريرك (ماملا)، تليها جبانة ربما تم استخدامها فى دفن رهبان كنيسة الضريح المقدس، حيث كانت تقع كنيسة فى هذا المكان وجاء ذكرها فى مصادر العصور الوسطى التاريخية. وإلى الغرب وعلى بعد قليل كان يوجد دير الصليب المقدس.

المناطق الريفية المحيطة

إن مدينة بيت المقدس لم تستطع مطلقا أن تعيش بمعزل عن الريف الذى يحيط بها ذلك لأن الريف كان يمدها باحتياجاتها الأساسية من الطعام، وموارد البناء، والأخشاب، وبعض المواد الخام الأخرى والمياه. فالعلاقة بين المدينة والريف المحيط بها علاقة تبادلية فى المحل الأول، ذلك لأن المدينة كانت بالنسبة للريف المحيط بها السوق لمنتجاته، وللبضائع المصنعة، ولاحتياجاتها الأساسية، بما فيها حماية أسوارها فى أوقات الخطر. ومن هذه الناحية فإن مدينة بيت المقدس زمن الحكم الصليبى لم يمكن استثناؤها فى هذا المجال.ففى الريف المحيط بها هناك الزيتون،والكروم، ومحاصيل الحبوب، والفاكهة والخضراوات، التى تزرع فى الريف، كما كانت تربى قطعان الماشية، ويتم الحصول على الأحجار من المحاجر الموجودة فيه، كذلك كان يتم جمع الحطب والمواد المستخدمة كوقود، فضلا عن أنه كان يتم تصنيع العديد من البضائع. وفى خارج المدينة ربما كانت تتم تربية الأسماك فى المسطحات المائية التى تمد المدينة باحتياجاتها من المياه. كل هذه المواد وجدت طريقها إلى الأسواق داخل أسوار المدينة.

الاستيطان فى الإقليم، وإمداد المدينة بالمؤن والطعام

من المعروف أن الأرض حول مدينة بيت المقدس كانت أرضًا تَلِّيَّة مرتفعة، وكثيرة الصخور، ومع هذا فهى فى الغالب خصبة. وعلى العكس من ذلك ما كان منها إلى الشرق، حيث تنحدر التلال تجاه وادى نهر الأردن، والبحر الميت ؛ مما جعل الجفاف سمة للمناطق الريفية فى تلك البقعة وكانت أراضيها لذلك شبه صحراوية. أما فى الأماكن الأخرى فإن المحاصيل التقليدية ومنها الزيتون، والكروم وأشجار اللوز كانت تغطى معظم مناطق التلال حيث تمت زراعتها على شكل مدرجات وكانت الحبوب

والخضروات تزرع فى الوديان، وتقوم عملية تربية الخرفان والماعز فى المراعى المحدودة. وفى القرن الثانى عشر الميلادى كانت حركة الاستيطان الصليبى على ما يبدو مكثفة إلى حد ما. وربما بدأت فى بدايات عام ١١٤٠م عندما ازدادت حدة إغارات الجماعات الإسلامية والتى تم تحييدها ببناء سلسلة من القلاع حول عسقلان الفاطمية، والتى كانت قبل ذلك قاعدة لعملياتهم الحربية. هذه المستوطنات تضمنت العديد من القرى الجديدة، والمزارع، ومراكز التجمعات البشرية. ولقد قامت كثير من القرى بهدف إمداد بعض المنشآت فى المدينة بالإنتاج الزراعى[٦]. مثل تلك الحالة التى تم فيها حصول رهبان الضريح المقدس على إحدى وعشرين قرية كمنحة ملكية. هذه القرى التى جاء ذكرها فى الوثائق المعاصرة لهذه الفترة كانت قادرة على إمداد الكنيسة بمعظم - وإن لم يكن بكل - احتياجاتها من النبيذ والزيت. وبعض هذه القرى تم التعرف عليه من خلال الكشوف الأثرية وبعض الأشكال الأخرى من المسح، حيث إن معظم هذه القرى كانت تقع إلى الشمال والشمال الغربى من المدينة.

تخطيط القرى

إن القرى الثلاث وهى قرية القبيبية، وألبيرة،والكروم تقع إلى الشمال والشمال الغربى من مدينة بيت المقدس، وداخل نصف قطر يبلغ خمسة عشر كيلو مترا. فقرية القبيبية تقع على الطريق بين بيت نوبا والنبى صموئيل، وعلى بعد حوالى اثنى عشر كيلو مترا من المدينة. فى حين تبعد قرية ألبيرة - والتى دخلت فى نطاق مدينة الرملة - حوالى ثلاثة عشر كيلو مترا من بيت المقدس. أما البقايا الأثرية غير المحددة لقرية الكروم فهى تقع إلى الجنوب الشرقى من النبى صموئيل فوق المنحدرات الجنوبية لأحد التلال، وعلى قمته توجد بقايا بهو منزل من أيام الفرنجة يعرف باسم خربة البرج.

ولقد كانت كل من قرية القبيبية، وألبيرة وربما قرية الكروم ضمن مجموعة القرى التى وهبها جودفرى البوايونى لكنيسة القبر المقدس، والتى أكدها بلدوين عام

١١١٤م وكلها تم تأسيسه فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، وفى ذلك الوقت كانت ضرورية لضمان أمن المملكة اللاتينية عن طريق تكثيف حركة الاستيطان فى الريف المحيط بمدينة بيت المقدس بواسطة رهبان الضريح المقدس وبعض ملاك الأراضى الآخرين فى المدينة. ولقد سقطت ألبيرة فى يد صلاح الدين عندما اقترب من مدينة بيت المقدس عام ١١٨٧م. إلا أنها سرعان ما عادت إلى ملكية الفرنج عام ١٢٤١م بناء على شروط المعاهدة التى منحت الفرنج الحق فى السيطرة على المنطقة من بيت حنينا إلى اللاطرون. ومع هذا فإن هذه السيطرة كانت قصيرة العمر، ذلك لأنه تم طرد الفرنجة عام ١٢٤٤م. وبلا شك فإن قريتى القبيبية والكروم قد شاركتاها نفس المصير.

أما عن الملامح الرئيسية الاستثنائية لهذه القرى وربما بعض القرى التى لم يتم الكشف عنها فى هذه المنطقة، أنها اتخذت نظام شارع القرية أو خطة الشارع المعروفة تماما فى مستوطنات العصور الوسطى فى الغرب الأوربى والتى كانت ظاهرة جديدة فى الشرق الأدنى، حيث يتم بناء المنازل على شكل صف واحد على جانبى الشارع الوحيد فى القرية، مع وجود مساحات ضيقة من الأرض تمتد خلف تلك المنازل. وفى قرية القبيبية، فإن الكنيسة، ومنزل صاحب الضيعة، والغرف الأرضية لحوالى تسع وعشرين منزلا تم الكشف عنها فى الحفريات التى تمت عام ١٩٤٠م. أما قرية ألبيرة فقد تم الكشف عنها فى أوائل عام ١٩٨٠م. وأجريت بعض الحفريات البسيطة فى مواسم عام ١٩٩٢م، ١٩٩٤م[٧] فى قرية الكروم، وتم تحديد معالم هذه القرى وبشكل أساسى من حيث طريقة البناء والتصميم لمبانيها. فالكنائس فيها طبق الأصل فرنجية على شكل الكنائس ثلاثية الأضلاع. ومنازل أصحاب الضياع كانت إما منازل ذات أحواش، أو ذات حواصل. كما أن المنازل الخاصة بالأشخاص كانت تختلف فيما بينها من حيث المساحة، والتى تراوحت ما بين أربعة أمتار إلى عشرة أمتار، والكثير منها ربما كان به مستودعان وبعضها كان به حجرات تحت الأرض. كذلك وجدت

الكثير من معاصر[٨] الزيت والنبيذ فى كثير من المنازل كدليل على الإنتاج الزراعى الرئيسى لهذه القرى.

المزارع ومراكز التجمع البشرية

إن المزارع والقرى كانت تدار بواسطة ملاك الأرض أو ممثلين عنهم، عاشوا فى منازل أصحاب الضياع الموجودة فى القرى أو فى المناطق الزراعية المجاورة. كما أن البقايا الأثرية لمراكز التجمع البشرية هذه أو منازل أصحاب الضياع تم العثور عليها على امتداد الريف لملكة بيت المقدس ولقد تزايدت أعدادهم فى المناطق المجاورة للمدن الكبيرة، وعلى وجه خاص حول بيت المقدس، بحيث يبدو أنه مع تحسن الأحوال الأمنية فى المناطق الريفية للمملكة، فقد اتسع دور المؤسسات الإدارية ليشمل الاهتمام الفعلى بالإنتاج الزراعى. وبعض هذه القرى احتفظت بالدليل الأثرى لمثل هذه الأنشطة.

وبعض هذه المبانى لديها إمكانيات للتخزين على شكل سراديب كبيرة كانت لها إيجارات وتفرض عليها ضريبة العشور التى كانت تجمع عينا على شكل حبوب، وزيتون، وكروم، وقطعان ماشية، أو بضائع مصنعة مثل الزيت، والنبيذ. هذه السراديب كانت أماكن صناعية لكثير من المنتجات الزراعية. وهكذا ففى الشمال من بيت المقدس كانت هناك العديد من الأفران والتى تم الكشف عنها. وفى قرية الكروم وقرية لفتا إلى الغرب من المدينة، وفى قرية جفنا إلى الشمال كانت هناك معاصر الزيتون، وتمت تربية الدجاج وبعض أنواع الدواجن الأخرى، وكذلك الأغنام والماعز. وكان الطابق العلوى لهذه المنازل هو محل إقامة المالك أو نائبه، وربما كان فناء منزله معدا لاستقبال الضيوف الوافدين إلى المنطقة.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الحادى عشر

(١) راجع: فرانكل، "الاعتبارات أو العوامل السياسية والاجتماعية"، ص٨ ربما كان هذا هو الحمام الذى تم الكشف عنه في الكشوف الأثرية التي أجريت داخل أسوار المدينة عام١٩٧٠م. انظر: ن أفيجاد، اكتشاف بيت المقدس، ص٢٥٠، وانظر: ص١٦٢ .

(٢) إن العهد الجديد غير واضح بهذا الخصوص أى فيما يتعلق بتحديد موقع ذلك الحدث، إذ يفهم منه تقريبا أن ستيفان طرد إلى خارج المدينة مع إشارات إلى رجم بالحجارة.

(٣) راجع الحاج المجهول (حوالي عام ٥٧٠) حيث يصف البازيليكا كما لو كانت واقعة بالقرب من بوابة القديس ستيفان والطريق المؤدى إلى الساحل: الشهيد المجهول، ص٢١ . وفى ذلك الوقت فإن بوابة المدينة الشمالية (بوابة دمشق حديثا) كانت تؤدى إلى الطريق إلى يافا: انظر: ويلسون، الفهرس١، كنيسة القديس ستيفان، مجموعة حجاج بيت المقدس، ج٤، ١٨٩٥، ص٨٥، حاشية رقم ١ .

(٤) وفقا لما ورد فى كتاب المدينة (ص٢٠٠) فإن المدخل الرئيسى لبوابة القديس ستيفان كان يؤدى إلى وسط مدابغ القدس، كما أن حى المدابغ كان به بوابة تؤدى إلى بوابة القديس لازار.

(٥) انظر: باهات، فى مقاله "القدس"، الجزء الثاني، الموسوعة الجديدة للحفريات الأثرية فى الأرض المقدسة، إشراف ستيرن، ٤ أجزاء، القدس، ١٩٩٣م، ص.٧٩٦ فإن القطع المائلة يبدو أنها تهيمن عل كثير من الآراء، إلا إذا جاء استخدامها كمصدر ثانوى. كما ظهر رأى يدعو إلى القول بأن بقايا أساسات أحد المبانى التى تم الكشف عنها فى أرض كنيسة نوتردام الفرنسية، إلى الشمال من البوابة الجديدة، وأنها ربما تخص مستشفى الجذام، انظر: وايتمان ١٩٩٩، ص٢٦٣، حاشية رقم ٢٣ . وعلى أية حال، ووفقا لما ذكره باهات، بأنه لا يوجد دليل واحد على أن هذا المبنى أحد مبانى العصور الوسطى، (تعليقات شخصية).

(٦) بريسك – بواتييه، أرقام ٣٦، ٤٢، ٤٥، الوثيقة، رقم ٧٤، الخريطة لهذه القرى انظر دينيس برنجل، "محمورية الكبرى" (ألبيرا)، الحفريات الأثرية لمدينة جديدة صليبية فى فلسطين"، وانظر: بيتر وادبيورى (الحملة الصليبية والاستيطان. أوراق مقدمة للمؤتمر الأول عن المجتمع لدراسة الصليبيين واللاتين فى الشرق، دراسات مقدمة إلى أرسميل، كاردف ١٩٨٥م، ص١٤٨، لوحة رقم١ .

(٧) الكشوف الأثرية لمجموعة من المنازل حول سوق ألبير، تم تنفيذها خلال فترة الانتداب البريطانى إلا أنها لم تنشر بعد. بينما نشر دينيس برنجل عددا من الدراسات المفصلة عن القرية، مبنية على مسح جغرافى

قام به المعهد البريطاني للدراسات الأثرية في القدس، برنجل ١٩٨٥م، الصفحات من ١٤٧-١٦٨ . بينما أجريت الكشوف الأثرية على قرية الكروم على يد ألكسندر أون عام ١٩٩٢م. وكذلك بواسطة أدريان بوس عام ١٩٩٤م، لحساب السلطات الإسرائيلية للآثار. انظر: ألكسندر أون، ويهودا ربوانو: "خربة البرج"، مجلة الكشوف الأثرية والمسح في إسرائيل، العدد ١٤، عام ١٩٩٤م، الصفحات من ٨٨-٩٠؛ أدريان بوس، "قرية صليبية تم الكشف عنها حديثا في راموت - آلون، القدس، ص٥٨٣-٥٩٠، وفي م. بالارد، جولة في الحملة الصليبية الأولى.

(٨) في مؤلف: هار هوزيفيم انظر: راز كليتر، "القدس، مجلة الكشوف الأثرية والمسح الجغرافي في إسرائيل، العدد ١٩، سنة ١٩٩٩م، الصفحات ٥٦-٥٨ . كما أن سليبسطا قد أجرى عدة حفائر تم فيها عمل الاختبارات السطحية ولم تطبع نتائجه. أما عن أكوا بللا فأنظر: دينيس برنجل، "أكوا بللا" : "ترجمة حوش مبني صليبي" في كتاب كيدار "قرون حطين"، ص١٤٧-١٦٧؛ دينيس برنجل "كنائس مملكة بيت المقدس الصليبية، الجزء الأول، كمبردج، ١٩٩٣م، ص٢٣٩-٢٥٠ .

* * *

الفصل الثانى عشر

الكنائس والأديرة

إن تدمير الكثير بل ومعظم الكنائس على يد الخليفة الحاكم بأمر الله فى بدايات القرن الحادى عشر الميلادى فتح مجالا خصبًا لبناء الكنائس، ويعد أحد أهم إسهامات الفرنجة المعمارية في مدينة بيت المقدس. إذ إنه وفقا لما يذكره برنجل Pringle فإن حوالى ستين كنيسة وديرا قد ورد ذكرها وتم بناؤها فى بيت المقدس زمن الحكم الصليبى. ومن الطبيعى أن تختلف حالات بناء هذه الكنائس من كنيسة لأخرى. فبالنسبة لكنيسة الضريح المقدس فإن الفرنجة استخدموا النمط الرومانسكى الذى كان شائعا فى مزارات الحج المسيحى فى أوربا، أما فى كنيسة الصعود فإنهم قلدوا التخطيط الذى كان عليه معبد الرب "مسجد الصخرة " ذا الثمانى زوايا والأضلاع، أى الشكل المثمن، أما كنيسة العذراء فقد نفذوا نظام الكنيسة ذات الطابقين العلوى والسفلى، وذات السرداب الصليبى الشكل الذى تم اتخاذه مدفنا، وفوقه كنيسة صغيرة لها قبة فى وسطها، أما كنيسة القديسة حنة أم السيدة مريم فقد كانت عبارة عن كنيسة صغيرة ذات جناح مستدير ولها قبة.

الكنائس الصليبية الكبرى

من بين كنائس مدينة بيت المقدس العديدة تلك الكنائس التى ترتبط بقصة حياة المسيح، أو السيدة مريم العذراء، أو الحواريين أو الأشخاص المقدسين، وهى كنائس

كانت تلقى كثيرا من التقدير والاحترام منذ أيام الإمبراطور قنسطنطين، والبعض الآخر من الكنائس مثل كنيسة معبد الرب قد حققت لها مكانة خاصة كأماكن مسيحية مقدسة فى ظل الحكم الصليبى فقط.

كنيسة الضريح المقدس

إن كنيسة الضريح المقدس تقع فى وسط مدينة بيت المقدس، وهى أهم مركز روحى للمسيحية، لما لها من مكانة عظيمة، وهى مركز مجهز لتدفق أكبر عدد من الحجاج المسيحيين عليها، مما كان من أهم الدوافع التى حركت الفرنجة لتنفيذ أهم مشروع بنائى فى القرن الثانى عشر الميلادى. وجدير بالذكر أن هذه الكنيسة شهدت طوال تاريخها كثيرا من أوجه التغيير، وذلك منذ أن أكمل الإمبراطور قنسطنطين كنيسته الكبرى حوالى عام ٣٣٥م، ثم فى عام ٦١٤م حينما قامت قوات الفرس بزعامة خسرو بتدميرها. إلا أنها سرعان ما أعيد بناؤها بعد ذلك بزمن قليل وبشكل مبسط على يد الراهب موديستوس **Modestus** من بيت المقدس.

وعلى الرغم من أن المسلمين قد فتحوا بيت المقدس عام ٦٣٨م، إلا أن هذه الكنيسة لم يمسسها السوء تحت الحكم الإسلامى. وفى عام ٩٣٥م فإن جزءا من مدخل الكنيسة تم الاستيلاء عليه وبنى مكانه مسجد عمر بن الخطاب. وفى عام ٩٦٦م وأثناء مقاومة إخلال المسيحيين بالأمن احترقت قبة الكنيسة. وعلى أية حال فإن الكنيسة ظلت سليمة حتى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٠٠٩م عندما أمر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بهدمها. ومع هذا فقد بقى الضريح المقدس، وبعض أجزاء من قبة الكنيسة، وبقايا بعض حوائطها وبعض آثارها المعمارية. وبعد وفاة الحاكم تم توقيع معاهدة بين الفاطميين والبيزنطيين تم بمقتضاها السماح للمسيحيين باستخدام الكنيسة، والتى كانت فى حاجة شديدة للإصلاح. وعلى أية حال، فإن إعادة بنائها لم يبدأ حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، كانت مساحتها

محدودة. وكان إعادة تشييد القبة المسماة الروتندا أهم مشروع تم تنفيذه، ويبدو أنه قد استكمل عام ١٠٤٧م، فعندما زار الرحالة الفارسى ناصرو خسرو بيت المقدس، ذكر أن الكنيسة كانت قد اكتملت وتم تزيينها، علما بأن عملية إعادة البناء هذه قد تم تنفيذها بكثير من المبالغ التى تبرع بها الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين التاسع مونو ماخوس. وآلت ملكية الكنيسة للفرنجة عندما ظهروا على مسرح الأحداث السياسية فى شهر يوليو ١٠٩٩م، بما فى ذلك الروتندا بسقفها المخروطى الشكل والأجزاء الشمالية منها نصف الدائرية وكذلك الغربية والجنوبية، والكنيسة الجديدة إلى الشرق. وإلى الشرق منها قليلا كانت توجد ردهة تؤدى إلى ثلاثة كنائس أخرى، والموضع الذى صلب فيه المسيح فى الركن الجنوبى الشرقى. كما كان يوجد ثلاثة كنائس أخرى جنوب الروتندا والمدخل المؤدى الآن إلى الرواق الواقع عند مدخل المبنى وفناء الكنيسة جهة الجنوب.

وبالرغم من أهمية المشروع لدى رجال الدين والقادة العلمانيين، والحاجة إلى إعداده لمواجهة الأعداد المتزايدة من الحجاج المسيحيين، فإن عمليات البناء لم تأخذ مجراها الطبيعى فترة الحروب الصليبية حتى القرن الثانى عشر الميلادى. ففى عامى ١١٠٦ - ١١٠٧م وصف الراهب دانيال الروسى الكنيسة بأنها كانت مستديرة وتحتوى على اثنى عشر حجرا ضخما على شكل عمود، وستة من الأعمدة مكسوة بألواح من الرخام فائق الجمال، والأروقة وستة عشر عمودا، وتحت السقف وفى أعلى الأروقة تم رسم صور للحواريين بالموزايكو وكأنهم على قيد الحياة، بينما تم تصوير المسيح فى عدة أشكال حول المذبح بالموزايكو كذلك. كما أن قبة الكنيسة لم يتم غلقها بعقد حجرى، ولكن تم تزيينها بإطار من العوارض الخشبية، مما جعل الكنيسة مفتوحة فى أعلاها.

كما وصف الراهب دانيال الروسى كنيستى الجلجثة والصعود بأنهما منفصلتين ومزخرفتين بالموزايكو. وكتب فريتللوس **Fretellus** فى العقد الرابع من القرن الثانى

عشر فى وصفه للكنيسة بأنها مستديرة.. ولها أربعة أبواب، لكنه لاحظ : "أنه خارج هذا، وفى مكان مواجه لشروق الشمس، هناك المكان الذى وجدت فيه القديسة هيلينا الصليب المقدس، وحيث كان يتم بناء كنيسة ضخمة " مما يعد أول مصدر مبكر عن بناء كنيسة جديدة. وعلى الخرائط المستديرة يوجد النموذج الأصلى والذى ربما تعرفنا منه على تاريخ هذه الفترة، حيث تظهر الروتندا كمبنى منعزل، مع المواقع الأخرى والتى تضمنتها الكنيسة فيما بعد، والتى لا تزال تقع خارجها إلى الشرق. أما خريطة كمبراى والتى يرجع تاريخها إلى منتصف عام ١١٦٠م، تظهر فيها صورة الكنيسة فى شكلها النهائى، تتضمن برج الجرس الذى تم بناؤه بعد المكان المخصص لجوقة المرتلين والذى كان قد اكتمل بناؤه.

وما فعله الفرنجة هنا يعد شيئا جديرا بالملاحظة حقا، ذلك أن كنيسة الضريح المقدس كانت ذروة ما تم التوصل إليه فى كنيسة للحج المسيحى، ولقد اختار الفرنجة أن يبنوها على طراز كنائس مزارات الحج الرومانسكية والتى تم بناؤها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على طول الطريق من فرنسا إلى كنيسة القديس يعقوب فى كومبستيلا فى شمال شرقى إسبانيا. حيث اشتركت كل من كاتدرائية تورز، وليموج، وكونكى، وتولوز وكاتدرائية القديس يعقوب نفسها فى ملامح خاصة جعلتها مختلفة تماما عن الكاتدرائيات الرومانسكية الأخرى. وهى الأجنحة الواسعة المفصولة بصف من الأعمدة عن الصحن والأجنحة المتساوية أو ربما قريبة التساوى مع الأجنحة الجانبية، والممشى المسقوف والكنائس ذات القطر المتساوى وذات أنصاف الدوائر، والكنائس الإضافية على الحوائط الشرقية لجناح الكنيسة. ولقد كان التصميم نموذجيا ومناسبا لموقع مهم من مواقع استقبال الحجاج وهو كنيسة الضريح المقدس؛ مما سمح لأعداد كبيرة من الحجاج المسيحيين بالحركة فى أنحاء الكنيسة دون إزعاج الرهبان وبخاصة عند قيامهم بالتراتيل فى المكان المخصص لجوقة التراتيل، ووفر لهم العديد من المداخل الموصلة إلى الكنائس المختلفة فى جناح الكنيسة والممشى المسقوف بدرجة

تسمح بأداء عدة صلوات في وقت واحد. أما العائق الوحيد فقد كان متمثلا فى المنطقة ما بين الروتندا والمسافة الواقعة إلى الشرق حيث يوجد العديد من الأماكن المقدسة الأخرى. ولأنه كان من المتعذر التحرك بعيدا عن الروتندا، فإن مهندسى المبانى بدلا من أن يجدوا الحل فى صحن الكنيسة وأروقتها. وباختصار، فإن المبنى الجديد المخصص لجوقة المرتلين والذى بناه الفرنجة مباشرة أمام الجانب الشرقى من الروتندا كان فى الحقيقة الجناح المفصول عن صحن الكنيسة بصف من الأعمدة.

وكما سبقت الإشارة، فإن بناء الجزء المخصص من الكنيسة لجوقة المرتلين كان العمل فيه جاريا عندما وصف فريتللوس الكنيسة عام ١١٣٠م. فبعد ذكره للكنيسة المستديرة للضريح المقدس، ذكر أن كنيسة كبيرة كانت تحت الإنشاء، وأن المدخل المؤدى إلى مكان جوقة المرتلين كان فى الجهة الجنوبية المؤدية إلى فناء الكنيسة البيزنطية بمدخله تحت القنطرة. وهنا فقد بنى الفرنجة مدخلا مزدوجا فى واجهة الكنيسة ذا عناصر مزدوجة من الفن الرومانسكى والزخرفة المحلية. وقد تم تنفيذه بين المبنى الفخم والباب الذهبى أو البوابة الإسلامية الذهبية والتى كانت بناء مثيرا.

هذه البوابة الرئيسية بالنسبة للكنيسة كانت معروفة بأنها بوابة مكان صلب المسيح. يليها من جهة الغرب برج الجرس المكون من خمسة طوابق فى أعلاه القبة كثيرة الأضلاع(١). ويبدو أن برج الجرس، وكما يبدو، قد أضيف كفكرة تخطر فى البال فيما بعد، ذلك لأنه يعوق أحد الشبابيك من أن يفتح، كما أنه يقطع إفريزا مزينا فى الواجهة الغربية من المدخل. وربما لم يتم بناؤه فى وقت متأخر تماما ذلك أن دى فوجيه **De Vogue** يفترض أن بناء الواجهة قد كان بين عامى ١١٤٠-١١٦٠ م وأن بناء برج الجرس يرجع إلى عامى ١١٦٠م -١١٨٠م. وعلى أية حال، فقد ورد ذكره عند الجغرافى المسلم محمد الإدريسى عام ١١٥٤م. حيث تم تشييد مدخل مسقوف جديد يوصل إلى الروتندا فى شارع البطريرك من جهة الغرب. ووفقا لما ذكره الإدريسى : "فيدخل من باب فى غربها فيجد الداخل نفسه فى وسط القبة التى تشتمل على جميع

الكنيسة وهى من عجائب الدنيا، والكنيسة أسفل ذلك الباب ". بينما جاء فى كتاب وصف المدينة أن هناك :" بابًا فى شارع البطريرك عن طريقه يمكنك الدخول إلى كنيسة الضريح، ولكنه ليس الباب الرئيسى ". هذا المدخل مغلق الآن، لكن يمكن رؤيته وله نفس المسند ذى الحلية المعمارية البارزة التى على نفس المداخل الجنوبية، وعلى كل جانب من جوانبه صف من الأعمدة المحلاة بالنقوش الكورنثية. وربما تم استخدامه فقط فى الوصول إلى أروقة القبة العلوية، ذلك لأن مستوى ارتفاع الشارع هنا يصل إلى حوالى تسعة أمتار فوق سطح الأرض. حقا، إنه من عبارة الإدريسى يتضح أن هذا الباب يساعد على حرية الدخول إلى مستوى أعلى فى القبة أكثر من الدخول إلى الطابق الأرضى لأنه يقول :إن الكنيسة نفسها "أسفل ذلك الباب، ولا يمكن لأحد النزول إليها من هذه الجهة ". كما يذكر الإدريسى بابًا ثانيا إلى الشمال : "ولها باب فى جهة الشمال ينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة ويسمى هذا الباب باب شنت (القديسة) مرية ".

ولقد كُتب الكثير والكثير عن التغيرات التى حدثت خلال فترة الحروب الصليبية بالنسبة لغرفة الضريح والتى تعد واحدة من أهم المقدسات المسيحية فى الكنيسة(٢). وهناك كثير من الأوصاف التفصيلية فى المصادر المدونة، وعلى المسكوكات، والقوارير، والعديد من الأشياء الأخرى؛ وإن لم يقدر للبناء الفعلى البقاء(٣)، إذ يذكر الراهب دانيال الروسى بعضا من الزخارف المبكرة التى تمت فى غرفة الدفن فى القرن الحادى عشر الميلادى، وعن وجود فرن جديد لصهر المعادن، أمكنه صهر الفضة المعمرة التى صنع منها تمثال المسيح. كما يتضح من وصفه أن الحاجة لحماية ما تبقى من الضريح الأصلى كانت وراء وصفه التصويرى لما حدث أثناء زيارته للقبر، فبعد أن أخذ مقاساته كتب يقول : إن حارس القبر المقدس عندما أدرك مدى محبتى للضريح المقدس، فإنه نزع جزءا من لوح يغطى جزءا من القبر المقدس حيث يوجد رأس المسيح، وقطع قدرا صغيرا من الصخرة، وأعطانى ذلك كذكرى طيبة، متوسلا إلىّ ألا أذكر شيئا عن ذلك

طالما كنت فى مدينة بيت المقدس. ويبدو أن هذا السلوك كان معتادا فى العصور الوسطى، ولهذا تمت كثير من الإجراءات لمنع هذا الدمار. ففى عام ١١١٩م تمت تغطية القبر بقطع من الرخام، مثل بعض الأماكن الأخرى المهمة بالنسبة للحجاج المسيحيين، مثل قبر مريم العذراء. أما بقايا الضريح المقدس للمسيح فقد تمت إحاطته بسياج حجرى به ثلاث فتحات يمكن من خلالها رؤيته. هذا السياج يمكن رؤيته فى التصاوير المعاصرة[٤]، مثل ظهر ختم البطريرك وليم الأول بطريرك بيت المقدس (١١٣٠م - ١١٤٥م). كما تم تزيين مدخل غرفة الضريح بالموزايكو الذى وصفه ثيودريك عندما ذكر أن كل المدخل المؤدى إلى الكنيسة زُخرف بمناظر ورسومات من الموزايكو.

وعندما استرد صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس ربما هدم الضريح، فوفقا لما جاء فى الذيل على وليم الصورى لروثلين، فإن المسلمين ألقوا بإطار الرخام الذى كان يحيط بالضريح المقدس للمسيح وأخذوا الأعمدة المزخرفة التى كانت أمامه وأرسلوها إلى مكة كدليل على النصر. وإن كان هذا المصدر لا يمكن الاعتماد عليه فى كثير من الأحيان ؛ لأنه يذكر أن الضريح المقدس قد تم هدمه أو إتلافه على الأقل. إلا أن هناك بعض الأدلة على أن الفرنج أنفسهم قد كان لهم يد السبق فيما قد يكون قد حدث من تلف. فوفقا لما ذكره عماد الدين الأصفهانى، فإن بطريرك بيت المقدس اللاتينى قد جمع قبيل مغادرته المدينة كل ما كان موجودا فوق الضريح المقدس، من صفائح ذهبية، وكل ما هو مصنوع من الذهب والفضة وحمله معه.

أما الموقع المقدس الثانى فى الكنيسة فهو كنيسة الصعود. ذلك أن شهرة جبل الصعود كانت قد ازدادت فى العصور الوسطى وخصوصا عند إخلاء المناطق العسكرية من سكانها أو إعادة إسكانهم حسبما جاء فى القصص التوراتى وخصوصا قصة تضحية إسحق. وفى ذلك يقول الرحالة سايولف :

بعد ذلك صعدنا جبل الصعود، حيث قام البطريرك إبراهام بوضع المذبح، وحاول التضحية بابنه وفقا لأوامر الإله، وهناك فإن ابن الرب أعاد تصوير نفس المشهد، عندما ضحى بنفسه لإرضاء الأب من أجل خلاص العالم.

وعلى العكس من القبر المقدس، فإن كنيسة الصعود قد قدر لها البقاء سليمة باستثناء الموزايكو الذى بقيت منه بعض البقايا إلا أنها على مستوى فنى رفيع. وهناك بعض الإضافات القديمة والحديثة التى أجريت على هذا المبنى والتى قد أخفت تماما النقوش التى وجدت على الجهة الشرقية من الواجهة منذ عام ١١٤٩م. فالمدخل الرئيسى لكنيسة الصعود من عند فناء الكنيسة وحتى الدرج الخارجى، والكنيسة الفرنجية الجميلة على الجانب الشرقى من الواجهة قد تم إغلاقهما، ربما على يد صلاح الدين. كما يوجد درجان حديثان يسمحان بازدواجية حركة المرور فى هذا الموقع المهم، حيث تمت إضافتهما إلى الجهة الغربية من الكنيسة.

كما قام الفرنجة ببناء كنيسة ذات طابقين بضم كل من الجلجثة والصعود فى كنيسة واحدة، هذه الكنيسة تشغل النصف الشرقى من المنطقة الجنوبية من جناح كنيسة الصعود، وتتكون من أربعة سراديب رئيسية ذات عقود. ومن أسفل كنيسة الصعود، فى كنيسة آدم، فإن الصخرة المنكسرة للجلجثة يمكن رؤيتها. وأى حاج مسيحى يدخل الكنيسة بوسعه أن يتنقل من كنيسة إلى أخرى فى سهولة ويسر، حيث ينهى رحلة حجه عند الضريح المقدس. وعند الجلجثة فإنه يترك الصليب الذى يحمله طوال رحلته، كدليل على إنهاء واستكمال رحلة حجه. ويذكر ثيودريك أنه رأى على الجلجثة مقادير كبيرة من الصلبان التى أحضرها الحجاج المسيحيون معهم والتى سيقوم حراس كنيسة الصعود بإحراقها فى عيد الفصح.

وعلى طول الممشى المسقوف بين الكنيستين الشرقية والغربية، هناك درج عريض يؤدى إلى كنيسة القديسة هيلينا، وهى كنيسة مربعة ذات قبة. وفى جهة الشرق منها هناك جزءان على شكل نصف دائرى، وفى الجزء النصف دائرى الجنوبى هناك درج آخر يؤدى إلى أسفل حيث الكهف المعروف بالكهف الذى تم العثور فيه على الصليب المقدس. بل وتبعا لبعض الروايات فقد عثر فيه على التاج الشوكى، والشاكوش والمسامير التى تم استخدامها فى عملية الصلب. ويقال إن الذى عثر عليها

أم قنسطنطين، هيللينا. وهنا يوجد الجزء النصف دائرى الجنوبى الثالث وإن كان تخطيطه مختلفًا بعض الشيء وأبعد إلى جهة الشرق قليلا من الجزعين السابقين فى المستوى العلوى.

وفى عام ١١٨٧م وعندما استرد صلاح الدين الأيوبى مدينة القدس فإنه تجاهل تماما رغبة بعض الأمراء فى هدم الكنيسة، ذلك لأنه كان مدركا مدى قداسة المكان وليس المبنى المقام عليه، وذلك الذى كان يجذب المسيحيين كنوع من التوقير له. وقد أمر بإغلاق الكنيسة تاركا أمر مصيرها للقدر. كما أنه أحل رجال الدين الروم محل رجال الدين اللاتين. وقد قام بعمل بعض التغيرات الطفيفة التى تحد من دخول الحجاج المسيحيين إلى الكنيسة. وربما تم فى ذلك الوقت غلق المدخل الشرقى المؤدى إلى رواق القبة من شارع البطريرك. وربما أزال أيضا الأجراس من برج الأجراس.

معبد الرب قبة الصخرة

كان يُنظر دائما إلى كنيسة الضريح المقدس نظرة أفضل من غيرها من الكنائس الأخرى الصليبية، وذلك بسبب أهمية الأحداث التى جرت فيها. وربما كانت النظرة إلى كنيسة معبد الرب (قبة الصخرة) تأتى فى المقام الأول بين الكنائس الأخرى. ولهذا تم رسمها باستمرار فى خرائط العصور الوسطى لمدينة بيت المقدس، كما تم تصويرها أو رسمها على الأختام الملكية لملوك بيت المقدس جنبا إلى جنب كنيسة الضريح المقدس وبرج داود (القلعة) وتم وصفها بكثير من التفصيل فى الروايات المعاصرة. فهذا هو الراهب الروسى دانيال يصف المبنى قبل سنوات قليلة من تنفيذ الفرنجة للتغييرات البارزة التى أحدثوها فيقول : إن كنيسة قدس الأقداس قد تمت زخرفتها بطريقة فنية رائعة بالموزايكو، لدرجة أن جمالها لا يمكن وصفه. فهى مستديرة فى الشكل، والأجزاء الخارجية منها مغطاة بالتصاوير والرسوم الرائعة بحيث لا يمكن لأى أحد أن يدرك

مدى جمالها، فالحوائط مثلها مثل الأرضيات مغطاة بألواح من الرخام الثمين. وتحت السقف هناك دائرة من الأعمدة ذات الأحجار الضخمة، وثمانية أعمدة أخرى عالية. كما أن لها أربعة أبواب مغطاة بصفائح من الفضة(٥). كما أن داخل القبة مزخرف برسوم رائعة التصميم من الموزايكو الجميل.

وبمطابقة المكان المقدس الأموى على جبل المعبد بالمعبد التوراتى، فإن الفرنجة كانوا قانعين بترك هذا المبنى الإسلامى المقدس سليما بعد احتلالهم للمدينة عام ١٠٩٩م(٦). وبعض الفرنجة يبدو فعلا أنه قد اعتقد أن المبنى كان حقا هو المعبد اليهودى. والبعض الآخر فضلوا أن يتجاهلوا الدليل على أنه مبنى إسلامى أصلا، إذ ضاعت منه بعض الأجزاء عند تحويله من قبة للصخرة إلى كنيسة. وعلى أية حال فإن أصول هذا المبنى كانت معروفة لدى بعضهم حيث كتب فولشر الشارترى يقول : فى هذه المدينة يوجد معبد الرب، وهو مبنى مستدير، فى المكان حيث بنى سليمان فى زمن سابق واحدا من أكثر المبانى روعة. على الرغم من ذلك فليس من الحكمة أن نقارن هذا المعبد بذلك المعبد السابق، حتى ولو كان أكثر جمالا وتم تنفيذه بصنعة عجيبة(٧).

كما كتب الراهب دانيال الروسى يقول : إن كنيسة قدس الأقداس القديمة قد تم تدميرها. ولم يتبق أى شىء من المبنى القديم الذى بناه سليمان باستثناء الأساسات الأصلية للمعبد والتى بدأ النبى داود فى وصفها. فالكهف والحجارة التى أسفل القبة هى البقايا الوحيدة من المبنى القديم، أما بالنسبة للكنيسة الحالية، فقد تم بناؤها على يد أحد زعماء المسلمين يدعى عمر. والبعض الآخر -مثل أول رئيس للمعبد وهو أركارد من أروياس- يعتقد أن معبد الرب قد تم بناؤه على يد أحد الأباطرة البيزنطيين.

وإنه لمن الضرورى أن نذكر بعض التغييرات الضرورية لكى نعطى المبنى صفة مسيحية ولحمايته من الأعداد المتنامية من الحجاج المسيحيين ورغبتهم المتزايدة فى الحصول على بعض الذخائر المقدسة. هذا العمل بدأ حوالى عام ١١١٤م - ١١١٥م

واستمر أكثر من عدة سنوات. ذلك أن التغييرات تتضمن تغطية الصخرة بشرائح من الرخام وإغلاقها بسياج حديدى وضع حولها. هذه الإجراءات تم اتخاذها ليس فقط لوضع حد لنزع قطعة من الصخرة على يد الحجاج المسيحيين ونقلها إلى بلادهم، بل من الواضح أن ذلك قد تم لأسباب تتعلق بالجمال حيث يقول فولشر الشارترى : أكثر من هذا هو أن هذه الصخرة التى تميز معبد الرب قد تمت تغطيتها بالرخام المصقول. وتم وضع مذبح وزوجين من الشمعدانات الحديدية فوق الرخام المصقول(٨). ويذكر ثيودريك مذبحا عند مدخل جوقة المرتلين التى تم تكريسها للقديس نيقولا. ولقد تمت زخرفة داخل المبنى بالفريسكو، بما فيها صورة تمثل رؤيا يعقوب عند البقعة المقدسة، وصورة المعبد الآخر، وكذلك النقوش اللاتينية. وقد تم رفع صليب كبير فوق القبة، على الرغم من أن هذا الصليب لم يتم ذكره فى المؤرخات التى جاءت قبل يوحنا الورزبرجى (حوالى ١١٦٠م) ومن المحتمل جدا أن يكون ذلك قد حدث فى فترة مبكرة. وبهذه الإجراءات فإن المبنى قد تم تحويله فعلا إلى كنيسة. وتم تكريسه رسميا فى اليوم الثالث بعد عيد الفصح عام ١١٤١م على يد المندوب البابوى ألبريك كاردينال أوستيا وبمساعدة البطريرك أيمرى من ليموج، وبعض الأساقفة.

ولقد وصف المقدسى قبة معبد الرب "قبة الصخرة" فى القرن العاشر الميلادى على أنها مكسوة بالنحاس الأصفر. وعلى أية حال فإن كلا من وليم الصورى ويوحنا الورزبرجى قد ذكراها على أنها مكسوة بالرصاص. وربما كان هذا الإجراء تعبيرا عن نوايا الفرنجة عند إعادة بناء كنيسة الضريح المقدس لعمل توازن بين المكانين المقدسين فى المدينة، وهما جبل المعبد والضريح المقدس عن طريق الإعلاء من شأن الأخير، والتقليل من أثر رؤية الأول إلى حد ما، وتحقيق نوع من التكافؤ بينهما. وليس من المستغرب أن يعاد تغطية القبة مرة أخرى تحت حكم صلاح الدين.

ومنذ عام ١١١٢م بدأ تدفق الرهبان الأوغسطيين على الكنيسة، وفى مرحلة ما ليست ببعيدة فقد سكنوا فى دير لهم قد تم بناؤه على جزء من الرصيف الشمالى.

ولا نعرف شيئا عن المبانى الدينية لهؤلاء الرهبان والتى أزالها تماما صلاح الدين. حيث كتب يوحنا الورزبرجى أن الجانب الأيسر من الرصيف قد ضاق بسبب تشييد الرهبان ديرا لهم عليه. ويصف لنا الإدريسى الحدائق وغرف النوم فيقول : "ويقابل الباب الشمالى (من قبة الصخرة) بستان حسن مغروس بأنواع الأشجار ودائر هذا البستان أعمدة رخام مضفورة بأبدع ما يكون من الصنعة وفى آخر البستان مجلس برسم الغذاء للقسيسين والمدرجين..".

ولقد لاحظ ثيودريك أن هذه الممتلكات، بالإضافة إلى أملاك فرسان المعبد كانت تشغل جانبين من الفناء الخارجى لجبل المعبد حيث بنى فرسان الداوية والرهبان العديد من المنازل وزرعوا الحدائق.

وفى عام ١١٨٧م، وفى أعقاب الفتح الأيوبى، عادت قبة الصخرة إلى حوزة المسلمين، وتم نزع صليب الذهب من على القبة، وتم سحبه على طول الشوارع إلى برج داود، حيث تم صهره. كما أزيل المذبح والإطار الرخامى من فوق القبة وتم طمس صور الفريسكو.

كنيسة القديسة مريم فوق جبل صهيون والسيناكل

كانت كنيسة القديسة مريم فوق جبل صهيون من الكنائس المهمة فى بيت المقدس زمن الحكم الصليبى، هذه الكنيسة والدير الملحق بها كانا رمزا لما جرى من أحداث مهمة وبخاصة ما يتعلق منها بالعشاء الربانى الأخير. وفى هذا المكان ظهر المسيح لتلاميذه بعد عملية الصلب، حيث أبان لتوماس جراحه، وحيث ماتت مريم العذراء. وهنا أيضا توجد قبور كل من داود وسليمان وقبر القديس ستيفان. وكانت كنيسة القديسة مريم فوق جبل صهيون إحدى الكنائس الكبيرة تحت الحكم البيزنطى. ولقد تم بناؤها الأصلى أواخر القرن الرابع الميلادى أو أوائل القرن الخامس الميلادى على يد

أحد أساقفة بيت المقدس "إما مكسيموس أو يوحنا الثاني ". وترجع أهميتها فى الفترة البيزنطية إلى تلقبها بلقب "أم الكنائس". فقد أتى الفرس على مبانيها عام ٦١٤م، وتمت إعادة بنائها على يد موديستوس. وفى القرن الحادى عشر الميلادى كانت كنيسة القديسة مريم قد تحولت إلى أنقاض، وربما تم تدميرها فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله. وعندما تم بناء أسوار المدينة فى أعقاب زلزال عام ١٠٣٣م، ربما تمت الاستفادة من أحجار الكنيسة المهدمة والتى كانت خارج المدينة فى عمليات إعادة بناء الأسوار. وجدير بالذكر أن كنيسة القديسة مريم هذه قد أعيد بناؤها أيام الفرنجة فى العقود الأولى من القرن الثانى عشر الميلادى، حيث استخدم فى بنائها الكثير من أحجار الكنيسة البيزنطية ومن جدران كنيسة إيودوكيا المهدمة الحوائط. ولقد جاء ذكر الكنيسة الأغسطينية وكنيسة العشاء الربانى الأخير عند المؤرخ فريتللوس حوالى عام ١١٣٠م. وقد بلغت مساحتها ٧٢ مترا ×٦٢ مترا، بحيث كانت ثانى أكبر كنيسة فى بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى. ولقد ناداها فوكاس باسمها التقليدى (أم الكنائس) ولاحظ أنها كانت ذات حجم كبير، ولها سقف معقود. وفى وصفه للموقع الأثرى المسيحى فإن فريتللوس كتب يقول : جهة الشرق، يوجد المكان حيث ظهر المسيح بعد ثمانية أيام من قيامه، وحيث كانت الأبواب مغلقة، فظهر لتلاميذه، وحيث كان توماس أيضا حاضرا قائلا لهم : السلام عليكم، وأظهر لهم يديه وجنبه، وطلب منهم أن يلمسوها، ويذكر الحواريون ذلك، كما ظهر فى أعلى هذا المكان وحيث يمكنك الصعود فوق عدة سلالم إلى المكان الذى تناول فيه مع تلاميذه العشاء الأخير.

ولقد ذكر وجود مائدة وهى التى كان الحجاج المسيحيون يشاهدونها على أنها فعلا المائدة الحقيقية. ومن المحتمل أن يكون ذلك تصوير للفريسكو أو الموزايكو، ولكن من خلال ما تم ذكره فى بعض المصادر أنهم فعلا كانوا يشاهدون مائدة حقيقية. فوصف ثيودريك لها يعد مماثلا لما سبق ذكره، فقد كتب يقول إن الكنيسة كانت لها قبة، ولها حوالى ثلاثون درجة سلم فى نهاية الجزء نصف الدائرى يؤدى إلى غرفة

العشاء الأخير، حيث يمكن رؤية مائدة العشاء الأخير. وفى الحجرة السفلية منها هناك وعاء حجرى حيث غسل المسيح أقدام تلاميذه الحواريين، وإلى اليمين يوجد مذبح يدل على المكان الذى لمس فيه توماس جراح جنب المسيح، وفى حجرة داخلية أخرى هناك مذبح أقيم فوق قبر القديس ستيفان، ولقد لاحظ ذلك المؤرخ ريموند الأجويليرى. وإلى جانب قبر القديس ستيفان كانت هناك قبور كل من داود وسليمان فى الكنيسة، فى حين لم تذكر المصادر الأخرى شيئا عن القبور الملكية، باستثناء بنيامين التطيلى، الذى يذكر وبشكل تخيلى رائع ومسلٍ فى نفس الوقت كيف أن القبور الملكية القديمة قد تم اكتشافها، ومعها تاج ذهبى وصولجان، وذلك عندما انهار أحد جدران الكنيسة.

ولقد كانت كنيسة القديسة مريم مثل معظم الكنائس الصليبية كنيسة مثلثة الأضلاع، حيث لاحظ ثيودريك أن الكنيسة كانت (جيدة التحصين وذات أسوار، وأبراج، ذات شرفات لإطلاق النيران على هجوم الأعداء). ويقول الإدريسى إنها كنيسة جميلة، قوية التحصين. ويذكر فوكاس أيضا التحصينات مؤكدا أن الكنيسة كانت داخل قلعة، وأن دفاعاتها كانت مهمة بسبب موقعها خارج أسوار المدينة. هذا النوع من الكنائس المحصنة يمكن رؤيته حاليا فى كنيسة صموئيل. ولقد أضاف فوكاس بعض التفاصيل الأخرى عندما قال : عندما يدخل الإنسان البوابات الجميلة، يجد على يساره منزل القديس يوحنا الإنجيلى، حيث كانت تسكن العذراء المبجلة بعد عملية الصعود، وحيث راحت فى سبات عميق. فى ذلك المكان توجد صومعة صغيرة محاطة بسياج حديدى، وحيث توجد كتلتان حجريتان فى الموقع الذى أسلمت فيه العذراء روحها لابنها ولله. وفى الجهة اليمنى من الكنيسة، وإلى الجهة اليمنى من المذبح، هناك غرفة علوية، لها سلم مكون من إحدى وستين درجة يؤدى إليها. هذه الكنيسة لها أربعة أقواس وقبة. وفى الجانب الأيسر من الغرفة العلوية ربما يمكن رؤية المكان الذى شهد العشاء الربانى، وفى الجزء الناتئ من الكنيسة نزل الروح القدس على الحواريين. وفى

الجزء السفلى من هذه الكنيسة حدث غسل أرجل الحواريين، وفى مواجهة هذا المكان توجد كنيسة فى الموقع الذى دخل منه المسيح على الحواريين، على الرغم من أن الأبواب كانت مغلقة. وهناك يرقد القديس ستيفان بعد قذفه بالحجارة وقد استشهد. ثم تم نقله إلى مكان آخر.

والشيء المثير وغير المعقول هو تصوير الكنيسة فى الخرائط المستديرة لمدينة بيت المقدس، بحيث يظهر عليها مبنيان منفصلان فوق جبل صهيون : كنيسة القديسة مريم والسناكل أى كنيسة العشاء الربانى الأخير(٩).

وبعد عام ١١٨٧م تم تعيين الملك العادل أخى صلاح الدين حاكما على بيت المقدس، وقد جعل مقر حكمه فى الدير، كما أن الكنيسة وعلى ما يبدو لم يقدر لها البقاء. ويبدو أن حجارتها قد استخدمت فى إعادة بناء الدفاعات التى نفذها الملك العادل. على الرغم من أنه جاء فى كتاب "وصف المدينة" أن كنيسة مريم المبجلة – وحيث تناول المسيح العشاء الأخير مع تلاميذه كانت موجودة، وربما كان ما ذكره يقصد به السناكل وليس كل الكنيسة. بالإضافة إلى أن كتاب "وصف المدينة" يصف الكنيسة وأنها كانت مدمرة، حيث يقول : "لقد كانت هناك كنيسة كبيرة، وهى التى تم تدميرها، وحيث ماتت السيدة مريم وعند ذلك حملها الحواريون إلى وادى يهو شافاط ". وباختصار، فإنه يبدو أن كنيسة القرن الثانى عشر الميلادى والتى حلت محل الكنيسة البيزنطية المتهدمة كانت نفسها قد تم تدميرها على يد الأيوبيين وحلت محلها كنيسة صغيرة وهى التى ضمت الغرفة التى شهدت العشاء الأخير.

والحقيقة أن السناكل يعد شيئا محيرا أو لغزا، ذلك أن الطابق الأول منه قد بنى على النمط الفرنسى القوطى، وهو المبنى القوطى الوحيد من العصور الوسطى فى مدينة بيت المقدس. وهذه الحقيقة تؤدى بنا إلى بعض التضارب فيما يتعلق بتاريخ بنائها. إذ يذكر هيو بلومر **Hugh Plommer** أن استخدام قطع منفردة من الصخور، كثيرة الأضلاع فى أعلى الأعمدة مع الزخارف يعد دليلا إما على تاريخ متأخر نوعا ما

"على سبيل المثال حوالى عام ١٢٠٠م "، أو كدليل على أن المبنى قد تم بناؤه فى فترة مبكرة ولكنه كان مبنى سابقا لعصره. بينما يذكر إنلارت أن تاريخ البناء "أو حتى إعادة البناء" قد كان بعد عام ١٢٣٩م. ويزعم أن كنيسة القديسة مريم فوق جبل صهيون والسناكل قد تم تخريب أعمدتهما ما بين ١١٨٧م و ١٢٢٩م ولهذا فإن المبنى لابد وأن يكون قد أعيد بناؤه على يد فردريك الثانى، على الرغم من أنه يصرح بأنه لا يوجد أى دليل معاصر على عملية تخريب الأعمدة. ويفترض بلومر أن كنيسة القديسة مريم إن كان قد تم تدميرها على يد الخوارزمية فإن ذلك متعذر الدفاع عنه. إلا أن دى فوجيه يفترض أن كنيسة السناكل القوطية قد تم بناؤها فى القرن الرابع عشر الميلادى. وفى عام ١٣٤٢م صدر عن البابا كليمنت السادس قرار بوضع المكان تحت أيدى جماعة الفرنسيسكان. وكدليل خاص على الأسلوب المعمارى المتبع، والملاحظ عند المقارنة بالجناح الشرقى من كانتربرى والذى يرجع تاريخه إلى ١١٧٤م – ١١٩٠م، فإن بلومر يفترض تاريخا للبناء يرجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى "وعلى سبيل المثال قبل عام ١١٨٧م".

وجدير بالذكر أن كنيسة السناكل بها جناحان، كل واحد منهما عبارة عن ثلاثة أضلاع من المبانى ذات عقود تبلغ مساحة الواحد منها ٥×٥ أمتار. وعلى هذا الأساس فإن الفناء كانت مساحته تبلغ ١٠× ١٥ مترا ". من الواضح أنه أكبر، ذلك لأن الحوائط عند كل ركن هى عبارة عن إضافات متأخرة". كما أن ارتفاع العقد عند رأسه حوالى ٦ أمتار.

كنيسة الصعود

تعد كنيسة الصعود إحدى الكنائس الرئيسة الواقعة خارج أسوار مدينة بيت المقدس فوق جبل الزيتون. وهو الموقع التراثى حيث صعد المسيح إلى السماء بعد عملية

الصلب. ولقد قام الفرس عام ٦١٤م بتدمير كنيسة بيزنطية مستديرة البناء كانت تقع على قمة جبل الزيتون. وتحت الحكم الصليبي تم بناء كنيسة جديدة في نفس الموقع وذلك على مرحلتين: ففي المرحلة الأولى تم بناء كنيسة مثمنة الأضلاع "بدون القبة الحالية والتي يرجع بناؤها إلى تاريخ لاحق". وقد تم تشييدها فوق الصخرة التي بها آثار أقدام المسيح. وفيما بعد تم تشييد كنيسة مثمنة الأضلاع أكبر حولها لتحتوي على الكنيسة السابقة. وفي عام ١٩٥٩م، فإن فرجيليو كوربو Virgilio Corbo كشف عن الركن الشمالي الشرقي للكنيسة، حيث أظهر الجزء المنحني من الأساسات البيزنطية، والتي يرى بعض العلماء أنها كانت مثمنة الأضلاع. ولقد تمت مقارنته بالتصميم الصليبي لقبة الصخرة، ويبدو أن هذه الكنيسة كانت تقليدا للبناء الأموي(١٠). حيث تضم بعض النقوش الجميلة البارزة حول الجزء الخارجي من البناء.

كنيسة القديسة حنة

من بين الكنائس الأكثر أهمية داخل أسوار مدينة بيت المقدس الكنيسة البندكتية ودير القديسة حنة، الواقعين إلى الجنوب الشرقي من بركة الغنم إلى جوار بوابة يهو شافاط. هذا الدير تم تأسيسه في بداية فترة الحكم الفرنجي، وقد صار واحدا من أغنى المنشآت الكنسية وأكثرها أهمية في المدينة. وهو يستمد مكانته من حصيلة ريع المساعدات الملكية الموقوفة عليه إلى حد ما، والتي ترجع أصولها الأولى إلى أيام بلدوين الأول الذي قرر أن يعزل زوجته أردا Arda في ذلك الدير عام ١١٠٤م، واستمرت شهرته في التزايد وبخاصة عندما تشرف الدير بحضور الأميرة إيفيت Yvette أخت بلدوين الثاني وأخت الملكة ميليسند، وزادت عائداته، بزيادة الأوقاف المحبوسة عليه، ومنها العديد من الدكاكين في شارع السوق الرئيسي.

ولقد تم بناء كنيسة القديسة مريم فوق بقايا كنيسة بيزنطية مكرسة للقديسة حنة، أم السيدة مريم العذراء، حيث كانت تعيش مع زوجها يواقيم. والمكان نفسه يحمل

ذكرى قيام المسيح بشفاء مريض عانى من العرج مدة ثمانية وثلاثين عاما. وربما تم تدمير تلك الكنيسة البيزنطية أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله عام ١٠٠٩م، ولقد حلت محلها مدرسة للشافعية فترة الحكم السلجوقى للمدينة. وعلى أية حال، وبما أن الدير كان موجودا عام ١١٠٤م فلابد من وجود كنيسة فى الموقع قبل تشييد الكنيسة الرومانسكية الجديدة فى عام ١١٤٠م، حيث يذكر فريتللوس كنيسة القديسة حنة حوالى عام ١١٣٠م.

وفى عام ١١٩٢م قام صلاح الدين بتحويل الكنيسة إلى كلية لدراسة الشريعة الإسلامية وفق المذهب الشافعي، وأول ناظر لها أو أول شيخ لها هو كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبى القاضى ابن شداد. وبالرغم من أنها وصلت إلى حالة يرثى لها من الخراب، فإن الكنيسة قدر لها البقاء طوال فترة الحكم الإسلامى. ومع هذا فإنه فى عام ١٨٥٦م وكنوع من الاعتراف بالجميل لنابليون الثالث الذى تحالف مع الإمبراطورية العثمانية فى حرب القرم، فإن كنيسة القديسة حنة قد أعطيت لفرنسا التى اهتمت بإعادتها إلى حالتها الأولى.

ورغم أنه لم يقدر لأى من مبانيها الدينية البقاء، وبالرغم من إمكانية الحصول على بعض المعلومات شبه الغامضة عنها من خلال الصور التى تم التقاطها فى القرن التاسع عشر الميلادى، والتى يظهر فيها سردابان لهما عدة عقود إلى الجنوب من الكنيسة[١١]. - ومع هذا فإن كنيسة القديسة حنة نفسها وبقايا من الكنيسة الصغيرة ومدخلها مازالا موجودين ويقفان كحد فاصل بين البركتين.

وتعد كنيسة القديسة حنة كنيسة صغيرة بُنيت على الطراز الرومانسكى: ثلاثية الأضلاع، وبخلاف جناح الكنيسة ذى الزخارف، والقبة الواقعة عند نقطة التقاء صحن الكنيسة وجناحيها - وهما من الملامح المهمة للكنائس الصليبية وطبق الأصل لها- فالواجهة الغربية للكنيسة لها باب رئيسى مقبب، وباب آخر إلى الجنوب، وفوق الباب الرئيسى شباكان آخران، والشباك العلوى منهما فى نفس

اتسـاع البـاب "هـذا الملمـح يعكـس وعلـى نطاق أصـغـر، المدخل المزدوج والشـبـابيك التى إلى الواجـهة الجنوبيـة لكنيسـة الضـريح المقدس". وفوق هذا هناك جملون مسطح قليلا، وهذا مـا يبين لنا كيف أن الكنيسة قد استعادت أصولها الأولى بعد أن آلت إلى أيدى الفـرنسـيين عام ١٨٥٦م. ومع هذا، فـهناك بعض من سـوء الفـهم لأنه تم تجـاهل وجود شباك مستدير، عادة مـا يكون موقعه فوق الشبـاك العلوى. وهناك جزء من هذا الشبـاك قـدر له البـقـاء حتى القرن التـاسع عـشر الميلادى، ويمكن التعـرف عليـه فى رسومات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد. كما أنه واضح من خلال هذه الرسومات أن سقف صحن الكنيسة والواجهة الغربية لها كانا فى الأصل أعلى إلى حد ما مما هما عليه فى وقتنا الحالى. وعلى أية حال فلا شىء من هذا الشباك قد بقى فى عام ١٨٦٠م. حيث لم يظهر شىء منه فى الصـورة التى أخذها ونشرها فـان دير فليت Van der Vliet لهذه الكنيسة فى تلك السنة(١٢).

أما سرداب الكنيسـة فـهو فى الأصل عبارة عن كهف، ويحدد مكان ميلاد مريم العـذراء. أمـا برج الجـرس فـقـد كـان فى الركن الجنوبى الغـربى، وفى فـتـرة الحـروب الصليبية، كان أحد أهم معالم الكنيسة. ومن صورة ترجع للقرن الثامن عشر الميلادى والقرن التـاسع عشر الميلادى يبـدو أنه ليس أقل من نسـخة من برج كنيسـة الضـريح المقدس، لكن على نطاق أصغر. وقد كان عبارة عن مبنى حجرى أطول إلى حد ما من الكنيسـة. وفى الجزء العلوى منه كـان له قـوس مدبب به شبـاكان، مثل برج أجـراس كنيسة الضريح المقدس، كما كان يستند على عدة أكتاف وفى الصورة له قبة، لكن هذه القبة ربما أضيفت فى فترة لاحقة. وبرج الأجراس الصغير تم بناؤه فى القرن التاسع عشر كمبنى إضـافى لا صلة له بالبـرج الأصلى. وفى كل الاحتـمـالات فإن فريتللوس ليست لديه أية معلومـات عن برج الأجراس الأصلى ولم يطلع على أية صـورة له؛ فقد بنى برجا صغيرا متواضعا على قاعدة المئذنة المتهدمة والتى كان قد شيدها المسلمون فى الركن الجنوبى الشرقى من الكنيسة بعد عام ١٨٢٠م(١٣).

وإن جزءا معقولا من المظهر الجمالى لهذه الكنيسة فى يومنا هذا يبدو ظاهرا فى بساطتها المؤكدة التى تتضح من حقيقة أنه لا توجد أية بقايا لزخرفة الموزايكو أو الفريسكو التى كانت أصلا تغطى جدرانها.

كنيسة قبر مريم العذراء فى يهو شافاط

هناك كنيسة أخرى رئيسية، وهى قبر مريم العذراء، والموجودة أسفل وادى يهو شافاط أسفل جبل الزيتون فى الجسمانية. وفى الفترة الصليبية كانت هذه الكنيسة ديرا لرهبان القديس بندكت، كما كانت من أغنى المنشآت الدينية فى مملكة بيت المقدس لما كان يتدفق عليها من هبات من الملوك والبارونات، وما كان يخصص لها من ممتلكات فى الشرق اللاتينى، وصقلية، وكالبريا، وأبوليا، إلى جانب الإعفاءات من الضرائب والجمارك فى الموانئ. وأصول هذه الكنيسة ترجع إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين. ففى حوالى عام ٦٨٠م يصف الحاج المسيحى أركولف كنيستين مستديرتين إحداهما فوق الأخرى على أنهما يدلان على موضع رفع مريم العذراء إلى السماء بعد موتها. وتاريخ هذه الكنيسة يتشابه كثيرا مع بعض الكنائس الأخرى فى مدينة بيت المقدس. ووفقا لما رواه المؤلف المسيحى إيو تيخوس، حوالى عام ٨٧٦م فإن الكنيسة قد تم تدميرها على يد الفرس عام ٦١٤م، ومن المحتمل أن يكون الدمار قد لحق الكنيسة العليا، والتى تم إعادة بنائها على يد موديستوس حوالى عام ٦١٦م. وفى وقت الحملة الصليبية الأولى نسمع أن الكنيسة العليا أصابها التخريب مرة أخرى، وربما تم تدميرها زمن الحاكم بأمر الله الفاطمى أو بسبب أحد الزلازل فى القرن الحادى عشر، بالرغم من أن سايولف كتب عام ١١٠٢م أن الكنيسة العلوية قد تم تخريبها على أيدى غير المؤمنين[١٤]. ومنذ عام ١١١٢م فصاعدا فإن الرهبان البندكتيين أعادوا بناء الكنيسة وبعض المبانى الديرية. ويبدو أنهم قاموا بتوسيع السلم، وأضافوا إليه بعض العقود الرومانسكية وواجهة للمدخل. ومن المحتمل أنه تم

إعادة بناء الكنيسة العلوية على نمط البازيليكا، وتم تزيين غرفة القبر بصور من الفريسكو تمثل نوم العذراء وقد تم رفعها إلى السماء بعد موتها. كما تم تزيين الكنيسة الجديدة بنفس الرخام الفرنجي وكذلك الضريح. ويصف لنا يوحنا الورزبرجي القبر بالتفصيل على أنه على شكل قبة مبنية من الذهب والفضة الموضوعة في الرخام ومزدانة بتصاوير رائعة بالفريسكو، وكذلك السرداب. أما ثيودريك فلم يكن وصفه أقل تفصيلا للرخام والموزايكو الذى يزين الضريح من الغرب إلى الشمال، والمحاط بعشرين عمودا وكرة وفوقها الصليب. ولقد لاحظ أنه بين كل زوجين من الأعمدة حول القبة تم تعليق مصباح[١٥].

وفى عام ١١٦١م تم دفن الملكة ميليسند فى كنيسة صغيرة على الجانب الأيمن من السلم. ولقد لاحظ ثيودريك هذه الكنيسة دون أن يذكر شيئا عن استخداماتها. بينما وصفها وليم الصورى بأنها تقع إلى اليمين عندما ينزل الواحد الدرج إلى قبر مريم[١٦]. كما أن بهو الأعمدة فى الكنيسة قبل الدخول إلى الكنيسة السفلية كان قد تم غلقه بدير بسبب دفن كل من جرانييه دى جرى Granier de Grey ابن عم جودفرى البوايونى "وهو الفارس الذى ساعد على تأكيد انتقال الحكم من جودفرى إلى أخيه بلدوين عام ١١٠١م"، وفارس آخر يدعى أرنولف من كونراد. وهذا مثال ضمن العديد من الأمثلة على دفن كبار الشخصيات بالقرب من أماكن الدفن الملكية.

ولقد تمت عدة كشوف إلى الغرب من بقايا الكنيسة أثناء الحفر لأعمال الصرف الصحى، هذه الكشوف قد أجريت عام ١٩٣٧م. ولقد حدد س. إن. جونز ما تم العثور عليه بأنه بقايا المبانى الدينية من القرن الثانى عشر الميلادى وهى الدير البندكتى للقديسة مريم. وكانت هذه البقايا تشتمل على أجزاء لسطح مرصوف، وبعض زخارف بالموزايكو، ومصرف، وبعض قطع أثرية، وسلسلة من الغرف إلى الشمال من السطح المرصوف، بالإضافة إلى قاعدة حجرية لعمود تم الكشف عنه وكلها تؤكد على الافتراض بأن المبانى هنا كانت تشتمل على أكثر من طابق. ولقد نشر جونز بعض

آرائه فيما يتعلق بعملية إحياء هذا الدير باستخدام الحدس مظهرا ديرا إلى الجنوب ملاصقا لفناء الكنيسة والمبانى الدينية الأخرى إلى الشمال منه وإلى الغرب.

وبعد استرداد صلاح الدين للمدينة عام ١١٨٧م، فإن الكنيسة العلوية والمبانى الدينية قد تم تدميرها واستخدمت حجارتها فى ترميم أسوار المدينة. وفى القرن الخامس عشر الميلادى كتب الرحالة الألمانى فيلكس فابرى يقول : وإلى جانب الكنيسة كان يوجد دير لجماعة رهبان القديس بندكت، وأسقف يزين رأسه بتاج، أما الآن فلا يمكن حتى رؤية بقايا ذلك الدير، لكن هناك حدائق الزيتون وأشجار التين حول الكنيسة.

تلك الكنيسة الخفية كانت على شكل الصليب، ويتم الدخول إليها من الواجهة عبر مدخل مزدوج مدبب وبسلم أثرى يتكون من ثمان وأربعين درجة، وقبر العذراء موجود إلى اليمين فى الجانب الأيمن من السرداب. والسرداب يتكون من عدة أجزاء نصف دائرية إلى الشرق والغرب وهناك غرفة صغيرة إلى الشمال من كنيسة القديسة مريم فوق جبل صهيون،كما أن هذه الكنيسة ومبانيها الدينية كانت محاطة بالوسائل الدفاعية. ولقد كتب ثيودريك فى ذلك يقول : إن الكنيسة نفسها وكل المبانى الدينية المرتبطة بها قد تم تحصينها تحصينا قويا بأسوار عالية، وبأبراج قوية وشرفات لإطلاق النيران على الأعداء.

كما أن الوصف الذى ذكره بوركارد من جبل صهيون ووافقه عليه مارينو سانودو يجعلنا نفترض أن تلك الكنيسة الخفية كانت كنيسة قديمة حيث كانت أصلا فوق سطح الأرض ولكنها أصبحت خفية لأن هادريان قد ألقى عليها كثيرا من النفايات وكسارة الدبش من المعبد. والتاريخ الأكثر قبولا لهذه الكنيسة يذكره بيروتى باجاتى Pierotti Bagatti والبعض الآخر الذين كتبوا يقولون إن تلك الكنيسة فى أصلها هى عبارة عن قبر حجرى أثرى مماثل لبعض القبور التى تم شقها فى المنطقة الأثرية إلى الجنوب من الوادى وأنه فى وقت لاحق قد تم البناء فوقه وأصبح فيما بعد كنيسة على هيئة سرداب

تحت الأرض أكثر من كونها نفايات من المعبد؛ ولذلك فإن الكنيسة أصبحت خفية بسبب الكميات الضخمة من التربة التى تراكمت من الوادى بسبب الأمطار الشتوية.

كنائس الاسبتارية

فى داخل حى الإسبتارية كانت توجد ثلاثة كنائس : الكنيسة الأولى هى كنيسة القديس يوحنا المعمدان وهى أقدمها وتقع إلى الجنوب الغربى، وكنيستان من القرن الحادى عشر الميلادى، وهما كنيسة القديسة مريم الصغرى "اللاتينية"، وكنيسة القديسة مريم الكبرى.

كنيسة القديس يوحنا المعمدان

إن أقدم الكنائس هى الكنيسة الصغرى ذات التخطيط الثلاثى فى الجنوب الغربى من حى الإسبتارية وهى كنيسة القديس يوحنا المعمدان. هذه الكنيسة البيزنطية المتأخرة قد تم تدميرها عدة مرات، وتم تجديدها فى القرن الثانى عشر الميلادى، بل وبعد ذلك التاريخ . وتحت الحكم الصليبى أصبحت المقر الدينى لطائفة الرهبان العسكرية من الاسبتارية. ولقد تم تجديدها بالكامل عام ١٨٤٧م. والآن هى فى حوزة طائفة الروم الأرثوذكس. والسرداب الحالى يتم الوصول إليه من درج وباب فى الجنوب الغربى، وكانت ذات يوم فى مستوى أرضى منخفض يمكن رؤيتها من خلال الشبابيك المغلقة والباب. أما الدرج فإنه يؤدى إلى المجاز المؤدى إلى صحن الكنيسة، حيث توجد هناك ثلاثة أبواب،"هذه الأبواب كانت إلى الشمال لكنها مغلقة الآن"، وكانت مدخلا للكنيسة. والكنيسة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، كل جزء منها ينتهى بجزء نصف دائرى، والجزء الرئيسى منها يمتد إلى الشرق. وأجزاء من داخلها، والأجزاء المعقودة، والسلالم كلها إضافات للمبنى الأصلى. ولقد لاحظ شيك أن الطرف الجنوبى للمجاز المؤدى إلى

صحن الكنيسة عبارة عن كتلة من الأحجار بما يرجح أنه كان قاعدة الأساس لبرج الناقوس. كما كان يوجد بها وعاء قيم من الذهب والبللور على شكل التاج كانت تحفظ فيه الذخائر المقدسة زمن الحكم الصليبى وتم الاحتفاظ به فى الكنيسة، أما الآن فهو معروض فى متحف بطريركية الروم الأرثوذكس.

ومن الملاحظ أن الكنيستين الأخريين كانتا متماثلتين بشكل ملحوظ. وقد قدر البقاء لبعض بقايا هذه الكنائس حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى. ولقد نشر كوندار شيك كثيرا من التفاصيل عنها ؛ فالمدخل الجنوبى ودير القديسة مريم الصغرى يمكن رؤيتهما . كما تم الكشف حديثا عن جزء صغير من الجزء نصف الدائرى للقديسة مريم الكبرى تحت أرضية أحد الدكاكين فى السوق الجديدة. كما أن الرسومات التى ترجع إلى القرن الثامن عشر الميلادى التى رسمها الراهب الفرنسيسكانى إلزير هورن Elzear Horn، وبعض النقوش وبعض الصور الفوتوغرافية المبكرة تظهر الأجزاء نصف الدائرى، والمدخل الشمالى وأديرة القديسة مريم الصغرى، كما كانت عليه حالتها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين[١٧].

كنيسة القديسة مريم الصغرى اللاتينية

بُنيت كنيسة القديسة مريم الصغرى "اللاتينية" على أيدى جماعة من التجار من مدينة أمالفى فى إيطاليا عام ١٠٤٧ م. وتم تكريسها للخدمة حوالى عام ١٠٦٠م. ووفقا لما ذكره كل من وارن Warren وكوندر Conder فقد أعيد بناؤها على يد الفرنجة حوالى عام ١١٣٠م. والمعلومات قليلة عن التاريخ المؤخر للكنيسة أو حتى عن وقت تدميرها . هذا التدمير ربما حدث على يد المعظم عيسى عام ١٢٢٩م. وفى أواخر القرن التاسع عشر تم استخدام بقايا الكنيسة والدير الملاصق لها كمدبغة[١٨]. علما بأن كنيسة القديسة مريم الصغرى كانت كنيسة ثلاثية الأضلاع، لها حصن

وأجنحة كل منها يتكون من أربعة حنايا وأجزاء ذات عقود ولها برج للجرس يقع إلى الجنوب الغربى منها. أما المدخل المستدير الشمالى والدير المبنى إلى الجنوب "والذى يرجع بناؤه إلى القرن الخامس عشر الميلادى على أكثر تقدير" فقد كان لهما نظيرهما فى كنيسة اللوثيران وهى كنيسة المخلص والتى تم بناؤها فى نفس الموقع فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى. ولقد تم تزيين المدخل ببيان للاثنى عشر شهرا وأسمائها اللاتينية. وفى وسط مجاز المدخل المقنطر وجدت كلمة القمر، وفى المدخل الغربى الصغير نسبيا يوجد مدخل آخر.

والكنيسة قد تم بناؤها بالأحجار مائلة الشكل أحيانا، أو بشكل أفقى أو عمودى، وبعضها عليه علامات حجرية. أما السقف فقد كان من الرخام المزخرف بالموزايكو. ووفقا لما رواه الحاج المسيحى المجهول الثانى، فإن الكنيسة كان بها بعض الذخائر المقدسة، وهى رأس القديس فيليب، وبعض شعر للقديسة مريم، وكانت المبانى الديرية إلى الجنوب من الكنيسة، بما فيها الدير، والذى تم تجديده، وقاعة مستطيلة إلى الجنوب من الدير والتى يفترض بيروتى أنها ربما كانت مكانا للطعام(١٩).

ولقد ذكرنا أن الآراء حول هوية هذه الكنيسة قد تضاربت، من ذلك أن دى فوجيه يفترض أنها كنيسة القديسة مريم الكبرى،مثلما افترض كل من وارن وكوندر فى كتابهما "المسح الجغرافى لجنوبى فلسطين" فى حين يفترض شيك ومعظم العلماء المحدثين أنها كنيسة القديسة مريم الصغرى.

كنيسة القديسة مريم الكبرى

أما الكنيسة الأخرى للقديسة مريم، فهى الكنيسة الكبرى، وهى تقريبا واضحة المعالم، فى الخرائط الخاصة بكنيسة القديسة مريم الصغرى، وقد تم تكريسها للخدمة عام ١٠٨٠م. وهى أيضا لها مدخل شمالى واسع وبرج للجرس جهة الجنوب

الغربى[٢٠]. ومن المحتمل أنه كان لها مدخل مباشر للمستشفى وأنها كانت توجد فى موقع يلى سور المستشفى الغربى، وربما قد استخدم هذا المدخل بواسطة المرضى والعاملين فى المستشفى لأداء صلواتهم فى الكنيسة. وفى أسفل الكنيسة كانت هناك عدة صهاريج، ووفقا لما ذكره شيك يبدو أنه كان يوجد سرداب ذو طابقين أسفل الجناح الجنوبى.

كنائس الألمان

لقد امتلكت جماعة الألمان على الأقل كنيستين فى مدينة بيت المقدس، هما كنيسة القديسة مريم للألمان، وكنيسة القديس توماس للألمان.

كنيسة القديسة مريم للألمان

قدر لجزء من هذه الكنيسة البقاء. وهى كنيسة ثلاثية الأضلاع صغيرة، تقع فى شارع الألمان فى الحى الجنوبى الشرقى من مدينة بيت المقدس. ولقد تم بناؤها حوالى عام ١١٤٣م كجزء من مستشفى الألمان. ولقد قام أشر أوفاديه **Asher Ovadiah** بمحاولة للكشف عنها عام ١٩٦٨م كان من نتيجتها الكشف عن الكنيسة والصالة ذات الطابقين إلى الجنوب منها. ولقد كان هناك فى الأصل مبنى ثالث فى الجهة الشمالية. وتبلغ مساحة الكنيسة ٢٠ مترا ×١٢ مترا. ولها صحن وجناحان، تم تقسيمها بصفين من ركائز الأعمدة المربعة الشكل. وفى كل جانب من هذه الأجزاء الناتئة هناك شبابيك "كل شباك منها فوق الآخر" وعلى الأقل شباك ضخم فى الجزء الناتئ الأوسط. ووفقا لما ذكره أوفاديا فقد كانت لها ثلاثة مداخل فى الغرب، وأربعة فى الشمال تربط الكنيسة بالفناء الملاصق لها "والذى ربما كان هو المستشفى"، وواحد فى الجنوب يتم الصعود منه إلى الطابق العلوى للبناء[٢١].

كنيسة القديس توماس للألمان

أما الكنيسة الثانية فقد كانت كنيسة القديس توماس للألمان، وهذه الكنيسة قد تم تجديدها وبشكل مؤقت عن طريق بقايا الكنيسة ثلاثية الأضلاع، الواقعة فى الطابق الأول لمبنى موجود فى الجنوب الشرقى من المدينة وإلى الغرب من كنيسة القديسة مريم للألمان. هذه الكنيسة كانت معروفة فى القرن التاسع عشر الميلادى وتم وصفها فى كتاب "المسح الجغرافى لجنوب فلسطين" بعد أن تمت زيارتها أعوام ١٨٧٢م و١٨٨١م.

هناك بقايا كنيسة، تحولت الآن إلى غرفة معيشة، فى منزل أحد اليهود المغاربة. وتقع على الجانب الجنوبى للشارع الذى يطلق عليه حارة الميدان، والتى تتجه شرقا وغربا.. وربما كانت هذه هى الكنيسة التى كانت تسمى كنيسة القديس توماس للألمان. وهناك جزءان من الأجزاء نصف الدائرية يمكن رؤيتهما بسهولة فى الجهة الشرقية من الغرفة، وقد تم تثبيت باب خشبى حاليا بها ويتم استخدامهما كدواليب خشبية، ويبلغ طولها خمسة أقدام وسبعة أقدام ونصف، والجنوبى هو الأكبر، وربما وجد جزء ثالث خلف الحائط الجنوبى للغرفة. أما الطول فهو حوالى اثنى عشر قدما. والسقف يتكون من اثنين من الحنايا المعقودة، وقد تم دهان السقف كله بالبياض والجص. وقد أمكن التعرف – وبعد جهد كبير– على أنه عمل من العصور الوسطى.

ولقد تم نسيان هذه الكنيسة حتى تم إعادة استكشافها عام ١٩٦٧م. ويذكر كل من بهات ورايخ أن هذه الكنيسة الأصلية تبلغ مساحتها التقريبية ١٢ مترا × ٨,٥ متر. وقد كان لها صحن كنيسة وجناحان تم تقسيمهما بصفين من الأعمدة وعليها نقوش بسيطة. وبطول حوائط البقية الباقية هناك إفريز فى أعلى كل حائط "كورنيش".

ولقد آثار كل من ك. (كلوس) . و. إس. بيبرشتين **K .and .S.Bieberstein** جدلا شديدا حول هوية الكنيسة فى الحى اليهودى وحول أنها كنيسة القديس توماس للألمان. وهما يعتقدان أن كنيسة القديس توماس للألمان يجب تحديدها بالكنيسة الصغيرة

للقديس توماس للألمان فى حى الأرمن، واقترحا أن تكون الكنيسة الموجودة فى الحى اليهودى باسم القديس بطرس ذى السلاسل. وعلى أية حال، فقد ذكر باهات أن كنيسة القديس بطرس جاء ذكرها فى مصادر العصور الوسطى بأنها كان لها سرداب حيث تم تقييد القديس بطرس بالسلاسل، وأن هذه الكنيسة تقع فى الطابق الأول.

الكنائس الأرمينية

إن كاتدرائية القديس جيمس للأرمن بناها جماعة الأرمن فى موقع فى الحى الخاص بهم، وتم التعرف عليها وكانت المكان الذى تم فيه تنصيب أول أسقف لبيت المقدس، وهى كنيسة القديس جيمس الصغرى. وهذا الموقع هو نفسه الموقع التراثى حيث دفنت فيه رأس القديس جيمس الحوارى، بعد قيام هيرود أجريبا بقطعها عام ٤٤م. وفى القرن الحادى عشر الميلادى أو الثانى عشر الميلادى استحوذ الأرمن على الكنيسة الجورجية التى كانت تشغل ذلك الموقع وبنوا هناك كنيسة جديدة وديرا لهم. والكنيسة شرقية من حيث تصميمها، لها قبة ذات ستة أضلاع، وأربعة أعمدة وسط الكنيسة تستند عليها القبة، ولها أجنحة وصحن بنفس الارتفاع، ولكن من أحجار فرنجية. وبالنسبة للنمط الذى بنيت عليه العقود والأجنحة والمدخل المقبب المؤدى إلى الرواق المسقوف الجنوبى، فإن فولدا Folda يفترض أن حجارة من كنيسة قبر الضريح ربما تم استخدامها بين عامى ١١٤١م و ١١٤٩م. ولقد جاء ذكر هذه الكنيسة عند يوحنا الورز برجى حيث قال :

فى نفس الحى "الأرمنى"، وليس بعيدا، وفى طريق أسفل الشارع، هناك كنيسة ضخمة بنيت تخليدا لذكرى القديس جيمس العظيم، يسكنها رهبان من الأرمن، ولهم فى نفس المكان مستشفى كبير لاستقبال الفقراء من أمتهم. وفى هذا المكان تم دفن

رأس ذلك الحوارى بكل إجلال وتقدير، لأن هيرود قطع رأسه، أما جسده فقد حمله بعض أنصاره على إحدى المراكب إلى جوبا ومنها إلى غاليسيا، أما رأسه فقد بقيت في فلسطين. ونفس هذه الرأس يتم عرضها فى وقتنا الحاضر على الحجاج المسيحيين فى هذه الكنيسة.

وهناك بعض الكنائس الأخرى فى حى الأرمن، وهى كنيسة القديس جيمس الشفيع، والكنيسة الصغيرة للقديس توماس.

كنيسة القديس جيمس الشفيع

إن كنيسة القديس جيمس الشفيع هى كنيسة ذات جناح واحد -"الآن مستخدمة كمسجد"- مسقوفة بجزء أسطوانى ضخم، وحنايا صغيرة ذات عقود فى مواجهة الجزء نصف الدائرى. مدخلها فى الغرب، وهناك درجات سلم مبنية فى سمك الحائط الشمالى بحيث تسهل حرية الدخول إلى الطابق العلوى. وهناك ثلاثة شبابيك داخلها أوسع من خارجها فى الجهة الشرقية، شباك فى الجزء نصف الدائرى، وبابان صغيران فى الحنايا المقنطرة أمام الجزء النصف الدائرى.

كنيسة القديس توماس

هناك بعض الأثار الباقية من كنيسة القديس توماس تم وصفها بشكل مختصر على يد كل من فنسنت وآبل. وهى مماثلة تماما لكنيسة القديس جيمس الشفيع، وهى أيضا ذات جناح واحد، لها مدخلان، أحدهما إلى الجنوب والآخر إلى الغرب يتيح حرية الدخول إلى أعلى السطح، وأيضا من جهة الجنوب. ووفقا لما ذكره شيك، فإن هذا المدخل الجنوبى والمدخل المسقوف قد تمت إضافتهما فى وقت لاحق. وهناك غرف صغيرة على كل جانب من الغرفة ذات الحنايا المقببة المواجهة للجزء نصف الدائرى.

كنائس أخرى للمسيحيين الشرقيين

كنيسة القديس شاريتون

إن كنيسة القديس شاريتون للسريان كانت تقع إلى الشمال من كنيسة الضريح المقدس. وهى ظاهرة على خريطة كمبراى وينطبق عليها وصف يوحنا الورز برجي.

عند الخروج من الشارع المؤدى إلى بوابة القديس ستيفان، وفى الاتجاه المؤدى إلى كنيسة الضريح المقدس، هناك شارع صغير به كنيسة للسريان حيث يستقر جثمان الشهيد شاريتون المبجل، وهناك يلقى كل تقدير وإجلال من الرهبان السريان، وهذا الجثمان فى وقتنا الحاضر قد تم وضعه فى صندوق حديدى، بدون غطاء، ويسمح للحجاج المسيحيين برؤيته.

كنيسة القديس بطرس ذى السلاسل

كنيسة أخرى من المحتمل أنها كانت إحدى الكنائس الشرقية، هى كنيسة القديس بطرس، والتى وصفها لنا يوحنا الورز برجي، كما وصف سردابها العميق المظلم، والذى كان وفق المأثور الشعبى سجنا تم حجز القديس بطرس فيه مقيدا بالسلاسل، بناء على أوامر هيرود. وفى الكشوف الأثرية التى أجريت فى عام ١٩٧٠م، تم الكشف عن مبنى ذى أعمدة تبلغ مساحته ١٦,٣ متر × ١١,٤ متر، إلى الجنوب من الحى اليهودى اليوم، والتى يرى عالم الآثار نحمان أفيجاد **Nahman Avigad** أنها خاصة بالقديس بطرس ذى السلاسل. وجزء من المبنى كان ارتفاع سقفه ٧,٤ متر ذا حنايا مقببة يستند على أربعة أعمدة مستديرة، وصلة حاملة مبنية فوق الحوائط. وعدم وجود جزء نصف دائرى يمكن تفسيره حسبما يرى باهات بأن البقايا التى تم الكشف عنها تخص قاعدة السرداب، فإن تصميم أعمدته الأربعة ربما يعكس تصميم الطابق العلوى من المبنى عن

طريق الأعمدة الأربعة التى كانت تستند عليها القبة، وهو تصميم استخدم فى كنائس الشرق الأرثوذكسية. فالسرداب التذكارى الكبير ربما كان موضع الاهتمام الكبير فى كنيسة كان السرداب فيها بؤرة الأحداث.

كنيسة القديس جوليان

لقد تم التعرف على كنيسة القديس جوليان بواسطة دان باهات، وهى كنيسة صغيرة ثلاثية الأضلاع تقع إلى الشرق من مدينة بيت المقدس. لها اثنا عشر جزءا من المبانى ذات الحنايا المقببة الواضحة وتبلغ مساحتها ١٤,٨ متر × ١٠,٥ متر. وإن كان كلوس بيبر شتين يعارض تعريف باهات لها ويفضل تعريفها بأنها كنيسة للقديس يوحنا الإنجيلى. وعلى أية حال، فإن باهات يشير إلى أن تعريف بيبر شتين لهذه الكنيسة غير موفق ولا يتفق مع الوصف الذى جاء فى كتاب "وصف المدينة" والذى يذكر فيه أن كنيسة القديس يوحنا الإنجيلى من حيث موقعها كانت فى الشارع الذى يبدأ عند بوابة الأحزان وبعيداً عنها إلى الشمال.

كنيسة القديسة مريم المجدلانية

نحن أمام كنيسة أخرى من الكنائس الشرقية، وهى كنيسة القديسة مريم المجدلانية، والتى كانت تقع فى حى السريان إلى الشمال الغربى من كنيسة القديسة حنة بالقرب من السور الشمالى والممر الجانبى المسمى باسمها. هذه الكنيسة قد جاء ذكرها فى السجلات الخاصة بالضريح المقدس، مع ملاحظة أن الرهبان اليعاقبة كانوا يشغلونها، وهذا أيضا ما جاء ذكره عند يوحنا الورز برجي والذى ذكر أيضا أن الرهبان يزعمون أن هذا الموقع هو منزل سيمون الأبرص، حيث قامت القديسة مريم المجدلانية بمسح أقدام المسيح بالزيت، وأن الموقع الفعلى لهذا الحدث قد تم وضع

علامة الصليب على أرضيته من الكنيسة. ومن المحتمل أن يرجع تاريخ هذه الكنيسة إلى الفترة الصليبية، وربما تم بناؤها عام ١٠٩٢م لتحل محل كنيسة مبكرة ربما تم تدميرها على يد الحاكم بأمر الله. ويعتقد بيروتى أن هذه الكنيسة يرجع تاريخها إلى ما قبل الحروب الصليبية بناء على افتراض غير قابل للتصديق وهو أن اليعاقبة المينوفيزيتيين قد منحوا بواسطة الصليبيين كنيسة والأكثر احتمالا أنه قد سمح لهم باستعادة كنيسة كانت فعلا من ممتلكاتهم. ويمكن لأى منا أن يرى بقايا آثار هذه الكنيسة وحتى أواخر عام ١٩٢٠م حيث تم تصويرها على يد كل من فنسنت وآبل. وفى عام ١٨٦٤م كتب بيروتى يقول : إن كل ما تبقى من هذا المبنى هو المدخل المسقوف، وجزء من حجرة المرتلين، والحوائط الجانبية، والتى تقع إلى اليسار بارتفاعها غير المعتاد فوق الأرض، وأى شىء آخر فهو كومة من الأطلال، تنمو فوقها النباتات المتسلقة.

ولقد قام باهات بالكشف عن قسم من الجوانب الجنوبية والغربية للحنايا ذات العقود حول الدير فى عام ١٩٧٨م. والبالغ عرضه ٧,٢ متر. كما يرى باهات أن الكشف عن الدير قد زاد من مساحة الكنيسة ومبانيها الدينية أكثر من جهة الشمال، وأنه يفترض أن الدير قد تم بناؤه فى عام ١١٢٥م، وأن جناحه الغربى قد تم ترميمه فى مرحلة لاحقة.

كنيسة القديس جورج فى السوق

إن كنيسة القديس جورج فى السوق تظهر على خريطة كمبراى إلى الغرب من كنيسة الضريح المقدس، فى السوق أو بالقرب منه حيث كان يباع القمح وفقا لما جاء فى كتاب "وصف المدينة". وفى هذه المنطقة اليوم توجد الكنيسة القبطية للقديس جورج، وبعض العقود الصليبية إلى الشمال منها. ولقد قام شيك بوصف هذه الأماكن عام

١٩٠٠م قائلا : إن ركائز أعمدة الصف الجنوبى واضحة لحجمها الكبير والبالغ طولها ١٤ قدما، ومن ٥,٥ إلى ٦,٥ قدم فى العرض، وهى تماما مثل تلك الأعمدة الموجودة فى البيمارستان، وتحمل عقودا ذات شبكة من الخطوط المتساوية، وهى تشبه الأحجار المنحوتة التى تستند عليها العقود المتصالبة.

هذه العقود ربما ما تزال ترى على الرغم من التغييرات التى حدثت فى هذه المنطقة خلال القرن الماضى. وربما كانت تخص ساحة كبيرة للسوق.

كنائس أخرى

كنيسة القديس ستيفان

من بين الكنائس الأخرى فى مدينة بيت المقدس تحت الحكم الصليبى كنيسة القديس ستيفان، الواقعة خارج المدينة إلى الشمال. وكما سبقت الإشارة فإن هذه الكنيسة قد بنيت تكريما للقديس ستيفان على يد الإمبراطورة إيودكيا فى القرن الخامس الميلادى. ولقد تم تدميرها على يد الفرس عام ٦١٤م، وأعيد بناؤها على يد البطريرك صفرونيوس فى نفس القرن، ثم تم تدميرها على يد الحاكم بأمر الله فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى.

وتم التعرف على كنيسة القرن الثانى عشر الميلادى للقديس ستيفان خلال الكشف الأثرى عام ١٨٨٠م من الحفريات التى أجريت فى أرض كنيسة الرهبان الدومينيكان، وإلى الغرب نوعا ما من الكنيسة البيزنطية للقديس ستيفان. هذا المبنى فى الحقيقة ليس أكثر من دير له عدة حوائط قدر لها البقاء وعليها نقوش خطية تغطى الحوائط الداخلية، والحجارة طبق الأصل من الحجارة الفرنجية المائلة، وعلى أحد القطع الحجرية توجد علامة حجرية[٢٢]. ولقد وصف ويلبراند من أولدنبرج كنيسة القديس ستيفان عام ١٢١١م بأنها لا شىء أكثر من إسطبل كانت تحفظ فيه حمير السلطان.

ولقد تكونت كومة من بقايا مواد الكنيسة. وعلى أية حال، فإن الكشوف الأثرية التى أجريت على دير الرهبان الدومينيكان كشفت عن خمس كتل حجرية لأعمدة ذات عقود من العصور الوسطى، ووجود هذه العقود الضخمة، والتى تم تصويرها فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى يمكن رؤيتها بكامل ارتفاعها، وهى تمثل مشكلة فى ربط الدير المجاور بالكنيسة الصليبية للقديس ستيفان. وكما سبقت الإشارة فإن كتاب "وصف المدينة" جاء به أن الفرنجة قد دمروا الكنيسة سنة ١١٨٧م لمنعها من أن تكون مأوى للجيش الأيوبى الزاحف. وعلى أية حال، فإن العقود كان من الممكن أن تستخدم كمأوى للأيوبيين وبشكل كاف؛ مما جعل دمار الكنيسة الصغيرة عملا أحمق لا فائدة منه(٢٣).

وربما لم تكن تلك الكنيسة الصغيرة هى كنيسة القديس ستيفان وأنها كانت تقع فى مكان ما آخر وربما فى مكان أكثر قربا من أسوار المدينة. وهناك كنيسة أخرى تم تكريسها للقديس ستيفان ووصفت بأنها إلى الجنوب من مدينة بيت المقدس. ووفقا لما ذكره فريتللوس، فهى إلى اليسار من السناكل، حيث تم دفنه فيها على يد يوحنا البطريرك، بعد أن تم إحضاره من كفر جمالا.

كنيسة القديس مارتن

كان يوجد فى مدينة بيت المقدس عدد من الكنائس ذات أهمية كبرى أو صغرى، ولكنها كلها تقاسمت الشهرة التى منحت للأماكن المقدسة فى أقدس المدن المسيحية. من بين هذه الكنائس، وفى الحى اليهودى الحديث، جزء من كنيسة صليبية تعرف بأنها كنيسة القديس مارتن والتى تخدم على أنها كنيس نحما نيدس. ولقد وصفها شيك فى عام ١٨٩٣م قائلا : إنها جزء أو ربما كل كنيسة القديس مارتن. هذه الكنيسة كان يعتقد ولمدة طويلة أنها هى التى جاء ذكرها عند نحما نيدس والتى قام بتحويلها إلى

كنيس أو معبد لليهود فى عام ١٢٦٧م. وفى خطاب وجهه إلى ابنه يصف المبنى قائلا : لقد وجدنا مبنى جميلا جدا ولكنه مدمر تماما له أعمدة رخامية، وقبة جميلة، وقد استمر فى جهوده لجمع المال لجعل هذا الصرح كنيسا أو معبدا لليهود. وفى العصر الحديث هناك افتراض بأن كنيسة نحما نيدس هذه كانت فوق جبل صهيون[٢٤].

وعن المبنى الذى فى الحى اليهودى الحالى، والذى تم تدميره بعد عام ١٩٤٨م وأعيد ترميمه مرة أخرى ليكون كنيسا بعد عام ١٩٦٧م، فهو يتكون من غرفة ذات عقود مزدوجة بها صف من أربعة أعمدة، وربما كانت ضمن صفى الأعمدة الأصلية والتى تقسم الكنيسة إلى صحن وجناحين. أما القبة التى ذكرها نحما نيدس فلم يقدر لشىء منها البقاء.

كنيسة القديسة مريم فوق مكان المهد

هناك كنيسة صغيرة أخرى، وهى كنيسة القديسة مريم أعلى مكان المهد، وكانت تقع فى الركن الجنوبى الشرقى من جبل المعبد. ولم يقدر البقاء لشىء من تلك الكنيسة القائمة فوق السرداب، ومن المحتمل أنه قد تم تدميرها على يد صلاح الدين الأيوبى كجزء من سياسته لتطهير الحرم الشريف. وقد لاحظ فريتللوس أن هذه الكنيسة كانت فى المكان الذى ينزل إليه بسلم من عدة درجات حيث يوجد مهد المخلص، وحمامه، وغرفة نوم أمه.

كنيسة الرقود

إن كنيسة الرقود، كانت تقع تماما خارج الركن الشمالى الغربى من جبل المعبد، وهى المكان حيث استراح المسيح وهو فى طريقه لأن يصلب. هذه الكنيسة ذات الغرفتين الصغيرتين المقببتين ربما قد تم بناؤها حوالى عام ١١٦٠م. حيث تم العثور

على أربع زخارف رومانسكية من فن النحت الرمزى التى تنسب لهذه الكنيسة، كل منها يظهر فيها منظر للمسيح وهو مستريح والملائكة تسهر على راحته.

هذه كانت بعض الكنائس العديدة من كنائس بيت المقدس تحت الحكم الصليبى، والقليل معروف عن كثير من هذه الكنائس الأخرى، مثل كنيسة القديس يوحنا الإنجيلى، والتى ربما قدر لجزء منها البقاء فى مواجهة المستشفى النمساوى؛ وكنيسة القديس بارتلميو، والتى كانت تقع إلى الشمال الشرقى فى حى السريان؛ وكنيسة القديسة ماملا، والتى تقف خارج المدينة فى الجبانة وإلى جهة الغرب(٢٥).

الأديرة

على خريطة كمبراى، وعلى اليسار من قبر العذراء وفى الغرفة الحجرية هناك تحت الغرفة دير يعرف باسم منزل القس أبسالم، فى وادى يهو شافاط. وهناك رسم تخطيطى لكهوف كان يشغلها النساك، وهذه الكهوف ذكرها يوحنا الورزبرجى حيث يقول : فى وادى يهو شافاط، وتحت هرم مستدق الطرف، مدفون ذلك الملك يهو شافاط والذى يستمد الوادى اسمه منه. هذا الوادى نفسه به الكثير من الكهوف فى كل جزء منه، وحيث عاش النساك حياتهم. وقد ذكرها كذلك ثيودريك حيث يقول : حول مقبرة يهو شافاط هناك عدد كبير من المنازل لخدم الرب، أو النساك، كل منزل منها موضوع تحت رعاية أسقف كنيسة القديسة مريم(٢٦).

وهناك أحد نساك مدينة بيت المقدس يدعى إلياس، وقد كان ولفترة ما أحد أعضاء هذه الجماعة من النساك أو الكنيسة الغربية للقديسة مريم فى وادى يهوشافاط. ولقد كتب عن حياته أحد مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى وهو جيرارد من الناصرة، إلا أن عمله هذا يعد مفقودا. ولكن المعلومات عن قصة حياة إلياس قد قدر لها البقاء فى شروح أو تفسيرات من القرن السادس عشر الميلادى، ووفقا لهذه

الشروح أو التفسيرات، فإنه فى حوالى عام ١١٣١م انسحب هو وأتباعه إلى كهف بالقرب من بيت المقدس، ولقد تم إقناعه على يد جماعة رهبان يهو شافاط وبطريرك بيت المقدس، وليم من فلاندرز – بأن ينضم إلى الدير، حيث بقى به بعض الوقت(٢٧). وهناك ناسك آخر، من هنغاريا يدعى كوزمس، بنى صومعة له فى أسوار بيت المقدس لكى يقيم فى المدينة المقدسة.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الثانى عشر

(١) هناك صورة حقيقية لبرج الناقوس وفيها المستودعات الأربع، ولكن تنقصه القبة الصغيرة، ويمكن رؤيته فى نقش يعود تاريخه قبل اصلاحه عام ١٨٠٩م، موجود فى المكتبة الأهلية فى باريس، انظر: جيمس، بيت المقدس، التاريخ، لندن، ١٩٦٧م، ص٢٣٣ .

(٢) لمناقشة مثيرة، انظر: مارتن بايدل، قبر المسيح، سترود، جلوكستر شير، ١٩٩٩، فصله (الصليبيون والضريح المقدس فى القرن الثانى عشر للميلاد) الصفحات من ٨٩-٩٨؛ وانظر كذلك: فولدا، الفنون الصليبية، ص٧٩-٨٢ .

(٣) لقد تم افتراض أن العديد من القطع الدقيقة فى اللوحات المستخدم فيها الحفر فى مجموعة متحف الفرنسيسكان والتى يرجح أنه تم الحصول عليها عن طريق الحرم المقدس فى الكنيسة وإن كان هذا مجرد ظن، انظر فيرجيليو كوربو،٢ كنيسة الضريح المقدس فى بيت المقدس، القدس، ١٩٨١م، الجزء الأول، ص١٩٩، والجزء الثالث، الصور ١٧٨-١٨٨ .

(٤) مما لاشك فيه أن السمو أو التعالى قد كان موجودا منذ فترة مبكرة وقد أشار إليه الرحالة دانيال عام ١١٠٥-١١٠٦م. فالصخرة المقدسة، والتى يقوم كل مسيحى بتقبيلها، كان يمكن رؤيتها من خلال ثلاث فتحات فى جهة واحدة، نفس المصدر، ص١٢ . أنظر أيضا: ثيودريك حيث يذكر أنه كانت هناك ثلاث فتحات فى الجانب، ومن خلالها كان يمكن لأى حاج مسيحى أن يقبلّ الحجر المقدس، ثيودريك، ص١٤٨ .

(٥) لقد ذكر فولشر الشارترى أن تغطية الصخرة يرجع إلى نفس تلك الفترة. فقد كتب يقول: "فى وسط المعبد، عندما ندخل لأول مرة عام ١١٠٠م، وبعد ذلك بخمسة عشرة عاما، كانت هناك صخرة محلية". راجع: فولشر الشارترى، ١، ٢٦، ٧ .

(٦) تم الكشف عن بقايا من هذا الفريسكو أثناء الإصلاحات التى أجريت عام ١٨٧٣م، انظر: كوندر، مدينة بيت المقدس، ص, ٣٠٠ هذه النقوش ذكرها يوحنا الورز برجى بالتفصيل وكذلك ثيودريك، راجع: يوحنا الورز برجى، ص٩٠-١٠١، ثيودريك: ص١٥٩-١٦٢ .

(٧) لقد تم وضع نقش آخر داخل المر أثناء تجديد غطاء الصخرة على يد صلاح الدين الأيوبى جاء فيه "بسم الله الرحمن الرحيم. لقد أمر بتجديد هذه الصخرة الشريفة السلطان، الملك، المنتصر، والعادل، صلاح الدين يوسف": راجع: كوندر، مدينة بيت المقدس، ص٣١٣ .

(٨) إن الكشوف الأثرية لتحصينات دير مونت جوا، قد تم نشرها حديثا باللغة العبرية: ميجيل ومايكل دادون، دير النبي صموائيل" المجلة الرباعية، العدد ٣٢، ١٩٩٩م، ص٦٢-٧٧ .

(٩) أظهرت الحفريات الأثرية التي أجراها إيشن بيرج عام ١٩٨٣م جزء من الجانب الغربي للكنيسة (في الركن الشمالي الغربي، وجزء من السور الشمالي البالغ سمكه ٢,٢م، وجزء من الأرضية تم الكشف عنه مبلط بالرخام ومن المحتمل وجود موزايكو فيه، راجع: إيشن بيرج: القدس، كنيسة الرقاد، ص٤٧ .

(١٠) يعتقد كريزويل أن كنيسة الصعود البيزنطية قد كانت مثمنة الزوايا والأضلاع، وأنها أثرت في تصميم قبة الصخرة. راجع: كريزويل: من المعمار المبكر الإسلامي، الجزء الأول، ج١، أوكسفورد، ١٩٦٩م، ص١٠٧؛ وانظر كذلك: بيانكا كوهنل، تاريخ كنيسة الصعود الصليبية في جبل الزيتون، في كتاب كيدار، بيت المقدس في العصور الوسطى، أبحاث مختارة (باللغة العبرية)، القدس، ١٩٧٩م، ص٣٢٣، وكوهنل، الفن الصليبي، ص٣٠-٣٢ .

(١١) راجع دان باهات، "تصوير لكنيسة السبع أعمدة"، المجلة الشعبية ١٩٧٨م، العدد ٨٥، اللوحة رقم ٤، أمام ص٨٢،. الشظايا الأثرية المتبقية للكنيسة، انظر: فنسنت، ف. أبل: القدس الجديدة، شكل ٣١٢، ٣١٣ .

(١٢) يبدو أن فنسنت لم يكن مدركا ذلك عندما كتب يمدح الرسومات القديمة وبكل الإعجاب، راجع: فنسنت: كنيسة القديسة حنا في القدس، المجلة الشعبية العدد١٣، عام ١٩٠٤م، ص٢٢٩، على الرغم من أن البناء يبدو فيه القليل من المؤثرات الصليبية العامة وبشكل واضح.

(١٣) كان يمكن رؤية المئذنة في رسومات الكنيسة سنة ١٨٦٠م، قبل إعادة بنائها. انظر: فان دير فليبت، كنيسة القديسة مريم في القدس، باريس، ١٩٣٨م، ص٦١، أشكال رقم ٣٠، ٣١ . حيث لم تكن تظهر في الرسومات المبكرة والتي ترجع إلى عام ١٨٢٠م.

(١٤) إن فقدان الرسومات التي كانت تحلي السور يعد أحد أوجه البساطة كما كان هناك بعض أعمال الحفر المتواضعة، انظر: ميكي إهيرلك، في (تعليقات شخصية) حيث يفترض أن رسومات الزينة من المحتمل أنها اندثرت بسبب تحويل صلاح الدين للكنيسة إلى خانقاه.

(١٥) راجع: ثيودريك، ص١٦٩-، ١٧٠ كما أن بيتشر يللو بيتشير كتب تعليقا على المدخل مبني على الدراسة الدقيقة للمصادر المطبوعة، والتي قام بها باجاتي لاستعادة البناء بعد الفيضان الذي غُمر الكنيسة عام ١٩٧٢م، "غرفة الدفن للقديسة مريم في الفترة الصليبية"، في العمل الذي قام به باجاتي "كشوف أثرية جديدة في مقبرة مريم العذراء في الجستمانية، القدس، ١٩٧٥م، ص٥٩-٨٢ .

(١٦) انظر: وليم الصوري، ١٨-٣٢، والتي تم إرجاعها مؤخرا إلى والدي مريم، حنة ويواقيم. ولقد تم وصف المقبرة بالتفصيل بواسطة أ. برودوهو، "مقبرة الملكة ميليسند، عند باجاتي، كشوف أثرية جديدة، الصفحات من ٨٣-٩٣ .

(١٧) انظر: رسم الراهب الفرانسيسكاني، إي. هورن من القرن الثامن عشر، رسوم تصويرية محلية وأثرية من الأرض المقدسة (١٧٢٤-١٧٤٤م)، روما، ١٩٠٢م، ص٩٠ .

(١٨) كان هذا طبقا لما حدث في العصر العثماني من تحويل للكنائس الصليبية، حيث تم تحويل كنيسة القديسة حنة، وكنيسة القديس جيروم في منطقة أبي غوش إلى إسطبلات. وما كان ينجم عن ذلك من

رائحة كريهة وغير مستحبة بالإضافة إلى المدابغ، مما جعل المنطقة المحيطة بكنيسة الضريح المقدس غير سارة.

(١٩) انظر: بيروتي، القدس المكتشفة، ص١٢٣؛ حيث يعتقد بيروتي أن الكنيسة والمباني الملحقة بها كانت فترة الحروب الصليبية على جانب كبير من الروعة والأهمية. وهم الذين شيدوا البوابة الرئيسية، وربما أعادوا بناء الكنيسة.

(٢٠) انظر: خريطة شيك للكنيستين في كتاب شيك "المرستان" الخريطة في الصفحة المواجهة لصفحة ٤٨ . كما أن بعض أعمال الحفر الرائعة مأخوذة من الأطلال في القرن التاسع عشر، وهي معروضة الآن في متحف بطريركية الروم الأرثوذكس.

(٢١) انظر: أشر أوفديا: كنيسة صليبية في الحي اليهودي في مدينة بيت المقدس القديمة، وفي: تسافرير، الكنائس القديمة، ص١٣٦-١٣٨؛ بن دوف إعادة بناء الكنيسة بباب واحد إلى الغرب في الحائط الشمالي؛ مبير بن دوف، "إعادة بناء كنيسة القديسة مريم لفرسان الألمان في بيت المقدس"، في كتاب تسافرير، الكنائس القديمة، ص١٤٠-١٤٢ .

(٢٢) انظر: كلود.ر. كوندر، "القدس. "الكنيسة المكتشفة حديثا"، مجلة الاكتشافات الفلسطينية الربع سنوية، ١٨٨٢م، ص١١٦-, ١١٩ حيث كشفت الحفريات عن قطعة من الحجر الجيري، تقريبا من مذبح، وعليها رسم للقديسين الاثني عشر مرسومين إلى جانبي رسم للمسيح، هذا الحجر مازال محفوظا في كنيسة القديس إيتيان، ولكن لسوء الحظ أن أشكال الأشخاص المرسومين قد انمحت تماما. وفي الحقيقة فإنها قد تلاشت تماما عام ١٨٩١م. (ت. هايتر لويس، بقايا من كنيسة في تل الجمجمة، القدس، مجلة الكشوف الأثرية الفلسطينية الربع سنوية، ١٨٩١م، ص٢١١). وانظر كذلك ترميم المذبح في كتاب فنسنت وآبل، القدس الجديدة، ص٧٧٠ .

(٢٣) إن مؤلف كتاب المدينة قد وصف إسطبلات الاسبتارية، على أنها مبنى ضخم يقع أمام كنيسة القديس ستيفان وإلى اليسار منها، كتاب المدينة، ص٢٠٠ . فإذا كانت الكنيسة الصغيرة حقا كنيسة صليبية، فإن كتاب المدينة يبدو أنه يشير إلى الأعمدة أكثر من المساحة الموجودة إلى الجنوب، في المكان المعروف الآن باسم مقبرة جوردن، أو مقبرة الحديقة، والتي تعرف عادة باسم الإسطبلات، انظر ما دار حول ذلك من جدل، ص١٦٤ .

(٢٤) انظر: إلكانان رينر، "المنطقة اليهودية في القدس بعد الفترة الصليبية"في كتاب يوسي بن أرتزي، "دراسات في جغرافية وتاريخ يهوشاو لبن أريح (بالعبرية)، القدس، ١٩٩٩م، ص٢٨٧ .

(٢٥) انظر: يورسلاف فولدا، "ثلاث زخارف صليبية في القدس"، مجلة الشرق، العدد ١٠، ١٩٧٨م، ص٣٩-٥٥؛ "زخارف رابعة في كنيسة القيام في القدس"، الشرق، ١٥، ١٩٨٣م، ص١٩٤-١٩٥، الفنون الصليبية، ص٣١٨، وعن الخريطة انظر: فنسنت، آبل، القدس الجديدة(١٩٢٢م)، اللوحة ١٠٩-أ. ١-٢ .

(٢٦) لقد جاء ذكر كنيسة القديس يوحنا الإنجيلي في كتاب المدينة، ص٢٠٦ . والتي كانت في حوزة رهبان بيسان، كما استخدموا المستشفى هناك عندما كان ديرهم معرضا للخطر أثناء الهجوم، انظر: جي أي هانوير، "كنائس القديس مارتن والقديس يوحنا الإنجيلي: مجلة الكشوف الأثرية الفلسطينية الربع سنوية، عام ١٨٩٣م، ص٣٠٤-٣٠٥ . وهنالك دراسة مقارنة عن كل كنائس القدس، والتي بقيت آثارها،

وتلك التى جاء ذكرها فى المصادر المدونة، سوف تظهر فى الجزء الثالث من كتاب الكنائس الصليبية فى مملكة بيت المقدس الصليبية، الصادر فى كمبردج، كتبه دينيس برنجل.

(٢٧) انظر: ثيودريك، ص٥ ١٤، الترجمة الإنجليزية. فى مجموعة حجاج بيت المقدس، ج٥، ص٥، وربما كان هذا الراهب أحد رهبان القديس بندكت من كنية القديسة مريم فى الياهوشافاط، فالرهبان كانوا يأتون من كل الأنحاء، ومن بينهم كان أحد البارونات الأثرياء يدعى رادولف؛ راجع ريتشارد، الحروب الصليبية، ص١١٨ .

* * *

الفصل الثالث عشر

الشوارع والميادين والأحياء

الشوارع من أكثر العناصر الثابتة التى تشكل المدينة، فالمبانى عادة ما تنهار ثم يعاد بناؤها، والأسوار يتم ابتلاعها داخل المدينة، كما أنها تمتد وتصبح مهملة، كذلك فالأحياء أحيانا يتم بناؤها فوق أحياء أخرى قديمة عندما تصبح المدينة أكثر سكانا، وترتفع أسعار العقارات، إلا أن الشوارع تبقى غالبا على ما هى عليه فى حالتى تدمير المدينة أو إعادة بنائها.

وفى داخل أسوار مدينة بيت المقدس لم يحدث سوى تغيير بسيط فى تخطيط المدينة منذ أن قام هادريان بإعادة بنائها فى القرن الثانى للميلادى. والتغيير الرئيسى الملاحظ هو امتداد الشوارع إلى مناطق لم تكن معمورة من قبل، ومعظم هذا التغيير قد حدث بسبب امتداد المدينة العمرانى إلى مناطق الفضاء الخارجي وتوسعها خارج الأسوار. وفى القرن الثانى عشر الميلادى فإن بعض الحارات والأزقة الجديدة ربما تم بناؤها ضمن المبانى الجديدة فى حى الاسبتارية أو فى بعض المناطق الأخرى، حيث أحدث الفرنجة بعض التغيير فى استخدام الشوارع "حين طوروا بعض الأسواق الجديدة" وعند إعادة البناء حولها وأحيانا فوقها، وبالطبع فى أسمائها.

إن شوارع بيت المقدس الضيقة وشديدة الانحدار جعلت حركة المرور والاتصال صعبة، أو على الأقل مستحيلة فى كثير من تلك الشوارع. فالطرق الرئيسية لم يزد عرض الواحد منها عن خمسة أمتار، ويتعذر اجتياز العربات ذات العجلات لها بسبب

سماتها السطحية، فشارع داود وهو الشريان الرئيسى ما بين شرق المدينة وغربها، شارع شديد الانحدار من بوابة داود إلى الوادى الكبير، كما أنه ملىء بالسلالم الحجرية فى معظم أجزائه.أما الشريان الرئيسى الآخر ما بين شمال المدينة وجنوبها، فهو الطريق القديم، الذى ينحدر من بوابة القديس ستيفان شمالا إلى أن يصل إلى منطقة الأسواق، عندما يتفرع إلى شوارع صغيرة مزدحمة[١]. وعلى هذا الأساس فإن معظم حركة المرور داخل أسوار المدينة كانت تتم سيرا على الأقدام. وربما كان فى مقدور الشخص أن يركب حمارا، إلا أن الناس بوجه عام كانوا يقومون بربط دوابهم فى أحد الإسطبلات خارج بوابات المدينة، مثل إسطبل الاسبتارية فى الشمال ويكملون رحلتهم سيرا على الأقدام. أما عن نقل السلع فإن العربات الكارو كان فى مقدورها حمل المنتجات إلى داخل المدينة عبر الأبواب، وتتخذ طريقها حولها عبر المناطق المكشوفة قرب الأسوار، أما الوسيلة التى كانت ومازالت متبعة إلى يومنا هذا لنقل البضائع إلى قلب المدينة فهى عن طريق العربات الصغيرة ذات العجلتين والتى يتم دفعها باليدين[٢].

لقد تركت شوارع بيت المقدس انطباعا فعليا فى الرحالة ثيودريك، فقد كانت الشوارع مختلفة تماما عن تلك الشوارع التى اعتاد عليها فى المدن الألمانية، مما دفعه إلى كتابة وصف لها يقول فيه : إن معظم الشوارع فى مدينة بيت المقدس كانت مبلطة الأرضيات بقطع حجرية كبيرة، ومن أعلى فإن كثيرا منها مغطى بقباب حجرية، تتخللها فتحات كثيرة تسمح بمرور الضوء إليها.

فالشوارع قد تم رصفها بالحجارة منذ زمن بعيد قبل رحلة ثيودريك، إلا أن تغطية الشوارع بالعقود الحجرية ربما كان تطورا حديثا نوعا ما. ففى زمن زيارته فإن بعضا من شوارع الأسواق المغطاة وسط المدينة كانت حديثة البناء. وفى فترة الحروب الصليبية فإن عددا من الشوارع ربما قد تم تغطيته بالعقود الحجرية أكثر مما هو موجود حاليا، فآثار العقود الحجرية التى ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى يمكن رؤيتها فى أنحاء كثيرة من المدينة، مثل شارع قنطرة يهوذا.

ومرة أخرى فإن كتاب المؤرخ المجهول فى القرن الثالث عشر الميلادى يعطينا تفاصيل كثيرة فى وصفه لشوارع بيت المقدس. وفى مثل هذه الأمور عادة ما يتم الاعتماد على مدونات أخرى معاصرة ركزت بشكل أساسى على وصف الكنائس والأماكن المرتبطة بزيارة الحجاج المسيحيين(٣)، كما أن خرائط العصور الوسطى مفيدة بعض الشيء على الرغم من معلوماتها المتباينة. كذلك فإن الحفريات الأثرية قد أضافت الكثير إلى معلوماتنا عن شوارع المدينة، كدليل مادى.وكل هذا يعتبر مصدرا مهمًا لمعرفة شوارع القرن الثانى عشر الميلادى. هذا إلى جانب يوميات الرحالة، وخرائط العصور الوسطى وبقايا المبانى، كل ذلك يعطينا فكرة جيدة عن موقع وشكل الشوارع.

الطرق المؤدية إلى المدينة

خارج أسوار المدينة كان هناك عدد من الطرق المؤدية إلى بوابات المدينة، والطريق إلى المدينة هو الاسم الذى أطلقته خرائط العصور الوسطى على جزء من الطريق المؤدى من حى النبى صموئيل إلى بيت المقدس. وهذا هو الطريق الممتد من الساحل عبر الرملة، وبيت نوبا، والقبيبية فالنبى صموئيل. ومن هناك يتجه إلى قرية خربة البرج، ومن المحتمل أنه كان يمر بالمناطق الزراعية ظاهر مدينة القدس الحديثة قبل وصوله شمال المدينة، مارا بكنيسة القديس ستيفان، ثم يتفرع إلى فرعين، أحدهما يتجه إلى الغرب ثم جنوبا إلى بوابة داود، والآخر يتجه جنوبا إلى بوابة القديس ستيفان. وطريق آخر هو الطريق الجنوبى الرئيسى من الساحل وهو تقريبا يأخذ مسار الطريق الدائرى من الرملة عبر اللطرون، وأبى غوش، ومستعمرة موتزا، ولفتا ومنها إلى بوابة داود

أما عن الطرق الفرعية خارج المدينة والمؤدية إلى نابلس فى الشمال، وبيت لحم فى الجنوب وأريحا ونهر الأردن فى الشرق- كل هذه الطرق كانت مهمة، ليس لكونها شرايين لحركة المرور العادية فحسب، ولكن لأنها طرق الحج المسيحى. فمن بوابة داود

هناك طريق ممتد إلى الجنوب والشرق، مارا بمقبرة وبركة ماملا إلى قبر راشيل ومنها إلى مدينة بيت لحم، مكان ميلاد المسيح. هذا الطريق يظهر على خريطة كمبراى كما لو أنه طريقان، أحدهما مجهول الاسم يتجه جنوبا والآخر يتجه شمالا ويسمى طريق الخليل، ثم يستدير لكى يصل إلى بيت لحم. ومن بوابة القديس ستيفان يتفرع طريق إلى نابلس والشمال. هذا الطريق كان مهماً زمن الحروب الصليبية، ليس لأنه يمتد إلى نابلس وحسب وبعض المدن الأخرى ومزارات الحج المسيحي "صفورية، والناصرة، وجبل طابور، وبحر الجليل"، ولكن لأنه الطريق الداخلي إلى عكا الميناء الرئيسي للمملكة.

ومن بوابة يهو شافاط كان هناك طريق مهم للحج المسيحى امتد عبر وادى يهو شافاط إلى قبر العذراء وإلى الجستمانية، ثم يتجه صاعدا إلى كنيسة الصعود فوق جبل الزيتون، ومن هناك يتجه إلى بيت سابا، وبيسان ثم إلى المكان الذى تم فيه تعميد المسيح فى نهر الأردن.

وهناك طرق ثلاثة أخرى امتدت من خارج المدينة من بوابة صهيون، أحدهما يتجه يمينا فى اتجاه دير وكنيسة القديسة مريم فى جبل صهيون، وطريق ثان يتجه شمالا محاذيا سور المدينة إلى الركن الجنوبى الشرقى للمدينة، ومن هناك يتجه إلى البوابة الذهبية، ومنها يستمر فى الانحدار عبر وادى يهو شافاط إلى بركة سلوام. ومن المحتمل أن هذا الطريق كان يلتقى بالطريق القادم من بوابة يهو شافاط. أما الطريق الثالث فإنه يمتد جنوبا أسفل جبل صهيون، مارا بالدير ثم ينحنى إلى الجنوب الغربى، حيث يسير إلى أن يلتقى بالطريق القادم من بوابة داود إلى بيت لحم. وهذا الجزء الأخير تم الكشف عنه من الحفريات الأثرية التى أجريت هناك.

الشوارع داخل المدينة

داخل أسوار مدينة بيت المقدس كانت هناك شوارع رئيسية ثلاثة، طريق السوق المعروف باسم طريق الكاردو القديم **Cardo**، وطريق الجنود **Decumanis**، وطريق

السوق الفرعى الذى يخترق الوادى الكبير Tyropoeon. بالإضافة إلى عدد آخر من الشوارع الصغيرة المهمة والأزقة السالكة، أما الشارع الرئيسى فى بيت المقدس زمن الحكم الصليبى فهو شارع داود، ويمتد من بوابة داود عند الصرافين اللاتين حيث يعبر شوارع السوق متجها شرقا إلى شارع المعبد، كما أن الطريق الممتد من برج داود إلى البوابة الذهبية "بامتداد حى الصيارفة اللاتين" كان يسمى شارع داود. ومبانى القرن الثانى عشر الميلادى المطلة على هذا الشارع فى جانبه الشمالى قائمة من عند شارع البطريرك إلى شارع التوابل عن طريق السوق، وهناك قنطرة كبيرة تتوسط هذا الشارع إلى الغرب من شارع السوق القديم. أما امتداد شارع داود شرقا فقد كان معروفا باسم شارع المعبد. والشارع الذى نسلكه من منطقة الصيارفة إلى البوابة الذهبية هو شارع المعبد، ولقد سمى هذا الشارع باسم شارع المعبد[٤]، لأنه يمكن لأى شخص أن يتوجه إلى المعبد عن طريقه بالإضافة إلى البوابة الذهبية. وعلى امتداد هذا الشارع فإنك تصل إلى مكان ذبح الماشية يسارا، وحيث يتم بيع اللحوم. وفى أعلى هذا الشارع هناك بوابة تسمى البوابة الجميلة، ذلك لأنه عبر هذه البوابة دخل المسيح مدينة بيت المقدس ماشيا.

وعلى جانبى هذا الشارع هناك مبان من فترة الحروب الصليبية مازالت قائمة، فعند الطرف الغربى من الشارع، وعند نقطة التقاء الشارع بمنطقة السوق فى شارع السوق هناك وعلى اليسار المبنى المعروف بخان السلطان أو "الوكالة"، هذا الخان يتكون من سوق مغطى بالعقود، وممر، وإسطبل، وحوش، وعدة مبان إضافية حوله. وقد أرجع مايكل بيروين هذه المبانى باستثناء الحوش والمبانى المحيطة به إلى زمن الحروب الصليبية. فى منتصف الطريق من شارع المعبد، وأيضا على الجانب الشمالى هناك مبنى من القرن الثانى عشر الميلادى، ربما كان خانا، وبه على الأقل بقايا ستة عقود مستندة على أعمدة ذات تيجان بسيطة. وإلى الشرق قليلا، وعلى الجانب الجنوبى للشارع وملاصقا للتربة المملوكية لبركة خان، هناك مبنى ثالث من

العصر الصليبى، عبارة عن صف من الدكاكين "على الأقل ثلاثة"، والتى تبدو من خلال علامات التملك، أنها كانت من ممتلكات الداوية. أما النصف الشرقى لشارع المعبد فيخترق الوادى الكبير عند الممر القديم والذى يؤدى إلى بوابة فوقها قنطرة ويلسون - والتى ربطت منذ عصر هادريان بين جبل المعبد وأعلى المدينة - هذا الممر ينتهى عند البوابة الجميلة.

وإذا ما رجعنا إلى بوابة داود، فبعد عبور هذه البوابة، والاتجاه يمينا عبر الشارع الذى يقع بالقرب من برج داود، يمكنك الوصول إلى جبل صهيون "عن طريق ممر جانبى هناك". فى هذا الشارع من جهة الشمال عند اتجاهك إلى الممر هناك كنيسة للقديس جيمس شقيق القديس يوحنا الإنجيلى. هذا هوشارع البطريركية الأرمينية الذى يبدأ من الممر المؤدى إلى البرج عند طرفه الجنوبى، ومن المحتمل أن يكون هذا الشارع الحديث الذى يتجه من القلعة على نفس الامتداد الذى كان عليه شارع الأرمن فى العصر الوسيط. ويفترض وايت مان أن الشارع الرئيسى والذى جاء ذكره فى السجل رقم ٥٥٩ ربما يقصد به شارع بطريركية الأرمن. وهناك شارع آخر ربما كان امتداداً لشارع بطريركية الأرمن فيما وراء أسوار المدينة، يطلق عليه نفس الاسم(٥).

وعند الابتعاد قليلا بانحدار من شارع داود فإنك تجد شارعا على اليسار، يسمى شارع البطريرك "البطرك"، ذلك لأن البطريرك كان يقطن فى أعلى منطقة فيه. وهناك باب على اليمين من شارع البطريرك، إذا عبرته دخلت مبنى المستشفى، وبعد ذلك هناك باب يتوصل منه إلى كنيسة الضريح المقدس، إلا أنه ليس هو الباب الرئيسى. أما شارع البطريرك "البطرك" فقد كان معروفا أيضا باسم شارع حمام البطريرك، لأنه كان يؤدى إلى الحمام الذى يحمل نفس الاسم والموجود فى حى الإسبتارية إلى الجنوب من المستشفى. أما الجزء الشمالى من السوق وعند الصيارفة السريان إلى جانب بوابة القديس ستيفان، فإنه كان يعرف باسم شارع القديس ستيفان أو شارع بوابة القديس ستيفان.

وعند دخولك المدينة من بوابة القديس ستيفان يقابلك شارعان، أحدهما على اليمين ويمتد حتى جبل صهيون فى الجنوب المباشر، حيث بوابة جبل صهيون المرتفعة فى مواجهة بوابة القديس ستيفان. هذا الشارع المؤدى إلى بوابة جبل صهيون، يسمى شارع القديس ستيفان إلى أن تصل منطقة الصيارفة السريان. وإلى الشرق كان هناك شارع يوصل إلى وادى يهو شافاط، على الرغم من أنه فى القرن الثانى عشر الميلادى قد ارتبط اسمه بهذا الوادى، إذ إن أى شخص كان يرغب فى أن يغادر المدينة من الشرق، كان عليه أن يستخدم الشارع المعروف باسم شارع بوابة وادى يهو شافاط. هذا الشارع يؤدى إلى الأماكن المقدسة المهمة فى وادى يهو شافاط، وإلى جبل الزيتون، وإلى طريق بيت سابا، وبيسان، ونهر الأردن وهو أيضا الطريق المؤدى إلى المداخل الشمالية لجبل المعبد وإلى دير القديسة مريم، كما أنه المدخل الجنوبى لحى السريان. كما أنه يؤدى إلى مصدرين مهمين من مصادر المياه، وهما بركة الغنم "بركة الضأن" وبركة إسرائيل، وإلى الحمام الملاصق لها. ومن الآثار الصليبية الباقية فى هذا الشارع كنيسة القديسة مريم، وكنيسة المصلبة، وبرج فى الجهة الشمالية، وبقايا حوائط عليها زخارف فرنجية ونقوش حجرية فى الجهة الجنوبية من الشارع. وهناك شارع آخر جاء ذكره فى المصادر وربما كان أحد الشوارع الجنوبية المؤدى إلى الجنوب من شارع يهو شافاط، وربما كان هو الشارع المؤدى إلى كنيسة الرقاد فى الركن الشمالى الغربى من جبل المعبد.

فإذا ما رجعنا إلى وسط المدينة، حسبما يقول مؤلف وصف المدينة عندما تصل إلى سوق الصرافين حيث ينتهى شارع داود، نجد شارعا يسمى شارع جبل صهيون (حاليا هو باب النبى داود). وبامتداد شارع التوابل إلى أن تصل إلى شارع جبل صهيون، وبالقرب منه تجد بوابة جبل صهيون، قاطعا شارع داود. وحيث شارع التوابل الواقع فى أقصى الغرب من شارع السوق شمالا، فإن ما يحدد هوية شارع الحباد حاليا (أو طريق باب النبى داود على أنه شارع جبل صهيون) واضح تماما.

أما شارع قنطرة يهوذا فهو مواز لشارع جبل صهيون، ووفقا لمأثورات العصور الوسطى، فإن يهوذا (الإسخريوطى) قد شنق نفسه على قنطرة فى أقصى الشمال من الشارعين الواقعين بامتداد السوق الملاصق لشارع جبل صهيون. وقبيل زمن الحروب الصليبية كان موقع هذا الحدث فى مكان آخر، يحدده كتاب وصف المدينة بأنه كان جنوب الشارع المغطى مباشرة "أى فى أقصى الشمال من الشوارع الثلاث المتوازية للسوق شمال شارع داود". وحيث أقيم حاليا شارع اليهود[٦].

وعن طريق الشارع المغطى عبر حى الصيارفة اللاتين فإنك تتجه إلى شارع يسمى يهوذا، حيث تعبر شارع المعبد، هذا الشارع يتجه مباشرة إلى بوابة جبل صهيون. وهو يعرف أيضا بشارع قنطرة يهوذا لأنهم يقولون إن يهوذا قد شنق نفسه هناك فوق القنطرة. والقنطرة تم رسمها فى خريطة كمبراى إلى الشرق من شارع جبل صهيون. وشوارع العصور الوسطى مازالت تواجه هذا الشارع. فإلى الغرب منه يوجد شارع السوق المغطى، والدكاكين على الجانب الشرقى من السوق تفتح على هذا الشارع. وعلى أحد الدكاكين هناك علاقة ملكية الداوية وهى عبارة عن مثلث بداخله حرف ت T مقلوبا. وهناك فى الجزء المغطى من هذا الشارع مازالت توجد بعض خواصر العقود التى تغطى جزءا من الشارع والتى يمكن رؤيتها بسهولة، على الرغم من أن عقود العصور الوسطى لم يقدر لها البقاء. وعلى الجانب الشرقى من شارع قنطرة يهوذا هذا هو الذى يسمى فى مكان آخر باسم شارع القديس مارتن.

أما الشارع المعروف باسم الشارع الإسبانى، فقد تم تحديده بالجزء الشمالى من الشارع المار من بوابة القديس ستيفان جنوبا ممتدا إلى الوادى الكبير، ويرى براور أن الشارع الإسبانى هو نفسه شارع جيرار الليسبونى،والذى جاء ذكره فى بعض الوثائق إلى الجنوب نوعا ما من الوادى الكبير حيث شارع الفراء، وفى هذا الشارع أصيب كونت يافا فى عظام الأذن الوسطى فى مبارة للعبة النرد. وهناك شارع آخر جاء ذكره فى كتاب "وصف المدينة" بأنه شارع الألمان على الجانب الأيمن من شارع المعبد. كما

أن هناك شارعًا آخر عن طريقه يستطيع المرء أن يذهب إلى مستشفى الألمان، هذا الشارع يسمى كذلك شارع الألمان.

وهناك شارع أو ممر يسمى طريق سكنى السواد الأعظم يظهر على خريطة كوبنهاجن فى الشمال الشرقى من المدينة. وفى معظم الخرائط الخاصة بالمدينة يظهر هذا الشارع تحت اسم الطريق، حيث يظهر متجها جنوبا من السور الشمالى وربما فى المنطقة التى بالقرب من مقبرة القديسة مريم المجدلانية، ويمر بامتداد أو قريبا جدا من السور الغربى من جبل المعبد إلى أن يصل السور الشرقى للمدينة. ومن المحتمل أنه يدل على الشارع المذكور عاليه. والذى يمتد عبر الوادى الكبير، ومن المحتمل أيضا أنه كان شارعا مختلفا أبعد منه إلى الشرق، والذى مازال الجزء الشمالى منه موجودا، وهو طريق باب الساهرة أو طريق بوابة الساهرة " بوابة هيرود". وفى خريطة بروسيلز نجد اسمه بالكامل "طريق البوابة الجميلة" وهذا يجعلنا نفترض أنه كان هناك شارع يسير ملاصقا للسور الغربى لجبل المعبد إلى أن يصل إلى البوابة الجميلة.ومن هناك ربما استمر فى اتجاهه جنوبا إلى السور الجنوبى للمدينة عند نقطة ما إلى الشرق من بوابة المدبغة. ومن المحتمل أنه كان هناك شارع يمتد أسفل جبل المعبد فى القرن الثانى عشر الميلادى قبل أن يقوم المماليك بإعمار المنطقة منذ القرن الثالث عشر الميلادى فصاعدا. إن أقدم جزء من سوق القطانين من العصر الصليبى يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى والذى سنشير إليه فيما بعد، وكان يبعد ٤٢ مترا من سور جبل المعبد، ومن المحتمل – ومن المقبول أيضا– أنه كان الموقع الغربى لهذا الشارع.وعلى أية حال، فإن المشكلة التى تواجهنا هى أنه كيف كان فى مقدور من يسلك ذلك الطريق أن يصل إلى البوابة الجميلة، والتى كانت فى مستوى أعلى نوعا ما؟ ومن جهة أخرى كان يتم الوصول إليها عن طريق شارع المعبد والقنطرة. فربما كان فى مقدور أى شخص أن يستدير عند نقطة ما ويسلك شارعا جانبيا صاعدا يوصله إلى شارع المعبد.

وهناك ثلاثة شوارع جاء ذكرها عند الحديث عن السوق فى كتاب وصف المدينة وفي مصادر أخرى، منها شارع التوابل، وشارع المحجر، ثم الشارع المغطى، وهى شوارع كانت تؤدى إلى السوق، وسيتم الحديث عنها فى الفصل التالى. ولقد قام كل من فنسنت وآبل بتحديد موقع سوق القديس أنستاس بالشارع الذى يطلق عليه الآن عقبة التكية، وهو الشارع الموازى للجزء الرئيسى من طريق الأحزان وشارع المارشال، مع عقبة السرايا إلى الجنوب. وهناك العديد من الشوارع التى جاء ذكرها فى المصادر القديمة والتى لم يمكن التعرف عليها إلى الآن بما فيها شارع السوق الجديد، وشارع يوحنا الإنجيلى، وشارع الدير، وغيرها من الشوارع(٧).

الميادين

من المحتمل أنه قد كان هناك العديد من الميادين فى مدينة بيت المقدس، إلا أن المصادر لم تعطها الاهتمام اللائق بها، فهناك ميادين الكنائس، مثل ميدان كنيسة الضريح المقدس، وميدان كنيسة القديسة مريم الصغرى، وميدان كنيسة قبر العذراء في وادى يهو شافاط، ومن المحتمل وجود ميادين أخرى أمام العديد من الكنائس الأخرى، كان يتجمع فيها الجمهور أثناء الاحتفالات. كما استخدمت الميادين أيضا فى الأنشطة التجارية. فهناك ميدان باسم التجار وهو الاسم الذى أطلق على الميدان الخارجى لكنيسة القديسة مريم الصغرى، ومن المرجح أنه استمد اسمه من التجار الأمالفيين فى القرن الحادى عشر للميلاد، وربما كان اسمه هذا من استخدامه كميدان وسوق. وعند التقاء شارع داود بشارع جبل صهيون كان هناك ميدان استخدم لبيع وشراء كثير من السلع، وهذا الميدان مماثل تماما للميدان المخصص للصيارفة، حيث تجد الصيارفة اللاتين. "ويظهر مكانهم على الخرائط وعليه الكلمات : "مبنى الصرف". كذلك كانت الميادين أماكن لتجمع أرباب الحرف بحثا عمن يطلبهم. ففى عام ١١٨٤م رغب أحد المواطنين من محبى أعمال الخير فى حفر بئر خارج المدينة، فاحتاج إلى عمال يحفرونها له، فذهب إلى أحد الميادين ليجد ضالته(٨).

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الثالث عشر

(١) كان متوسط عرض الشوارع فى بيت المقدس زمن البيزنطيين جوالى ٤,٥ مترا. راجع فى ذلك: ميجان بروتشى، "متوسط عرض الشوارع زمن الحكم الرومانى/ البيزنطى"، مجلة الكشوف الأثرية الإسرائيلية، العدد ٢٧، عام ١٩٧٧م، ص٢٣٢ . وفى القرن الثانى عشر للميلاد، فإن الشوارع لم تكن لتزيد عن ذلك، باستثناء شارع السوق الذى بلغ عرضه ٢٢ مترا، أما ما عداه من شوارع عريضة، فقد كان يتم تقليل عرضها، إما بتقليل حجمها، أو عمل عدة تفريعات صغيرة ضيقة لها.

(٢) وعلى العكس من ذلك، فإن دواب الحمل بما فيها الجمال كان يتم الاحتفاظ بها فى إسطبلات الداوية فى المسجد الأقصى (انظر: ص١٦٣)، والتى حلت محل العربات الكارو التى كانت مستخدمة فى العصر البيزنطى وبدايات العصر الإسلامى. (أى من القرن الرابع إلى القرن الثامن الميلادى). انظر: هيو لينيدى، (من دولة المدينة إلى المدينة)؛ التغير الحضرى قديما وفى الفترة الإسلامية المبكرة فى سوريا، الماضى والحاضر، ١٠٦، ١٩٨٥م، ص,٢٦ وربما بقى الحال كذلك زمن الحروب الصليبية، بحيث كان فى مقدور دواب الحمل أن تتنقل فى شوارع المدينة.

(٣) وكما سبقت الملاحظة، أن الصعوبة الرئيسية فى هذا المصدر، أنه فى بعض الأحيان يصعب فهم القصد من رأس الشارع، فهل يقصد بذلك بداية الطريق أم نهايته، ذلك لأن عملية سوء معنى الترجمة قد تؤدى إلى اضطراب فى المعنى كلية، وفى الوصف.

(٤) راجع: بريسك بواتيير، الحواشى رقم ١٦٨، ١٦٩ . فإن أسماء كل من الشرق والغرب كانت كثيرة التغير وخصوصا فيما يتعلق بشارع داود، الذى جاء وصفه بأنه يوصل ما بين بوابة داود وشارع التوابل. وفى الخرائط المستديرة فإن المساحة كلها كانت معروفة باسم منطقة معبد الرب.

(٥) راجع: ديلافيل لارولكس، الأرشيف الأصلى، وأرشيف جماعة فرسان القديس يوحنا لبيت المقدس فى مالطة، باريس، ١٨٨٣م، رقم ٤٧ .

(٦) على سبيل المثال، فإن المقبرة المقدسة تقع عند جسر أو نبع الماء إلى الغرب من بوابة داود، وربما البركة التى تجلب الماء من بركة ماملا لبركة حزقيا داخل المدينة؛ راجع: بيديه، ص,٧٤ فوفقا لما ذكره حاج بياكنزا (حوالى عام ٥٧٠م) فإن يهودا شنق نفسه فى شجرة جميز فى بستان لأشجار الزيتون خارج البوابة الذهبية؛ انظر: ميلانى، رحلة إلى الأرض المقدسة من عام ٥٦٠-٥٧٠م، ميلانو، ١٩٧٧، ص١٤٠-١٤١ .

(٧) انظر: دان باهات، "المنظر الأساسي"، في كتاب يوشع براور، وبن شاماى، تاريخ القدس، الفترة الإسلامية المبكرة، القدس، ١٩٨٧م، ص٥٩ .

(٨) راجع: الذيل على وليم الصورى، الذى وضعه أحد الفرنسيين، ٧، في غزو القدس والحملة الصليبية الثالثة، وأشرف عليه بيتر وليام إدبورى، ألدرشوت، هامبشاير، ١٩٩٦م، ص١٦ .

* * *

الفصل الرابع عشر

الأسواق

لم تكن مدينة بيت المقدس مركزا تجاريا مثل عكا أو صور، ولكن مع ازدياد عدد سكانها، والتدفق الهائل من الحجاج المسيحيين القادمين إليها، شهدت المدينة تزايدا ملحوظا فى الطلب على إمدادت الطعام، والملابس، والمصنوعات الدينية، والهدايا التذكارية، إلى جانب العديد من الأشياء الأخرى المختلفة. ولتزويدهم بهذه المتاجر فإن الفرنجة وأرباب الحرف احتلوا الأسواق الشرقية القديمة، والمناطق المكشوفة فى ضواحى المدينة. ولكن فى داخل أسوار المدينة كانت هناك أسواق تبيع المنتجات الزراعية، ويعتبر كتاب "وصف المدينة" أفضل مصدر لوصف تلك الأسواق ونوع السلع التى كانت تباع فيها[١].

الأسواق المفتوحة

كانت مدينة بيت المقدس مثلها مثل كثير من مدن العصور الوسطى المسورة لها مناطق مكشوفة ملاصقة لأسوارها، هذه المناطق أو المساحات تم شغلها بكثير من مزارع الكروم، والحدائق، والمجازر، والمدابغ، وببعض المنشآت الأخرى التى تحتاج إلى حماية الأسوار وسط بيئة معادية، إلا أنها وبسبب طبيعتها كانت تقع فى الأماكن المكشوفة على نحو مناسب، وبمنأى عن المناطق المأهولة بالسكان. وهناك كانت الأسواق المكشوفة تبيع المنتجات المختلفة، والدواجن، والمواشى، والدواب. وبسبب

القذارة، والرائحة، والصخب الناجم عنها، كان من الأفضل وجودها بعيدا عن المنازل، وجعلها قريبة قدر الإمكان من أبواب المدينة. وعلى أية حال، فإن المواشى والدواجن، ومنتجات الريف، كان من المتعذر نقلها إلى داخل المدينة عبر الدروب والأزقة ذات السلالم.

ففى منطقة باب داود كان هناك سوقان مكشوفان، كما جاء فى كتاب "وصف المدينة": سوق للحبوب، فإلى الشمال من برج داود "القلعة" كانت هناك ساحة كبيرة حيث يتم بيع القمح، هذه المنطقة الواقعة شمال القلعة، ظلت مفتوحة حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى، وهذا ما يمكن أن نستدل عليه من خلال الصور الفوتوغرافية والحفريات. لقد كانت هذه المنطقة منطقة نموذجية لأسواق المنتجات الريفية، تماما داخل البوابة الرئيسية للمدينة، والتى استطاع كل شخص تقريبا أن يمر فيها، سواء كان تاجرا أم من سكان المدينة.

أما السوق الثانى فقد كان سوقا كبيرا جاء ذكره فى المصادر على أنه سوق البطريرك "البطرك" الكبير. والحقيقة أن الموقع الفعلى لهذا السوق غير معروف، إلا أننا نستطيع أن نتصور موقعه إلى الشمال الشرقى من بركة البطريرك "البطرك"، ومن المحتمل أنه كان إلى الشرق من سوق الحبوب، بالقرب من أقصى الغرب من منازل حى البطريرك "البطرك"[٢]. وبالقرب من هذين السوقين كانت هناك كنيسة تمت الإشارة إليها فيما سبق، وهى كنيسة القديس جورج فى السوق، والتى تبدو واضحة فى خريطة كمبراى .

أما سوق الماشية فقد كان يقع إلى جنوب المدينة بالقرب من الباب الخلفى للمدابغ. ولأن المدابغ كانت موجودة فى الجنوب الشرقى مع ميل قليل إلى الشمال، وفى الجانب الشمالى من شارع المعبد، كما أن الدباغين، وباعة الفراء كانوا موجودين فى نفس المنطقة، لذا فإنه من المحتمل أن يكون سوق الماشية كان واقعا فى الفضاء الواقع فى الوادى الكبير، تماما إلى الشمال من المدابغ.

شوارع ودكاكين الأسواق

إن شوارع الأسواق، ودكاكينها، وميادينها وجدت في وسط المدينة، وكانت معدة لبيع المواد الغذائية والمنتجات المصنعة. فعلى امتداد الضلع الشمالي من شارع داود، وإلى الغرب من السوق الثلاثي، يوجد أربعة عشر دكانا متلاصقة، ثلاثة عشر منها كبيرة الحجم " ٢٠م × ٧,٥ م " كل منها تم تشييده من ثلاثة عقود هي عبارة عن أقواس نصف دائرية مدببة. هذه الدكاكين احتوى كل واحد منها على ستة أعمدة بلغ الواحد منها ١,٥ مترا مربعا، وعمودين نحيلين على واجهة الشارع بلغ سمك الواحد منها ما بين ٢ و ٢,٥ متر × ١,٥ متر، والجزء الأساسي من مبنى الدكان تم تقسيمه بواسطة عقود مستعرضة، وتم فصل الدكاكين عن بعضها البعض طوليا بحوائط ربما كانت إضافات لاحقة.

ويرى شيك أن تلك الدكاكين هي القلب النابض في حي الفرسان، وبدون حوائط التقسيم، فإن هذا المبنى كان مفتوحا كبيرا جدا، ولم يكن مثيلا لما يسمى بدكاكين الفرسان في حي الإسبتارية في هذه المدينة. وعلى أية حال، ففي مدينة بيت المقدس كل مبنى منها كان له مدخل واسع مقبب على شارع داود "أما الآن فمعظم هذه المداخل قد أُغلقت، إلا أنها مازالت تُرى بوضوح". وعلى هذا الأساس فإنها كانت وبلا شك دكاكين كبيرة، وربما كانت إسطبلات، أكثر منها مبان سكنية. والحجم الكبير لكل دكان ربما قد أتاح الفرصة لوجود غرفة متسعة تستخدم كمخزن أو ورشة. وفي شارع داود وتجاه هذه المباني كانت توجد الممرات الكبيرة ذات القناطر المحدبة، والتي بلغ عرضها ستة أمتار، وكانت ذات ارتفاعات مختلفة تراوحت ما بين أربعة أمتار في الغرب وسبعة أمتار في الشرق. وتم تشييدها على طريقة الدعامات من الحجر المربع المنحوت، والكثير منها عليها علامات حجرية، وفي أعلاها أجزاء حجرية ناتئة، كانت بمثابة دعامات لمحلات كانت في الطابق الأول العلوي[٢]. أما الأماكن السكنية فربما كانت في الطابق العلوي. وسواء كان فرسان الإسبتارية قد استغلوا هذه المباني،

أو أنهم قاموا بتأجيرها لبعض التجار فهذا موضع تساؤل. كما كانت هناك صهاريج كبيرة أسفل الجزء الرئيسى للدكاكين الست جهة الغرب. كذلك كانت توجد عدة صهاريج فى مؤخرة الدكان الثامن من جهة الغرب وخلف الدكان الرابع عشر.

وهناك مجموعة من أربعة دكاكين إلى الشرق، فيما بين المدخل الحالى لشارع داود والبيمارستان "الدكان التاسع منها يعد فى الجهة الغربية". هذه الدكاكين لم يكن لها حوائط فاصلة، وربما كانت كسوق مفتوح، وكما كان الحال لعدة سنوات مضت. أما الدكان الرابع عشر وهو فى أقصى اليسار فهو ضخم البناء بالنسبة لغيره بما يرجح أنه كان منفصلا عن البقية. هذا الدكان الأخير من الطبيعى أن تكون له واجهة إلى الشرق، والتى تم إغلاقها عندما تم شق شارع السوق المغطى فى تلك الجهة. وباختصار فإنه قد تعرض سنة ١٩٨٨م لنوع من التوسع بحيث أزيل جزء من الحوائط الداخلية من أحد هذه الدكاكين فى شارع السوق جهة الغرب. وقام الأثرى باهات بتسجيل ذلك. أما عن دعامات هذا الدكان التى على جانب شارع داود فقد تم تحديدها لتشكل فجوات من الجدران، "وتستخدم الآن كدكاكين" على جانبى الباب. وفى الجزء الرئيسى الشمالى من هذا الدكان يوجد سلم يؤدى إلى طابق علوى لم يعد موجودا الآن.

ويرى بعض العلماء أن هذا القطاع الشرقى من السوق كان عبارة عن مكان لبيع الجبن، والدواجن، والبيض، ومختلف أنواع الطيور الداجنة[٤]، كما جاء فى وصفها فى كتاب "وصف المدينة". وعلى أية حال، فإننا نرى أن الموقع كان إلى الشمال أكثر، ودعنا نلقى نظرة على ما جاء هناك : عندما تصل إلى حى الصيارفة اللاتين عند نهاية شارع داود، هناك شارع يسمى شارع جبل صهيون، لأنه يتجه مباشرة إلى جبل صهيون، (هذا عند التقاء شارع داود مع السوق)، وإلى اليسار من حى الصيارفة هذا هناك شارع مغطى بسقف ذى عقود، يسمى شارع التوابل، حيث تباع فيه كل أنواع التوابل، وكل أنواع الفاكهة فى المدينة، وفى أعلى هذا الشارع هناك مكان تباع فيه الأسماك (هذا هو أقصى الشمال من شارع السوق).

وفى قـمتـه (هكذا)، " والتى يقصد بها الطرف البـعيـد من السوق، من جـهـة الشمال – كما تم ذكر ذلك فى النص عند الحديث عن قصر البطريرك (البطرك)، والجملة التالية قد تمت قراءتها "وخلف السوق حيث يبيعون السمك– هناك مكان كبير جدا إلى اليسار حيث يتم بيع الجبن، والدواجن، والبيض، والطيور". وعبارة "مكان كبير جدا" تكشف عن فراغ ضيق إلى اليسار من السوق بين الدكاكين والسور الشرقى لكنيسة القديسة مريم الصغرى. والمكان الوحيد الذى يمكن أن يكون فيه السوق الكبير هو إلى اليسار وسط شارع باعة سعف النخيل إلى اليسار من خان الزيت، أمام منطقة صيارفة السريان. وهو ما كان موجودا فعلا فى الماضى – أى وجود سوق كبير من الأسواق – وفى عام ١٨٨٧م فإن بقايا شارعى السوق انهارت ولم تعد صالحة للاستخدام. وفى إحدى وثائق الشراء الخاصة بالحكومة الروسية فقد تم تنظيف المكان تماما وأعيد تشييد بعض المبانى. ولم يعد هناك أى أثر لهذه الأسواق. وعلى أية حال، فهناك تقرير مقتضب ومتضارب إلى حد ما قد تم نشره، ومعه خريطة لطيفة وضعها كونراد شيك يذكر فيه أن نوعية الحجارة كانت من النوع الهزيل بحيث لا يمكن أن ترجع إلى الفترة الصليبية، ويرى أنها تعود إلى الفترة البيزنطية. وقد قام بوصف الشارع بطريقة مختصرة، وقام بتحديد موضعها بطريقة خاطئة بأنها الشارع المغطى وشارع الطيور، فالشارعان كانا متوازيين ويتجهان من الشرق إلى الغرب، والشارع الشمالى كان أطول، لكن دكاكينه لم تمتد إلى نهايته، وكان مسقفا بعقود حجرية، ويبلغ عرضه حوالى ٤,١ متر، ودكاكينه بها عقود حجرية محدبة على جانبيه، والدكاكين التى إلى اليسار أكبر قليلا "بحوالى ٢,٤ متر × ١,٥ متر، و ٢,٤ متر × ٢,٤ متر " من الشارع الذى فى الجنوب "١,٥ × ١,٨ متر". أما الشارع الآخر وهو الأقصر فهو فى جهة الجنوب، وكان أضيق عند نهايته من جهة الغرب، حوالى ١,٨ متر ثم يتسع بحيث يصل إلى حوالى ٣ أمتار جهة الشرق. بحيث يبدو وكأنه يلتقى مع الشارع الآخر. وعلى العكس من الشارع الشمالى، فإنه لم يكن مسقوفا، وفى أسفله هناك مجرى للصرف الصحى. وأحد هذين الشارعين أو كلاهما ربما كان به سوق الجبن، والدواجن، والبيض، والطيور الوارد ذكرها فى كتاب "وصف المدينة".

كان شارع المعبد، وهو الامتداد الطبيعى لشارع داود جهة الشرق، مسرح الأحداث لظهور بعض الدكاكين وميادين الأسواق. ولقد قام الأثرى مايكل بيروين بتحديد معالم أربعة أسواق فى المنطقة. أولها كان عند نقطة التقاطع مع الشارع المغطى وشارع قنطرة يهوذا، والذى يشكل جزءا من خان السلطان، وهو شارع صغير مغطى بالعقود الحجرية، به ستة من الفجوات الجدرانية على كل جانب من جانبيه، والتى من المحتمل أنها استخدمت كدكاكين، وهى الآن مستخدمة كمرحاض عام.

والثانى يطلق عليه بيروين ساحة السوق، وهو أيضا جزء من خان السلطان، ومدخله الجنوبى من شارع المعبد، وهو عبارة عن فناء ذى عقود أسطوانية، وبه خمس غرف صغيرة تفتح إلى الشرق، وأربع إلى الغرب، بالإضافة إلى مدخل يؤدى إلى إسطبل. والفناء مقسم بستة عقود مستعرضة ومزينة فى أسفل بلكونة الطابق العلوى بأجزاء حجرية ناتئة صغيرة وأجزاء محفورة، وفى ذلك يقول بيروين :"يبدو أن الفناء كله فعلا بناء صليبى".

أما المبنى الثالث والذى حدد بيروين معالمه بأنه سوق، فهو عبارة عن فناء به ستة أجزاء رئيسية من عقود حجرية مدببة تستند على عامودين، ويقع هذا المبنى فى حوالى منتصف الطريق الهابط من شارع المعبد بعد ضريح الكيلانية المملوكية، ولقد لاحظ بيروين أن هانوير قد ذكر هذا الفناء على أنه كنيسة القديس جيل، والتى كانت حسبما جاء فى كتاب "وصف المدينة" تقع على الجانب الأيسر، وعلى القنطرة، إلا أنه افترض أن شكل المبنى لا يدل على كنيسة، ولكنه أقرب ما يكون إلى مبنى تجارى. ووفقا لما جاء فى كتاب "وصف المدينة"، فإن اللحوم كانت تباع فى سوق الجزارين، الذى كان يقع إلى الجهة الشمالية من شارع المعبد. وهذا الفناء من المحتمل أنه كان جزءا من ذلك السوق. ويصف لنا بيروين هذه البقايا الصليبية فيقول :"إن الأجزاء الرئيسية ذات العقود المتعامدة قد تم تقسيمها بقناطر مستعرضة، أما قطع الحجارة المربعة فقد تم استخدامها فى عمل الأعمدة ونقش عليها بعض الحروف اللاتينية ". أما سوق

الجزارين فقد احتل موقعا متميزا فى المدينة، فمن جهة احتل مكانه فى موقع رئيسى، ومن جهة ثانية كان قريبا وبشكل معقول من مصدر تمويله، وهو سوق الماشية، فى الجزء الجنوبى الشرقى من المدينة.

أما السوق الرابع في شارع المعبد فقد كان عبارة عن صف من الدكاكين فى الجهة الجنوبية من الشارع، وإلى الجنوب تماما من مقبرة بركة خان المملوكية. وقد وصف بيروين العقود الثلاثة المدببة، وقد كان السوق مفتوحا في الأصل، فى المنطقة المواجهة لشارع المعبد، كما وصف الحوائط الفاصلة داخل المبنى والتى تقسمه إلى ثلاثة دكاكين، كما ذكر أنه من المحتمل أنه كانت هناك دكاكين أخرى. كما لاحظ أن الحوائط الستة الفاصلة، كل واحد منها به دائرة تحيط بالحرف T قد تم حفره فى الواجهة وبارتفاع الكتف، وهذه بلا شك علامة ملكية للداوية(٥).

وفى الجزء السفلى فى النصف الشمالى من السوق، أى فى القسم الشمالى من شارع داود والذى كان يقع بين حى الصيارفة اللاتين وحى الصيارفة السريان هناك ثلاثة شوارع للسوق متوازية وذات عقود، وبقيت تقريبا سليمة وتعود إلى القرن الثانى عشر الميلادى. هذا المبنى الموجود يرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثانى عشر الميلادى. وحل محل سوق أقدم، يقول عنه مجير الدين إنه وجد منذ العصر البيزنطى وربما فى فترة أقدم من ذلك. وقد كتب يقول إنه فى القرن السابع الميلادى، وعندما فتح الخليفة عمر بن الخطاب المدينة، فإن السوق تم تقسيمه بين المسيحيين والمسلمين. هذه المنشأة قد تم بناؤها فى عهد الملكة ميليسند عام ١١٥٢م واستخدمت فيها عمالا من المسلمين من إحدى قرى القدس. والشوارع الثلاثة يبلغ ارتفاعها عن سطح الأرض ستة أمتار مربعة .

ولقد تم التأكيد على أوصاف هذه الأسواق وتواريخ إنشائها من وجود نقش حجرى يتكون من عدة حروف ترجع إلى العصور الوسطى وهى Sca Anna والتى تم تفسيرها على يد كليرمونت جانو عام ١٨٩٩م(٦). هذه الحروف تربط دكاكين السوق

بدير راهبات القديسة حنة، هذا البناء قد دعمته الملكة ميليسند لأن أختها إيفيت Yvette كانت راهبة فى هذا الدير. ومن المعروف أن هذا الدير كان يحصل على هبات وإقطاعات وفيرة، بحيث ذهب كليرمونت جانو إلى أن دير الراهبات هذا كانت له حصة إيجار الدكاكين المذكورة. ومن المحتمل أن يكون هذا الوضع قد استمر إلى بداية العصر الأيوبى، عندما تحولت كنيسة القديسة حنة إلى المدرسة الصلاحية، وتمت استعادة المناطق الرئيسية من الداوية مثل المسجد الأقصى. ويذكر مجير الدين أن السوق الغربى أصبح وقفا على المدرسة الصلاحية، وأن السوق الرئيسى والسوق الشرقى أصبحا وقفا على المسجد الأقصى(٧). كما أن الحرف T فى السوق الرئيسى يشير إلى أن الداوية كان لهم نصيب في دكاكينه، ولكن مجير الدين يبدو أنه أخذ الأمر بخصوص الشوارع بشكل خاطئ، ففى وصفه، فإن السوق الرئيسى أصبح من ممتلكات المدرسة الصلاحية والسوقين الآخرين من ممتلكات المسجد الأقصى.

وهناك دليل آخر على تاريخ البناء وأنه تم فى العصر الصليبى، يمكن الرجوع إليه، وهو استخدام الفرنجة لقطع الأحجار المثلثة الشكل فى البناء، فوجود العلامات الحجرية التى أشار إليها كليرمونت جانو، وبعض الأحجار المنحوتة والتى مازالت موجودة ويمكن رؤيتها إلى اليوم فى الفتحات المهمة فوق السوق الرئيسى، بالإضافة إلى النقوش، وهى مازالت موجودة فى الشارع الرئيسى؛ هذه الحقيقة، إلى جانب الفارق فى التصميم فى الشارعين الخارجيين- كلها تجعل من المعقول قبول وجهة نظر إدوارد روبنسون أن الشارع الرئيسى يرجع تاريخ إنشائه إلى عام ١١٥٢م، أما الشوارع الأخرى فقد تم إنشاؤها فيما بعد، لزيادة الامتداد وسعة مكان السوق. كما أن الشارع الشرقى يبدو أيضا أنه قد خضع لعمليات إعادة بناء فى فترة لاحقة. وهذا ربما يفسر السبب فى استخدام الأجزاء الحجرية الناتئة زمن الحروب الصليبية فى المؤخرة الشمالية للسوق.

وأسماء شوارع السوق الثلاثة فى العصور الوسطى كما جاء ذكرها فى كتاب المدينة وهى : شارع التوابل، وشارع الأطعمة المطهية، والشارع المغطى. وهناك بعض

الجدل الذى دار حول ترتيب الشوارع الثلاثة وعلاقة كل منها بالآخر، إلا أن كتاب "وصف المدينة" يعد واضحا تماما الوضوح فيما يتعلق بهذا الخصوص. فالسوق الموجود فى أقصى الشرق كان سوق التوابل، فقد قال عنه هذا الكتاب : يمكنك السير بطول شارع التوابل إلى شارع جبل صهيون إلى أن تصل إلى بوابة جبل صهيون، هذا الشارع كان يقطع شارع داود. وشارع جبل صهيون كان هو الشارع الغربى إلى الجنوب من شارع داود. أما الشارع الرئيسى فكان يعرف بشارع الأطعمة المطهية، أما الشارع الشرقى فكان يعرف باسم الشارع المغطى. وعن طريق الشارع المغطى يمكنك أن تصل إلى حى الصيارفة اللاتين، ومنه إلى شارع يعرف باسم شارع قنطرة يهوذا، ثم تعبر شارع المعبد، وهذا الشارع يؤدى مباشرة إلى بوابة جبل صهيون.

أما شارع قنطرة يهوذا فقد كان أقصى الشرق من شوارع السوق وإلى الجنوب منها. أما شارع التوابل فقد كان وفقا لكتاب "وصف المدينة" أهم مركز للنشاط التجارى فى المدينة، حيث تباع فيه التوابل، والفاكهة، أما الشارع المغطى فهو أقصر شوارع السوق الثلاثة، وفيه – وحسبما يذكر كتاب "وصف المدينة"– تجار الملابس والجوخ اللاتين يقومون ببيع الملابس. أما شارع الأطعمة المطهية، فربما يكون هو الأكثر أهمية من الشوارع الثلاثة. ومع النمو المطرد فى عدد الحجاج المسيحيين ظهرت الحاجة واضحة فى مدينة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى إلى مكان يمكن شراء الأطعمة الجاهزة للأكل منه. وفى الوقت الذى تم فيه تشييد تلك الأسواق عام ١١٥٢م فإن المدينة كانت زاخرة بالحجاج، والذين كانت حاجاتهم الأساسية تتضمن الإقامة والوجبات الغذائية. أما السكنى فقد تم تقديمها عن طريق العديد من النزل التى لدى فرق الرهبان الفرسان العسكرية، والجماعات الدينية. وربما قام الاسبتارية بإطعام بعض الحجاج لديهم. إلا أن وجود سوق حيث تباع الأطعمة المطهية كان حلا عمليا لغالبيتهم. وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى يلفت الحاج الألمانى فيلكس فابرى الدومينيكانى أنظارنا إلى سبب آخر لوجود هذه المنشأة الصليبية، وربما كان هذا السبب هو العامل

الرئيسى فى أن يقدر لهذه المنشأة الاستمرار فى العصر المملوكى، إذ يشير فابرى إلى صعوبة الحصول على الحطب اللازم فى المطابخ المنزلية فيقول : فى تلك الأنحاء لابد وأن تكون المطابخ فى مبان عامة ؛ ذلك لأنه بسبب جفاف الأرض، فإن الخشب نادر، ولهذا فإنك لا تجد المطبخ فى كل منزل وليس كما هو الحال عندنا.

وفى ذلك الوقت فإن الشارع أصبح معروفا باسم شارع الأطعمة المطهية. ووفقا لما ذكره عوبديا البرايتنيورى :" أن الأطعمة المطهية والخبز كان يتم بيعها". بينما يذكر كتاب "وصف المدينة" أن الحجاج كانوا يغسلون رؤوسهم فى ذلك الشارع. وربما كان هذا ضروريا بعد تناولهم الطعام، وبالتأكيد قبل ذهابهم لتأديه الصلوات عند الضريح المقدس. وربما كانت توجد نافورة عامة هناك، ومن المحتمل أنها كانت واحدة مما قام الألمان ببنائه من نافورات. كما أن ذلك المتبرع بهبة خيرية من منتصف القرن الثانى عشر الميلادى قد بنى ثلاث نافورات أخرى، كما نفذ مشروعا خيريا من أجل تحسين موارد المياه لسكان المدينة.

وفى أعلى سقف هذا الشارع هناك عدة فتحات مربعة لتسمح بنفاذ الضوء والهواء، وللسماح للدخان المتصاعد من الدكاكين بالخروج منها. أما الشوارع الأخرى فلها فتحات على جوانب العقود، وحتى بدايات القرن العشرين للميلاد فقد كانت العقود المدببة تغطى كل فتحة من هذه الفتحات فى أعلى الشارع الرئيسى للسوق، وتسمح للضوء بالنفاذ وتحمى المارة من الأمطار. ويمكن رؤيتها فى صور سقف السور والتى تم أخذها أعوام ١٩١٨م - ١٩٢١م.

كما أن المصاطب أو المقاعد الحجرية التى كانت تميز هذه الشوارع حتى القرن التاسع عشر للميلاد، والتى يمكن مشاهدتها فى الصور الفوتوغرافية والنقوش ربما كانت موجودة فترة الحروب الصليبية. ومعظم هذه المصاطب تمت إزالتها حوالى عام ١٨٦٣م - ١٨٦٤م عندما أجريت عملية إعادة رصف تلك الشوارع. ذلك أن هانوير قد وصف تلك المصاطب وعملية فتح وغلق أبواب الدكاكين فى الشارع المغطى "والواقع فى الاتجاه الشرقى من الأسواق الثلاثة"، والتى ظلت حتى بدايات القرن العشرين للميلاد.

وعلى طول جانبى الشارع وأمام الدكاكين، كانت هناك المصاطب الحجرية، والتى يبلغ ارتفاع الواحدة منها حوالى قدمين ويبلغ عرضها ياردة واحدة. أما ضلفتا كل باب من أبواب الدكاكين فلم تكونا مثبتتين فى حلق الباب مثل الأبواب العادية ولكن كان يتم وضعها على عتبة الباب على التوالى، ويتم إحكامها بحزام فى منتصف الباب العلوى. وعندما يتم فتح الدكان كان يتم وضع الضلفة الأولى فوق المصطبة بشكل أفقى، وإذا تمت تغطيتها بقطعة من السجاد فإنها تشكل منصة معقولة يجلس عليها التاجر وعملاؤه لإجراء عمليات البيع والشراء، أو لاستخدامها كمكان لعرض السلع التجارية. بينما تترك الضلفة الأخرى فى وضع رأسى ويتم تثبيتها بقضيب من الحديد إلى الحائط الذى خلفها، أو يتم سندها بشكل رأسى أو مائل نوعا ما فوق المصطبة وبحيث يتم تعليق قطعة قماش عليها لجعلها كمظلة، وعلى الأجزاء السفلية منها توضع الإعلانات ليراها المارة، وقد أدت مهمة فترينات الدكاكين فى أوربا(٨).

وحيث إن هذه الترتيبات كانت مماثلة لدكاكين العصور الوسطى فى أوربا، فإنه من المحتمل أن هذا يوضح لنا كيف كانت تبدو الدكاكين عندما يتم بناؤها فى القرن الثانى عشر الميلادى.

وفى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى تم العثور على قطعة من الحجر فى سوق الطيور فى دكان لبيع الأحجار فى مدينة بيت المقدس. ووفقا لما قاله كليرمونت جانو فإنه تم الكشف عنها أثناء عمليات ترميم فى مبنى المحكمة (وهى مبنى يقع بجوار جبل المعبد). وعليها أثر أدوات العمل الفرنجية وعليها نقش ربما يمكن قراءته :"... ١١١...(؟) uus 11d ". ويرجح كليرمونت جانو قراءة الكلمة الأولى بأنها "الأطعمة" ومما يدعم هذا الرأى وجود نقش فيه عدة آلات للطعام فى أعلى القطعة الحجرية.

وإلى الجنوب مباشرة من سوق الطيور وفى السوق المغطى الآخر، والذى يرجع إلى أواخر القرن الثانى عشر للميلاد، ومن المحتمل أنه يرجع للفترة البسيطة من الحكم الفرنجى فى القرن الثالث عشر الميلادى، وهو شارع مغطى لسوق كبير جديد قد تم

بناؤه فى الجزء الجنوبى من السوق القديم، هذا البناء كان ذا طابقين يبلغ عرضه ٦,٥ متر، به ثلاثة عشر دكانا ذات عقود متوازية فى جانبه الغربى "تبلغ مساحتها فى المتوسط ٣,٥ متر × ١١متر" وإحدى عشر دكانا. أصغر بها حنايا ذات عقود "٤م × ٤م" إلى الشرق. وكلها تشكل بناء جيد الإنشاء، وأكثر رحابة من شوارع السوق الواقعة إلى الشمال منه. ومن المحتمل أنه كان فى الأصل أكثر امتدادا إلى الجنوب مما هو عليه الحال فى الوقت الحالى، وإن كانت حدوده الشمالية قد تم تحديدها بالعمود المستطيل ذى التاج والقاعدة وعليه حروف فرنجية باللاتينية والتى يمكن مشاهدتها فى الواجهة المزخرفة للمبنى "معظمها الآن مطموس ببناء آخر قد تم تشييده فى فترة لاحقة".

وهنا يمكننا أن نتساءل عما إذا كان قد قدر لهذا السوق أن يظهر على خرائط العصور الوسطى أم لا. فعلى معظم الخرائط المستديرة لمدينة بيت المقدس تظهر الكلمات "سوق لبيع السلع" وأنه موجود إلى الجنوب من شارع داود وعلى الجانب الشرقى من شارع جبل صهيون. ومثل هذا السوق عادة ما يظهر على شكل مساحة مفتوحة بها عدة مبان تحيط به، ولكن على خريطة فلورنسا فإن هذه المنشأة تظهر على أنها مبنى ممتد كبير.

وبالطبع فإن هذا مجرد عودة إلى الطراز القديم بما يحمله من علاقة ولو بسيطة بالمبنى الحقيقى، كما أن الخريطة من الواضح أنها متأخرة تماما عن فترة بنائه، فهى تشير إلى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر للميلاد، إلا أن ما هو جدير بالملاحظة أن الرسم عليها يظهر فناء كبيرا للسوق.

وفيما يتعلق بتاريخ هذا المبنى، ففى إحدى الدكاكين هناك قطعة من الحجر تم العثور عليها وعليها تم النقش "SCAANNA" وقد أعيد استخدامها، وهى حقيقة يمكن أن تحدد لنا تاريخا متأخرا، أكثر من مبنى السوق الشمالى "١١٥٢م". حقا، إنه فى مقدورنا أن نفترض تاريخا متأخرا، ذلك لأنها قد جاءت من مبنى تم تدميره؛ مما قد

يشير إلى إمكانية القول بأن السوق الذى بنى إلى الجنوب قد بنى عندما عاد الفرنجة إلى مدينة بيت المقدس فى القرن الثالث عشر. وربما يمكننا هذا من تفسير ما جاء فى خرائط القرن الثانى عشر الميلادى من عبارة "سوق لبيع السلع" على شكل مساحة مفتوحة، ولماذا لم يتم ذكر هذه السوق فى كتاب المدينة. وبالنسبة لفائدته، فليست هناك أية معلومة فيما وراء هذا العنوان الغامض الموجود على الخرائط تعطينا أية فكرة عن نوعية السلع التى كانت تباع هناك.

ومما تجدر الإشارة إليه، أنه فى المدخل الشمالى لشارع السوق هنا، وعلى الجانب الشرقى، هناك منزل به ثلاثة دكاكين، وإلى الجنوب منه، فى المنطقة مابين هذا المنزل ومبنى السوق، تمت إضافة دكان رابع فى مرحلة لاحقة. هذه الدكاكين بسيطة، مبناها ذو عقود متوازية، كل دكان منها لها باب يطل على شارع قنطرة يهوذا الإسخريوطى، وأبواب ذات عقود ضخمة ولها شبابيك صغيرة فى أعلاها تطل على الشارع إلى الغرب منه[٩]. أما عن صاحب هذا المبنى، فهناك إشارة خفيفة فى شارع قنطرة يهوذا، على شكل علامة T كدليل على أنه أحد ممتلكات الداوية تم وضعها على الدكان الصليبى الثانى.

وعن الأسماك، فقد كان يتم جلبها من الساحل أو من البرك الموجودة فى أحياء المدينة، وكان يتم بيعها فى سوق الأسماك. وقد تم ذكرها مرتين فى كتاب "وصف المدينة"، وجاء ذكرها لأول مرة على أنها تقع فى أعلى شارع التوابل. كما جاء ذكرها بعد ذلك على أنها تقع أمام مكان الصيارفة السريان.

وهناك أيضا شارع لسوق مغطى كبير معروف باسم سوق القطانين أو سوق القطن يقع على الجانب الشرقى من شارع الوادى الكبير، إلى الشمال وموازٍ لشارع المعبد. ويبدو من الاسم أنه فى الأصل من القرن الخامس عشر الميلادى، وكل ما يمكننا عمله هو التركيز على نوعية السلع التى كانت تباع فيه زمن الحكم الصليبى. فهو مبنى مهيب ذو عقود متوازية، به ثلاثون جناحا منفصلة عن بعضها البعض

بأقواس مستعرضة يحتوى على العديد من الدكاكين الصغيرة فى كل جانب من جوانبه، وفى أعلاه أماكن للسكنى، ويصل شارع الوادى الكبير بجبل المعبد. ولقد جرى العرف على أنه يرجع فى تاريخه إلى الفترة الأيوبية أو المملوكية. وعلى أية حال، فإن بيروين يطرح قضية للمناقشة بأن جزءا من سوق القطانين قد تم تشييده فترة الحكم الصليبى، حيث لاحظ وجود عدة فوارق معمارية بين نصفى الشارع الغربى والشرقى، فالجزء السفلى الغربى يبدو أنه يرجع إلى بناء مبكر، توجد منه بعض البقايا، فى حين أضيف الجزء الجديد الشرقى فيما بعد. ويضيف قائلا : " لا يوجد أى شىء فى الجزء الغربى من شارع السوق يكذب الأصل الصليبى"(١٠). ولدعم الرأى القائل بتاريخ لاحق فى الفترة الثانية للحكم الصليبى " ١٢٢٩م أو بعدها " بالنسبة للجزء الأقدم من السوق، تجدر الملاحظة إلى أن الوصف الذى جاء فى كتاب "وصف المدينة" عن الشارع من عند بوابة القديس ستيفان إلى بوابة المدبغة والشوارع المؤدية إليها – فهى لا تذكر شيئا عن هذا المبنى، والشىء الأكثر اثارة هو ما حذف ذكره، إلا إذا كان وببساطة لم يتم ذكره فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى أو فى بدايات القرن الثالث عشر الميلادى عندما تم تحرير هذا العمل.

وعن شارع سعف النخيل، فهو المكان الذى كان يقوم الحجاج المسيحيون بشراء سعف النخيل أثناء مواكبهم فى الأماكن المقدسة، ثم يحملونه معهم عند العودة إلى أوطانهم. وفى الفترة الصليبية – وربما فى فترة مبكرة عن ذلك– أصبح سعف النخيل رمزا للحج. ووفقا لما جاء فى كتاب "وصف المدينة"، فإن هذا السوق كان يقع فى المكان الذى يمتلك فيه صناع الذهب السريان دكاكينهم. ولقد وصف على أنه شارع مسقوق ذو عقود، حيث يبيع السريان الأقمشة، وحيث يقومون بصنع الشموع.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الرابع عشر

(١) انظر على سبيل المثال الصور التى أخذها جون كرامب عام ١٨٦٠م، وقام بنشرها فى كتاب لنيسان إن بيريز، صور شرقية، صور مبكرة فى الشرق الأدنى، ١٨٣٩-١٨٨٥م، نيويورك وبيت المقدس، ١٩٨٨م، لوحة رقم ٥٦ .

(٢) بسبب الرغبة فى عدم السكنى بالقرب من الأسواق الكبيرة أو (بسبب ذلك، أو لأن أى سوق يبيع المواد الغذائية)، فمن المحتمل تماما أن المنازل فى هذه المنطقة كانت تباع أو تستأجر بمبالغ زهيدة. ففى عكا فى القرن الثالث عشر، فإن المنازل الواقعة بالقرب من الأسواق الكبيرة فى الحى الجنوبى كانت من أرخص الممتلكات التى يتم تأجيرها أو شراؤها فى المدينة، انظر: س. ديزمونى؛ "أربع أنواع من الممتلكات الجنوية فى عكا وصور"، أرشيف الشرق اللاتينى، ج٢، الصفحات من ٢١٧-٢١٩ .

(٣) هذه الوحدات ليست مماثلة للمبانى ذات العقود فى النصف الشمالى من قيصرية، والتى يرى برنجل أنها كانت عبارة عن المطاعم، (والتى تبلغ مساحة الواحد منها ٥,٧×١٦ مترا مربعا) وهى لأحد التجار وفى أعلاها مساكن؛ راجع: دينيس برنجل، كنائس مملكة بيت المقدس الصليبية، ج١، كمبردج، ١٩٩٣م، ص١٨٢-١٨٣ .

(٤) انظر: يوشع براور، "إثنوجرافية بيت المقدس الصليبية"، فى كتاب يوشع براور، وبن شمعى، الأطلس المصور لبيت المقدس، القدس، ١٩٩٠م، ص٩١ .

(٥) لقد لاحظ بيرونى وجود علامات مماثلة وعليها درع مثلث، وحرف T المقلوب فى باب السلسلة / باب السكينة، فى المستشفى المملوكى الخاص بالحجاج، رباط علاء الدين، وعلى دار القرآن السلامية وفى غرب سوق اللحامين، وأخرى قد تم العثور عليها فى الجانب الغربى من شارع بوابة يهوذا على القنطرة، ودرع مثلث الشكل مماثل لتلك الدروع الموجودة فى دكاكين شارع المعبد، ولتلك الموجودة فى كنيسة القديس توماس الصغيرة فى الحى الأرمنى.

(٦) هذه النقوش قد تم تسجيلها على العقود التى ترجع إلى الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر. فى الجهة الشمالية من الشارع القادم من الشمال (مكونا المدخل المعقود)، راجع: كليرمونت جانو، الأبحاث الأثرية، ص١١٨-١١٨، ويرى كليرمونت جانو أنه ربما وجد الكثير. وفى عصرنا الحالى فإن هناك القليل مما أمكن لكليرمونت جانو رؤيته ما يزال واضحا للعيان، مثل حرف T الكبير. والذى مازال يرى فى ركن الممر القصير الذى يربط هذا الشارع بالسوق المتوازى إلى الشرق.

(٧) من المحتمل أن الخطأ الذى وقع فيه مجير الدين بسبب اسم الشارع وهو شارع التوابل، والمختلف بعض الشيء عن سوق العطارين (سوق الأعشاب الطبية)، والذى تم نقله من الشارع الغربى إلى شارع رئيسى بعد الفترة الصليبية، وفيما يخص فرسان الداوية، وكما سبقت الملاحظة، فهناك الحروف "S"و"T"، أو أحدهما أحيانا، وأحيانا أخرى فى دوائر أو دروع، وذلك على عدد من المبانى فى كل أنحاء المدينة. وهذه علامة على التملك، والتى كانت شائعة، أكثر من الحروف "SCA ANN" ونقوش الداوية وهى "T" "S"، وهناك أيضا نقوش عليها صلبان على عديد من المبانى. فقد لاحظ كليرمونت جانو وجود نقش يرجع لعام ١١٧٤م فيه عدد من الصلبان محفورة على حوائط مستشفى جماعة فرسان القديس يوحنا فى القدس، راجع: كليرمونت جانو، ١٨٩٩م، ص١٢٠ . بعض هذه الصلبان ربما كانت علامات حجرية، وكما تبدو فى حالة فى حجارة برج داود، أو علامات للحجاج المسيحيين، وكما هى الحال عليه فى الضريح المقدس، وربما فى مقبرة حقل الدم. وعلى أية حال، ففى بعض الحالات تبدو وكأنها علامة للتملك للتمييز بين المبانى التابعة لكنيسة الضريح المقدس.

(٨) راجع: هانوفر، جولة حول القدس، ص٨٤-٨٥، وهناك صورة تظهر فيها الأبواب العليا، والدكك البحرية، تم نشرها عند إيلى شيلر، القدس، التغيرات فى الأجيال الحاضرة (باللغة العبرية)، القدس، ١٩٧٧م، ص١٢٣ .

(٩) لقد تم افتراض أن هذا المبنى هو شارع الدكاكين الذى بنته الملكة ميليسند وأشير إليه فى وثيقة عام ١١٥٢م (باهات، نيهل، ص٧٩٦) ولكن هذا من غير المحتمل لأن برنجل قد قارن بين هذا المنزل وعدد من المنازل فى شارع جبل صهيون، والتى ذكرت فى وثيقة لرهبان الضريح المقدس يرجع تاريخها لعام ١١٤٣م، تلك المنازل كانت فوق أقبية الصيارفه الاسبتارية، والتى كانت بدورها تقع أعلى مخيزة. راجع: برنجل: القدس الصليبية، ص١١٠ .

(١٠) المرجع نفسه، ص٢٧٣ . باهات (آراء شخصية) حيث لاحظ أن إعادة بناء الجزء الغربى من المبنى، قد استخدمت فيه قطع الحجارة الصليبية ذات العلامات المائلة، والتى لم تكن طبق الأصل من حجارة القرن الثانى عشر، وأن هذا لا يتعارض مع ما ذكره برونى من رأى بأن هذا الشارع ربما كان واحدا من الفنادق التى أقامها فردريك الثانى عام ١٢٢٩م، نفس المرجع.

* * *

الفصل الخامس عشر

منشآت اجتماعية أخرى

بالإضافة إلى الحاجة الواضحة للتحصينات الحربية، والمبانى الدينية والإدارية، إلى جانب المنشآت الاقتصـــادية التـى أقامها الفرنجة فى مدينة بيت المقدس، فقد كانت هناك حاجة ماسة إلى عدد من المبانى الأخرى المعدة لخدمة السكان المحليين والحجاج المسيحيين. ومن بين هذه المبانى تأتى المستشفيات، والحمامات العامة، والإسطبلات.

المستشفيات ونزل الفقراء والمسافرين

فى عالم العصور الوسطى فإن مصطلح المستشفى لم يكن ليرمز دائما إلى المكان الذى يتلقى فيه المرضى العلاج الطبى اللازم. وتحت هذا الاسم كانت هناك على الأقل أربعة أنماط من المنشآت التى تضمنت : مستشفى مرضى الجذام، والمنشآت التى كانت تعنى بالمرضى أو الجرحى، والملاجئ المعدة لاستقبال الفقراء والمحرومين، والنزل المعدة لاستقبال الحجاج المسيحيين وعابرى السبيل. وفى مدينة بيت المقدس زمن الحكم الصليبى كان هناك عدد من المستشفيات أو المشافى. هذه المستشفيات تضمنت مستشفى فرقة الرهبان العسكرية لفرسان القديس يوحنا، ومستشفى ثان لفرقة رهبان القديس يوحنا كان مخصصا لاستقبال المرضى من النساء، ومستشفى لمرضى الجذام من الرجال، ومستشفى آخر منفصل عنه لمرضى الجذام من النساء، ومستشفى للحجاج

المسيحيين الألمان، ومستشفى تابع لدير القديسة مريم اللاتينية والذى تم بناؤه فى داخل بوابة القديس ستيفان. ومستشفى تم تأسيسه فى عام ١١٣٥م كان ملحقا بالكنيسة المجرية فى الشمال الغربى من مدينة بيت المقدس. كذلك كان لدى جماعة الداوية من الفرسان الرهبان العسكرية مشفى لاستقبال الأخوة الرهبان المرضى. أما رهبان دير القديسة مريم فى وادى يهو شافاط فقد كان لديهم مشفى لاستقبال المرضى الفقراء والحجاج المسيحيين.

أما أهم مستشفى فى بيت المقدس فقد كانت مستشفى جماعة الرهبان الفرسان للقديس يوحنا والتى تمت الإشارة إليها فيما سبق. ويرجع أصل هذه المستشفى وربما مستشفى ثان للمرضى من النساء إلى القرن الحادى عشر للميلاد وربما إلى فترة مبكرة عن ذلك. وعلى أية حال، ففى زمن الحكم الصليبى فإن هذه البدايات المتواضعة قد تولد عنها مؤسسة قوية وكبيرة والتى تعد من أهم إنجازات فرقة الرهبان العسكرية للقديس يوحنا ،وهى المستشفى المسماة باسم فرقة الرهبان هذه فى مدينة بيت المقدس.

ومن الطبيعى أن تكون وظيفتها الأولى فى بداياتها الأولى كنزل بصفة أساسية، وأن دورها كمستشفى بالمعنى الحديث قد حدث فى وقت لاحق[1]. ومع هذا، ففى بدايات عام ١١٣٠م غدا من الواضح تماما أنها كانت فى حالة تسمح لها باستقبال المرضى وتقديم الرعاية الطبية لهم. ولم تكن المستشفى كمنشأة جديدة على حياة مدينة بيت المقدس أو ظهرت فترة الحروب الصليبية فيها، ذلك أن الرحالة الفارسى ناصرو خسرو عندما زار القدس عام ٤٣٧هـ/١٠٤٥م زمن الحكم الفاطمى قال :"وفى بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديد من العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف، وهذا المستشفى ومسجد الجمعة على حافة وادى جهنم". إلا إذا كان يشير إلى منشأة أخرى، أى مستشفى إسلامى، ومن المحتمل أن المستشفى الصليبى وكما يبدو لم يكن شيئا جديدا فى مجال تقديم الخدمة الصحية ومعالجة المرضى، أكثر من كونه يمثل استمرارية تقديم الخدمات الطبية.

وبالنسبة لمصادر العصور الوسطى، سواء منها ما يتعلق بالقرن الثانى عشر للميلاد أم فى الفترة اللاحقة فإنها قد ألقت بعض الأضواء على هذه المنشأة. فالحجاج المسيحيون أمثال يوحنا الورز برجى، وثيودريك قد وصفا المبنى والوظائف التى كان يؤديها. كما أن نظم جماعة الإسبتارية قد أضافت بعض التفاصيل المهمة، وبوجه خاص ما جاء فى الترجمة الفرنسية القديمة عن مكانة روجر دى مولينز **Roger des Moulins**، والذى تم اختياره كرئيس لها فى عام ١١٧٧م. وهناك مصدر آخر قيم جدا هو الوصف الذى كتبه أحد الحجاج المسيحيين وقد كان نفسه أحد مرضى هذه المستشفى[٢]. هذه المصادر قد زادت من معارفنا عن الأعمال التى كان يؤديها المستشفى.

هذه المنشأة الجديرة بالذكر والتى جاء ذكرها فى وثيقة ميونيخ على أنها مستشفى عام، كانت تفتح أبوابها لاستقبال المرضى والجرحى بصرف النظر عن مكانتهم أو أصولهم وأديانهم. ومن المحتمل أنه قد سمح للمسلمين واليهود بتلقى العلاج فيها[٣]. وقد كان فى مقدور هذا المستشفى أن يقدم خدماته لما بين ٩٠٠ وألف مريض فى الأوقات العادية، وتتضاعف هذه الأعداد فى أوقات الضرورة[٤]. كما أن الأطباء كانوا يحصلون على مرتباتهم نظير زيارتهم للمرضى مرتين فى اليوم، ويأخذون عينات للبول، ويقيسون ضغط الدم لهم، ويشخصون الأمراض المختلفة، ويقومون بإعداد وتحضير العلاج اللازم. كما كان يُعطى لكل مريض سرير مناسب، كل سرير عليه الملاءة والوسائد بأغطيتها، بالإضافة إلى أن كل مريض كان يصرف له عباءة من الصوف، وغطاء للرأس من الصوف، وقبقاب لاستخدامه عند دخول المرحاض. أما النساء اللاتى يدخلن المستشفى للولادة فقد كان يتم تزويدهن بالأسرة الصغيرة للأطفال المولودين لحماية هؤلاء الأطفال من أى ضرر قد يقع لهم من جراء مشاركتهم لأمهاتهم الأسرة الخاصة بهن. كما أن المريضات منهن كانت تصرف لهن الوجبات المناسبة، بما تضمه من لحوم طازجة ثلاث مرات أسبوعيا سواء فى ذلك لحوم الضأن أو لحم الخنزير أو الدجاج.

وكانت هذه المستشفى تتلقى الإعانات من المستشفيات الأخرى ومن الأديرة من كل مكان فى الشرق اللاتينى ومن أوربا. فعلى سبيل المثال، فإن ملاءات الأسرة القطنية الصنع كانت تصلها كل سنة من فرنسا، والأشياء المصنوعة من اللباد كان يتم الحصول عليها من القسطنطينية، إلى جانب ألفى ذراع من الأقمشة القطنية كان يتم جلبها من أنطاكية، والكثير من قماش الفستيان من إيطاليا، والسكر من منطقة جبل الحجاج فى كونتية طرابلس. ولقد كان السكر يشكل عنصرا مهماً فى تركيب كثير من المشروبات والأدوية المختلفة. كذلك قام المستشفى بصرف مبالغ كثيرة من الصدقات لفقراء المدينة، فضلا عن الملابس، والخبز، والطعام المطهو والنبيذ، إلى جانب قيام المستشفى بإطعام ثلاثين فقيرا كل يوم.

وبعد استرداد صلاح الدين الأيوبى لمدينة بيت المقدس عام١١٨٧م، سمح لعدد من أعضاء فرقة الرهبان الفرسان للقديس يوحنا بالبقاء فى المستشفى لمدة عام لرعاية المرضى الموجودين هناك. ثم أقام مستشفى فى حى الاسبتارية، أطلق عليه اسم البيمارستان الصلاحى. "ومصطلح بيمارستان مصطلح فارسى يعنى المكان المعد لعلاج المرضى". ومن الواضح أنه كان منشأة صغيرة تقع فى أحد كنائس الاسبتارية(٥). وفى القرن الرابع عشر الميلادى وصف لادولف السوخيمى يصف هذا المستشفى الصليبى بأنه كان المستشفى العام الخاص بالحجاج المسيحيين، إلا أنه من الواضح أنه كان يقصد نزلا أو مأوى للفقراء أو المعدمين. ومن المحتمل أنه كان فى حالة يرثى لها إلى حد ما، وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى يصفه فيلكس فابرى بأنه :"مبنى كبير ذو عقود، قذر ومتهدم" حيث "ينزل فيه الحجاج المسيحيون وفق جنسياتهم المختلفة".

وإذا ما عدنا إلى القرن الثانى عشر الميلادى، فإننا نجد رأيين فيما يتعلق بالموقع الحقيقى للمستشفى داخل حى الاسبتارية: الرأى الأكثر شيوعا منهما هو أن المستشفى كان يقع إلى الشمال الغربى من الحى، وإلى الجنوب من كنيسة الضريح المقدس، فى حين يفترض البعض أنه كان يقع فى الجنوب الشرقى،

على امتداد شارع داود، حيث قام كيدار بإحصاء عدد الأجنحة فى البقايا الأثرية الموجودة فى الجهة الشمالية الغربية ومقارنتها بمثيلاتها فى المبنى الواقع فى الجنوب الشرقى، ووصل إلى نتيجة مؤداها أن المبنى الشمالى الغربى به نفس العدد من الأجنحة ونفس عدد العنابر التى جاء ذكرها فى نص ميونخ "وهى أحد عشر"، وهى تقابل الثلاث عشرة الموجودة فى المجمع الواقع إلى الجنوب الشرقى[٦]. وعلى أية حال، فإن الدليل الأكثر احتمالا هو ما جاء فى كتاب "وصف المدينة" وهو الأكثر وضوحا فيما يتعلق بهذه النقطة[٧]، حيث جاء فيه :"هناك باب إلى جهة اليمين من شارع البطريرك، وعن طريق هذا الباب يمكن الدخول إلى مبنى المستشفى"[٨]. وفى موضع آخر ذكر: "وإلى اليمين من المستشفى للقادم من كنيسة القديسة مريم اللاتينية هناك البوابة الرئيسية للضريح المقدس". كما أن هذا الموقع تؤكده أيضا الخريطة التى وضعها كونراد شيك، حيث يوجد البناء الضخم ذوالعقود إلى الجنوب مباشرة من مدخل كنيسة الضريح المقدس. كما أنه فى مقدورنا أن نرى دليلا على وجود الباب فى شارع البطريرك بالرجوع إلى كتاب المدينة الممتد فيما وراء السور الشرقى عند طرفه الجنوبى. ومثل هذه العبارات إلى جانب الدليل الأثرى تبين بشكل واضح أن موقع المستشفى كان فى حى الاسبتارية[٩].

أما عن تاريخ إنشاء هذا المستشفى، فإن جاروسلاف فولدا يرى أن ذلك مابين عامى ١١٤٠م و١١٥٥م، حيث لم يكن فى استطاعة فرقة الرهبان قبله أن تشيد هذا المستشفى بسبب قلة الموارد المالية. وحسبما يذكر وليم الصورى فإن المبنى كان موجودا عام ١١٥٥م.

وهناك العديد من المصادر المعروفة المعاصرة التى تصف لنا ملامح هذا المستشفى. فهناك أوصاف مسجلة قبل عملية طمس المبانى الأخيرة والتى حدثت فى الحى لشق طريق للسوق الجديد الذى تم بناؤه عام ١٩٠٥م، وهى تضيف شيئا ما إلى معلوماتنا عن ملامح ذلك المستشفى، كما أن هناك بعض الصور الفوتوغرافية للبقايا

الأثرية قبل هدمها. فلقد وصفه ثيودريك قائلا : بالنسبة لهذا، فلا يستطيع أحد أن يخبر الآخر وبطريقة معقولة كيف كانت مبانيه جميلة، وكيف كان مزودا بعدد كبير من الغرف والأسرة وأشياء أخرى يتم استخدامها لصالح الفقراء والمرضى، وكيف كان المستشفى غنيا بوسائل التخفيف عن الفقراء، وكيف كانت الخدمة فيه تؤدى بإخلاص للمحتاجين - إلا إذا كانت لديه الفرصة لأن يرى ذلك بنفسه.

ووفقا لما ذكره وليم الصورى، فإن المستشفى كان أعلى من كنيسة الضريح المقدس، كما أن الأعمدة الحجرية التى ذكرها شيك تؤكد الانطباع الذى جاء عند وليم الصورى بأن هذا المبنى كان على درجة من الضخامة، وربما كان أوسع من ممتلكات الإسبتارية فى مدينة عكا، حيث تم الكشف عنها، وهى كما نعرف من إحدى الصور من القرن السابع عشر الميلادى كانت من ثلاثة أو أربعة طوابق. أما العنابر الأحد عشر التى جاء ذكرها فى نص ميونخ - والذى تمت ترجمته على يد كيدار- على أنها الأحد عشر قاعة الشمالية الغربية الموجودة على خريطة شيك، وكانت تتكون من ثمانى قاعات كبيرة إلى الشمال، كل قاعة منها تتكون من أربعة عقود كبيرة تستند على أعمدة حجرية، وثلاث قاعات إلى الجنوب، كل قاعة منها لها جناحان. وربما كانت القاعات الثلاث الأخيرة هى التى جاء ذكرها عند فيلكس فابرى عام ١٤٨٠م على أنها جزء من بقية الغرف الأخرى، وهى فى مكان مغلق جدير بالاحترام، وكان يشغلها النبلاء من الحجاج المسيحيين. والمنطقة التى تشغلها القاعات الشمالية كانت مساحتها ٢٨,٣م × ٥٧,٥م، بينما كان ارتفاع كل عقد يبلغ ستة أمتار. ووفقا لما ذكره بنفنستى، فإن المدخل الرئيسى للمستشفى كان فى الجهة الجنوبية الشرقية. ومع هذا، فإن كتاب "وصف المدينة" يذكر مدخلين، الأول منهما يقع إلى الغرب فى شارع البطريرك، والآخر وهو الباب الرئيسى. ويبدو أنه كان هناك مدخل مباشر فى كنيسة القديسة مريم الكبرى.

وهناك مستشفى ثان فى حى الإسبتارية خاص بالمرضى من النساء، ويبدو أنه منشأة جديدة تماما، وإن كان الأكثر احتمالا أنه من حيث الأصل يرجع إلى مستشفى

أقدم خاص بالنساء يقع فى دير القديسة مريم المجدلانية . ذلك أن المؤرخ الأمالفى المجهول يذكر مستشفيين للمرضى من الجنسين، وعلى سبيل المثال كان هناك مبنى مستقل تم تخصيصه لاستخدامات النساء. وليس من المعروف ماذا حدث لهذه المنشأة بعد أن استولى الصليبيون على مدينة بيت المقدس عام ١٠٩٩م، وعلى الرغم من أنه لم يأت ذكر له فى الحوليات، إلا أنه وعلى ما يبدو قد قدر له البقاء، ذلك أن نص ميونيخ يذكر أنه قد تم بناء مستشفى النساء كمبنى ثان مستقل قدر له البقاء فى القرن الثانى عشر للميلاد. كذلك يبدو أنه كان بناء كبيرا نوعا ما. والموقع الأكثر احتمالا هو إلى جوار كنيسة القديسة مريم الصغرى، وحيث كان مستشفى النساء فى القرن الثانى عشر الميلادى. وهنا تحديداً، وإلى الجنوب من جوقة المرتلين، كان يوجد مبنى ضخم له عقود، تبلغ أبعاده تقريبا ٤٨ مترا "أو ٤٠ مترا" × ٤٠ مترا، والبقايا الأثرية منه مثلها مثل المستشفى الرئيسى كانت قائمة حتى القرن الثانى عشر الميلادى. وعلى الخريطة التى وضعها شيك يمكن رؤيتها وهى تشغل المساحة بين ساحة السوق و"الخان" فى الطرف الشرقى لشارع داود وجوقة المرتلين والدير إلى الجنوب من كنيسة القديسة مريم الصغرى. وفى جزء منها هناك صهريج مزدوج له فتحتان ممتدتان بطول العقد، وملحق به ساقية لرفع الماء من الصهريج. كما كان يوجد صهريج أصغر إلى الشمال وبالوعة، يبدو أنه تم تشييدها تحت المراحيض وهى مماثلة لتلك التى تم الكشف عنها حديثا فى مجمع مبانى الإسبتارية فى مدينة عكا. وبعض الأقبية "جمع قبو" مازالت موجودة فى أراضى مدرسة مارتن لوثر. ولقد عثر شيك أثناء حفرياته الأثرية على بقايا فرن وبقايا بعض معاصر النبيذ "فى القبو الملاصق لجوقة المرتلين".

ومن الواضح تماما أن هذا المبنى كان مبنى مهمًا جدا. ومن المعقول جدا أنه كان بمثابة غرف النوم الخاصة بالفرسان أو قصر مقدم طائفة الرهبان الفرسان العسكرية، إلا أن المستشفى الخاص بالنساء كان بلا شك شيئا كماليا. ويمكننا الوقوف على

بعض المعلومات عن مدى امتداد هذا المبنى من البقايا الأثرية حتى القرن التاسع عشر الميلادى عن طريق الصور الفوتوغرافية المأخوذة للجهة الجنوبية الشرقية وقبل أن تتم إزالتها، وبوجه خاص الصورة التى التقطها هوراتشيو هيربرت كتشنر Horatio Herbert Kitchener والتى يرجع تاريخها إلى عامى ١٨٧٤م - ١٨٧٥م(٩).

ومن المستشفيات داخل الكنائس الصليبية فى مدينة بيت المقدس كانت مستشفى الألمان. ومن المحتمل أن كنيسة القديسة مريم للألمان قد تم تشييدها على أيدى جماعة الاسبتارية فى الحى الجنوبى الشرقى من مدينة بيت المقدس بعد صدور المرسوم البابوى من البابا كلستين عام ١١٤٣م بقليل. ولقد سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن كلام يوحنا الورز برجي. وهناك مصدر مبكر وهو جاك الفيترى، كتب عن بداية هذه المستشفى يقول : إن الرحمة الإلهية قد ألهمت أحد رجال الدين التيوتون، والذى كان يسكن هو وزوجته المدينة، لأن يبنى نزلا على نفقته الخاصة حيث يخدم الفقراء والمرضى التيوتون. ولأن عددا كبيرا من فقراء الحجاج المسيحيين اعتادوا أن ينزلوا فى هذا النزل وهم الذين يتحدثون بلغات متعددة، فإنه بناء على موافقة البطريرك وتشجيعه، قد قام ببناء كنيسة خصوصية صغيرة بالقرب من المستشفى المذكور، وجعله مكرسا لأم المسيح مريم العذراء.

وبعد زمن الحروب الصليبية أتلف المبنى، وتم استخدامه كسكن خاص، ومع هذا فإن المستشفى كان لا يزال معروفا فى القرن التاسع عشر الميلادى، وجاء وصفه فى مسح لجنوبى فلسطين على أنه - وبشكل مختصر- يتم الدخول إليه من ميدان صغير مربع فى حارة الميدان، إلى الشرق من الموقع السابق ذكره (لكنيسة القديس توماس للألمان). كما أن البقايا الأثرية لأضلاع العقود الواضحة وكذلك الحوائط تشير إلى أنه كان يوجد هنا مبنى كبير من العصور الوسطى. فهناك عدة عقود فى أسفلها أقواس ذات أعمال حجرية مدببة أحدها على شكل حرف T له سقف مسطح

يستند على أحد الأقواس. وقد كان من المعتقد أنه كنز أثرى، إلا أنه سرعان ما يتحول إلى رماد عند لمسه. كما أن الأجزاء الحجرية الناتئة التى تستند عليها الأضلاع من أعلى قد تم تقطيعها إلى شرائح، على شكل وريقات نباتية، وكما هو الحال فى النقوش الصليبية. كما أن عتبة الباب لهذا المنزل عليها نقش لاتينى مطموس، وتاريخ ٨ نوفمبر واضح أو مقروء. هذا الأساس ربما يعود إلى النزل القديم للقديسة مريم للألمان، والذى كان يقف فى هذا الجزء من المدينة فى القرن الثانى عشر للميلاد.

وفى الحفريات التى أجريت على المجمع عام ١٩٦٨م، تم العثور على بقايا أثرية من المبانى الثلاثة : البازيليكا "الكنيسة" الصغيرة ثلاثية الأضلاع للقديسة مريم للألمان، وفناء كبير إلى الشمال منها والذى لم يبق منه الكثير، ومبنى له عقود من طابقين إلى الجنوب من الكنيسة، والمبانى الثلاثة قد ربط بينها عدة أبواب. وسواء المبنى الذى كان إلى الشمال أو ذلك الذى كان إلى الجنوب من الكنيسة فربماً تم استخدامها كمستشفى[١٠]. والمبنى الشمالى كان مستطيل الشكل تبلغ مساحته حوالى ٢١متراً × ٦٣ متراً. وهو واضح فى الخريطة التى قام أوفاديا بنشرها وفيه تسع عشرة غرفة ذات عقود حول فناء مكشوف كان يتم الوصول إليه عبر أحد الأبواب من خلال جناح مقبب جهة الجنوب الغربى. وكان الجزء المنخفض من المبنى الجنوبى عبارة عن قاعة "حوالى ١٤ مترا × ٢٥ متراً"، تم تقسيمه إلى جناحين بهما عقود، ويستند إلى ثلاثة أعمدة حجرية رئيسية وثمانية أعمدة غائرة جزئيا فى جدار. وبالنسبة للطابق العلوى فربما كان مماثلا، إلا أنه كان أكثر زخرفة، وبه مرفق أو منعطف له زخارف فى أعلى حوائطه المحيطة بالعقود.

كما أن مستشفى مرضى الجذام للقديس لازار كان – وكما سبقت الإشارة بذلك– يقع خارج السوق الشمالى للمدينة إلى حد ما، وإلى الغرب من بوابة القديس ستيفان، وربما بالقرب من الطرف الشمالى الغربى للمدينة. ولا توجد أية بقايا أثرية للمستشفى أو حتى المبانى التى كانت ملحقة بها، على الرغم من العثور على بعض الحوائط وبعض

الأحجار في الحفريات التي تمت في تلك المنطقة والتي ربما كانت خاصة بها. هذه الأشياء التي تم العثور عليها تتضمن عددا من كسارة الحجارة والتي تم تقطيعها بشكل مائل وتم الكشف عنها في الحفريات التي أجريت في المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة بيت المقدس، وهي بلا شك كانت مستخدمة في مبنى عام كبير(١١).

وقد جاء في أحد مصادر العصور الوسطى ذكر لوجود مستشفى مستقل لمرضى الجذام من النساء، في تاريخ هرقل عند حديثه عن المنطقة التي استفاد منها صلاح الدين في بيت المقدس عام ١١٨٧م بأنها ما بين بوابة داود وبوابة القديس ستيفان، من المستشفى الخاص بالنساء إلى المستشفى الخاص بالرجال. ولقد استنتج كليرمونت جانو من هذا أن مستشفى النساء كانت تقع عند بوابة داود، أما مستشفى الرجال فقد كانت عند بوابة القديس ستيفان.

ومن المحتمل وجود مستشفى آخر كان يقع بجانب الطريق المؤدي إلى نابلس، وكان أحد ممتلكات البابا هادريان الرابع في عام ١١٥٨م والذي وهبه إلى دير القديسة مريم اللاتينية. وربما كان ثيودريك يصف نفس المنشأة عندما كتب يقول إنه في نفس البوابة هناك مستشفى يطلق عليه الروم اسم المستشفى الصغير. وربما كان الدير الذي تم العثور عليه أثناء الحفريات الأثرية ملاصقا لبوابة القديس ستيفان جزءا.

وفي مدينة بيت المقدس زمن العصور الوسطى، كان يوجد أحد المشافي التابع لدير القديس سابا، وكان يقع بالقرب من البوابة الغربية. فقد كتب الراهب دانيال أنه عندما زار مدينة بيت المقدس، فإنه أقام في كنيسة القديس سابا، حيث وجد حارسا، وهو رجل تقي جدا كبير في السن(١٢). كذلك ذكر يوحنا الورز برجي أن الدير كان واقعا في الشارع الممتد من بوابة داود في اتجاه مسجد الصخرة، وأنه في الجهة اليمنى، بالقرب من بوابة داود، وقد أسماه "دير الرهبان الأرمن". بينما يذكر

يوحنا فوكاس الكريتي نزل القديس سابا عندما يصف المدينة أثناء زيارته لها عام ١١٨٥م. فقد لاحظ أن هذا النزل كان يقع بالقرب من القصر، إلى الجهة اليمنى من شارع عريض "شارع داود". وهذا إما أكثر أو أقل مما يظهر في خريطة كمبراى.

الحمامات العامة

في القرن العاشر للميلاد سمعنا عن ثلاثة حمامات عامة في مدينة بيت المقدس، فقد كتب المقدسي يقول : في داخل المدينة هناك ثلاث برك كبيرة للماء هي بركة بني إسرائيل، وبركة سليمان، وبركة عياض. وفي المنطقة المجاورة لهذه البرك هناك حمامات، التي تصلها مياه هذه البرك عبر قنوات تصل إليها.

والحمام العام كمنشأة في المجتمع الغربي لم يكن قد بلغ الذروة في استعماله في العصور الوسطى، ومن ثم فإن الفرنجة الذين استوطنوا في الشرق العربي سرعان ما تبنوا فكرة استخدام الحمامات العامة وقرروا استخدامها على نطاق واسع. وليس من الصعب علينا أن نتفهم كيف أن عامة الأوربيين قد نظروا إلى هذه المنشأة على أنها وسيلة مهمة للراحة من صيف الشرق الطويل والحار في نفس الوقت. والفارق في السلوكيات تجاه الاستحمام بين الأوربيين والمستوطنين الفرنجة في الشرق قد تم تصويره في فقرة ساخرة ذكرها جاك الفيتري عندما قال: إن أبناء الفرنجة، والذين عرفوا باسم الأفراخ Pullani قد تربوا على الرفاهية والنعومة والتخنث، وقد تعودوا على الذهاب إلى الحمامات أكثر من الاشتراك في المعارك، وتعودوا على تعاطي المخدرات والحياة الخليعة، يرتدون الملابس والأرواب الناعمة مثل النساء، ويبدون في زينتهم وبشكل جميل ينافسون فيه جمال أركان المعبد(١٣).

وكما سبقت الإشارة من قبل فقد كان هناك حمام عام في حي البطريرك. عند موقعه في الجانب الغربي من الحي، وإلى الجنوب من المستشفى. ووفقا لما ذكره وليم

الصورى فإن شارع حمام البطريرك قد استمد اسمه من الحمام، والذى كان وما يزال موجودا "عام ١٨٤٩م "، ويستمد ماءه من بركة حمام البطريرك، والتى تستمد مياهها عن طريق قناة تصلها ببركة ماملا. ولقد لاحظ شيك أن الحمام لم يكن له صهريج لتخزين المياه ولكنه كان يستمد ماءه من بركة البطريرك. ولقد وصف الحمام، الذى قدر له البقاء حتى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، بشكل مختصر، بقوله : إنه كان يتم رفع المياه بواسطة الدلاء "جمع دلو" من بركة حزقيا ويتم صبها فى قناة تعبر الشارع المسيحى عليها قنطرة إلى أن تصل إلى الحمام. وقد ذكر بيروتى فى عام ١٨٦٤م أن الحمام كان يتم تزويده بالمياه ولعدة شهور من السنة من بركة حزقيا؛ ذلك لأن مياه بركة ماملا أصلا كانت قذرة وغير صالحة للشرب، لكن يبدو أنها كانت مناسبة للاستحمام.

ولقد ذكرنا أيضا أن وثيقة وقف صلاح الدين على المدرسة الصلاحية تضمنت ذكر حمام معروف باسم حمام صهيون أى حمام جبل صهيون. وعلى الرغم من أنه لم يتم الاهتداء إليه، لكن يبدو أنه من المحتمل وجود حمام خارج أسوار المدينة فى القرن الثانى عشر الميلادى. وربما كان موجودا داخل المدينة بالقرب من بوابة صهيون. كما أن عمليات الحفر الأثرية فى حى اليهود الحالى فى المنطقة الملاصقة لبوابة العصور الوسطى لجبل صهيون قد كشفت عن حمام صغير ملاصق لأحد المبانى الفرنجية. ووفقا لما جاء فى الكشف فقد تم العثور على بيت النار الخاص بالحمام فى الجزء الشرقى من المبنى. كما تم العثور على أعمدة حجرية لبيت النار هذا. وقد لوحظ أنه لتقوية سقف هذه الغرفة فقد استخدمت قطع من البازلت المستدير كمعلم بارز على عملية التقوية هذه. كما كانت هناك عدة مداخن من الفخار فى داخل الحوائط، استخدمت فى تهوية بيت النار، ولكن من الواضح أنها لم تستخدم لتدفئة هذا البيت.

وهناك حمام آخر كان يقع بجوار بوابة يهو شافاط. ويرجع تاريخه إلى فترة لاحقة لفترة الحروب الصليبية، وليس هناك أى سبب يجعلنا نفترض أنه كان مستخدما

تحت حكم الفرنجة. فلقد تم بناؤه وفق التقاليد الفارسية بعض الشيء، والبعض الآخر وفق التقاليد المحلية(٤). وفى وثيقة وقف الصلاحية هناك ذكر لحمام عام عند باب الأسباط. هذا الباب تم تحديد معالمه بباب الأسود الحالى، "فى العصر الصليبى باب يهو شافاط"، أو بالبوابة الشمالية الشرقية لجبل المعبد، إلا إذا كان هذا الحمام حديث النشأة، وهو أمر بعيد الاحتمال فقد تم إنشاؤه فى أعقاب استعادة المسلمين للمدينة، وكان مستخدما فترة الحكم الصليبى، كما أن حمام مريم مازال قائما عند بوابة الأسود. وفى القرن التاسع عشر للميلاد تم وصفه بأنه يتلقى المياه لمدة عشرين أو ثلاثين يوما فى السنة من بركة قريبة منه وهى بركة الست مريم "وهى بركة صغيرة خارج البوابة تماما". ووفقا لما ذكره باركلى، فإن الماء كان يتم حمله إلى الحمام عن طريق قناة من البركة. وربما لم يكن الحال كذلك فترة الحكم الصليبى، حيث يعتقد تيتوس توبلر أن البركة ليست قديمة جدا وأنه لم يعثر على أية معلومات فى المصادر عنها قبل عام ١٨٢١م. ومن المحتمل أنها لم تكن بركة فترة الحكم الصليبى وربما كانت الطرف الجنوبى للخندق المائى وأن الماء اللازم للحمام ربما كان يتم الحصول عليه من بركة الغنم القريبة أو من بركة إسرائيل.

كما أن ثيودريك يذكر عدة حمامات من بين قائمة المبانى والتجهيزات المتصلة بممتلكات الاسبتارية. وهذا هو المصدر الوحيد عن تلك الحمامات. كما كان هناك مورد مائى جيد لتلك الحمامات، إلى الشمال من مجمع الداوية، وإلى الجنوب من مسجد الصخرة، وحيث كانت توجد صهاريج لتخزين المياه التى تصل إليها عن طريق قناة واصلة من منطقة أرتاس وبعد عبورها القنطرة المقامة فوق الوادى الكبير.

الإسطبلات

فى مدن العصور الوسطى كانت الإسطبلات منشآت مهمة جدا، وهى فى العصور الوسطى بمثابة المحطات النهائية للقطارات والحافلات فى عالم اليوم. وكانت الخيول،

والبغال، والحمير، والجمال هى عماد حركة الاتصالات فى الشرق. وفى مدينة بيت المقدس ربما وجدت الإسطبلات فى العديد من المساكن الخاصة، كما كان يوجد عدد كبير من الإسطبلات الواسعة سواء داخل أو خارج أسوار المدينة.

ولقد عثر جونز على آثار لبعض الإسطبلات فى مكانين بالقلعة: فى البرج الشرقى وفى المنطقة المحصنة الجنوبية الغربية منها. وعن تلك الإسطبلات فى البرج الشرقى، والتى كان من السهل تحديدها على أنها خاصة بفترة الحكم الصليبى " لأنها بُنيت بشكل يتطابق مع النظام الفرنجى فى قطع الحجارة بشكل مائل. " وكتب جونز يقول : فى الغرفة الجنوبية، علاوة على ذلك وفى مواجهة الحوائط الشمالية والجنوبية هناك معالف لإطعام الدواب، وهى مماثلة تماما لما كان عليه الحال أيام الصليبيين الذين كانوا يهتمون بخيولهم، وقد أقاموها فى كثير من قلاعهم " مثل عثليت ". وعن الإسطبلات الموجودة فى الجزء المحصن من القلعة كتب يقول : إن القبو (الموجود فى الجانب الغربى من الجزء المحصن) كان عبارة عن نصف الدور الأرضى، وكان مستخدما كإسطبلات، أما المعالف الحجرية والتى تم العثور عليها أمام الحائط الداخلى بين الحوائط تجاه الركن، فلقد تم تقسيم أحواضها ليس على الطريقة المعروفة فى الشرق، الموجودة على الأحواش، ولكن بشكل آخر معروف أنه من أصل صليبى. تلك الإسطبلات كان يمكن الوصول إليها من الخارج من خلال الباب الخلفى والحجرات الجنوبية تحت الأرض[١٥].

وعن إسطبلات فرسان المعبد، والمعروفة باسم إسطبلات سليمان، فإنها كانت موجودة فى الأقبية تحت الأرض إلى الجنوب الشرقى من جبل المعبد، وإلى الجنوب من المسجد الأقصى. وتلك الأقبية هى الأقبية التى بناها هيرود لزيادة مساحة وحجم بيت المقدس، ولقد تم ترميمها فترة العصور الوسطى، وربما بعد وصول الفرنجة، وأصبحت الإسطبلات الأساسية لجماعة الداوية. ووفقا لما جاء عند يوحنا الورزبرجى، حيث كتب يقول على يدك اليمنى تجاه الجنوب هناك المكان الذى يقال إن سليمان قد بناه، حيث

يوجد إسطبل رائع بحجم كبير يمكنه استيعاب أكثر من ألفى حصان أو ألف وخمسمائة جمل. بينما يعطينا ثيودريك بيانا أكثر تفصيلا عندما يقول : ولهم تحتهم إسطبلات للخيول بناها الملك سليمان نفسه فى قديم الزمان، ملحقة بالقصر، وهى عبارة عن مبنى مدهش ومعقد التركيب، تم بناؤه فوق عدة أعمدة، ويحتوى على ما لا حصر له من القباب. وأى إسطبل لا يمكن أن يقارن به، فهو يستوعب عشرة آلاف من الخيول، بمعداتها وسائسيها، بحيث لا يستطيع إنسان أن يطلق سهما من أحد أطرافه إلى الطرف الآخر ويمر دون أن يرتطم بتلك الخيول.

كما أن جماعة فرسان الاسبتارية كان لديها إسطبلات خاصة بالحمير تقع خارج المدينة وإلى الشمال من بوابة القديس ستيفان. وهى عبارة عن منطقة مستطيلة تقع الآن فى حديقة القبر، والتى تم ذكرها فى مسح جنوب فلسطين عام ١٨٧٥م. وقد كانت تحتوى على حوائط حجرية لها صف من معالف الدواب فى الجنوب. ووفقا لما جاء فى كتاب "وصف المدينة"، فإن هذه الإسطبلات كانت مخصصة للحمير والبغال الخاصة بطائفة الإسبتارية، ويذكر كتاب "وصف المدينة" أن تلك الإسطبلات شهدت الفتح الأيوبى، فى الوقت الذى تهدمت فيه بعض المبانى الأخرى خارج أسوار المدينة. وتحت الحكم الإسلامى تحولت إلى نزل لاستضافة الحجاج المسيحيين أثناء انتظارهم للحصول على تصريح للسماح لهم بدخول المدينة[١٦].

وبالتأكيد كانت هناك إسطبلات إضافية داخل حى الاسبتارية، حيث يرى شيك أن إسطبلات الاسبتارية كانت تقع فى الجنوب الشرقى من الحى[١٧]. ومن المحتمل أيضا أن عددا من الأقبية تحت الأرض استخدمت كإسطبلات ومنها الإسطبل المعروف باسم إسطبل البطريرك، الذى جاء ذكره فى وثيقة الوقف الخاصة بصلاح الدين، والذى كان يستخدمه الاسبتارية. وإذا كان الوضع كذلك؛ فإن القصر الذى كان يقع إلى الشمال منه ربما كان قصر الفرسان.

ميادين الرماية

إن الإدريسى يصف لنا ميادين الرماية التى كانت خارج بوابة الأسباط "يهو شافاط" والممتدة إلى كنيسة قبر العذراء. وعلى الرغم من عدم وجود كلام آخر عنها فى المصادر المعاصرة، كما أن كتابات الإدريسى لا تعد من الدرجة الأولى - فإنه يبدو من المعقول أن نفترض وجود مثل هذه المساحة الملاصقة لممتلكات الداوية. والصعوبة الوحيدة هنا تكمن فى شدة الانحدار الطبيعى لتلك الأرض.

* * *

حواشي وتعليقات الفصل الخامس عشر

(١) راجع: سوسان إوتجتون، "الرعاية الطبية فى مستشفى القديس يوحنا فى القدس"، فى كتاب هيلين نيكولسن، فرق الرهبان العسكرية، ج٢، أعمال الخير والأعمال الحربية، ألدرشوت دهامبشاير، ١٩٩٨م، ص٣٢ .

(٢) راجع: أهمية المؤرخ المجهول من ميونخ، والذى تم نشره وتصنيفه بواسطة كيدار، "وصف لمستشفى بيت المقدس من القرن الثانى عشر، فى كتاب هيلين نيكولسن، فرق الرهبان العسكرية، ص٣-٢٦، وأنظر كذلك: سوسان إدنجتون"، الرعاية الطبية فى نفس الجزء، ص٢٧-٣٣ .

(٣) لقد تم ذكر ذلك فى مؤرخة ميونخ، كيدار، "مستشفى بيت المقدس"، ص٧، فإن غير المسيحيين لم يكونوا فقط من المرضى، بل ويبدو أنهم كانوا من هيئة الأطباء، راجع: إدنجتون، "الرعاية الطبية، ص٢٨ . وليس من المدهش حالة الطب المزدهرة والواضحة فى الأبحاث وطرق العلاج عند كل من اليهود والمسلمين.

(٤) وفقا لما جاء عند يوحنا الورز برجى (ص١٣١)، قد كان هناك ألفان من المرضى عندما زار المستشفى فى القدس عام ١١٦٠م. ومن الناحية الأخرى، فقد ذكر ثيودريك (ص١٥٨) أكثر من ألف من المرضى، بينما يرى كيدار أن زيارة يوحنا الورز برجى ربما قد حدثت فى وقت من أوقات الذروة التى يضطر فيها المستشفى لاستيعاب هذا العدد الضخم من المرضى، واضعا فى اعتباره ما حدث فى واقعة مونتيسارد عام ١١٧٧م، فإن ٧٥٠ ممن كانت إصابتهم خطيرة انضموا إلى ٩٠٠ من المرضى فى مستشفى بيت المقدس؛ كيدار: "مستشفى القدس"، ص٨ .

(٥) انظر: حيارى "القدس زمن الحروب الصليبية"، ص,١٦٧ فإن المستشفى كانت كأحد المعاهد الطبية، راجع: دونالد ليتل: "القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك، من ١١٨٧-١٥١٦م، فى كتاب كامل جميل العسلى، بيت المقدس فى التاريخ، لندن ١٩٩٧م، ص١٨٠ .

(٦) انظر: كيدار، "مستشفى القدس"، ص١٠، حيث يرى أن كل العنابر كانت فى الدور الأرضى.

(٧) إن مصطلح "أنتيليا" هو مصطلح يونانى يشير إلى آلة تديرها الحيوانات كانت موجودة فى الشرق، وهى عبارة عن ساقية كبيرة كانت تستخدم لرفع المياه عن طريق القواديس المعلقة بها، ومثل هذه الآلة ذكرت كثيرا فى المصادر الصليبية. فقد أشار ثيودريك إلى واحدة عند سفح جبل حرمون، ثيودريك، ص١٨٩ . وانظر كذلك مصدرنا عن الساقية عند بئر أيوب، ص١٧٧، كما أن القواديس المذكورة كثيرا ما كانت تظهر

فى الحفريات الأثرية.

(٨) انظر خريطة شيك للبركة (٣٨) والتى يظهر فيها ثمانية من هذه الآلات، والتى ربما كانت أصلا من اللاطردن الواقعة إلى أعلاها، أنظر الخريطة (شيك فى مجلة الكشوف الفلسطينية الأثرية الربع سنوية) والمنشورة فى كتاب مسح جغرافى لغربى فلسطين، ص٥٠ .

(٩) أنظر كتاب بيريز، صور من الشرق، ص٩٢-٩٣ . هذه الصورة تبين الجهة الجنوبية من المبنى ببابها الرئيسى، ومنظر لكنيسة الضريح المقدس فى الخلفية. وهناك صورة ثانية ترجع إلى عام ١٨٨٧م، مأخوذة من الركن الجنوبى الغربى للمبنى (مطبوعة فى المرجع) وتظهر عند إلى شيلر، الصورة الأولى للمدينة المقدسة، القدس، ١٩٨٠م، ص١٣٢ .

(١٠) فى محاولة لإعادة بناء هذا المجمع، انظر: أم بن دووف، "إعادة بناء كنيسة القديسة مريم"، ص١٤١ . ويفترض كل من أوفاديا وبن دووف أن المبنى الواقع إلى الجنوب كان يحتوى على المستشفى فى الدور الأرضى، وقاعة للاحتفالات أعلاها. ويضيف بن دووف أن مبنى الفناء الواقع إلى الشمال كان هو المستشفى. فإذا كان هذا محتملا، فلم يتم نشر أحد الكشوف الأثرية كدليل يدعم ذلك.

(١١) لقد قام كل من دان بهات، أرن ميير بجهد واضح، فى نظافة منطقة الكشوف الجغرافية والحفريات، انظر: دى. كروينكر، عمل سور مدينة القدس المركب، القدس، ١٩٩٣م، ص٣٢٤-٣٢٥، وأنظر كذلك ص٩٧ .

(١٢) انظر: دانيال، ص٣، حيث أقام فى مستشفى كنيسة القديس سابا، وهى المستشفى الكبير للقديس سابا، وهى واحدة من أربع مستشفيات أقامها القديس سابا نفسه أواخر القرن الخامس، ووفقا لما ذكره البطريرك جوزيف، فإن القديس سابا أول رئيس لحركة الأديرة الفلسطينية. راجع: دراسة مقارنة للأديرة الشرقية، من القرن الرابع إلى القرن السابع، واشنطن، ١٩٩٥، ص١٦٥-١٦٦ .

(١٣) انظر: شلومو د. جيوتاين: "القدس زمن الحكم العربى، ٦٣٨-١٠٩٩" القدس، ج٢، ١٩٨٢، ص١٨٩ .

(١٤) انظر: يوشع فرنكل، الاعتبارات السياسية والدينية للوقف الإسلامى، لصلاح الدين فى القاهرة، (١١٦٩-١١٧٣م) و بيت المقدس. مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، العدد ٦٢، ١٩٩٩م، ص٨ .

(١٥) المصدر نفسه، ص١٨٢ . ووفقا لرأى جيفا فإن الكشوف الأثرية المؤخرة قد برهنت على أن هذه المنشأة عثمانية فى الحقيقة (انظر: جيفا. "الكشوف الأثرية فى القلعة، ص٧١" وإن لم يعطنا أى دليل على هذا التاريخ المتأخر. وكما فعل جونز، حيث أعطى دليلا واضحا لتدعيم تاريخه والذى يؤكد أن طريقة استخدام الأحجار ذات العلامات المائلة تعود إلى القرن الثانى عشر للميلاد - والمؤلف يرى أنه ليس هناك ما يدعو لإنكار التاريخ الصليبى.

(١٦) نفس المصدر، ص٢٠٠ . وبما أن المبنى كان مؤخرا إسطبلا. فإنه لم يكن ليصلح أن يكون مستشفى مريحا. ولكن يمكن أن يكون لإيواء الحجاج المسيحيين ولرعايتهم صحيا، تحت الحكم الأيوبى، وفيما بعد

تحت حكم المسلمين. وفي يافا هناك عدة مبان ذات عقود على شكل الكهوف استخدمت لإقامة الحجاج الواصلين حديثا، والحالة السيئة التي كانت عليها جاء وصفها عند العديد من الحجاج المسيحيين في العصور الوسطى.

(١٧) راجع: شيك "المورستان"، ص٥٠ . فالدكاكين القائمة في الطرف الجنوبي للحي في شارع داود، مازلت تدل على أماكن غائرة مستديرة في الأعمدة، ولكنها على ارتفاع كبير من سطح الأرض وهي من القرن الثاني عشر، بما يفيد أنها ترجع إلى تاريخ متأخر إلى حد ما.

* * *

الفصل السادس عشر

الصناعات المدنية، والحرف، والتجارة، والمنشآت التجارية والموارد المالية الصناعة والتجارة

إن المناطق المكشوفة فى أطراف مدن العصور الوسطى، سواء داخل أو خارج الأسوار، كان يتم الاستفادة منها فى العديد من أوجه النشاط التى لم يكن من الممكن مارستها داخل الكثير من المناطق السكنية للمدينة. فالصناعات والتى كانت مصدرا للتلوث مثل دباغة الجلود كان لابد لها من أن تقام على بعد من المساكن ولكن بالقرب من مصادر المياه والأماكن سهلة الصرف الصحى. كما أن بعض المشاريع كانت تتطلب مساحات كبيرة مكشوفة. كذلك فإن أسواق بيع الحبوب وقطعان الماشية كان من الصعب إقامتها فى الشوارع الضيقة أو المناطق كثيفة المبانى.

وعن صناعة الأقمشة والملابس فى مدينة بيت المقدس فى العصور الوسطى فإن المعلومات عنها فى المصادر المعاصرة شحيحة، إلا أن صباغة الملابس يمكن الرجوع إليها فى المصادر اليهودية، بحيث يبدو وكأن هذه الحرفة كانت وقفا على اليهود، فقد كان هناك عدد قليل منهم وعلى الأقل فى الشطر الأخير من القرن الثانى عشر للميلاد كان مسموحا لهم أن يستقروا فى المدينة[1]، بالقرب من بوابة داود. حيث لاحظ الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى أن بيت المقدس بها ورشة لصباغة الملابس يدفع عنها اليهود إيجارا سنويا بسيطا لملك بيت المقدس الصليبى، والذى اشترط عليهم عدم وجود أى مشتغل بالصباغة مع اليهود فى مدينة بيت المقدس. وهناك رحالة يهودى آخر وهو

بتاحيا الراتسبونى كتب تقريبا عن نفس الفترة (١١٧٠-١١٨٧م) يقول : "واليهودى الوحيد هناك هو الرابى إبراهام الصباغ، والذى يدفع ضريبة كبيرة للملك لكى يسمح له بالبقاء".

أما صناعة دباغة الجلود فقد كانت توجد فى الجنوب الشرقى من المدينة، فبوابة الدباغة فى الطرف الجنوبى للشارع القادم من بوابة القديس ستيفان إما داخل أو خارج الأسوار. وهذه المنطقة كانت منطقة جيدة الصرف الصحى ملاصقة تقريبا لسوق الماشية وهو مصدر المواد الخام لهذه الصناعة. ولقد كان الصرف الصحى ذا أهمية قصوى لصناعة ينتج عنها كميات كبيرة من المياه الملوثة. هذا الموقع فى الجزء السفلى من الوادى الكبير جعل من السهل التخلص من المخلفات، التى كانت تأخذ طريقها عبر المنحدر المؤدى إلى خارج الأسوار جهة الجنوب.

ولم يكن مصدر المياه القريب أقل أهمية، وهو بركة سلوان. هذه البركة قد جاء ذكرها على وجه الخصوص كمصدر للمياه المستخدمة فى صناعة دباغة الجلود. فوفقا لما جاء فى الذيل على وليم الصورى فى نصه الفرنسى القديم فإن مياه كانت تستخدم فى دباغة الجلود[٢]. كما أن الكشوف الأثرية التى أجريت فى بدايات عام ١٩٩٠م كشفت عن عدد من البرك "القنوات داخل المدينة" بالقرب من بوابة المدبغة. وبشكل لافت للنظر فإن تلك البرك والقنوات يعود تاريخها إلى الفترة المملوكية، وإن كان التاريخ النهائى لها سيكون مهيئا للنشر عما قريب[٣].

وهناك صناعة أخرى تم ذكرها وهى صناعة الملابس من الفراء، ذلك أن الشتاء البارد فى مدينة بيت المقدس، والمصحوب عادة بانخفاض ملحوظ فى درجة الحرارة التى غالبا ما تكون تحت الصفر، وبرودة الخريف وليالى الربيع، كل ذلك جعل من وجود الفراء شيئا غير مثير للدهشة. ومعلوماتنا عن استخدام الفراء جاءت من وجود شارع للفراء كان يقع على ما يبدو فى الوادى الكبير. والحقيقة أن الفراء كان مستخدما فى الشرق، ودليل على ذلك استخدامه فى الملابس لدى جماعة فرسان المعبد

وعند كبار رجال الإسبتارية. وفى العصور الوسطى كانت هناك أكثر من غابة من الغابات الطبيعية فى المنطقة وأكثر مما هو عليه الحال فى أيامنا هذه، وبالتالى فقد كانت هناك أعداد كثيرة من الحيوانات ذات الفراء. أما فراء السنجاب وبعض الأنواع الأخرى من الفراء فكان يتم استيرادها.

وحسبما جاء فى كتاب "وصف المدينة" فإن محلات جزارة المدينة كانت تقع إلى الشمال من شارع المعبد فى المنطقة المواجهة المؤدية إلى شارع مستشفى الألمان : "فعند نزولك هذا الشارع تصل إلى مكان الجزارين". هذا الموقع جعلهم فى مكان قريب نوعا ما من سوق الماشية إلى الجنوب وبالقرب من شوارع السوق الرئيسية، بما فيها شارع الطعام إلى الغرب، وحيث يتم إعداد الأنواع العديدة من الأطعمة لسكان المدينة.

أما صانعوا المشغولات الذهبية والفضية فقد كان موقعهم فى قلب مدينة بيت المقدس، حيث يقومون بصناعة كثير من المشغولات المعدنية التى تلقى رواجا كبيرا لدى زوار المدينة من الحجاج. ويبدو أن الصاغة سرعان ما قامت وإلى حد ما بعد عام ١١٣٠م، يشهد على ذلك عقود الإيجار الصادرة فى بيت المقدس. وظهور هذه الصناعة المبكر يبدو أنه يرجع للتقدم الهائل الذى شهدته المدينة بسبب ازدهار حركة الحج المسيحى إليها. وقد أصبحت مركزا مهمًا لهذه الصناعة، حيث تم تصنيع العديد من الأشياء التى يقبل عليها الحجاج المسيحيون، وكذلك الأشياء ذات العلاقة بالطقوس الدينية وحفظ الذخائر المقدسة. ومن الطبيعى أن يكون موقع الصاغة وصناعة المشغولات فى المنطقة المأهولة بالحجاج المسيحيين، بالقرب من الأماكن المقدسة، وأماكن الإقامة والأسواق. لذلك نجد حشدا كبيرا من صانعى المشغولات الذهبية والفضية فى وسط المدينة، فى مكان ليس بعيدا عن كنيسة الضريح المقدس. فوفقا لما جاء فى كتاب "وصف المدينة" : فعلى الجهة اليمنى من هذا السوق (حيث يباع الجبن، والدجاج، والبيض، والطيور) توجد دكاكين الصناع السريان... وعلى الجانب الأيسر من السوق توجد دكاكين الصناع اللاتين[٤].

وهناك وعلى وجه الخصوص مثال رائع لما كان يتم تصنيعه على يد هؤلاء الصناع المهرة، وقد قدر له البقاء فى بيت المقدس، وهو عبارة عن وعاء تحفظ فيه الذخائر المقدسة على شكل تاج مصنوع من الكريستال والذهب تم العثور عليه فى سرداب كنيسة القديس يوحنا المعمدان. أما المشتغلين بالصناعات الحديدية فلم يرد لهم ذكر فى المصادر، ولكنهم كانوا موجودين ضمن تجار المدينة، فهم الذين صنعوا حذاوى الخيول، كما قاموا بصنع الأسلحة، والأدوات المعدنية المنزلية، وربما قاموا بصنع بعض أدوات الزينة المعدنية الأخرى.

وهناك القليل من المعلومات عن صناع الفخار والخزف فى مدينة بيت المقدس زمن الحكم الصليبى. ومن المحتمل أن تكون صناعة الفخار قد اشتغل بها عدد من المسيحيين الشرقيين، وربما كان منهم الأرمن، الذين كانوا مهتمين بصناعة السيراميك حتى وقتنا الحالى. كما كان حيهم فى موقع معقول بالنسبة لمناطق الحصول على الصلصال المستخدم فى هذه الصناعة، حيث توجد طبقتان من الصلصال فى وادى جهنم خارج بوابة صهيون.

وفى القرن الخامس عشر للميلاد ذكُر الشارع الموجود فى الوادى الكبير على أنه شارع الطواحين(٥). هذا الاسم ربما يشير إلى ذلك الموقع فى مدينة بيت المقدس زمن الحكم الفرنجى، والذى يوجد فيه عدد كبير من الطواحين التى تطحن القمح، وبالطبع حيث يوجد عدد من المخابز والأفران التى كانت موجودة فى المدينة. فالطواحين جاء ذكرها فى معظم الشوارع الرئيسية فى المدينة وفى كل الأحياء، إلى جانب ما وجد منها خارج الأسوار. كذلك فإن سجلات الضريح المقدس بها ذكر لخمسة وعشرين مخبزا يملكها رهبان الكنيسة. كما أن دير القديسة مريم فى يهو شافاط كان يمتلك عددا من الطواحين والأفران هناك وفى أماكن أخرى. هذا إلى جانب أن جماعة الإسبتارية كانت تمتلك على الأقل مخبزين، فى حين امتلكت جماعة رهبان القديس لازار طاحونة خارج بوابة داود. وفى ظل الحكم الفرنجى فإن

الطواحين والأفران كانت حكرا على طبقة النبلاء الإقطاعيين. ولقد كان على بقية أفراد المجتمع أن يستخدموا مطاحن ومخابز اللورد. وبعد فترة الحكم الصليبى فإن المطاحن والمخابز عادت لتكون من المنشآت التى تقدم خدمة عامة لكافة الناس ويمتلكها بعض أفراد المجتمع. من ذلك أن وثائق الحرم القدسى الشريف المملوكية تذكر مخبزا واحدا، وهى حقيقة تثبت أن معظم الناس كانوا يخبزون فى منازلهم الخبز الذى يستهلكونه.

كما كانت هناك أيضا بعض معاصر النبيذ ومعاصر الزيت فى مدينة بيت المقدس. إلى جانب أن صناعة الصابون من زيت الزيتون كانت صناعة موروثة فى المنطقة كما أن صناعة الصابون ربما كانت موجودة فى المدينة زمن الحكم الصليبى[٦]، فربما كانت أكوام الرماد التى توجد إلى الشمال من المدينة تخص هذه الصناعة، ولكن هذا مما يصعب إثباته.

وبالتأكيد كانت توجد بعض الحانات التى امتلكها بعض الأشخاص فى المدينة. كذلك وجدت بعض الخانات، حيث يظهر خانان على خريطة فلورنسا، على الرغم من عدم وجود أية معلومات عن تلك الخانات فى مدينة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر للميلاد، ذلك لأن هذه الخريطة يعود تاريخها إلى فترة لاحقة. ومع هذا ففى مقدورنا أن نكون واثقين تماما من أن وضع المدينة المقدسة قد ساعد على وجود أعداد كثيرة من بين جموع الفرنجة من المتنعين عن تعاطى المسكرات امتناعا تاما.

ومن بين المشتغلين بأعمال البيع والشراء كان هناك الحاكة، وصناع الشموع والذين جاء ذكرهم فى كتاب المدينة على أنهم موجودون فى الشارع المؤدى من مكان الصيارفة السريان إلى كنيسة الضريح المقدس.

كذلك يبدو أنه كان هناك عدد كبير من الفقراء فى مدينة بيت المقدس[٧]. وبعض هؤلاء كانوا يبحثون عن أى عمل مؤقت يشتغلون به. كما نسمع عن وجود تجمعات من العمال العاطلين عن العمل الذين يتجمعون فى بعض ميادين المدينة بحثا عن عمل ولو

لبعض الوقت، وأن عمليات البناء وفرت العديد من الفرص وبخاصة فى النصف الأول من القرن، وبلا شك على مدار فترة الحكم الصليبى للمدينة. وهذه الفرص من العمل كانت خاصة بالبنائين، والحجارين، والمشتغلين بأعمال الجص والزينة، والمشتغلين بخرط الأخشاب، وبعض العمال المهرة إلى جانب غير المهرة.

المنشآت المالية

يجب أن نشير إلى أن مدينة بيت المقدس لم تكن تشكل مركزا تجاريا رئيسيا مثلما كان الحال فى بعض المدن الساحلية مثل عكا وصور وغيرها. ومع هذا، فهى باعتبارها عاصمة لملكة بيت المقدس الصليبية، وبها كثافة سكانية عالية، وتتدفق عليها أعداد كبيرة من الزوار - فقد لعبت دورا مهما. وهى كعاصمة للحكومة فقد كانت من أهم المواقع التى تتواجد بها دور سك النقود الملكية. والدليل على ذلك ما جاء على النقود من أنها سكت فى بيت المقدس، وأن دار السك هذه كانت موجودة حتى القرن الثالث عشر الميلادى، وأصدرت العديد من النقود التى عرفت باسم عملات البللون وهى مزيج من فضة أو ذهب أو معدن آخر أقل قيمة. ومن المرجح أن تكون دار السك هذه قد وجدت فى القلعة أو ربما فى القصر الملكى. ومن المعقول أن تكون فى مكان قريب من وسط المدينة حيث يوجد المشتغلون بصناعة المشغولات المعدنية من الذهب والفضة، وكذلك الصيارفة(8).

ففى وسط المدينة كان الصيارفة. وفى الخرائط المستديرة، تظهر أماكن تجمع الصيارفة وقد تم تحديدها عند نقطة التقاء شارعى المدينة الرئيسيين. وعلى أية حال، وكما نعرف من كتاب "وصف المدينة" فإن الصيارفة السريان كان مكانهم عند الطريق الشمالى من السوق الثلاثى، فى حين أن الصيارفة اللاتين كانوا إلى الجنوب منه. كما أن الصيارفة السريان كان موقعهم بجوار سوق السمك. ويبدو أن موقعهم هذا كان ملاصقا للسوق الثلاثى. "وبالنسبة لموقع الصيارفة السريان فقد كان عند نقطة التقاء الشوارع الثلاثة.

وقد ضم هذا الموقع كذلك الصيارفة اللاتين". وإذا وضعنا فى اعتبارنا الصيارفة اللاتين فإن كتاب "وصف المدينة" يذكر :"أنه عن طريق الشارع المغطى يمكنك أن تصل إلى مكان الصيارفة اللاتين وإلى شارع يسمى شارع قنطرة يهوذا ثم تعبر شارع المعبد". من هذا نستطيع أن نستنتج أن مكان الصيارفة اللاتين كان يقع عند الطرف الجنوبى للشارع المغطى، وأنه يبدو إلى الشمال من شارع المعبد. وبما أن الشخص كان يمكنه أن يمر من خلاله – أى من خلال مكان الصيارفة اللاتين – فمن المحتمل أنه كان مبنى له عقود ممتدة فوق الممر بين شارع داود وشارع المعبد. وعند هذا الموقع يوجد اليوم ممر صليبى يرجع إلى العصور الوسطى إلى الشرق، والذى يرى بيرجوين أنه ربما كان شارعا للسوق.

وربما كانت توجد بعض أماكن أخرى للصرف تديرها بعض القوى التجارية الأخرى فى المدينة. والدليل على هذا ما جاء فى وثيقة يرجع تاريخها إلى عام ١١٤٣م، جاء فيها ذكر مكان الصيارفة الإسبتارية فى شارع جبل صهيون فى الطابق الثانى لمنزل يمتلكه رهبان الضريح المقدس.

ولقد لعبت عمليات صرف النقود دورا حيويا فى مدينة تصل إليها أعداد كبيرة من الحجاج المسيحيين وبصفة مستمرة من الغرب الأوربى. وفى أوربا بدأت عمليات البنوك فى التطور فى المدن الإيطالية فى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد عندما بدأت عمليات صرف النقود تتجه إلى قبول الودائع التى كانت قابلة للدفع عند الطلب، ولإعطاء مزيد من الفرص للحسابات النقدية. ومع هذا فإن أنشطة الصرف فى بيت المقدس كانت تتضمن كثيرا من العمليات المالية التى كانت معروفة ومتداولة فى الشرق، وحيث سبقت المعاملات المصرفية الغربَ الأوربى بما لا يقل عن قرنين أو ثلاثة[٩].

* * *

حواشى وتعليقات الفصل السادس عشر

(١) انظر: بنيامين التطيلي، ص٢٢ . وفى الحفريات الجارية (ويشرف عليها أميت ريم، تحت إشراف هيئة الآثار الإسرائيلية) إلى الجنوب من القلعة، والتى كشفت عن عدد من البرك ذات الأحجار الجيرية من العصور الوسطى، والتى تعد دليلا على تلك الجهود.

(٢) راجع: بيتر أودبورى، غزو القدس والحملة الصليبية الثالثة، ألدرشوت، وهامبشير، ١٩٩٦م، ص١٧، وانظر ما سبق، ص١٧١، رقم ٧، والبركة استمر يستخدمها الدباغون بعد رحيل الفرنجة، وفى عام ١٤٨٠م، يذكر فيلكس فابرى أن دباغا مسلما كان يستخدم مياه العين، فى تنظيف الجلود، ولفها، ومن حين لآخر كان يتم تجديد مياه البركة بالكامل، فيلكس فابرى، ج٢، ص٥٢٧ .

(٣) من الممكن أن يدور جدال حول تاريخ الفترة الصليبية لهذه المنشآت، خصوصا وأنه قد جاء ذكر لإحدى المدابغ فى وثائق الحرم (وعددها حوالى ١٠٠٠ وثيقة يرجع تاريخها إلى فترة تصل إلى حوالى ٢٥٠ سنه ما بين عامى ١٢٠٧-١٢٠٨ و ١٤٦١-١٤٦٢ والتى تم الكشف عنها فى منطقة المسجد الأقصى). والحقيقة أنها تشير إلى التدهور الذى أصاب تلك الصناعة تحت الحكم الإسلامى. انظر: هدى لطفى، القدس المملوكية. تاريخ القدس المملوكية معتمدة على وثائق الحرم، القدس، برلين، ١٩٨٥م، ص٣٠٢ .

(٤) راجع: كتاب وصف المدينة، ص١٩٣، الترجمة الإنجليزية، فى مجموعة حجاج بيت المقدس، ج٦، ص٧، ومرة أخرى، فإن هذا الموقع مفتوح للترجمة. ومن المحتمل أن دكاكين الصاغة قد كانت فى جزء من السوق الذى تم ذكره عند شيك، بأن إحداها كانت قائمة إلى الشمال من كنيسة القديسة مريم الصغرى، انظر الصفحات من ١٤٤-١٤٥ .

(٥) راجع: مجير الدين، تاريخ القدس والخليل، مقتطفات من تاريخ مجير الدين، ترجمة هنرى سوافير، باريس، ١٨٧٦م، ص١٧٩ .

(٦) لم أستطع العثور على مصدر لصناعة الصابون فى القدس تحت الحكم الصليبى، على الرغم من ذكرها فى العصـر المملوكى، عندما كان يتم تصدير الصابون إلى القاهرة، المصدر السابق، ص١٣٤، حاشية رقم ١٦٩ .

(٧) يظهر هذا واضحا مما قام به المستشفى من رعاية أعدا كبيرة من أطفال الشوارع واليتامى، والذين تم استخدام حوالى ألف من المرضات لرعايتهم، راجع كيدار، "مستشفى القدس"، ص٦ .

(٨) أكثر من العملات الذهبية والتى من المحتمل أنها كانت تتطلب عدة عمليات لإنتاج معدن الذهب وفق مواصفات معينة (والتى كانت تحتاج إلى حماية معينة)، فإن إنتاج النقود الذهبية كان من المحتمل أن يتم فى إحدى دكاكين الفضة. تعليق لروبرت كوول.

(٩) ربما كان من المثير للدهشة أن نجد أكثر من صراف في القدس. كما لم تتم الإشارة إلى صرافين من فرقة الرهبان العسكرية لطائفة الداوية، على الرغم مما هو معروف عن خبرة الداوية في مجال البنوك والأعمال المصرفية. وخصوصا في الاهتمام الواضح بتقسيم عمليات الصرافة بين الصرافين اللاتين، والصيارفة السوريين، فهل هذا يشير إلى وجود نوع من الاحتكار، وكما كان الحال في الأمور الدينية. وهل كان السوريون يقومون بتغيير ما لديهم من عملات عند الصرافين السوريين، وقام اللاتين بتغيير ما معهم من عملات عند الصيارفة اللاتين، أم هل هذه الأسماء تدل على المشتغلين باستبدال العملات أنفسهم، وأن محل الصرافة كان مفتوحا أمام أي شخص ليغير ما يريد من عملات؟ الحقيقة أن هناك القليل من المعلومات حول هذه المنشآت بحيث لا يمكننا الإجابة عن تلك التساؤلات. وربما كان الصيارفة السوريون يرحبون بأي شخص لتغيير ما معه من عملات شرقية بعملة محلية، أو تغيير عملات غربية، وأن الصيارفة اللاتين كانوا لتغيير العملات الغربية.

* * *

الفصل السابع عشر

الفراغات الخاصة

إذا كانت هناك ندرة للمتبقى من المبانى المدنية فى الغرب الأوربى (فى القرن الثانى عشر الميلادى)، فمرد ذلك إلى أن تلك المبانى تم تشييدها من مواد هشة قابلة للزوال، هذا على العكس مما كان عليه الحال فى مدينة بيت المقدس زمن الحكم الصليبى لها، وهى فترة قصيرة بالمقارنة ببعض الفترات التاريخية الأخرى التى عاشتها المدينة. أما فى الشرق اللاتينى فإن تلك المبانى فى معظمها قد بنيت من الحجارة. ومع هذا فمن الملاحظ أن المبانى التى تم تشييدها فى القرن الثانى عشر الميلادى لا تعدو أن تكون حفنة من المنازل فى مدينة بيت المقدس، معظمها أصبح مجرد بقايا أثرية، وهذه الحاجة تبدو واضحة تماما إذا ما قارنا بين مدينة بيت المقدس ومدينة عكا، حيث ماتزال كثير من مبانى المنازل قائمة على امتداد المدينة كما أن الكشوف الأثرية تضيف باستمرار العديد من المبانى المدنية. ولكن كيف لنا أن نفسر النقص الواضح للمبانى المدنية فى مدينة بيت المقدس ؟

وربما كان أفضل ما تم عمله هو مقارنة الأحداث التى جرت فى بيت المقدس بعد فترة الحكم الصليبى بما حدث للمدن التى عثرنا فيها على مبان مدنية تعود للقرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد، وعلى وجه خاص فى المدن الساحلية. ففى العقود الأخيرة من الحكم الفرنجى، حوالى نهاية القرن الثالث عشر للميلاد، نفذ الفاتحون المماليك سياسة حرق الأرض، أو إتلاف الأرض والتى تهدف إلى منع الصليبيين من

استعادة ولو موضع قدم فى الأرض المقدسة وهذا نفسه ما حدث منهم فى الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩- ١١٩٢م) بعد هزيمتهم فى حطين. وربما بسبب أهمية مدينة بيت المقدس فى الإسلام، فإنها لم تعان سوى القليل من الخسائر عندما استولى عليها الخوارزمية عام ١٢٤٤م. لذا فمن المتوقع أنه نتج عن هذا بقاء مبان أكثر فى بيت المقدس عنها فى المدن الساحلية، وإلى حد ما فإن هذا هو الواقع. ومع بعض الاستثناءات، فإن الكنائس، وبعض المبانى العامة الأخرى تم الإبقاء على بعض مبانيها هناك. وعلى أية حال، فإنه بالنسبة للمبانى الخاصة، ربما كان من قبيل السخرية القول إن الدمار المملوكى قد صان تلك المبانى، وإن المدن الساحلية، وعلى وجه الخصوص عكا وصور، قد تم تدميرها عن طريق هدم الأدوار العليا فى المبانى ذات الطابقين أو الثلاثة والأربعة، مع الإبقاء على أكوام من البقايا المتهدمة، والتى غطت – وفى نفس الوقت صانت- الأدوار السفلى. وعندما تمت عمليات إعادة إعمار تلك المدن المهجورة فى الفترة المتأخرة من العصر العثمانى، فإن المنازل الجديدة قد تم تشييدها فوق البقايا الصليبية، أو تم إدماجها فيها. وبهذه الطريقة فإن البقايا الباقية من العصر الصليبى تمت المحافظة عليها. ومن الممكن اليوم تتبع أثر أكثر من مائة منشأة تعود للعصر الصليبى فى مدينة عكا، معظمها مبانى خاصة. أما بالنسبة لمدينة بيت المقدس وهى التى لم يتم تدميرها، فإن منازلها قد تم شغلها. وكما هو حال المبانى المدنية – حتى ولو كانت مبنية بالحجارة – فإنه بمرور الزمن أصبحت تالفة وأزيلت وحلت محلها مبان أخرى.

وفى هذا الاتجاه هناك حقيقة أخرى يجب أن توضع فى الاعتبار، وهى أنه عندما بدأ الصليبيون فى حصار المدينة عام ١٠٩٩م، أصابوا المبانى التى داخل الأسوار بشىء قليل من الدمار بمجرد أن دخلوا المدينة، لأنهم احتلوا منازل المسلمين واليهود وفى ذلك يقول وليم الصورى :

لقد قام كل مغير ابتغاء السلب والنهب زاعما ملكيته الخاصة للمنزل الذى اقتحمه، بكل ما فيه من محتويات. وعند مدخل كل منزل تم الاستيلاء عليه فإن المنتصر قام

بتعليـــق درعـــه وأسلحته، كعلامة لجميع من يقتربون من هذا المنزل بعدم التوقف هنا أو التردد لحظة فى البقاء عنده، والمرور فورا من أمام ذلك المكان حيث إنه أصبح فى حوزة شخص آخر(١).

ومن المحتمل أن كثيراً من المنازل التى تم الاستيلاء عليها قد قدر لها البقاء حتى نهاية الحكم الفرنجى. وتبعا لهذا فإنه لم تكن هناك حاجة للفرنجة لبناء منازل جديدة فى المدينة.

وفى مدينة عكا فى القرن الثالث عشر الميلادى كثيرا ما تصادفنا عبارة " "قصر" فى المصادر المدونة. ففى عام ١١٥٨م صدق البابا هادريان الرابع على وثيقة بمنح دير القديسة مريم اللاتينية قصرا يقع مجاورا لبوابة القديس ستيفان، إلى جانب بعض المنازل الخاصة إلى الشرق من القصر ومنازل ملاصقة له فى منطقة مرتفعة عند أسوار المدينة، وعلى بعد من البرج الثانى للأسوار(٢). وفى عكا فإن مصطلح " قصر" كان عادة ما يشير إلى ما هو عبارة عن مبنى به عدة غرف للتجار. ولكن فى بيت المقدس - والتى كان بها عدد قليل من التجار بالمقارنة بعكا - فإن هذا المصطلح ربما كان يشير إلى منزل أحد الأغنياء أو أحد السكان من ذوى المكانة الرفيعة.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل السابع عشر

(١) راجع: وليام الصورى، ٨، ٢٠ . وانظر كذلك فولشر الشارترى، ١، ٢٩، ص١٢٣ .

(٢) انظر: رادولف هايستاند: السكان تحت الحكم المسيحى فى الأرض المقدسة، جو تنجن، ١٩٨٥م، ص٢١٨٩، حاشية رقم ٧٩ .

* * *

الفصل الثامن عشر

مصادر وموارد المياه المشاعة

ينبغى أن نشير إلى أن معدل سقوط الأمطار سنويا على مدينة بيت المقدس يبلغ حوالى ٦٠٠ ملليمتر، وهو قريب من معدلها فى لندن[١]. وعلى أية حال، فإن الأمطار عادة ما تسقط فى موسم قصير، وبوجه خاص ما بين نوفمبر ومارس "فى حين يسقط ربع هذه الأمطار فى شهر يناير وحده " وفى زخات كثيفة فى أمد قليل. وبقية السنة عادة ما يغلب عليها الجفاف التام. على العكس من معدل سقوط المطر والتلال المنحدرة التى تعمل على تكوين الأنهار، والبرك فى منطقة نهر الأردن "الذى يبعد ٣٠ كليو مترا فى وادى الأردن شرقا". كما أن معدل سقوط المطر القصير يساعد على جعل عيون المياه قليلة، ومن ثم فإن أفضل وسيلة للحصول على الماء لمواجهة احتياجات المدينة تكون عن طريق تجميع مياه المطر فى خزانات أو صهاريج فى باطن الأرض. وهناك العديد من البرك المفتوحة فى أنحاء مختلفة من المدينة سواء حولها أو داخل أسوارها. كما أن هناك بعض البرك البعيدة التى تمد المدينة بالمياه عبر القنوات. وهناك المئات بل والآلاف من الصهاريج أسفل المبانى العامة، والمنازل، والأحواش. كذلك تعتبر عين جيحون فى جنوب المدينة أحد أهم الموارد الإضافية للمدينة.

إن أقدم مصدرين يغذيان بيت المقدس بالمياه هما عين جيحون وبركة سلوان، وظلا يمدانها بالمياه فترة الحروب الصليبية، كما أن عين سلوان كانت واضحة وبشكل بارز فى معظم خرائط المدينة. وتتفق معظم المصادر المعاصرة على أن هذه العين

لا يمكن الاعتماد عليها كمصدر للمياه. فقد ذكر وليم الصورى أن : مياهها لا هى حلوة ولا هى مستمرة، ذلك لأن تدفق مياهها متقطع ويقال إن مياهها تتدفق فقط عدة أيام. ويعلق فولشر الشارترى على ذلك بقوله : أحيانا تكون فيها مياه كافية، وأحيانا أخرى لا تجد فيها ماء لقلة ما يصلها منه. ولقد كتب بنيامين التطيلى عام ١١٧٥م عنها يقول : فيها القليل من الماء. ووفقا لما ذكره جاك الفيترى فإن المياه تتدفق منها ثلاثة أو أربعة أيام فى الأسبوع. وفى فترة الحكم الصليبى فقد تم سد مجرى العين جزئيا، عن طريق تراكم بعض الطمى المترسب فى مجراها أملا فى زيادة كمية المياه فى هذا المصدر. بالإضافة إلى أنه كان من الواضح أن العين قد أصبحت ملوثة بسبب كثرة القاذورات التى تراكمت فوق حافة جدرانها الصخرية[٢]. وهذا يوضح لنا السبب فى استخدام مياه هذه العين فى الرى فقط، وفى شرب قطعان الماشية، وفى الصناعات القائمة سواء فى داخل أو خارج أسوار المدينة[٣]. ومع هذا فإنه يجب أن نلاحظ أن تدهور مياه هذا المصدر ربما حدث قبل فترة الحكم الصليبى، على الرغم من أن المقدسى قد ذكر فى القرن العاشر للميلاد أن مياهها طيبة إلى حد ما، ولاحظ أنها كانت مستخدمة فى الرى.

بينما ذكر ثيودريك أن المياه تتدفق من الأرض وتملأ بركتين، إحداهما فوق الأخرى. وأن البركة العليا كانت محاطة بسور، وأنه ينزل إليها بسلم من ثلاث عشرة درجة. وأن البركة السفلى كانت مربعة الشكل وحولها سور لطيف، وأن الكنيسة تقع هنا منذ الفترة البيزنطية، ومن الواضح أنه لم يتم إعادة بنائها فترة الحكم الصليبى.

القنوات

بالرغم من عدم وجود ذكر لها فى المصادر مباشرة، فإن إحدى القنوات الثلاثة القديمة التى كانت تحمل الماء من برك سليمان وأرتاس جنوب بيت لحم كان من

الواضح أنها ظلت مستخدمة زمن الحكم الصليبى[٤]. وهذه هى القناة ذات المستوى المنخفض، وهى قناة تم تشييدها وتزويدها بمواسير من الفخار وتم تثبيتها بالملاط، وكانت تخترق وادى جهنم، إلى أعلى بركة الألمان "بركة السلطان" وتستدير حول جبل صهيون وتدخل إلى المدينة جهة الغرب من منطقة الدباغين. ومن هناك فإنها تتجه شمالا بامتداد المنحدر الشرقى أعلى المدينة وعبر قنطرة الوادى الكبير حتى تصل إلى الخزانات عند جبل المعبد.

الصهاريج أو الخزانات المفتوحة

كانت الصهاريج أو الخزانات المفتوحة داخل وخارج أسوار مدينة بيت المقدس على جانب كبير من الأهمية باعتبارها مصدرا مهما من مصادر المياه. وربما أمدت المدينة بالمياه اللازمة للشرب، إلا أنه من المحتمل أنها استخدمت فى سقى قطعان الماشية ورى الأراضى المزروعة بالخضراوات. وقد ورد ذكر بركة الألمان، والبركة الخارجية للبطريرك فى ماملا فى المصادر وأنهما استخدمتا فى سقى الخيول. أما معظم مياه الشرب فى المدينة فقد كان يتم الحصول عليها من الصهاريج العديدة وبركة سلوان التى ربما كان يتم تزويدها بقدر إضافى من المياه الواصلة إليها من أرتاس عن طريق إحدى القنوات.

البرك خارج المدينة

فى الوقت الذى زاد فيه عدد سكان مدينة بيت المقدس، ظهرت الحاجة إلى ضرورة زيادة موارد المياه. وفى عام ١١٧٠م تم تشييد بركة جديدة وهى بركة الألمان "أى بركة السلطان حاليا" فى الجزء العلوى من وادى جهنم إلى الغرب من المدينة. والاسم الحالى لها ربما كان مشتقا فى القرن السادس عشر للميلاد مما قام به السلطان سليمان بن

سليم "١٥٢٠ - ١٥٦٦م" من أعمال والذى أعاد ترميم السد. وأول ذكر لهذه البركة جاء عند ثيودريك الذى أطلق عليها اسم البركة الجديدة، مما يجعلنا نفترض أن وجود هذه البركة لم يكن قبل زيارته للمدينة حوالى عام ١١٦٩م بكثير. وعن أصول هذه البركة فى العصور الوسطى فهى ترتبط بشخص ألمانى محب لعمل الخير نفذ العديد من الأعمال من أجل تحسين موارد المياه فى المدينة، بما فى ذلك ما حدث عام ١١٨٤م من إقامته لثلاثة أسبلة وتطهيره لبئر أيوب. كما أن البركة قد جاء ذكرها كذلك فى كتاب "وصف المدين"، وتم تحريف اسمها فى ذلك الحين على أنها بركة ألمانية، أى أنها خزان للمياه قد بناه أحد الألمان : فبمجرد نزولك الجبل، تصادفك بركة فى الوادى تدعى البركة الألمانية ذلك لأن أحد الألمان هناك قام بتجميع المياه التى تنحدر من جوانب الجبل عندما تمطر السماء، وهناك تشرب خيول المدينة(٥).

ولم يكن هذا الخزان جديدا بشكل كلى، ولكنه كان امتداداً لبركة كانت موجودة. وتم عمله عن طريق بناء جدارين متقاطعين مع وادى جهنم، وكان الحائط الجنوبى منهما أكثر سمكا "حوالى ٨,٥ متر" وأكثر ارتفاعا "حوالى ١٨ مترا"، مما شكل سدا يمكنه حجز المياه التى تتجمع هناك. وتبلغ مساحة البركة ١٨٠ مترا × ١٨٠ مترا. وهى مستطيلة الشكل إلى حد ما. وفى أعلى الجدار العلوى "الشمالى" كانت هناك بركة أصغر، ربما كانت بمثابة خزان لتصفية المياه. ومن وقت لآخر فإن بركة الألمان تتم الإشارة إليها على أنها بركة، وهو مصطلح يدل على خزان مكشوف للمياه أكثر من كونه صهريجا، كما يشير ثيودريك إلى ذلك.

أما البركة المعروفة باسم بركة البطريرك "وهو اسم يدل أيضا على البركة الموجودة فى حى البطريرك داخل المدينة"، فقد كان يشار إليها أيضا على أنها بركة جيحون العليا. ويرجع وجودها على الأقل إلى الفترة البيزنطية فى المنطقة المجاورة لماملا إلى الغرب من بوابة داود. كما جاء ذكرها زمن الغزو الفارسى لبيت المقدس عام ٦١٤م(٦). والارتباط بين البركتين الخارجية والداخلية ارتباط طبيعى ولم يكن مجرد

ارتباط اسمي، ذلك أن إحدى القنوات كانت تحمل المياه من البركة الخارجية إلى بركة البطريرك داخل الأسوار، وتخترق المدينة عند المنطقة إلى الشمال من باب يافا. والقناة لها فرع يغذى الصهريج الواقع أسفل البرج الشمالي للقلعة. كما أن القناة والبركتين كانت ضمن ممتلكات البطريرك التي أصبحت وقفا بعد استرداد صلاح الدين لمدينة بيت المقدس عام ١١٨٧م. والبركة في معظمها الآن بناء حديث تبلغ مساحتها ٩٦ مترا × ٦٦ مترا، ويبلغ عمقها ٥,٨ متر في المتوسط، وتبلغ سعتها حوالى ٣٢٠٠٠ متر مكعب. وتمتد القناة من طرفها الجنوبي السفلي. وعلى بعد حوالي ١١,٦ متر هناك تجويف حيث يضيق مجرى الماء من ٥٣,٣ سم إلى ٢٣ سم ويمكن غلقه بقطعة من الحجر لتنظيم تدفق المياه.

أما بركة القديس لازار فربما كانت هي خزان المياه الكبير للإسبتارية والذى جاء ذكره عند ثيودريك، وتقع بين مستشفى مرضى الجذام وكنيسة القديس ستيفان. وقد كانت تقع خارج السور الشمالي للمدينة، وإلى الغرب من بوابة القديس ستيفان "بوابة دمشق" في المنطقة التي تشغلها فرقة رهبان القديس لازار أو بالقرب منها. ويبدو واضحا أنها كانت تقع في المنطقة المنخفضة في أسفل المنطقة المجاورة لمصرارة شمال المدينة القديمة، بجانب الطريق الدائرى الحديث. وفي هذا المكان يوجد منخفض متسع إلى حد ما، في المنطقة الأكثر عمقا في هذا المكان باستثناء المدخل المؤدى إلى بوابة دمشق، حيث تنحدر الأرض في كل اتجاه، وخصوصا في الشمال والغرب جاعلة منها منطقة لتجمع مياه الأمطار. ولقد لاحظ كليرمونت جانو في الوثائق العربية الشرعية القديمة أنه قد جاء ذكر أن هذه المنطقة تحمل اسم حارة البركة.

ولقد ذكر كل من وارن ويلسون بركة أبعد إلى الشمال من أسوار المدينة، ويتم وصفها أحيانا بالبركة الشمالية : البركة التي إلى اليسار من الطريق الشمالي، فيما وراء مقبرة الملوك قليلا، وهي الآن تكاد تكون مملوءة بالأتربة التي تجرفها أمطار الشتاء، وهناك لا تزال توجد منطقة ضحلة المياه كشفت عنها الحفريات الأثرية كانت

تقوم بتخزين مياه الأمطار الغزيرة. وربما كانت هذه هى أكبر بركة مجاورة للمدينة، وهى مناسبة تماما لتجميع المياه السطحية من أعلى وادى القدرون. ومن غير المؤكد معرفه كيف كان يتم توصيل مياهها للقدس.

وإلى الجنوب، وأمام السور الشمالى وبالقرب من بوابة كنيسة القديسة مريم المجدلانية، كانت توجد بركة صغيرة أطلق عليها بيروتى اسم بركة الحجاج. وربما كان ذلك فى فترة لاحقة. إذ وفقا لما ذكره روبنسون : فى المنخفض الشرقى لبوابة هيرود يوجد خزان للماء فى خندق المدينة، حيث نرى الرجال يحملون المياه فى قرب من الجلد، وينقلونها إلى المدينة على ظهور الحمير. وعادة ما يمتلئ هذا الخزان فى موسم الأمطار بحيث تتدفق مياهه أسفل الوادى.

كما أن هناك بركة صغيرة أخرى، وهى بركة الست مريم، والتى كانت تقع إلى الشمال من بوابة يهو شافاط تماما. وقد كانت مهيئة أيضا لتجميع المياه السطحية، وقد وصفها كل من وارن وويلسون بأنها فى مكانها هذا لا يمكنها تجميع أية مياه سطحية ومن الواضح أنه يتم تغذيتها بالمياه عن طريق إحدى القنوات. وقد كانت تقوم بتغذية أحد حمامات العصور الوسطى الواقع داخل بوابة يهو شافاط، وليس لدينا من الدلائل ما يفيد بأن هذه البركة قديمة.

البرك داخل المدينة

وينبغى أن نشير إلى أن هناك بعض التضارب فيما يتعلق بالبرك التى إلى الشمال الشرقى من مدينة بيت المقدس؛ ذلك لأن أسماء كل من بيت سعيدة، وجرن الماء قد تم استخدامهما وإطلاقهما على الخزان الكبير الواقع أمام السور الشمالى الشرقى من جبل المعبد "بركة إسرائيل"، وعلى الخزان الواقع إلى الشمال الغربى من كنيسة القديسة حنة. وعلى خريطة كمبراى فقط يظهر موقع هذا الخزان فى موقع بركة

إسرائيل. أما فى كل خرائط العصور الوسطى الأخرى فإن اسم جرن الماء – وكما يبدو – يطلق على البركة المزدوجة، ويظهر إلى الشمال الغربى من كنيسة القديسة حنة. فعلى خريطة كل من بروسيل وفلورنسا يظهر اسم جرن الماء. وفى الحقيقة فإن هذه البركة هى البركة الوحيدة التى تظهر على الخرائط، وربما كان السبب فى هذا أهميتها الدينية أكثر من أهميتها كمصدر للمياه.

وهناك أيضا بركة الغنم وهى تدل على المكان الذى كان يتم فيه تنظيف الأغنام قبل تقديمها كأضحية فى المعبد اليهودى. ووفقا لما ذكره يوحنا الإنجيلى، فإن البركة كان لها خمسة مداخل، وهنا قام السيد المسيح بشفاء المشلول. وفى عام ٣٣٣م أشار حاج بوردو إلى بركتين لكل منهما خمسة مداخل، تسميان بيت سعيدة. وبعض المصادر الأخرى تعطينا وصفا مماثلا لهذه البركة. ولقد ظهرت على خريطتين من الخرائط المستديرة. وفى بدايات القرن الرابع عشر للميلاد، فإن مارينو سانودو يذكر القناطر الخمسة التى اعتاد المرضى أن يرقدوا فيها انتظارا لتحرك المياه. وفى الكشوف الأثرية التى أجريت بعد منطقة كنيسة القديسة حنة والممتلكات المحيطة بها والتى آلت ملكيتها للحكومة الفرنسية، فإن البركة المزدوجة " تبلغ مساحتها ٤٨,٧ متر × ٤٨,٧ متر ويبلغ عمقها ١٣,٤ متر" وقد تم الكشف عن بنية هذه البركة. كما تم العثور على كنيسة صغيرة صليبية، وقد كانت مشيدة وفق تصميم يضم صفًا من العقود المتوازية تتجه من الغرب إلى الشرق، مفتوحة من الجنوب، ولها شبابيك جهة الشمال. هذه العقود ذاتها كان قد تم تشييدها فوق أربعة أعمدة حجرية تستند عليها خمسة شرفات مغطاة بعقود حجرية. وهناك تفصيل مثير على خريطتى بروسيل وفلورنسا عبارة عن نار للتحذير والإرشاد ظاهرة على سطح الرواق المعد عند مدخل المبنى. وربما كان ذلك إشارة إلى أن هذا المكان هو المعد للاستشفاء.

أما البركة القديمة والمعروفة باسم بركة إسرائيل فقد تم تشييدها أمام الجزء الشرقى من السياج الشمالى لسور جبل المعبد وإلى الجنوب من شارع باب يهو

شافاط ولقـــد كانت مملــوءة بالمـــاء عــام ١٩٢٠م وتبلغ أبعادها ١٠٩,٧ متر طولا، و ٣٨,٤ متر عرضا، وعمقها ١٠ أمتار.

وعن البركة الداخلية للبطريرك، وهى المعروفة الآن باسم بركة حزقيا، فهى عبارة عن خزان واسع للمياه. وقد كانت فى العصـور الوسطى مرتبطة بحـمام إلى الشرق منها، وعرف أيضا باسم حمام البطريرك. وكما سبقت الإشارة فإن هذه البركة كانت تؤدى وظيفتها حتى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد. والبركة مستطيلة الشكل، تبلغ مساحتها ٧٦ مترا × ٤٤ مترا. مستوية القعر ومغطاة بالملاط، ولها سلم تم بناؤه فى الطرف الشمالى الغربى، ربما قبل فترة الحكم الصليبى بوقت طويل. وتدخلها قناة قادمة إليها من بركة ماملا من الجهة الجنوبية الغربية. وفى القرن التاسع عشر للميلاد يبدو أن الأمطار قد ملأت حيزا بسيطا من البركة فى الجزء الجنوبى الشرقى، ومع هذا فمن المحتمل وجود مصدر أفضل لإمدادها بالمياه من البركة الخارجية فى ماملا فى العصور الوسطى(٧).

الصهاريج

إن الصـهـاريج كانت تمد مدينة بيت المقدس بمعظم مياه الشرب حتى بدايات القرن العشرين للميلاد، حيث كانت هى المصدر الذى تعتمد عليه المدينة أكثر من غيره، باستثناء فترات الجفاف، حيث كان يتم تجميع مياه الأمطار فى الشتاء من فوق الأسطح والأحواش وتحمل عن طريق المواسير إلى الصهاريج. وبهذه الوسيلة فإن الصهاريج كانت تمد سكان المدينة بأنظف مورد دائم للمياه وخاصة مياه الشرب. ولقد كتب شيك بعض التفاصيل عن الصهاريج فى البيمارستان. حيث لاحظ أن معظم الصهاريج قد تم إعدادها بالحفر فى الطبقة الصخرية، وأن بعضها كان عبارة عن بناء قديم فى مستوى منخفض تحول إلى صهاريج فى القرن الثانى عشر للميلاد.

أما عن بئر أيوب فقد تم التعرف عليه بواسطة الفرنجة على أنها عين روجل المذكورة فى التوراة. وفى محاولة لتحسين موارد المياه فى المدينة، فإن أحد الألمان كان قد سمع عن وجود بئر قديمة تقع على مسافة غير بعيدة من سلوان، وحوالى عام ١١٨٤م، فى فترة عدم سقوط أمطار، قام بإحضار عدد من عمال للكشف عن الموقع. وفعلا وجدوا عين ماء تتدفق فى أحد الكهوف، وقاموا بتنظيفها وشيدوا جدران البئر بالحجارة، وقاموا بوضع ساقية فوقها لرفع مياهها[٨]. وقد تم الاستفادة منها لعدة سنوات ثم تم إغلاقها فى الوقت الذى كان صلاح الدين يقترب من المدينة. وفى فترة لاحقة تم تنظيف البئر وأطلق عليه اسم والد صلاح الدين، أيوب. ولقد وصف السير شارلز ويلسون البئر بأنه يبلغ من العمق ١٢٥ قدما "٣٨ مترا"[٩].

الأسبلة

أثناء فترة القحط عام ١١٨٤م، فإن نفس الرجل الألمانى قام بوقف ثلاثة أسبلة فى مدينة بيت المقدس. ولقد جاء فى الذيل على وليم الصورى فى القرن الثالث عشر للميلاد أنه : فى السنة الأولى من وفاة الملك بلدوين الأبرص لم تمطر السماء فى كل أنحاء مملكة بيت المقدس. وبسبب النقص الشديد فى الماء فإن الشخص "الألمانى" قد أعد أحواضا من الرخام فى الحوائط فى ثلاثة أماكن فى مدينة بيت المقدس، وفى كل سبيل من هذه الأسبلة وضع كوبين تم ربطهما بسلاسل، وقد حرص على ملئهما بالماء. وكان فى مقدور أى شخص رجلا كان أو امرأة أن يذهب إلى هناك ويشرب. ولقد تم العثور على الجزء العلوى من السبيل فى الحفريات التى أجريت عند بوابة دمشق عام ١٩٨٠م والتى ربما تعود إلى أحد تلك الأسبلة أو إلى سبيل آخر مماثل.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الثامن عشر

(١) انظر رون أدلر، و. الأطلس الإسرائيلي، تل أبيب، ١٩٨٥م، ص ١٢ ووفقا لما ذكره جورج أدم سميث، فإن متوسط سقوط الأمطار السنوية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادى كان ٢٥ بوصة، (٦٣٥م) بينما فى لندن فإنه قد وصل إلى ٢٤,٤٧ بوصة (٦٢١,٦ مم). جورج أدم سميث، التاريخ الجغرافى للأرض المقدسة، لندن، ١٩٣٥م (الطبعة الأولى ١٨٩٤م)، ص٦٤، حاشية رقم١ .

(٢) انظر: إريك و. كوهين، آراء جديدة عن طبوغرافية مدينة القدس، القدس، ١٩٨٧م، ص ٥٦ من المحتمل أن التلوث كان يتضمن المياه الملوثة الناجمة عن صناعة الدباغة الموجودة داخل أسوار المدينة إلى الشمال.

(٣) ووفقا لما جاء فى الذيل على وليام الصورى للمؤلف الفرنسى، "عين سلوان ... لم تكن مياهها صالحة للشرب، لأنها كانت مالحة. وإنهم كانوا يستخدمون هذه المياه فى المدابغ الموجودة فى المدينة، وفى غسل الملابس، وفى رى الحدائق، والتى كانت أسفل الوادى. هذه العين لا تتدفق منها الماء أيام السبت، إلا أنها مازالت موجودة"، إديورى، غزو القدس، ص١٧ .

(٤) لقد كانت قليلة الاستخدام وكما هو الحال فى القرن التاسع عشر، يوشع، وبن أرياح، القدس فى القرن التاسع عشر. المدينة القديمة، القدس، ١٩٨٤م، ص٨٠ .

(٥) راجع: كتاب وصف المدينة، ص٢٠٣؛ الترجمة الإنجليزية، مجموعة حجاج بيت المقدس، ج٦، ص٢٠ . كما أنه ليست لدينا معلومات عن الأصول العرقية للألمان.

(٦) راجع: ستراتيجوس الأنطاكى، كشاهد عيان للغزو حيث يذكر أن الشعب المسيحى قد تم نفيه إلى منطقة بركة ماملا التى تبعد عدة خطوات من برج داود؛ إف كونى بير، "ستراتيجوس الأنطاكى، شدة حزن القدس عام ٦١٤م" مجلة الدراسات الإنجليزية، العدد ٢٥، عام ١٩١٠م، ص٥٠٦-٥١٣ .

(٧) راجع: جورج ويليامز، المدينة المقدسة. ملاحظات تاريخية، طبوغرافية، وأثرية للقدس، لندن، ١٨٤٩م، ص١٨-١٩ .

(٨) راجع: يوشع، وبن أرياح، وصف برك القدس فى القرن التاسع عشر الميلادى. حيث كتب يقول: إن الأنابيب (المواسير) وأخاديد صرف المياه والتى كانت تنقل المياه من فوق الأسطح والأحواش المستوية الأسطح كان يجب المحافظة عليها نظيفة، وبعيدة عن الحيوانات. وهذا يفسر لنا لماذا كان الناس يفضلون عدم الاحتفاظ بالقطط والكلاب. يوشع، وبن أرياح، القدس فى القرن التاسع عشر الميلادى، ص٧٤ .

وربما كان مثل هذا التصرف موجودا فى الفترة الصليبية فى بيت المقدس. فهناك قانون لدى طائفة الرهبان العسكرية الاسبتارية، يرجع تاريخه إلى بداية القرن الرابع عشر الميلادى، ربما يوضح هذا السلوك عند الاسبتارية فى القدس فى القرن الثانى عشر الميلادى، حيث ينص على: أنه يتحتم على كل واحد من الإخوة الرهبان أو من غيرهم من الأعضاء ألا يحتفظ أو يربى كلبا له أو لأى شخص آخر داخل ممتلكات الاسبتارية؛ كنج، القواعد والقوانين والعادات، ص١٢١ .

(٩) راجع: تيتوس توبلر، طبوغرافية القدس، برلين، ١٨٥٣م-١٨٥٤م، ج٢، ص. ٦٠ وهذه هى الساقية الثانية التى نعرفها فى القدس تحت الحكم الصليبى، انظر: ص١٥٩ .

* * *

الفصل التاسع عشر

مياه البالوعات والصرف الصحى

فى وقتنا الحالى لا يوجد أى دليل على أنه كان هناك أى نظام للبالوعات فى مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية. وربما كان هناك نظام قديم للصرف الصحى فى باطن الشوارع بامتداد الوادى الكبير وتحت شارع داود، ربما كان مستخدما فى العصور الوسطى، كما يبدو أنه كانت هناك بعض الحلول الدقيقة للمشكلة فى كثير من المناطق المختلفة فى المدينة. كذلك كان هناك شكل من أشكال الصرف الصحى للتخلص من الفضلات الناتجة عن سوق الماشية والمدابغ الواقعة فى الجنوب الشرقى من المدينة. وربما وجدت طريقة للصرف فى داخل الوادى الكبير إذ كان يتم فيه التخلص من المخلفات بنقلها فى اتجاه بركة سلوان فى الجنوب، حيث جاء ذكر الصرف الصحى فى القرن التاسع عشر للميلاد، عن طريق التخلص من مخلفات الحمام الكائن فى حى البطريرك فى القناة القديمة تحت شارع داود. قد وجدت تلك الطريقة فى فترة الحكم الصليبى، ولذا فلابد أنه كانت هناك وسائل للصرف مشابهة لذلك العمل فى المدينة[1]. وعلى أية حال، هناك مكان واحد كشفت الحفريات الأثرية الحديثة فيه عن دليل يؤكد وجود مشروع كبير للصرف الصحى. وهو الذى كان موجودا خارج الأسوار فى وادى يهو شافاط. وفى حوالى عام ٨٧٠م زار الرحالة برنارد الراهب قبر مريم العذراء وكتب يقول إنه ليس مسقوفا ويتأثر بالأمطار الساقطة وبشكل سيئ؛ لكونه يقع فى أسفل الوادى، ويوجد مباشرة فى مجرى بركة القدرون، لذلك فإن الكنيسة كانت تعانى كثيرا من تدفق المياه فى شهور الشتاء. وفى وقت ما من

القرن الثانى عشر للميلاد، نفذ الفرنجة مشروعا كبيرا يهدف إلى التخفيف من حدة هذه المشكلة بتحويل مياه هذا المجرى إلى الغرب، بعيدا عن الكنيسة، عن طريق قناة ذات عقود متوازية. كما تم تشييد سد عريض يبلغ طوله ٥٧ مترا إلى الشمال من الكنيسة ليقوم بتوجيه المياه نحو القناة[٢].

هذا المشروع تم الكشف عنه عام ١٩٩٨م، أثناء العمل فى شق قناة حديثة تجرى بطول وادى القدرون حاملة مياه أمطار الشتاء ومياه البالوعات التى تغمر المنطقة. كما أن العقد الذى يعبر الوادى فى الجهة الجنوبية الغربية كان مستترا. وقد تم بناؤه من قطع من الأحجار التى تم قطعها على شكل مائل، وعليها علامات حجرية عديدة. وفى الجزء الجنوبى من العقد توجد ستة أعمدة تدعم خمسة أقبية محجوبة. كما أن هناك عشرين فتحة فى العقد من خلالها تتدفق مياه الأمطار. وفى الطرف الشرقى يوجد ممر من المحتمل أنه كان يساعد على تنقية المياه من الطمى الذى يسد العقد، وفى الطرف الغربى هناك قناة ذات عقد مغلق. أما منحدرات السطح فإنها تتجه لأسفل نحو الوسط فى اتجاه غربى لتسهيل تدفق المياه. ويرى علماء الآثار أن المظهر الواضح من كنيسة قبر العذراء والذى تم فيه استخدام العلامات الحجرية المعروفة التى وجدت فى القناة تشير إلى احتمال بناء الاثنين فى وقت واحد كجزء من مشروع بنائى واحد. كما أن هناك عقداً أصغر تم بناؤه أمام الطرف الغربى من العقد الرئيسى، ويبدو أنه كان يقوم بتحويل اتجاه تدفق المياه من القناة من أمام مبنى الدير إلى اتجاه الجنوب، وتم الكشف عنه فى شهر سبتمبر عام ٢٠٠٠م.

ولا يوجد ذكر معاصر لهذا المشروع. وبعد فترة الحروب الصليبية يبدو أن التركيبة قد سقطت وبشكل لا يمكن معه إعادة ترميمها، وفى القرن الثالث عشر للميلاد لم يعد العقد صالحا للاستخدام كلية. فقد كتب بوركارد من جبل صهيون عام ١٢٨٠م يقول : لكن هذه الكنيسة رطبة تماما من الداخل، لأن بركة القدرون تجرى أسفل منها، وعندما يكون هناك فيضان من مياه الأمطار، فإن هذه البركة،

والتى مازالت تجرى فى مجراها القديم تحت الغطاء، يفيض منها الماء ويملأ الكنيسة لدرجة أن الماء كثيرا ما يغرق كل السلالم حتى أعلى مدخل الكنيسة.

وهناك وصف مماثل -إلى حد ما- ذكره مارينو سانودو عام ١٣٢١م جاء فيه: أن الكنيسة رطبة جدا لأن البركة تجرى من تحتها، ومليئة بالماء القادم إليها من البركة المذكورة والذى يغمر الكنيسة حيث يأخذ مجراه القديم، وعندما تزداد كمية الأمطار فإن البركة تمتلئ تماما وتغمر الكنيسة لدرجة أنه فى أحيان كثيرة يغطى الماء السلالم ويخرج من باب الكنيسة الموجود أعلى تلك السلالم(٣).

وربما تم تدمير نظام الصرف الصحى على يد صلاح الدين عندما أمر بهدم الكنيسة العليا، أو ربما انسدَّ بسبب عدم الصيانة.

* * *

حواشي وتعليقات الفصل التاسع عشر

(١) إن الصرف الصحي لحمام البطرك قد جاء ذكره عند بيروتي:
عندما نتجه إلى الشمال بامتداد البازار المسيحي، فسوف يصادفنا حمام تركي في الجهة الشرقية، يستمد ماءه معظم أيام السنة من بركة تدعى بركة حزقيا. أما المياه المستخدمة في الاستحمام فيتم تصريفها إلى الصرف الصحي الذي يمتد بطول شارع داود. ولقد فحصته تماما عند بدايته ونهايته، وفي داخل الدير، بعد موافقة بطريك الروم المبجل. والجزء السفلي من هذا الصرف محفور في الصخر، أما حوائطه الجانبية فتعود إلى الفترة الصليبية، وكذلك سقفه المعقود، والمجرى ضيق بحيث لا يمكننا أن نسير فيه. بيروتي، القدس التي يتم الكشف عنها، ص١٣١ .

(٢) ربما كان هذا ما ذكره بيروتي على أنه "الحائط الخارجي ... والتي مازالت بقاياه ترى واضحة للعيان في المنطقة المحيطة به. "حيث قال إن هذا الحائط وبلا أدنى شك قد تم بناؤه لحماية مجرى الصرف الصحي من مياه الأمطار المتدفقة، أو حدوث انخفاض في الأرض، ولمنع الفتحات العليا من أن يعوقها شيء. ولقد برهن على أنه بمثابة أحد الحوائط الحاملة"، بيروتي: القدس التي يتم الكشف عنها، ص١٧٥ .

(٣) راجع: مارينو سانوتو، ص٤٥-٤٦ . ووصف بيركهارد وسانوتو لمبنى الكنيسة وإن كان هذا الوصف على عكس ما كنا نتوقع وفي عصرنا الحالي، وعلى الرغم من التحسينات التي أدخلت على الصرف الصحي (المجاري) في الوادي، فإن الوضع لم يتحسن. فقد اجتاحت مياه الصرف الصحي الكنيسة ثلاث مرات على الأقل في القرن العشرين. آخرها كان في الساعة التاسعة من يوم ١٣ ديسمبر، ١٩٩٩م. فبعد حدوث زخات من الماء فجأة، وانهمر الماء، ومياه الصرف الصحي بحيث غمرت كل أنحاء الكنيسة ووصل ارتفاع منسوب المياه فيها إلى ١٥ مترا. ولقد زرت الكنيسة في الخامس عشر من ديسمبر، في الوقت الذي كان فيه الرهبان ينزحون الماء المتبقي، ويخرجون الأثاث والسجاجيد وإنه لمن المثير حقا أن تلاحظ أنه على الرغم من الخسارة الحادثة، فإن مشاكل الصرف الصحي لم تكن ضارة كلية للكنيسة. فقد كتب بيروتي يقول: إن رهبان الروم قد قاموا - وبكل الحرص - بجمع المياه المتساقطة في المغارة والقريبة من القبر وباعوها إلى الزوار، زاعمين أن لهذه المياه عدة مزايا، انظر: بيروتي، القدس التي يتم إعادة اكتشافها، ص١٧٦ .

* * *

الفصل العشرون

أماكن الدفن داخل وخارج المدينة

كان هناك عدد من أماكن الدفن المعروفة داخل وخارج أسوار مدينة بيت المقدس[1]، ذلك أن البناء الطبقي، كان جليا في الحياة الإقطاعية ووجد طريقه واضحا لدى الموتى. فالملوك والملكات تم دفنهم مع الشخصيات المقدسة، وخصوصا في أهم موقعين مسيحيين مقدسين : الضريح المقدس، وقبر السيدة مريم العذراء. أما بقية أعضاء الأسرة المالكة فمن المحتمل أنهم دفنوا بالقرب من هذين الموقعين لأنهم كانوا من طبقة النبلاء. فعلى سبيل المثال، هناك أحد الفرسان يدعى فيليب دي أوبجيني دُفن بالقرب من المقابر الملكية خارج باب الكنيسة تماما. أما أعضاء الجماعات الدينية والأديرة، وفرق الرهبان الفرسان فكان يتم دفنهم في فناء الكنيسة أو في جبانات أعدت لهم، وبالنسبة للنبلاء الأقل مرتبة وأبناء الطبقة البورجوازية فقد كان يتم دفنهم في مقابر خاصة.

المدافن الملكية

تنبغي الإشارة إلى أن ملوك بيت المقدس الثمانية الأوائل دُفنوا في كنيسة آدم في سفح جبل الصعود في الجهة الجنوبية الملاصقة لجناح الكنيسة. وظلت علامات القبور حتى العصر الأيوبي والملوكي، وبقيت هذه العلامات حتى عام ١٨٠٨م عندما حدث الحريق الكبير، وأزالها الروم الأرثوذكس[2]. ومعلوماتنا عن هذه القبور

قليلة باستثناء قبر الملك الطفل بلدوين الخامس، والذى كان على شكل تابوت حجرى منحوت بشكل متقن. ولقد تم تشييده إلى حد ما على نفس الأسس التى كانت معروفة حتى القرن الثامن عشر للميلاد. وقام بتصوير هذا التابوت إليعازر هورن. لقد مات بلدوين الخامس عام ١١٨٦م، أى قبل سنة واحدة من معركة حطين، وقد بلغ من العمر تسعة أعوام، وعلى هذا الأساس فإن التابوت يرجع تاريخه إلى ما بين سنة وفاته وسقوط مدينة بيت المقدس فى أكتوبر عام ١١٨٧م. وقد تم عمله على شكل صندوق مزخرف بعدة أعمدة مجدولة لها تيجان مزخرفة بشكل مدروس. والجزء العلوى منه مزخرف بصورة المسيح تحيط به الملائكة وبينهم مشكاوات غائرة شبيهة بالأصداف. والسطح العلوى القائم على الأعمدة وكذلك السفلى من التابوت تمت زخرفتهما بأشكال النباتات الشائكة، بشكل مماثل تماما لأعمال فن النحت التى تم تنفيذها فى مدينة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر للميلاد. والقبر كان مغطى بنقش فيه عبارات التكريم للراقد فيه.

أما المقابر الملكية الأخرى فقد كانت بسيطة بالمقارنة بهذه المقبرة. وتم تشييدها بكتل من الرخام المستطيلة وبها عدد من الأعمدة الصغيرة التى تدعم حجرا كبيرا على شكل الجملون. وتم حفر عبارات التكريم للراقدين فيها فى أعلاها كما تم حفر بعض الصلبان فى نهاية الكتل الحجرية. وهناك قطعة حجرية صغيرة ربما يرجع أصلها إلى واحد من هذه القبور، تتكون من مجموعة صغيرة من بقايا أعمدة مضفورة، وهى معروضة الآن فى المتحف فى مدينة بيت المقدس. وهناك مجموعة من الآثار المماثلة للتابوت الحجرى لبلدوين الخامس تم العثور عليها مستخدمة للمرة الثانية فى معبد الجبل. وربما كانت هذه قبورا لبعض أفراد من الأسرة المالكة أو لبعض كبار النبلاء.

أضرحة فى كنيسة الأربعين شهيدا وفى كنيسة القديس جيمس

أثناء الحفريات الأثرية التى أجريت حديثا فى كنيسة الأربعين شهيدا إلى الجنوب من الروتندا "أسفل برج الجرس" تم الكشف عن مجموعة من أضرحة. تحتوى على

بقايا مبعثرة لعدة أجسام، يرجع تاريخها إلى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد. كما تم الكشف عن مجموعة من ستة كوات غير نافذة استخدمت كقبور كل ثلاثة منها في حائط من الحوائط الجنوبية للكنيسة، وهي كنيسة القديس جيمس. هذه المقابر كانت تتكون من مدافن حجرية ولا يوجد في وقتنا الحالي وسيلة لمعرفة من الذي دفن فيها، إلا أننا نستطيع أن نزعم أنهم كانوا من أفراد الأسرة الملكية أو من كبار النبلاء، ذلك لأنه من غير المحتمل أن يتم دفن أي شخص في مثل هذا الموقع(٣).

قبر فيليب دي أوبجيني في فناء كنيسة الضريح المقدس

خارج المر الجنوبي لكنيسة الضريح المقدس وبين المدخلين، توجد مقبرة فارس إنجليزي، يدعى فيليب دي أوبجيني، حاكم جزيرة بحر الشمال على عهد الملك جون وابنه هنري الثالث، ومعلم الملك الصغير هنري. والذي جاء ذكره في وثيقة العهد الأعظم كأحد النبلاء الذين كان يستشيرهم الملك. ولقد مات في رحلة للحج إلى بيت المقدس عام ١٢٣٦م، والمقبرة تم اكتشافها عام ١٨٦٧م بعد إزاحة قطعة حجرية ضخمة فوجد بها قطعة حجرية على شكل شبه منحرف محفور عليها نقش ضريحي من ثلاثة أسطر باللاتينية هي : هنا يرقد فيليب دي أوبجيني لعل روحه تجد الراحة. وفي أسفل هذا النقش حفر لترس معلق معه أسلحته.

أماكن الدفن في منطقة جبل المعبد

يبدو أنه كانت هناك أرض لدفن أعضاء فرقة الرهبان الداوية أو فرسان المعبد في منطقة جبل المعبد. فعندما مات فردريك المحامي من ريجينسبرج في بيت المقدس عام ١١٤٨م، تم دفنه في جبانة بالقرب من معبد سليمان "المسجد الأقصى". وفي عام ١٨٩١م كتب كونراد شيك يقول إن الحفريات الأثرية التي أجريت لإزالة تراكمات التربة

حول البوابة الذهبية أدت إلى الكشف عن عدد كبير من القبور، على مستوى أعلى قليلا بعدة أقدام من مستوى البوابة، وكل القبور التي عُثر عليها تتجه من الغرب إلى الشرق، وكلها في صندوق تم تحديدها بحجارة شبه مستديرة، ومغطاة بمجاديل حجرية. كل هذه المقابر مازال بها كثير من العظام والأتربة. ويبدو أنها أنشئت في فترة من فترات السلام ولم يتم إنشاؤها في عجلة من الزمن أو في فترة اضطراب لذا فإنني ميال إلى التفكير بأنها كلها لموتى المسيحيين، ومن زمن الحروب الصليبية. ولقد أخبرني عمال الحفر أنه لا شيء يوجد سوى العظام، وليس هناك صلبان أو شيء آخر.

ويبدو أن المقبرة التي كشف عنها شيك كانت نفس المقبرة التي دفن فيها المحامي ريجينسبرج والتي استخدمت كمقبرة رئيسية للداوية. وكانت تقع بالقرب من حي الداوية، ملاصقة للبوابة الذهبية، وكانت على الطريق المقدس الذي سار فيه السيد المسيح عندما دخل المدينة. وكانت أيضا على الطريق الذي يسير فيه الموكب يوم عيد السعف.

مقبرة ميليسند والمدافن الصليبية في وادي يهو شافاط

إن رغبة الملوك في أن يتم دفنهم بالقرب من المكان الذي دفن فيه المسيح، لم تحقق سوى لملكة واحدة، وهي زوجة فولك، الملكة ميليسند، التي دفنت في المنطقة المذكورة، وهي كنيسة قبر العذراء مريم في وادي يهو شافاط.

ويذكر وليم الصوري أن ميليسند دفنت في سرداب حجري تحت الكنيسة تحيط به بوابات حديدية في الجهة اليمنى من مكان الهبوط إلى قبر العذراء. وفي منطقة جوقة المرتلين كان يوجد قبر ابن عم جودفري البوايوني وهو جرانييه دي جري "توفي ١١٠٠م" وقبر ثان لأحد الفرسان يدعى أرنولف من أودنارد والذي قتل في عسقلان عام ١١٠٧م(٤).

أماكن الدفن فى مستشفى الألمان

فى عام ١١٧٦م ماتت كونتيسة هولندا صوفيا أثناء حجها للمرة الثالثة للأراضى المقدسة. وقد ورد أنها دفنت فى مستشفى الألمان بمدينة بيت المقدس، بما يفيد احتمال وجود منطقة للدفن فى الحى، أو ربما دفنت فى الكنيسة، وإن لم يكن يوجد أى دليل على أى من الاحتمالين.

جبانة الفرسان الذين سقطوا صرعى فى الحملة الصليبية الأولى

بعد الغزو الفرنجى لمدينة بيت المقدس عام ١٠٩٩م، فإن الأعداد الكبيرة من موتى المسلمين واليهود تم حملها إلى خارج المدينة ومن المحتمل أنه تم دفنهم فى المناطق المجاورة للقدس. وهناك منطقة واحدة واضح أنها استخدمت لدفن الموتى من الصليبيين، وهى منطقة منحدرات البوابة الذهبية. حيث يذكر يوحنا الورزبرجى مقبرة شهيرة فى أسفل سور المدينة بالقرب من البوابة الذهبية. وهنا تتلى الصلوات التى يؤديها من شاركوا فى أحداث الخامس عشر من يوليو تخليدا لذكرى الاستيلاء على المدينة.

جبل صهيون

إن الحفريات الأثرية التى أجراها هنرى مودسلى على المنحدر الصخرى الشديد فى المنطقة الواقعة بين المدرسة البروتستنتية والجبانة الإنجليزية فى الجهة الجنوبية الغربية من جبل صهيون عام ١٨٧٤م كشفت عن بعض الآثار الصليبية، وعلى وجه التحديد بعض الحجارة المربعة التى تضم فتحة للرمى وشاهد قبر على شكل شبه منحرف وعليها نقش لاتينى يقول : هنا يرقد يوحنا من فالنسيا. هذا الحجر موجود

الآن فى فناء كنيسة القديس حنة. ويرى كليرمونت جانو أن عدم وجود صليب على هذا الحجر ربما يعنى أن هذه المقبرة لم يتم العمل فيها. وذلك بسبب تشابهها مع شاهد قبر فيليب دى أويجينى، ولقد أرجع تاريخها وبشكل غير مؤكَّد إلى فترةِ حكم الفرنجة ما بين عامى ١٢٢٩م و ١٢٤٤م. ومن المحتمل وجود ورشة لعمل شواهد القبور فى هذا الموقع على جبل صهيون، وربما كانت ملاصقة للجبانة(٥).

جبانة ماملا

هذه الجبانة تقع حول بركة ماملا إلى الغرب من مدينة بيت المقدس، وعلى بعد حوالى ٧٥٠ مترا من بوابة داود. وهى معروفة باسم جبانة الأسد. فحسبما يذكر كتاب "وصف المدينة" أنه فى أعقاب معركة وقعت هنا وفيها قتل كثير من المسيحيين قام أسد بحمل جثث الموتى إلى حفرة حتى لا يقوم سكان المدينة بحرقها. وحتى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد كان يمكن مشاهدة عدد من التوابيت الحجرية الفرنجية فى جبانة ماملا فى بيت المقدس. ويصف لنا كليرمونت جانو اثنين من الآثار المتبقية على النمط القوطى الرائع والتى لازالت ترى وعددا من الآثار الأقل أهمية كثير منها مدفون على شكل منشور براق ولها إفريز يستند أحيانا إلى قاعدة. وفى عام ١٩٥٥م فإن العديد من هذه المقابر ازيحت بالبلدوزر أثناء التجهيز لحديقة الحرية بحيث لا يمكن رؤية أكثر من مقبرة أو اثنين اليوم، وبصرف النظرعن هاتين المقبرتين الأثريتين اللتين لم تمسا بسوء. فإن إحداهما توجد، داخل جبانة مملوكية تعرف باسم الكحكية، والتى تجسد عمليات نهب الآثار من الفترة الصليبية. أما المقبرة الأخرى فهى تقع إلى الغرب من بركة ماملا.هاتان المقبرتان الأثريتان متشابهتان ولكن بهما بعض الاختلافات، وقد أقيمتا على شكل مبان ذات جملون لها واجهات على شكل أقواس غائرة. وربما كانتا مقبرتين لرهبان كنيسة الضريح المقدس. كما أن المقبرة الصغرى منهما، تقع فى الكحكية ويبلغ حجمها ١٨٠ سم طولا، و٧٠ سم عرضا، وارتفاعها

١١٠ سم. لها ستة أقواس غائرة فى كل جانب من جانبيها، واثنان فى كل طرف من طرفيها. بينما المقبرة الأكبر إلى جهة الغرب يبلغ طولها ٢٥٧ سم، وعرضها ٨٤ سم وارتفاعها ١٤٠ سم. ولها سبعة أقواس غائرة على كل جانب من جانبيها واثنان عند كل طرف من طرفيها. وكلتاهما تظهران طريقة قطع الأحجار الفرنجية التى كانت مستخدمة مائلة الشكل.

مقبرة حقل الدم

فى وادى جهنم إلى الجنوب الشرقى من المدينة توجد بقايا أثرية لمقبرة ذات عقد فى حقل قام البطريرك بمنحه هبة لطائفة الرهبان الفرسان للقديس يوحنا عام ١١٤٣م لدفن الحجاج المسيحيين الذين يموتون فى مستشفاهم والتى جاء ذكرها فى كتاب "وصف المدينة" على أنها مقبرة لدفن الحجاج الذين يموتون فى مستشفى الإسبتارية فى بيت المقدس. ووفقا لما ذكره يوحنا الورزبرجي فإن حوالى خمسين مريضا كانوا يموتون فى المستشفى كل ليلة. كما أن نظام هذه المستشفى يعطينا بعض المعلومات بهذه الخصوص، فهو ينص على أن كل الذين يموتون بعد صلاة الغروب كانوا يوضعون فى نعوش بجوار شموع مضاءة وكانت هذه النعوش تغطى بغطاء أحمر وعليه صليب أبيض، وفى اليوم التالى وقبل طلوع النهار كان يتم حملها إلى الكنيسة "واحدة من ثلاثة كنائس فى الحى، والأكثر احتمالا هى كنيسة القديسة مريم الكبرى، والتى كانت تقع بجوار المستشفى ومرتبطة بها". وبعد أداء الصلوات عليهم فإنهم كانوا يحملون إلى المقبرة ويتم دفنهم فيها. ومن المحتمل جدا أنهم كانوا يحملون إلى خارج المدينة عبر بوابة داود ثم الهبوط بهم فى وادى جهنم إلى المقبرة.

وهنا ينبغى أن نشير إلى أن كثيرا من أتربة هذه المقبرة قد تم حملها على مراكب البيازنة إلى مقبرة كامبو سانتو الواقعة فى بيزا. ويقال إن تراب هذه المقبرة كانت له

خاصية معينة، ذلك أن الجثث التى تلقى فيها كانت تتحلل فى خلال أربع وعشرين ساعة "أو ثلاثة أيام بالنسبة لبعض المصادر الأخرى" دون تلويث الهواء بالروائح الكريهة(٦). فإذا كان هذا صحيحا، فإن ذلك لابد وأن يكون عاملا مهما لموقع يتلقى فى المتوسط خمسين جثمانا جديدا كل يوم. وفى القرن التاسع عشر للميلاد حاول بيروتى أن يختبر ذلك عن طريق قيامه بدفن جسد خروف فى المقبرة لمدة ثمانية أيام، لكنه كتب يقول :"إننى مضطر إلى القول بأن هذه التربة قد فقدت قوة فعاليتها". ومع هذا، فإنه وفقا لما جاء فى مصدر آخر من القرن التاسع عشر للميلاد أن دفن كلب فى هذا الموقع أثبت حقيقة ذلك القول المأثور.

هذا الموقع استخدم للدفن قبل الفترة الصليبية بزمن طويل، فمن المأثور أنه الحقل الذى اشتراه يهوذا الإسخريوطى نظير ثلاثين قطعة من الفضة، وحيث تم دفنه هو نفسه فيه. كما يمكن رؤية عدد من غرف الدفن ترجع إلى فترة ثانية من بناء المعبد والتى تم حفرها فى الصخور خارج هذه المقبرة. وفى القرن السابع للميلاد قال أحد الفقراء المبجلين فى ذكره لهذا الموقع إنه كان يستخدم لدفن "الأشخاص غير المشهورين"، وأشار إلى أن "البعض الآخر كان يتعفن هناك إذا لم يتم دفنهم" وهذه إشارة واضحة لتقليد تراثى كان متبعا لمدة طويلة للتخلص من الجثث دون دفنها(٧).

والعقد نفسه مبنى إلى حد ما من صخر طبيعى ويتضمن بعض المقابر القديمة. ولقد قام الفرنجة بتوسيع المقبرة الأصلية وخصوصا فى الاتجاه الشمالى عن طريق تشييد عقد مواز مدبب إلى حد ما وملاصق لها. وتبلغ أبعاد هذا العقد ٢٢مترا × ٩ أمتار وقريب فى ارتفاعه من ١٠ أمتار، ولقد تم تدعيمه بعمود، من الصخر المدفون جزئيا، ومنه جزء من الحجر المسحوب من الحافة القريبة، وسور يبلغ سمكه ٢,١ متر إلى الشمال منه. أما الصخر الموجود إلى الغرب فهو محفور، كما هو الحال فى كنيسة الضريح المقدس، عليه صفوف من الصلبان. وهناك فتحات مربعة موجودة فى السقف ويمكن من خلالها وضع جثث الموتى. تسعة من تلك الفتحات كانت فى

صف واحد بامتداد وسط العقد، وفتحتان على الجانب الجنوبى من العقد وأربعة أخرى إضـافية فوق الكهف والمقابر. ووصف فابرى لهذا العقد يستحق الاقتباس بالكامل حيث يقول :

إن السقف المعقود للمبنى يبلغ عرضه خمسين قدما، ويبلغ طوله اثنتين وسبعين قدمًا ومن الفتحات السفلية فى القاع إلى الأرض ستة وعشرون قدما. وليس هناك طريق يؤدى إلى هذه الغرفة إلا من خلال تلك الفتحات ولا أحد يستطيع أن يدخل من خلالها إلا إذا تم إنزاله بالحبال. فهى مسكن الموتى وحدهم، وإننى أعتقد أنه منذ الساعة التى تم فيها بناؤها لم يقدر لأحد على قيد الحياة أن يدخل هذه الغرفة، وإذا حاول أحد أن ينزل إليها فإنه لن يخرج منها حتى يوم القيامة. فلقد استلقيت على بطنى وأدخلت رأسى فيها، فرأيت هناك أجساد خمسة من الموتى بين العظام. وفوق العقد لا يوجد الآن أية مبان، لكن الأعشاب تنمو هنا بكثرة، وفى بعض الأماكن تغطى هذه الأعشاب الفتحات لدرجة أن من يمشى هنا بغير حذر فسوف تنزلق إحدى قدميه فى داخلها(٨).

ويبدو أن كنيسة كانت مبنية فى الأصل فوق أو ملاصقة لغرفة الدفن، حيث جاء فى وثيقة ترجع إلى عام ١١٤٣م ذكر لكنيسة فى حقل الدم تم منحها للإسبتارية، وحيث كان يتم دفن جثث الغرباء. وفى فترة سابقة فإن هذه الكنيسة وموقع الدفن يبدو أنهما كانا فى يد السريان. إلا أن الكنيسة قد تم تدميرها ربما على يد صلاح الدين، وتمت إعادة بنائها فى القرن الرابع عشر للميلاد. إلا أنها تحولت إلى أنقاض مرة أخرى فى الوقت الذى زار فيه فيلكس فابرى المدينة عام ١٤٨٣م والذى كتب يقول إن المسلمين دمروا الكنيسة والمبانى الدينية فى هذا الموقع وأتوا على أساساتها. ولم يتبق أى أثر لهذه الكنيسة فى وقتنا الحالى، ولا يوجد دليل على الإطلاق عن البناء فوق العقد بحيث يبدو أنه لم يحدث أى بناء فوقه، وإنما كان البناء فى مكان قريب.

المقبرة التى إلى الشمال من بوابة القديس ستيفان

كانت توجد مقبرة صغيرة إلى الشمال الشرقى من بوابة القديس ستيفان. وتبلغ مساحتها ٢٣ مترا × ١٦,٥ متر وتم اكتشافها فى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد. وكانت تضم قبورا حجرية من الفترة البيزنطية وحتى الفترة الصليبية. وكانت الألواح الحجرية التى توضع لغلق القبور يبلغ عددها ١٥ لوحا مرتبة من الشمال إلى الجنوب، كل لوح منها يبلغ عرضه ٥٠ سم عرضا و ٢,٧٥ متر فى الطول ومنفصلة عن بعضها البعض بحائط صغير الحجم. والكثير منها تحتوى على حوالى ثمانى عشرة جثة واضحة رؤوسها إلى الغرب وأقدامها إلى الشرق. وعن موقعها فلم تكن بعيدة عن بيت مرضى الجذام، وربما كان هذا هو مكان الدفن المخصص لطائفة رهبان القديس لازار[٩].

بعض المقابر الأخرى

لقد ورد ذكر أن إيوستاس جارنييه، أول حاكم لقيسارية، ومن جاء بعده وهو والتر قد تم دفنهما فى كنيسة القديسة مريم اللاتينية. كما تم الكشف عن قبر يرجع إلى الفترة الصليبية وذلك فى القرن التاسع عشر للميلاد تحت السور الجنوبى للكنيسة. ووفقا للوصف الذى جاء فى المسح الجغرافى لجنوبى فلسطين فقد كانت هناك بعض العظام والجماجم، إحداها قطعت بسيف، وربما كانت تلك بقايا لفرسان قتلوا فى إحدى المعارك. كما أن المقابر الصليبية وجدت كذلك فى جبل الزيتون[١٠]، حيث تم العثور على بقايا شاهد قبر لأحد الدباغين من عكا فى الحفريات الأثرية فى الجستمانية فى سفح جبل الزيتون ومنقوش عليه عبارة : هنا يرقد جسد لامبرت الدباغ من عكا.

ويذكر كليرمونت جانو شاهد قبر حجرى لشخص يدعى دروجو دى بس Drogo De Bus والذى حدد موقعه عند العمود الثانى من مدخل باب السلسلة فى عام ١٨٨١م.

هذا المدخل قد أعيد بناؤه فى الفترة الأيوبية باستخدام مواد صليبية، من المحتمل أنها كانت مأخوذة من الباب الفرنجى الذى كان هناك أو من بعض المبانى الأخرى. والنقش الموجود مكتوب باللاتينية وترجمته : هنا يرقد يوحنا من لاروشيل، أخو آدم من لاروشيل، ربما ترقد روحه فى سلام. كذلك عثر كليرمونت جانو على شاهد قبر مكسور بدرجة تصعب معها قراءة ما عليه من نقوش.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل العشرين

(١) إن أماكن الدفن الصليبية فى القدس هى موضوع لرسالة يقوم بها الآن عميث رييم فى الجامعة العبرية فى القدس.

(٢) وعلى أية حال، فإنه وفقا لما ورد فى ذيل روثلين على وليم الصورى، فإنه بعد الفتح الأيوبى، فإن المسلمين قاموا بهدم المقابر، وقاموا ببعثرة عظام الملوك؛ شيرلي، الصليبيون فى بلاد الشام، ص. ٦٤ وليس هناك أى دليل آخر عن المقابر الأثرية التى دمرت فى هذه المناسبة، ولكنها معروفة من العديد من الصور التى تدل على أنه قد قدر لها البقاء. أنظر: هيلموت بوشادزين، البقايا الأثرية فى مملكة بيت المقدس، فون كونج ويلهلم ١١ الإمبراطور فردريك الثانى، فيينا ١٩٧٨م، اللوحات ٦٧-٧٣ .

(٣) التأريخ عادة ما يكون على أساس الكشف عن مصابيح زجاجية من بدايات القرن الثالث عشر الميلادى، أو أحد الأختام على قبر من القبور، ولقد قام يأييل جورن بفحص المصباح الزجاجى فى أحد المقابر، وهو يعمل فى المتحف الإسرائيلى.

(٤) راجع: ألبرت من آخن، ص٥٢١-٦٢٥، حيث قاد وارنر دى جرأى مجموعة من الفرسان اللوثرنجيين الذين حاصروا برج داود بعد وفاة الملك جودفرى، عام ١١٠٠م لمنع البطريك دايمبرت من الاستيلاء عليه. وإقامة حكومة دينية. وهكذا تم التأكيد على خلافة بلدوين أخى جودفرى على العرش، هارولد فنك، قيام الدول اللاتينية، ١٠٩٩-١١١٨م، فى كتاب سيتون، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص. ٣٨٠ وعن هذه الأحداث أنظر: "آلان فان موراى، دايمبرت البيزى، وفاة جودفرى واعتلاء بلدوين الأول لعرش مملكة بيت المقدس" فى كتاب آلان فان موراى: من كلير مونت إلى القدس - الحروب الصليبية والمجتمع الصليبى ١٠٩٥-١٥٠٠م، بريبولس، ١٩٩٨م، ص٨١-١٠٢ .

(٥) لقد جاء هذا فى تواريخ القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى دير إيجموند فى فريزيا، حوليات ايجموند، جورج هـ. بيرتز، تاريخ الآثار الألمانية، ج١٦، عام ١٨٥٩م، ص٤٦٨ .

(٦) وفقا لما ذكره بيروتى، لقد استمر ذلك لمدة أربع وعشرين ساعة، بيروتى، القدس التى أعيد اكتشافها، ص٢٠٧ . رادولف فون ساخين يعطينا ثلاثة أيام؛ انظر. شيك، "خطابات"، ١٩٨٢م، ص٢٨٣ .

(٧) انظر: بيدى المبجل، ٦، ص٧٤، معتمدا على ما ذكره أركولف، وقد كتبه أدامنان ٢١، ص١٢ . حيث كتب أدامنان يقول إن: عددا من الحجاج تم دفنهم بحرص، بينما ترك الآخرون بدون دفن وبإهمال واضح، وكل ما تم فعله، هو تغطيتهم ببعض الخرق أو الجلود أو أوراق الشجر، وهكذا كانوا يرقدون على الأرض وقد تعفنت أجسادهم.

(٨) راجع: فيلكس فابرى، ج١، ص.٥٣٥ هناك صورة ترجع إلى القرن السادس عشر الميلادى يظهر فيها المبنى كما لو كان مغطى بأربعة قباب صغيرة. أنظر: جى. زولارادو، صور من القدس، روما، ١٥٨٥م، أعيد نشره في كتاب إيللى شيلر، القدس والأرض المقدسة فى الحفريات والصور القديمة، (١٤٨٣-١٨٠٠)، القدس، ١٩٨١م، ص٣٠ب. وعلى أية حال فهناك صورة مبكرة يكاد يظهر فيها الحفرات التسع، وربما وبشكل أكثر دقة. أنظر: خريطة برايدنباخ التى يرجع تاريخها إلى عام ١٤٨٣م، فى كتاب شيلر عام ١٩٨١، ص١٢ . أما النص الاسبتارى فإنه يستخدم النص التوراتى (متى ٢٧، ٧) ليدلل على استمرارية هذا الحقل كمدفن للحجاج المسيحيين.

(٩) إن مستشفى مرض الجذام فى القدس قد وجدت منذ فترة مبكرة فى القرن الثالث أو الرابع الميلادى، (انظر الصفحات ٢٨-٢٩، ٩٦-٩٧، ١٦١)، كما كان هناك خمسة عشر مريضا من مرضى الجذام فى كنيسة القديس ستيفان التى بنتها ايودوكيا فى القرن الخامس الميلادى.

(١٠) كمثال للصليبى، هيو من شومونت عبر اللوار، جوناثان رايلى سميث، الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٥-١١٣١م، كمبردج، ١٩٩٣م، ص٢٣ .

* * *

الباب الثالث

الفن والتراث الصليبى

لن تكون هناك دراسة حقيقية لمدينة بيت المقدس فترة الحكم الصليبى دون بحث أو مناقشة، حتى ولو كان هذا البحث أو تلك المناقشة بدائية. وذلك فيما يخص تطور الفنون المختلفة فى المدينة، وعن دور المدينة فى فن العصور الوسطى المسيحية[1]. ذلك لأنها كانت مركزا للحج المسيحى، وشهد موقعها العديد من الأماكن المقدسة المهمة، والمبانى الدينية للمملكة، ومن الطبيعى أن يحتوى بيت المقدس زمن الحكم الصليبى على أرقى النماذج لفن النحت، والتصوير، والأعمال الفنية الأخرى. ولابد أن تكون هناك مدارس عديدة ونشاط لحركات دراسية حرة فى المدينة؛ وبصورة مشابهة، أو متمشية مع أهمية مدينة بيت المقدس، بحيث تنعكس على صورة الفن المسيحى. وإن غرضى هنا مزدوج : وهو مسح للأنشطة الفنية بأشكالها العديدة كما جرت على أرض بيت المقدس فترة الحكم الصليبى؛ مع إلقاء نظرة على مدى وكيفية تمثيل المدينة المقدسة فى الفنون المفعمة بالحيوية المحلية منها والغربية.

* * *

حواشي وتعليقات

(١) ليس قصدى أن أقدم هنا دراسة محددة عن الفنون الجميلة للقدس فى ظل الحكم الصليبى، ذلك أن العديد من المتخصصين فى هذا الحقل وهو تاريخ الفن فى العصور الوسطى قد أدلوا بدلوهم فى هذا الموضوع، كما أن هناك الكثير من المطبوعات عن فن النحت الصليبي، والرسوم الأثرية عن التلوين، وتصوير المخطوطات وعن فنون أخرى كثيرة .

* * *

الفصل الحادى والعشرون

فنون العصور الوسطى فى بيت المقدس

من الملاحظ، وبوجه عام، أنه قد حدثت تطورات بارزة فى مجال الفنون الجميلة فى المراكز الثقافية والتعليمية زمن العصور الوسطى. وطوال الفترة التى بقيت فيها مدينة بيت المقدس فى أيدى الفرنجة فإنها كانت فعلا أهم مركز ثقافى وبلا جدال فى منطقة الشرق اللاتينى. وإن كان من الملاحظ أنها وكل الشرق اللاتينى يفتقران إلى كثير من مظاهر الأنشطة الثقافية مثل الآداب، والفلسفة، وعلم اللاهوت، على عكس الحال فى الفن التشكيلى. ففى النحت الصليبى، والرسوم البارزة، وزخرفة المخطوطات، وصبغتها بصبغة فريدة بيزنطية، وغرب أوربية، وشرقية، وكذلك صنع الأيقونات، كلها كانت لها مكانتها الخاصة بها فى فنون العصور الوسطى، ولم تكن بحال من الأحوال، فى منزلة أقل مقارنة بالتطورات التى حدثت فى الفن الأوربى(١).

كما كانت الأسرة الملكية الصليبية أهم راع للفنون فى مدينة بيت المقدس، ربما كانت جماعات فرق الرهبان العسكرية كذلك رعاة لهذه الفنون. ولقد تحدث جارو سلاف فولدا عن رعاية الفنون الصليبية، ففى دراسته المهمة عن الفنون الصلبيبة فى القرن الثانى عشر للميلاد، ركز على تطورات الفنون الجميلة والفنون الصغرى وفن البناء وفقا للترتيب التاريخى لسنوات اعتلاء كل ملك للعرش. وينبغى أن نشير كذلك إلى أن الملكية الغربية وطبقة النبلاء فى الغرب، إلى جانب الإمبراطور البيزنطى، وبطاركة بيت المقدس كلهم كانوا رعاة أساسيين للفنون(٢)، ولكنهم كانوا

جميعا فى درجة تلى درجة رعاة الفنون المحليين فى المدينة المقدسة. ولقد بلغت رعاية الفنون ذروتها فى عهود كل من الملك فولك، والملكة ميليسند، وابنهما بلدوين الثالث "١١٣١م - ١١٦٣م"(٣). وفى تلك الفترة تم استكمال كنيسة الضريح المقدس على نطاق أكبر مما كانت عليه، وكذلك تم إنجاز كثير من الأعمال المهمة الداخلية فيها. وفى ذلك الوقت أيضا كانت أعمال فن النحت فى مدينة بيت المقدس قد بلغت ذروتها من حيث الإنتاج، وأنتجت حجرة النساخ أو الرسم العظيمة فى بيت المقدس بعضا من أهم أعمالها الرئيسية.

فن النحت

فى مدينة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر للميلاد تم وضع الأسس لمدرسة فن النحت ذات الأصول الغربية المتعددة، وعلى وجه الخصوص فن نحت القرن الثانى عشر للميلاد لوسط غرب فرنسا وجنوبى إيطاليا، إلا أنها كانت تأخذ خطواتها الأولى فى التطور كمدرسة فريدة لها مميزاتها. ذلك أن الكثير من أعمال فن النحت المحلى فى المدينة قد جاء مما أسماه زيهافا يعقوبى "ورشة منطقة المعبد" بينما يرى فولدا أنها ربما كانت موجودة عند أو بالقرب من الطرف الجنوبى من جبل المعبد، وحيث كان مشروع المبانى الضخمة للداوية يتم تنفيذه منذ بدايات عام ١١٦٠م(٤). هذه المنشأة أنتجت كميات كبيرة من أروع أعمال فن النحت، والتى مازال يوجد منها الكثير فى جبل المعبد وحوله، والتى تتضمن كثيرا من أجزاء الأسطح، وأعتاب الأبواب، والأعمدة، والزخارف النباتية، وعلى وجه الخصوص النباتات الشوكية المتسلقة، والتى تم تنفيذها وفق النظام المعروف باسم نظام الأوراق الطرية للنباتات الشوكية، ذلك لأن السطح المحدب لها ثلاثى الأبعاد يمثل الأجواخ الطرية الناعمة الملمس. كما أن الأعمدة كان بها أجزاء ناتئة على شكل المحار المضفور. وهناك العديد من النماذج التى لازالت ترى فى المسجد الأقصى، وفى قبة الصخرة، وفى أماكن أخرى فى منبر المسجد الأقصى،

وباب السلسلة، وفى الأسبلة المعدة للشرب حول المسجد الأقصى. والبعض الآخر موجود فى الكنائس وفى المجموعات العديدة الأخرى(٥).

وكما هو واضح فى الفروع الأخرى للفن الصليبى، فإن النمط الخاص لتلك الأعمال قد نتج عن انصهار الأنماط الغربية والشرقية مع الأنماط المحلية الموروثة فى بعضها البعض. كما أن المستوى الرفيع لهذه الأعمال التى تم إنتاجها فى تلك الورشة قد جعلها تأخذ لها مكانا ضمن ما تم تنفيذه من أعمال فنية رفيعة فى القرن الثانى عشر للميلاد. لذا فإنه ليس من المستغرب أن تجد، وحسبما يشير يعقوبى، أن هذا هو الدليل الوحيد عن وجود ورشة صليبية تتابع أنشطتها فى الغرب الأوربى بعد ضياع الإمارات الصليبية، وهو ما يمكن ملاحظته فى أبوليا، ومولز، وأبروزى جنوبى إيطاليا.

التصوير على الجدران وأعمال الموزايكو

هناك القليل من النماذج الخاصة بأعمال الفريسكو أو أعمال الموزايكو على الجدران فى مدينة بيت المقدس، وهى من القلة بحيث لا تسمح للعلماء للوصول إلى نتائج محددة فيما يتعلق بالنمط المحلى ومدى تطوره، ذلك أن أعمال التصوير على الجدران وكذلك أعمال الموزايكو الخاصة بكنيسة الضريح المقدس وإن كان يجب أن توضع بين أهم الأعمال الفنية الصليبية، إلا أن ما قدر له البقاء منها قليل جدا لسوء الحظ(٦). وقد تم العثور على بقايا أعمال من الفريسكو تصور عملية الصلب وتم الكشف عنها فى الجزء الناتئ نصف الدائرى تحت الكنيسة الصغيرة للقديسة هيللينا. وأعمال الموزايكو هى الوحيدة التى قدر لها البقاء، على الرغم من أنها بقايا ليس عليها صور فى كنيسة الفرنجة، وتمثل عملية الصعود، موجودة فى وسط الجناح الجنوبى فى كنيسة الصعود(٧).

كما أن مشروع تحويل قبة الصخرة إلى كنيسة قد استخدم فيه –من بين الأعمال الأخرى– تغطية أجزاء من الحوائط والقبة بأعمال الفريسكو والموزايكو. وعندما استعاد

صلاح الدين القدس فإنه قام بتطهير قبة الصخرة من الإضافات المسيحية، بحيث تمت إزالة تلك الأعمال. وهناك بعض الكنائس الأخرى والمعروفة بأنها كانت مزدانة بأعمال الموزايكو أو الفريسكو أو بهما معًا، بما فيها كنيسة قبر العذراء فى وادى يهو شافاط، ووفقا لما ذكره يوحنا الورزبرجي، كانت هناك رسوم رائعة ملونة، وكذلك فى كنيسة القديسة مريم فوق جبل صهيون، وفى كنيسة العشاء الربانى الأخير حيث كانت توجد بعض أعمال الموزايكو التى تصور العشاء الأخير فى شكل مهيب وفى صورة يمكن أن ترى فيها الروح القدس يهبط فوق رؤوس الحواريين، وقد تم تصويرها على الجزء الناتئ نصف الدائرى من كنيسة القديسة مريم الصغرى، وكنيسة القديسة حنة، وكنيسة القديس بطرس.

ومن أروع أعمال الفريسكو الصليبى فى بيت المقدس والتى عثر عليها فى شكل قطع متناثرة صورة أحد الملائكة، فقد عُثر عليها فى الحفريات الأثرية التى أجريت فى كنيسة الآلام فى الجستمانية. كما أن هناك قطعة مفتتة من الفريسكو مزدانة برأس أحد الملائكة فى منظر يمثل البشارة بمولد عيسى لمريم، وقد تم الكشف عنها مع بعض القطع الأخرى العديدة، فى إحدى الكنائس الصليبية الصغيرة والتى تم اكتشافها على امتداد بوابة دمشق فى الحفريات التى أجريت عام ١٩٦٤م - ١٩٦٥م. وأحدث ما يمكن أن يضاف إلى تلك الأعمال مجموعة من الأعمال المحدودة من التصوير على الجدران فى بيت المقدس، ومن أكثرها إثارة وتشويقا بعض النماذج التى تم الكشف عنها فى عجالة فى وادى القدرون سنة ١٩٩٩م.

زخرفة المخطوطات وحجرة النساخ في بيت المقدس

من الأعمال المعروفة والتى قدر لها البقاء تلك التى خرجت من حجرتى النساخ فى مملكة بيت المقدس تحت الحكم الصليبى، من عكا وبيت المقدس. وهما من أنشط الأماكن فى هذا المجال وقد كانا محل جدل ونقاش كبير للعلماء[٨]. وعن حجرة

النساخ فى كنيسة الضريح المقدس في مدينة بيت المقدس، فمن المحتمل أنها تأسست فى فترة مبكرة من الربع الثانى من القرن الثانى عشر للميلاد. ويفترض بوختال Buchtal أن أحد الرجال الإنجليز قد قام بتأسيسها، وربما كان أحد الرهبان البندكتيين والذى أصبح فيما بعد رئيسا لكنيسة الضريح المقدس قبل أن يصبح أسقفا لمدينة صور فى عام ١١٢٧م. وكانت حجرة النساخ هذه موجودة بلا شك فى المجمع المكون من المبانى الكنسية المحيطة بكنيسة الضريح المقدس. وقد قدر لحجرة النساخ هذه أن تبقى حتى عام ١١٨٧م، كما أنها استعادت نشاطها فى الفترة القصيرة من الحكم الفرنجى فى القرن الثالث عشر للميلاد، ما بين عامى ١٢٢٩م و١٢٤٤م.

ولقد قدر لعدد قليل جدا من الأعمال التى أنتجتها حجرة النساخ هذه أن تبقى، ولعل من أشهرها كتاب مزامير الملكة ميليسند، وهو عمل رائع قدر له البقاء مع جلدته المصنوعة من الحرير والعاج(٩). ولقد نُسب هذا الكتاب إلى الملكة ميليسند لعدة أسباب(١٠)، منها وجود تقويم مدون عليه اسما والديها، الملك بلدوين الثانى والملكة مورفيا، دون أى ذكر لأى حاكم آخر، كما توجد إشارة لزوجها الملك فولك فى صورة على ظهر الغلاف يظهر فيها باز أو صقر. ومن المحتمل أن يكون هذا الكتاب قد تم إهداؤه من فولك إلى ميليسند.

ويحتوى هذا الكتاب على عدد من الصور التى ترجع إلى فترة العهد الجديد، ومن المحتمل أنها من عمل فنان فرنجي، استخدم طريقة غربية للتصوير فى رسم الأيقونات وليست مطابقة للطريقة البيزنطية، على الرغم من أنه استخدم بعض النماذج البيزنطية. وجاء توقيعه باسم بيزنطي وهو "باسيليوس" ويرى بواس Boase أنه فنان غربى درس الفن البيزنطى باقتدار. ومن المحتمل أنه فنان ثان حمل اسمه الحروف الثمانية السابقة ويفترض أنه من جنوب إيطاليا وكان يعمل فى حجرة النساخ فى الدير البندكتى فى مونت كاسينو. وأنه قد درس فعلا أعمال الشمال الأوربى وكان مطلعا على الفن

الإنجليزى. وهناك احتمال بأنه فنان أقل موهبة من الفنانين السابقين، رسم تسعة صور للقديسين.

ومن الأعمال الأخرى والتى تم التعرف عليها بأنها تعود فى الأصل إلى غرفة النساخ هذه: كتاب القربان المقدس، وكتاب القداس، والأناجيل. وكتاب القربان المقدس مثله مثل كتاب مزامير الملكة ميليسند "فى جزعين موجودين فى روما وكمبردج" يظهر فيه التأثير الغربى إلى حد ما، وخصوصا فى استخدامه كلمات مشتركة فرنكو سكسونية، على الرغم من أن التشريح الحقيقى قد أظهر وبشكل واقعى أنه موضوع وفق النموذج البيزنطى. وربما كان الفنان من جنوبى إيطاليا، حيث يوجد تأثير بيزنطى قوى. وكتاب القداس يتضمن عناصر إيطالية ومن شمالى أوربا كما أن إنجيل القديس يوحنا – مثله مثل العمل الآخر- يتبع النموذج البيزنطى ولكنه وعلى ما يبدو عمل فنان لاتينى. أما الإنجيلان الآخران، فأحدهما موجود فى باريس والآخر فى الفاتيكان، ويرجع تاريخهما إلى فترة متأخرة من الحكم الفرنجى فى القرن الثانى عشر للميلاد وقبل عام عام ١١٨٧م. وهما متماثلان تماما، وتم وضعهما وفق النموذج البيزنطى وتم تنفيذهما بطريقة ليست على مستوى رفيع نوعا ما.

والمخطوطات الثلاثة منسوبة إلى حجرة النساخ وتم عملها فى فترة الانتعاش البسيطة فى القرن الثالث عشر للميلاد. وهذه المخطوطات هى كتاب المزامير الريكاردياني، وكتاب القربان المقدس الموجود فى إيجرتون، والكتاب البابوى الموجود فى أباميا. والأول منها وصفه بوختال بأنه مخطوط ملكى ممتاز جدا، وربما كان من عمل فنان صقلى، أو فنان تم تدريبه فى صقلية، هذا المخطوط ذو تصميم غربى ويتبع نظام الرسوم الأيقونية، وإن يكن على درجة أقل فى المستوى من معظم أعمال القرن الثانى عشر للميلاد. ويفترض بوختال أنه نُفِّذ بناء على توصية من الإمبراطور فردريك الثانى لإهدائه لزوجته الإنجليزية إيزابيل. أما المخطوطتان الأخريان فهما على مستوى أقل وربما كانتا صورة طبق الأصل من عمل فنى تم تنفيذه فى غرفة النساخ فى القرن الثالث عشر للميلاد.

وباستثناء عملية إنتاج الأعمال الزخرفية لرعاة الفنون من الأسرة الملكية، فإن غرفة النساخ الموجودة فى الضريح المقدس وبلا شك قد حققت هدفها الرئيسى، وذلك عن طريق إنتاج مخطوطات لها علاقة بالطقوس الدينية وبشكل بسيط للاستخدام العام فى الكثير من كبرى الكنائس.

أعمال الذهب والفضة

إن كتاب المدينة يشير إلى صناع الذهب السريان واللاتين فى مدينة بيت المقدس، والذين كانت لهم منشآتهم المنفصلة بالقرب من كنيسة الضريح المقدس فى الطريق الذى يؤدى من الأسواق إلى كنيسة القديسة مريم الكبرى[١١]. والحقيقة أن صناع الذهب يبدون كشهود على وجود امتيازات لطائفتهم فى المدينة فى تلك الفترة المبكرة. وهناك نستطيع أن نرى مرة أخرى الدور الرئيسى الذى كانت تلعبه حركة الحج المسيحى فى إنعاش المدينة، ذلك لأن هؤلاء الصاغة كانوا مشغولين تماما فى إنتاج أوعية لحفظ الذخائر المقدسة، وبعض الأشياء ذات الأهمية الدينية.

فهناك عدد محدود من الأعمال يمكن نسبته لصناع الذهب فى مدينة بيت المقدس منها صناعة المشغولات المعدنية الفضية المحلاة بالذهب، وصناعة الصلبان المقدسة، والموجودة الآن فى أماكن كثيرة من أوربا، وصناعة التيجان الذهبية، وصناعة أوعية من البللور الصخرى للذخائر المقدسة المأخوذة من كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وهى موجودة الآن فى متحف البطريركية الأرثوذكسية للروم. والصلبان ثنائية السطح التذكارية والمأخوذة من الصليب المقدس الموجود فى كنيسة القديس يوحنا المعمدان. وهذا الصليب كان هو الصليب البطريركى لبيت المقدس[١٢].

وأول صليب تم أخذ أجزاء مقدسة منه هو صليب دنكندورف، الموجود الآن فى متحف شتوتجارت، وبعض الصلبان الأخرى ربما ترجع فى أصولها إلى بيت المقدس

مثل الصليب المقدس لدير السسترشيان فى كيشيم، وكرايس دون ورث والصليب الموجود الآن فى أو جسبرج، والصليب الموجود فى كنيسة القديس سبيلكرو، وباراليتا، والصليب الموجود فى دير شيرين، والصلبان فى أجريجنتو، وسانتياجو دى كومبستيلا، وكنيسة القديس فوى فى كونكيه، ومتحف اللوفر فى باريس وفى متحف كيليفلاند للفنون.

وعن صليب ديكندروف فمن المحتمل أنه قد صنع حوالى عام ١١٣٠م. ويبلغ طوله ٢٣ سم، وهومصنوع من الخشب ومغطى بالفضة وتمت زخرفته باللؤلؤ، والأحجار الكريمة، كما تم تثقيبه وبه قطع صغيرة من صخور الجلجثة، وقطعة مشقوقة بالطول من الصليب الحقيقى. وفى واجهة الصليب فإن عملية الزركشة بالتثقيب تشكل حلية ورقية الشكل، وفى الخلف طبع عليه صورة ترمز للمسيح والحواريين من حوله.

والأثر المقدس المأخوذ من كنيسة القديس يوحنا المعمدان فى حى الإسبتارية يعتبر عملا فريدا. ويرى فولدا أنه يرجع إلى عام ١١٥٠م ويفترض أنه ربما كان مرتبطا بالإسبتارية وقد كان موجودا فى السرداب حيث وجدت الكنيسة. أما الوعاء الصخرى البللورى فقد كان محاطا بإطار من المجوهرات المزخرفة بحلقات من الذهب، وقد تم حفره فى الوسط وبه قطعة من خشب الصليب الحقيقى من بين الذخائر الثمانية عشرة والمأخوذة من كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وكنيسة القديس بطرس، والأحد عشر حواريا، وكنيسة القديس مارك، والقديس لورانس، والقديس فيتوس، والقديس ستيفان، والقديس أوزوالد.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الحادى والعشرين

(١) عن طبيعة الفن الصليبى انظر: بيانكا كوهنل، الفن الصليبى فى القرن الثانى عشر الميلادى، الفن الجغرافى والتاريخى، أو التصور التاريخى للفن، برلين، ١٩٩٤م، ص١٥٥-١٦٨ .

(٢) كمثال لأحد نبلاء الغرب الأوربى، سنأخذ هنرى الأسد، دوق سكسونيا. والذى رمم زخرفة كنيسة الصليب الحقيقى فى كنيسة الضريح المقدس بالموزايكو، كما قام بكسوة بوابات الدخول بالفضة، ومن المحتمل أنه قام بتدعيم صناع المشغولات المعدنية فى بيت المقدس عندما قدم الوعاء المحفوظ فيه قطعة من الصليب الحقيقى عام ١١٧٣م إلى دير الصليب المقدس فى هيلد شايم، فولدا، ١٩٩٥م، ص٣٩٢ . وعن نماذج من رجال الدين، فقد أشار بيانكا كوهنل إلى راهب يونانى يدعى فوكاس والذى حصل على هدية من الذهب أرسلها الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين وهى عبارة عن قطع من الموزايكو من الذهب لزخرفة داخل كنيسة الضريح المقدس؛ بيانكا كوهنل، الفنون الصليبية من القرن الثانى عشر الميلادى، برلين، ١٩٩٤م، ص٥٢، حاشية رقم ٢ .

(٣) يمكننا إعطاء فكرة عن أهمية جهود الملكة ميليسند فى تطوير الفن الصليبى، بإلقاء نظرة على كمية أحداث عهدها وتغطية تلك الأحداث. فى دراسات عن الفن الصليبى، ذلك أن فولدا فى كتابه الذى يعد من أفضل الدراسات الحديثة، قد كرس ٢٠٩ صفحة لعهد الملكة ميليسند (بما يتضمنه من عهود كل من فولك، وبلدوين الثالث). بالمقارنة بحوالى تسع صفحات لعهد جودفرى، ٢٩ لعهد بلدوين الأول، و٣٩ صفحة لعهد بلدوين الثانى، و٧٨ صفحة لعهد عمورى، و٦٣ لعهدى بلدوين الرابع وبلدوين الخامس. كما ظهر ذلك فى دارسة لكل من كوهنل ويوسى.

(٤) يسميها يورسلاف فولدا فناء من (كتلة حجرية جديدة)؛ أنظر: فولدا، الفن الصليبى، ص٥٩٥، حاشية رقم ١٧٢ . ويعتبرض على مصطلح "أتيليه" الذى يفترض وجود منشأة تجارية تقوم بتصنيع القطع حسب الطلب، ويعتقد أن المصنع هو جزء من المجمع الخاص بالداوية وليس مستقلا عنه.

(٥) إن بعض القطع الجميلة من المجموعة تتضمن تلك التى كانت فى المتحف الإسلامى فى جبل المعبد (المسجد الأقصى)، ومن متحف الفرنسيسكان، ومن متحف البطريرك اليونانى، ومن متحف كنيسة القديسة حنة، ومن مخزن مواجه لكنيسة الضريح المقدس، ومن كنيسة قبر القديسة مريم فى وادى يهو شافاط.

(٦) وبسبب ندرة ما تبقى، فإن الطريقة الوحيدة للحصول على فكرة عن الأعمال الأكثر أهمية، فإن هذا يكون بالاعتماد على المعاصرين والرسومات المتأخرة، وبوجه خاص ما ذكره يوحنا الورز برجى، وثيودريك،

وكاتب القرن السابع عشر الميلادى. انظر يوحنا الورز يرجى، ص١١٩، ١٢١-١٢٣؛ ثيودريك ٥-٧، ٩، ١٢ الصفحات من ١٤٧-١٥١، ١٥٥-١٥٦ . الخوارزمي، التاريخ الدينى والروحى للأرض المقدسة، ج٢، ١٦٣٩م. للمناقشة انظر: كوهنل، الفن الصليبى، ص٤٩-٥٢، فولدا، الفنون الصليبية، ص٢٢٩-٢٤٣

(٧) راجع: جوستاف كوهنل، "بين القدس وبيت لحم: اكتشاف جديد لقطعة من زخرفة الموزايكو الصليبى" الفن اليهودى، ص٢٣-٢٤، ١٥١-١٥٧، وقد أرجع كوهنل تاريخ هذه القطعة إلى عام ١١٤٠م، ص١٥٧ .

(٨) انظر: هوجو بوختال، فن رسم المنمنمات فى مملكة بيت المقدس اللاتينية، أوكسفورد، ١٩٥٧م؛ يورسلاف فولدا ١٩٩٥م،ص١٦، ص١٠٠-١٠١، ص١٠٤-١٠٥، ص١٥٦-٢٣٦، ص٢٤٢،٢٨٢-٢٨٣، ٣٣٣، ٣٣٧-٣٤٧ .

(٩) إن كتاب المزامير موجود فى المكتبة البريطانية (مجموعة إيجرتون رقم: ١١٣٩) مجموعة اللفائف تعد عملا رائعا قد دار حولها نقاش قام به كوهنل، الفن الصليبى، ص٦٧-١٢٥، فولدا، الفن الصليبى، ص١٥٦-١٥٩ .

(١٠) يرى بوختال أن المخطوطات الثلاثة المتبقية من القرن الثانى عشر الميلادى فى القدس ربما كانت من ممتلكات أعضاء من الأسرة الملكية وأن مكان تصوير المنمنمات فى القدس فى القرن الثانى عشر الميلادى كان "قاعة فخمة للفن"؛ بوختال، تصوير المنمنمات، ص٣٥ .

(١١) انظر: كتاب وصف المدينة، ص٧ . ماذا عن التفرقة بين الصاغة اللاتين والصاغة السوريان الذين جاء ذكرهم فى كتاب وصف المدينة، فهل عمل صناع الذهب السوريان وفق الطقوس الدينية الشرقية، وأن القطع اللاتينية كانت تنتج وفقا للطقوس الدينية الغربية، ومع هذا فإن القطع الذهبية والفضية قليلة جدا بحيث لا يمكننا الوصول إلى أى نتيجة حاسمة بهذا الخصوص.

(١٢) هناك العديد من النظريات حول عظمة هذا الشكل وبوجه خاص فى الشرق اللاتينى؛ انظر: كوهنل، الفن الصليبى، ص١٣٨، حواشى رقم ١، ٢، كما أن الصليب البطريركى أخذ يظهر أواخر القرن الثانى عشر الميلادى على العملات والأختام، وبشكل ملحوظ على النقود الملكية، وعلى الأختام والعملات الخاصة بفرقة الرهبان العسكرية لجماعة القديس يوحنا . كما عند رهبان الضريح المقدس، والأسقف راؤل أسقف عكا؛ انظر: د. إم . ميتكالف؛ العملات الصليبية. والشرق اللاتينى فى متحف الأشمولين، أوكسفورد، لندن، ١٩٩٥م، ص٣٥-٧٣-٧٨؛ جوستاف شولبرجر، جغرافية الشرق اللاتينى، باريس ١٩٤٣م، اللوحات ١١، ١٢، ٢٠ . كما وجدت أيضا فى خزان تم الكشف عنه فى بقايا مبنى إلى الجنوب من القلعة والذى يرتبط بالقصر الملكى؛ باهات وبردتشى، "الحدائق الأرمنية"، ص١٠٣ .

* * *

الفصل الثانى والعشرون

مدينة بيت المقدس فى فنون العصور الوسطى

إن مدن العصور الوسطى عادة ما يتم تمثيلها خلال العديد من الأشكال الفنية، على الخرائط، والعملات والأختام، وفى الصور على الجدران، وفى زخارف المخطوطات. وغالبا ما تبدو المدينة على العملات والأختام فى شكل تخطيطى كمثلث يمثل الدفاعات، بأبراجها عند القمة، والبوابة فى الوسط. وفى مثل هذه الحالات هناك القليل الذى يمكن من خلاله التمييز بين مدينة وأخرى. أما على الخرائط فعادة ما يكون هناك نوع من التمثيل الواقعى للمدينة، سواء من حيث المنظر الرأسى المأخوذ من أعلى أو المأخوذ بشكل أفقى وبزاوية تتجه إلى الشرق.

مدينة بيت المقدس علي خرائط العصور الوسطي

تعد الخريطة أحد أهم وسائل التصوير التمثيلى، والتى عن طريقها نستطيع معرفة الكثير والكثير عن المدن. ولدينا اليوم أربع عشرة خريطة لمدينة بيت المقدس زمن الحكم الفرنجى(١). منها إحدى عشرة خريطة، تتميز برسوم صغيرة كعيون الطيور. أما الثلاث الباقية فهى رباعية الزوايا بشكل أو آخر. وأهم خريطة فى النوع الثانى فهى خريطة منتصف القرن الثانى عشر للميلاد وهى خريطة كامبراى. وهى تعد تمثيلا واقعيا -إلى حد ما- لمساحة المدينة وبعض أهم مبانيها الرئيسية. ومن أهم الملامح الفريدة لهذه الخريطة الجهد الواضح لإظهار طبوغرافية المدينة والمناطق

المحيطة بها، حيث يلاحظ فيها ظهور التلال التى تقع عليها بعض الكنائس مثل كنيسة القديسة مريم المجدلانية، وكنيسة القديس بارثوليو الواقعة إلى الشمال الشرقى وجبل الزيتون خارج المدينة وإلى الشرق. وبعض المبانى، مثل كنيسة الضريح المقدس وربما مجمع الاسبتارية. وقد تم رسم تلك المبانى بشكل واقعى، وكذلك وبعض المبانى الأخرى الأقل أهمية، فى حين كان البعض الآخر مجرد تخيلات. لذلك فإن خريطة كامبراى تمدنا بتمثيل حقيقى لمعظم مبانى بيت المقدس زمن الحكم الفرنجى، مثل القصر الملكى، والعديد من كنائس المدينة.

وهـذا النـوع مـن الخـرائط الذى يمتاز بالرسوم الصغيرة على هيئة عيون الطيور ربما كان متأثرا بفن رسم الخرائط التقليدى للعصور الوسطى والموجود فى خرائط العالم، والذى ظهر لأول مرة فى القرن السابع للميلاد، عرف باسم خرائط ت – أو (T - O maps) ذلك النوع من الخرائط يقدم لنا العالم على شكل دائرة مقسمة بشكل حرف ت. T، وهذا الشكل تم تكوينه من نهر الدون ونهر النيل وفروعه والبحر الأبيض المتوسط. وحرف T يقسم أرض العالم إلى ثلاث كتل أرضية : آسيا فى الأعلى، وأوربا فى الأسفل وإلى الشمـال وأفريقيا فى الجزء السفلى جهة اليمين. وعلى نفس النموذج،فإن الصليب تم تشكيله بنفس الطريقة، كما أن طريقة السوق الكبير القديم والطريق الصاعد يقسمان بيت المقدس إلى أربعة مناطق رئيسية، ومنطقة جبل المعبد "المسجد الأقصى" تشكل قسما خامسا.

وعلى أية حال، فربما من خلال الخرائط ذات الرسوم الصغيرة كعيون الطيور لمدينة بيت المقدس يمكننا البحث عن مصدر مبكر أكثر من خرائط الـ T-O، لأن هذا النوع من الخرائط ليس كثيرا، حيث إن حرف T يكون داخل الدائرة كصليب. وربما كان هذا التصميم انعكاسا لمدينة بيت المقدس على أنها مدينة الصليب وحيث تم صلب المسيح، ولكن من المحتمل أن ذلك ربما يرجع إلى تخيل سابق من فترة سابقة للتصور المسيحى(٢). ومهما كان مصدر هذه الخرائط، فإنها تعد تصويرا فريدا لبيت المقدس، وهذه حقيقة تبين عظمة المكانة التـى احتلتها هذه المدينة. وعلى الرغم من الانطباع

الأول بأن هذه الخرائط ما هى إلا تصوير ساذج للمدينة يحتوى على معلومات حقيقية بسيطة، إلا أنها فى الحقيقة مصادر مفيدة للمعلومات عن المدينة فى العصور الوسطى، كما أن المعلومات المدرجة فيها معقولة. أما خريطة شتوتجارت فقد جاء فيها ذكر ثلاثة وعشرين موقعا مختلفا داخل الأسوار، وستة عشر موقعا خارجها ولكنها فى المنطقة الحالية للمدينة، وسبعة أخرى فى مواقع بعيدة. والأماكن التى تم رسمها فى بيت المقدس وحولها تتضمن ملامح طبوغرافية خارج الأسوار، وكذلك التحصينات، والطرق الرئيسية المؤدية إليها والخارجة منها، والقلعة، والقصر الملكى، وميدان عام وسوق، وأماكن الصيارفة، والكنائس الرئيسية، والأديرة، وأماكن زيارة الحجاج المسيحيين، والمستشفى، والنزل،وقد تم جعلها وفق أسلوب معين ممثلة بالإضافة إلى المنازل ومصادر المياه.

مبانى بيت المقدس المصورة على العملة والأختام والمشغولات المعدنية وزخارف المخططات

هناك كثير من الرسوم للمبانى المهمة فى بيت المقدس تظهر على وجه بعض العملات، والأختام الخاصة بمملكة بيت المقدس زمن الحكم الصليبى وعلى المشغولات المعدنية والتى تم عملها فى المملكة. هذه الرسوم فى الحقيقة ليست مضبوطة ولكنها تعطينا فكرة عن كيف كانت تبدو المبانى، على الأقل فى عيون العصور الوسطى. هذه الرسوم تكاد تكون لثلاثة من أهم المبانى فى المدينة، وهى قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، وكنيسة الضريح المقدس.كما يظهر فيها قبر المسيح على الصور العديدة لأختام فرسان القديس يوحنا، وفى أختام فرسان الداوية تظهر قبة الصخرة، وفى الأختام الملكية تم رسم آثار المدينة الثلاثة، ويظهر المسجد الأقصى محاطا بكنيسة الضريح المقدس ومسجد الصخرة. أما العملات الذهبية والفضية فعليها رسومات

للمسجد الأقصى وقبة الضريح المقدس. أما رقائق الرصاص والتى يبدو أن الكثير منها قد صنع فى بيت المقدس فقد كانت مزخرفة بصور لكنيسة الضريح المقدس(٣).

وتجب الإشارة إلى أن بعض زخارف المخطوطات التى ترجع إلى العصر الصليبى قد حملت صورا لبعض مبانى المدينة. ففى كتاب المزامير الموجود فى ريكارديانا توجد صورة لقبة الصخرة وهى ليست مثل صورتها الموجودة على ختم الداوية، كذلك وعلى نفس كتاب المزامير توجد صورة لقبر المسيح.

* * *

حواشى وتعليقات الفصل الثانى والعشرون

(١) انظر: ليفى، "خرائط العصور الوسطى"، ص٤١٨-٥٠٧، وميلكا ليفى- روبين، "خريطة القدس زمن الحكم الصليبى"، فى كتاب . إس روزنبرج، فرسان الأرض المقدسة، القدس، ١٩٩٩م، ص٢٢١-٢٣٧ .

(٢) راجع: روبرت لوبيز، فى ورقة مطوية بعنوان "مقطع عرض فى السور" حيث لاحظ أن هذا الرمز للمدينة موجود فعلا فى الجغرافية الطبيعية القديمة؛ روبرت لوبيز، "المدينة من وجهة النظر التكنولوجية والتطور الاقتصادى، المقطع العرضى فى السور" فى كتاب: المؤرخون والمدينة، أو. هاندلين، وبركارد، هارفارد، ١٩٦٣م، ص٢٧ .

(٣) راجع: فولدا، فن الحروب الصليبية، ص٢٩٤-٢٩٥، لوحة رقم ٨ب، ٨أ، ب.

* * *

الخاتمة

إن مدينة بيت المقدس بتاريخها الطويل ومكانتها المهمة التى احتلتها فى أفئدة أتباع الديانات السماوية الثلاثة ليس من السهل أن ننسى أنها مدينة مثل غيرها من المدن، وأن سكانها عاشوا حياتهم كغيرهم من سكان المدن الأخرى. ولقد كان هذا حقيقيا فى ظل الجو المتقلب فى القرن الثانى عشر للميلاد وكما هو الحال فى وقتنا الحالى. ولهذا، فإننا إذا أردنا أن نلاحظ بيت المقدس زمن الحكم الصليبى فإن إدراكنا يجب ألا يكون محدودا وأنها عبارة عن نقطة محصنة وسط بحر من الأعداء.

فالنصر الصليبى الساحق عام ١٠٩٩م والمذبحة التى أعقبته جعلت المسلمين المهزومين فى حالة من الصدمة لم يفيقوا منها إلا بعد حوالى ثلاثة عقود. وفى تلك الفترة فإن الصليبيين قد أخذوا يعملون على إنعاش المدينة وشددوا من قبضتهم على المملكة، كما أن تهديد بيت المقدس أخذ فى الاختفاء، وأصبح أقل منه فى الوقت الحالى. ففى معظم السنوات الثمانية والثمانين الأولى من الحكم الصليبى شهدت المدينة نوعا من الاستقرار ونموا ملحوظا وتطورا. وتم بناء عدد من المؤسسات العامة فى المدينة، مثل الأسواق المغطاة، وأماكن الصرافين، والمستشفيات، والحمامات، وتم تحسين الموارد المائية ووسائل الصرف الصحى. ولحوالى ما يقرب من تسعة عقود من القرن الثانى عشر للميلاد وحوالى عقد واحد من القرن الثالث عشر للميلاد، فإن الفرنجة قاموا بحراسة أسوار المدينة وأبراجها، وقام رجال الدين بأداء صلواتهم فى الكنائس، كما قام أصحاب الدكاكين ببيع منتجاتهم فى الأسواق، وكان الأطفال والكلاب يجرون فى كل مكان فى شوارع المدينة.

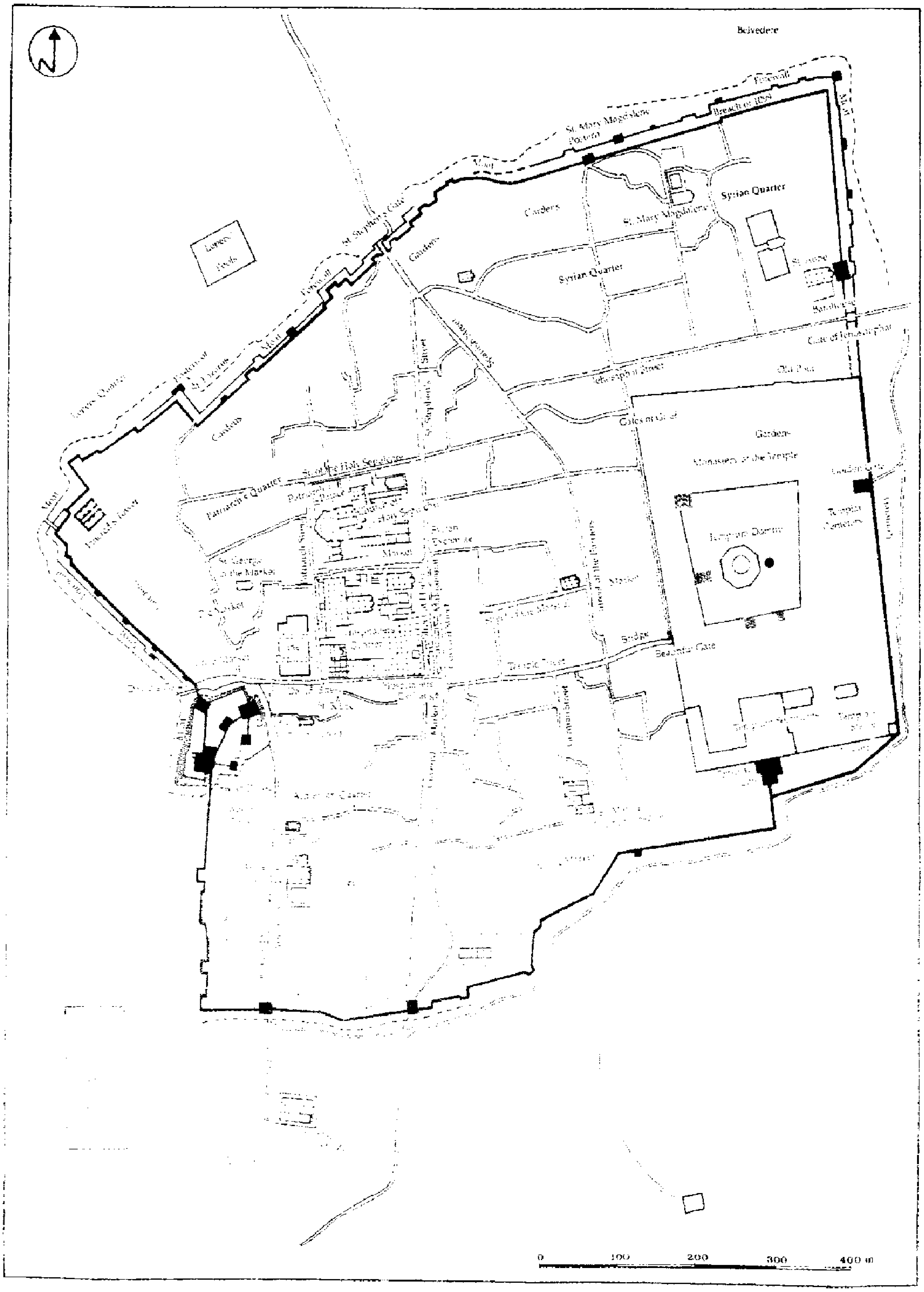
ولقد حاولت فى هذا الكتاب أن أنقل صورة لما كانت عليه مدينة بيت المقدس تحت حكم الفرنجة. وفى الوقت نفسه فقد أشرت بعض الإشارات عن النواحى التاريخية والاجتماعية فى المدينة فى ظل الحكم الصليبى، وكان تركيزى على العناصر الطبيعية للمدينة معتمدا على الدليل الآثارى وبقاء بعض المبانى العامة من العصر الصليبى. وعلى الرغم من أن شهرة بيت المقدس تفوق غيرها من المدن التى خضعت للحكم الفرنجي، فإن الصورة التى نقلتها هنا مازال بها كثير من النقص، وذلك نتيجة لمحاولتى ضغط موضوع كبير فى كتاب صغير. وإن كان الكثير من هذا النقص يرجع إلى كم المعلومات اللامتناه فى البحوث الأثرية والمصادر المكتوبة. وهكذا، فإننى حين أناقش بعض الموضوعات الخاصة بالأحوال الاقتصادية الخاصة بالمدينة مثل الأسواق، والأعمال المصرفية، وسك النقود - وإن كانت المصادر الخاصة بالأعمال المصرفية وسك النقود شحيحة- إلا أننى لم أناقش عملية جمع الضرائب، والخزانة الملكية، وإمساك الدفاتر التجارية، وأسعار الطعام والمواد الأخرى، أو تكلفة السكن، "فلا توجد وثائق عن أسعار الشراء أو إيجار الممتلكات مثل تلك الموجودة عن عكا وصور فى القرن الثالث عشر للميلاد". كذلك لاحظت النقص الكامل فى المعلومات عن السكن الخاص وكنت قادرا على تقديم نقاش مختصر جدا عن التزود بالوسائل الصحية. وبينما لاحظت وجود حمامات وخانات، إلا أننى لم أستطع تقديم أية معلومات عن وسائل الترفيه الأخرى والتى لابد أنها كانت موجودة. ونحن نعرف بعض الشيء عن المواكب الدينية، ولا نعرف ما إذا كانت هناك برامج ترفيه أو معارض فى بيت المقدس زمن الحكم الصليبى؛ فالمصادر تكاد تكون صامتة بالنسبة لهذه الموضوعات. ولا نعرف شيئا عن المؤسسات التعليمية، ونعرف القليل عن العناصر المختلفة للمجتمع "النساء، الشيوخ، الفقراء".

وعلى الرغم من مواطن الضعف هذه فلدينا فكرة واضحة نوعا ما عن نواح متعددة فى مدينة بيت المقدس فى العصور الوسطى، فالحفريات الأثرية التى أجريت

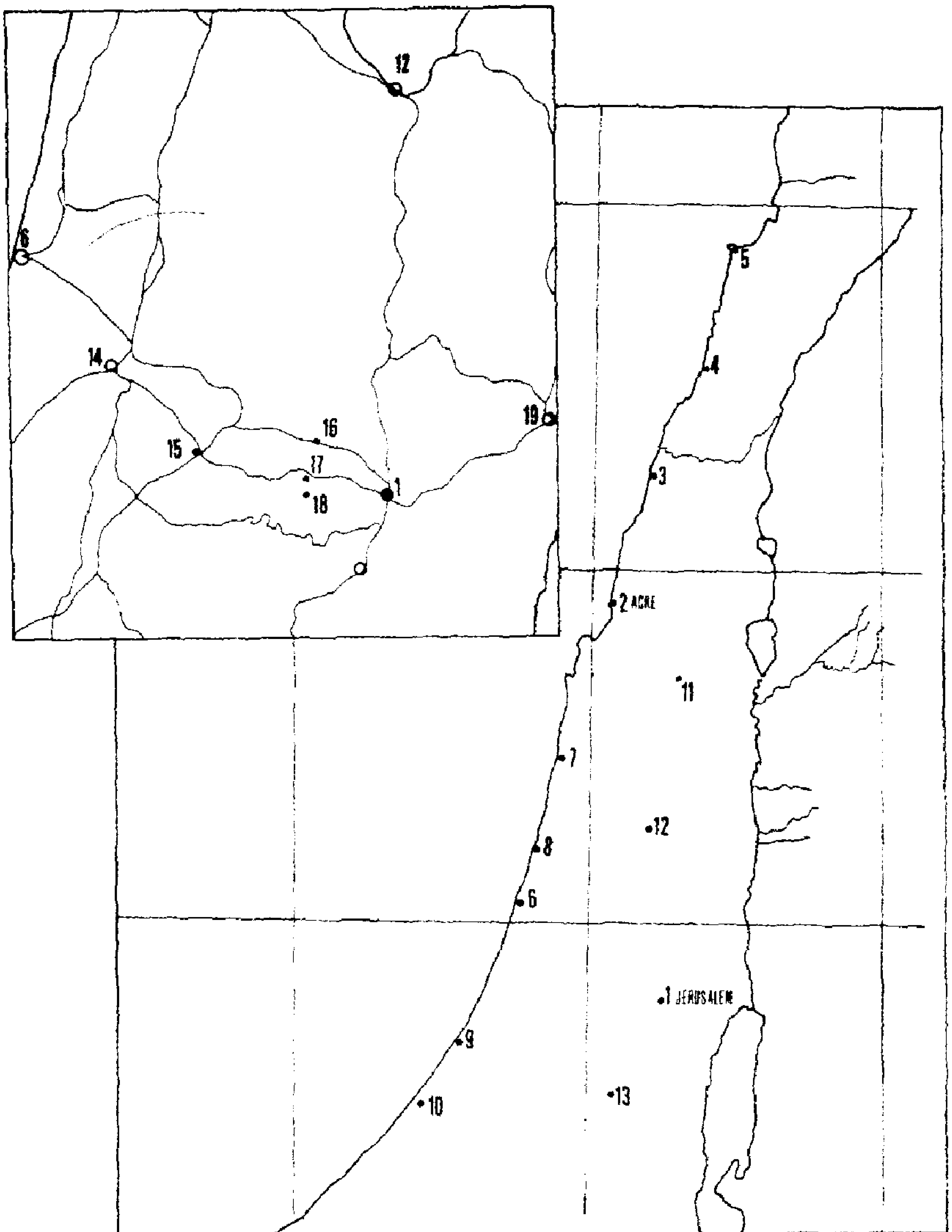
فى الحدود الخارجية للمدينة وخصوصا فى عام ١٩٧٠م، جعلتنا قادرين على إعادة تشكيل دفاعات العصور الوسطى. وقلعة القرن الثانى عشر للميلاد، وبدرجة تبدو إلى حد ما معقولة. كما أن الكثير من المبانى المهمة، وخصوصا الكنائس، والأسواق، قد قدر لها البقاء ومازالت مستخدمة، وتم عمل الكثير من عمليات المسح لهذه المنشآت وتم نشرها. أما بالنسبة للعناصر الأقل شهرة فى بيت المقدس الصليبية - ولسوء الحظ- فإن طبيعة البحث التاريخى والأثرى الخاص بالمعلومات تحتاج إلى توسع مستمر.

* * *

ملحق اللوحات والأشكال والخرائط

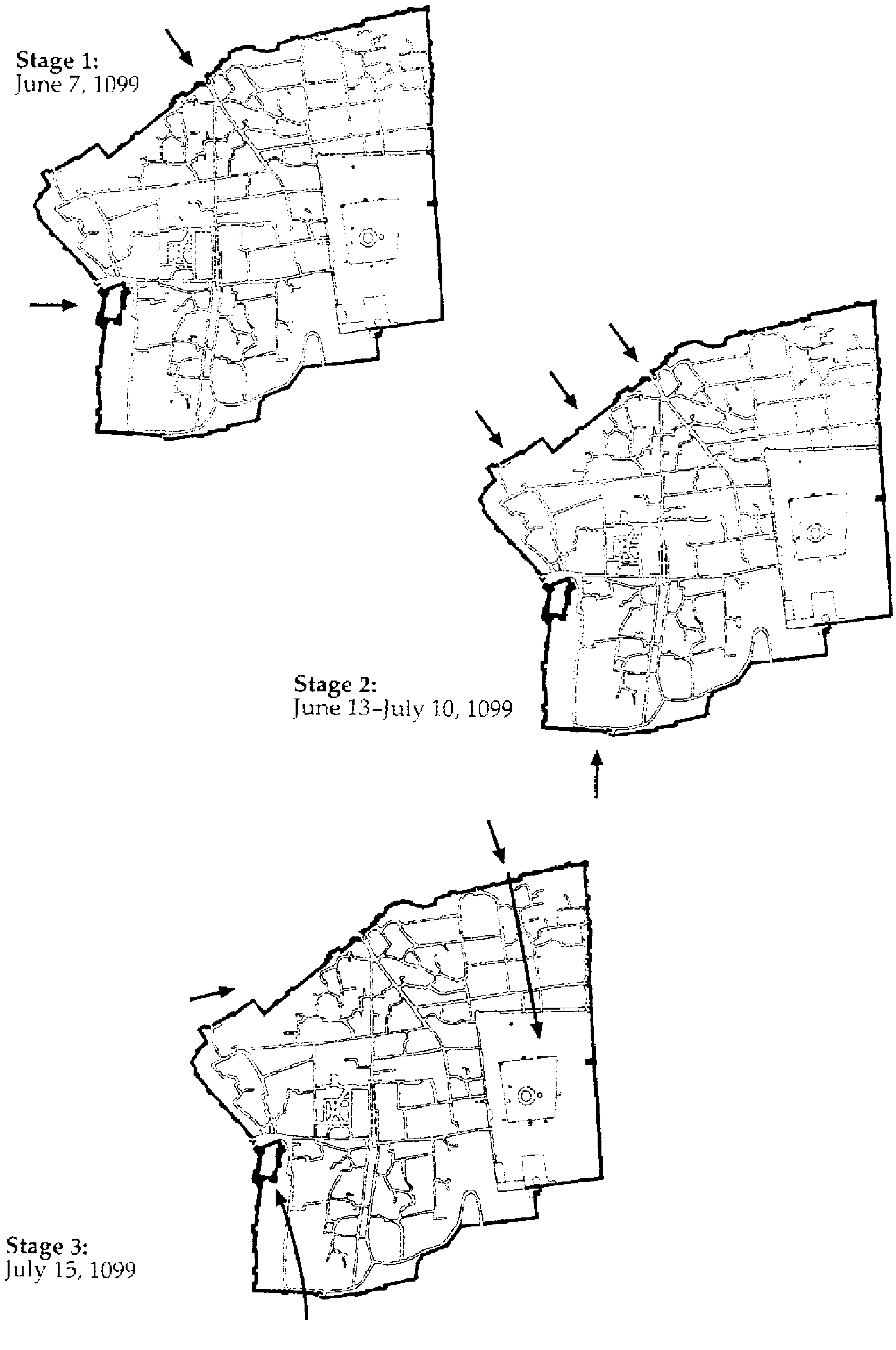


خريطة البيت المقدس فترة الحروب الصليبية

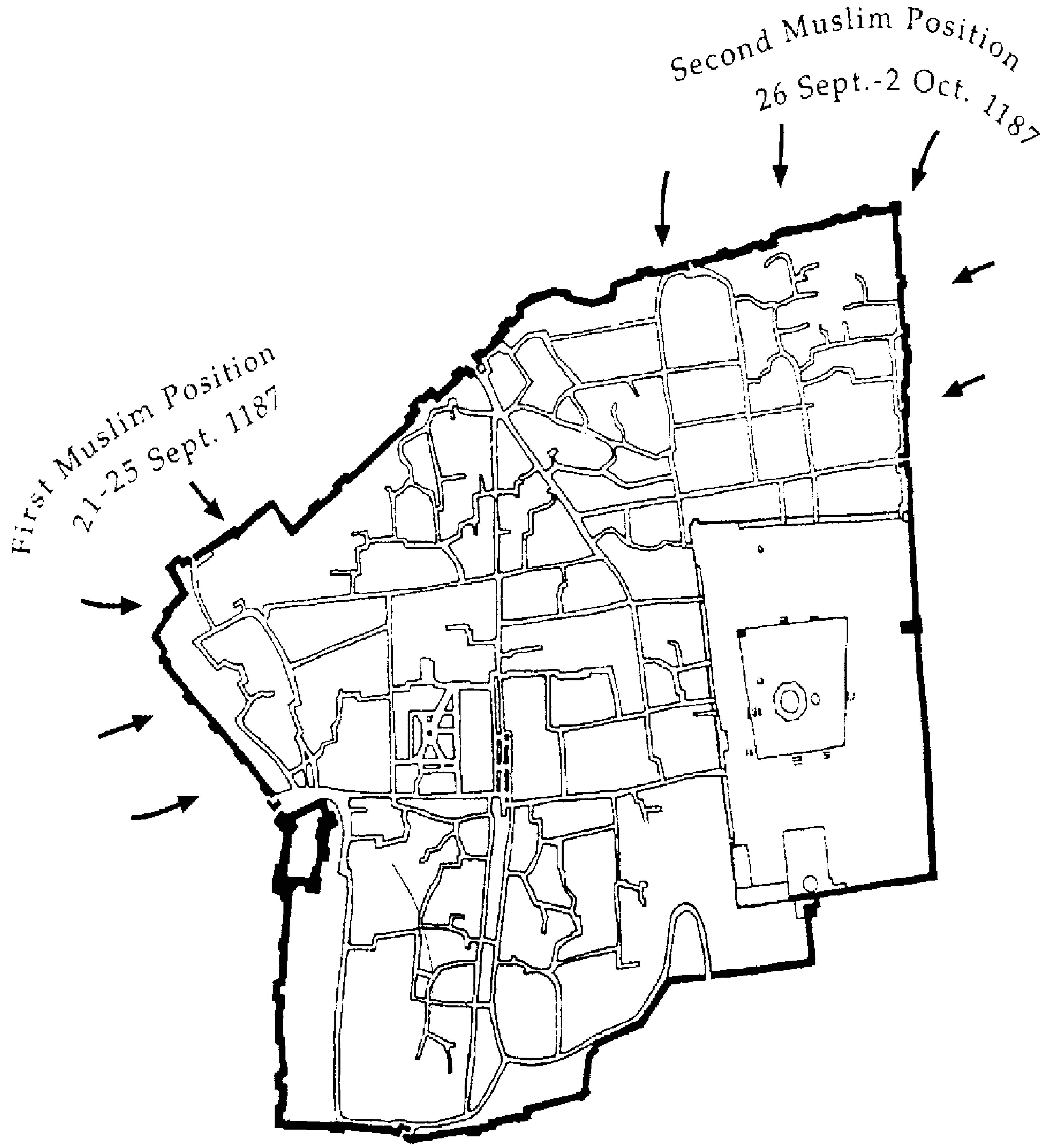


١ - القدس.
٢ - عكا .
٣ - صور .
٤ - صيدا .
٥ - بيروت .
٦ - يافا .
٧ - قيسارية .
٨ - أرسوف .
٩ - عسقلان .
١٠ - الداروم .
١١ - الناصرة .
١٢ - نابلس .
١٣ - الخليل .
١٤ - الرملة .
١٥ - اللا طرون .
١٦ - ألبيرة .
١٧ - النبى صموئيل .
١٨ - الكارم .
١٩ - أريجا .

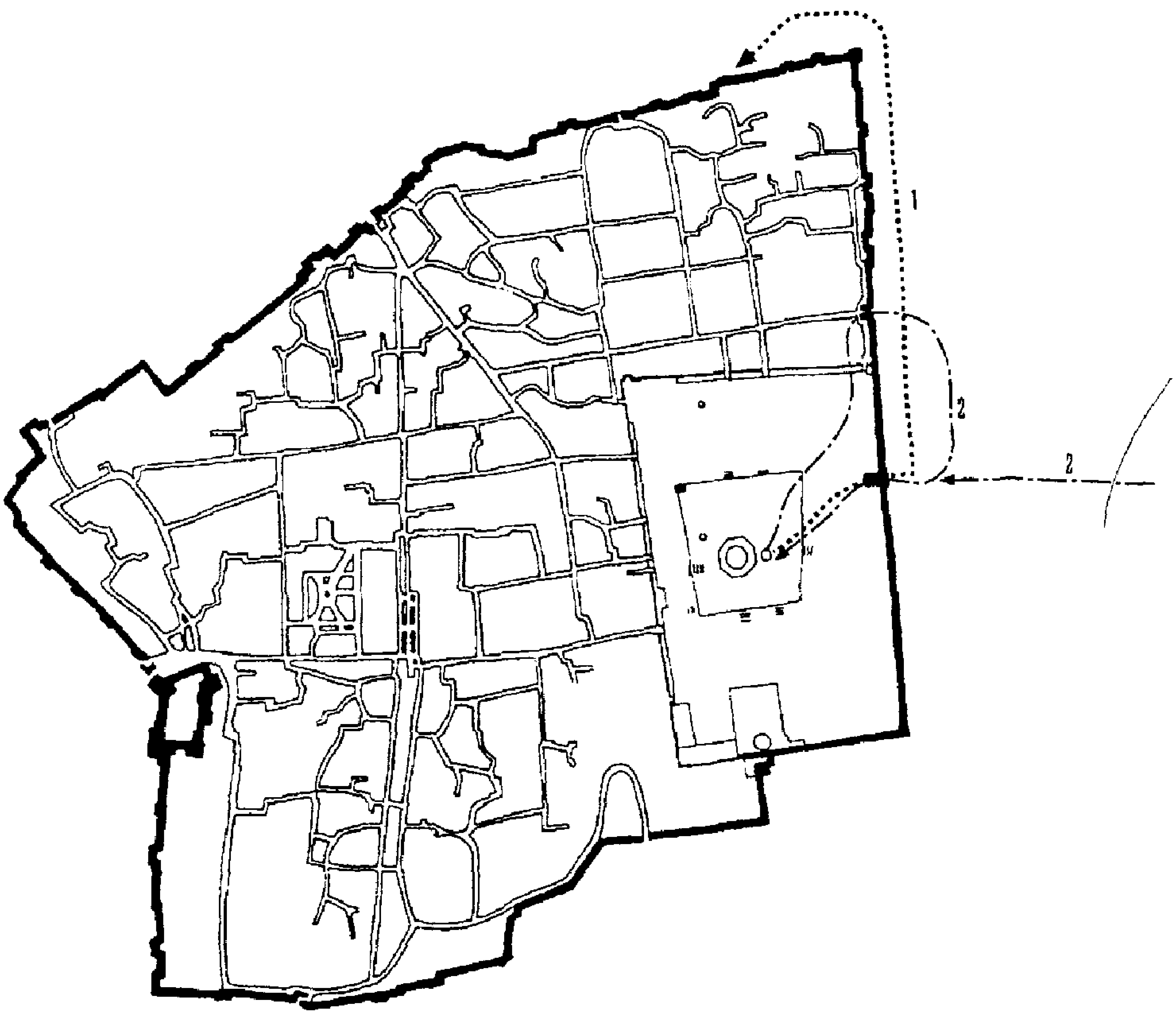
شكل رقم ١,١ مملكة بيت المقدس (رسم دالت واينبلات)



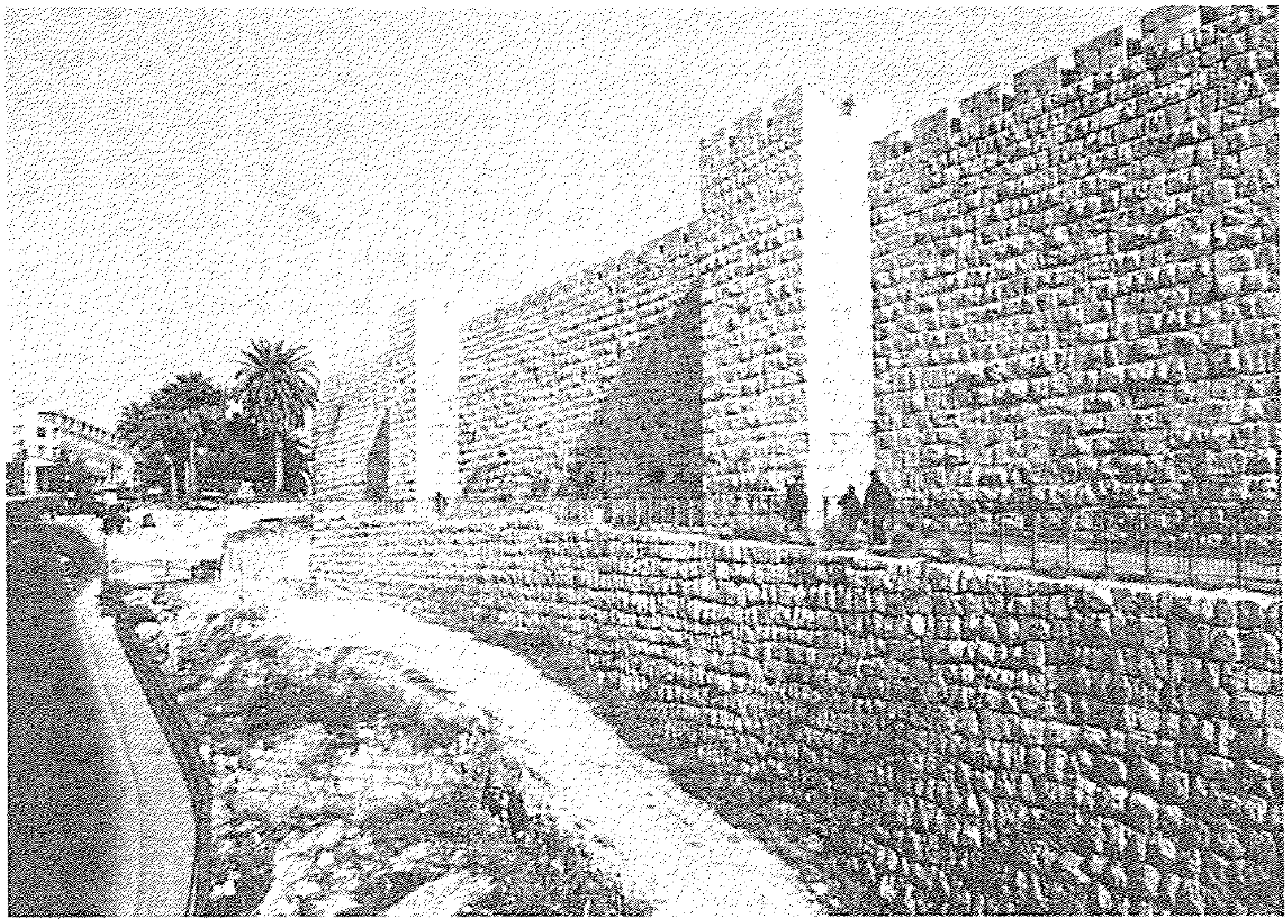
شكل رقم ٢،١ حصار الصليبيين للقدس فى ١٠٩٩ (رسم دالت وينبلات)



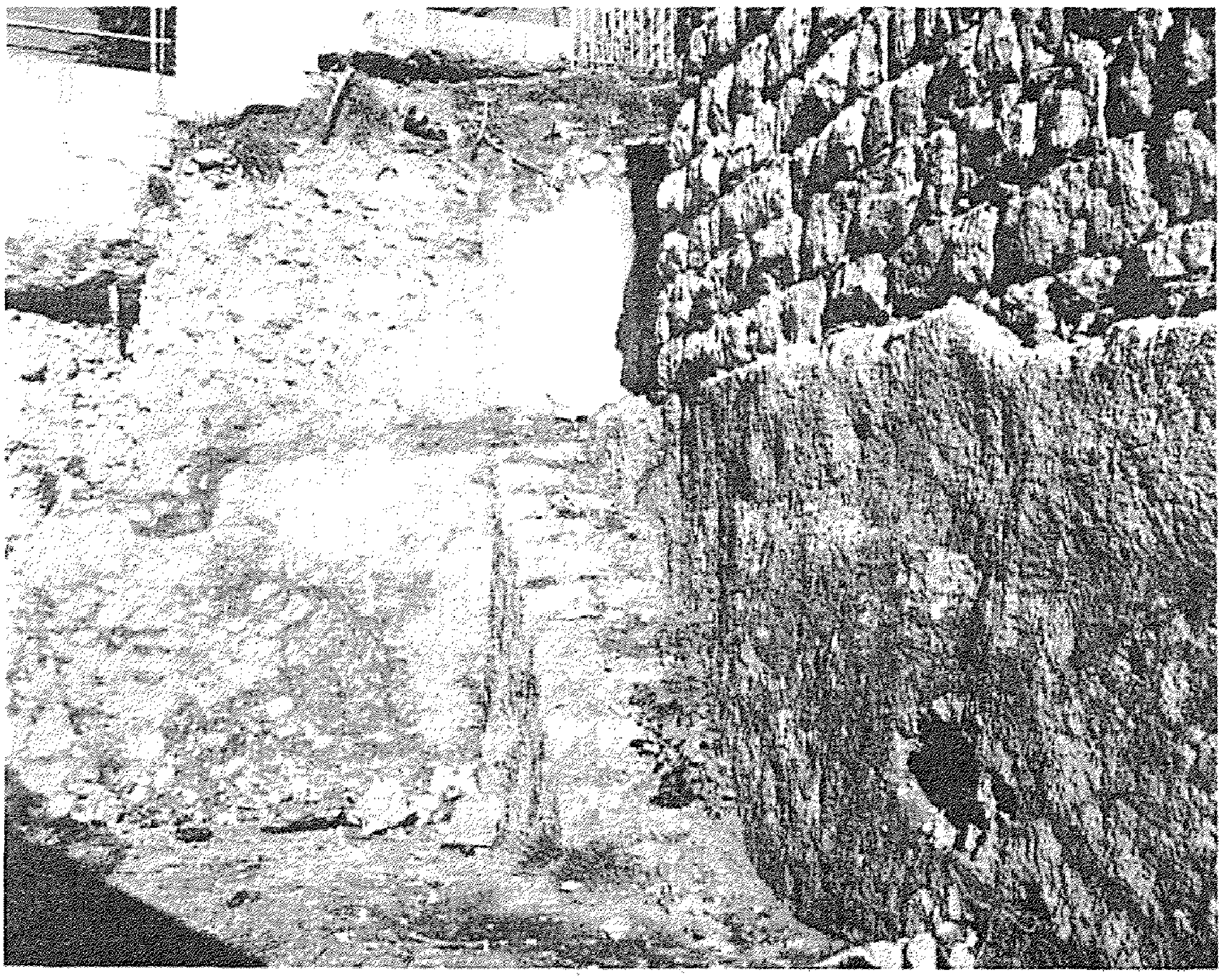
شكل رقم ٢،٢ حصار الأيوبيين للقدس فى ١١٨٧ (سرم دالت واينبلات)



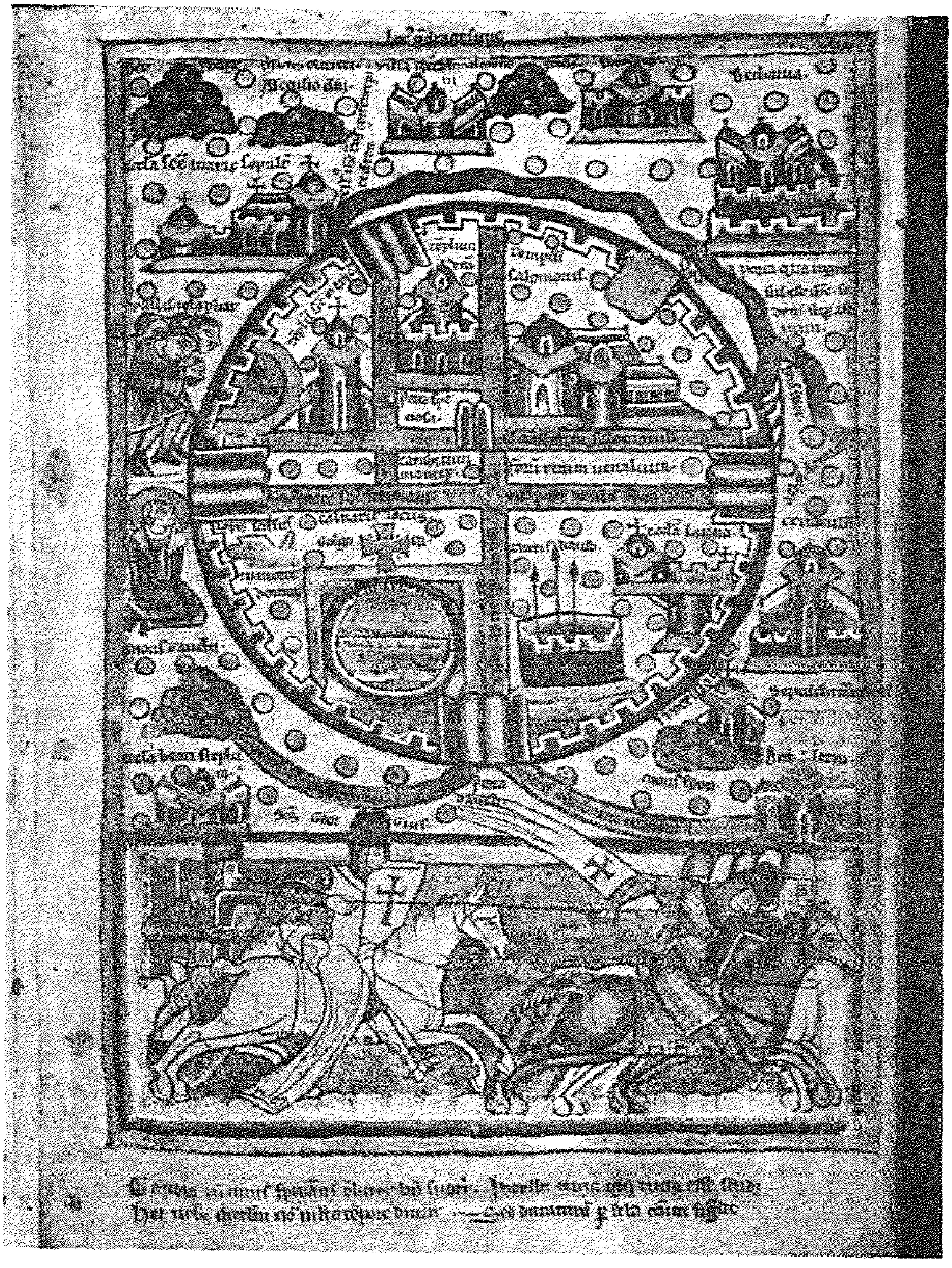
شكل رقم ١ , ٤ طريق المواكب (رسم دالت واينبلات)



لوحة رقم ١,٧ الحائط الأمامي شمال بوابة داود (تصوير المؤلف)

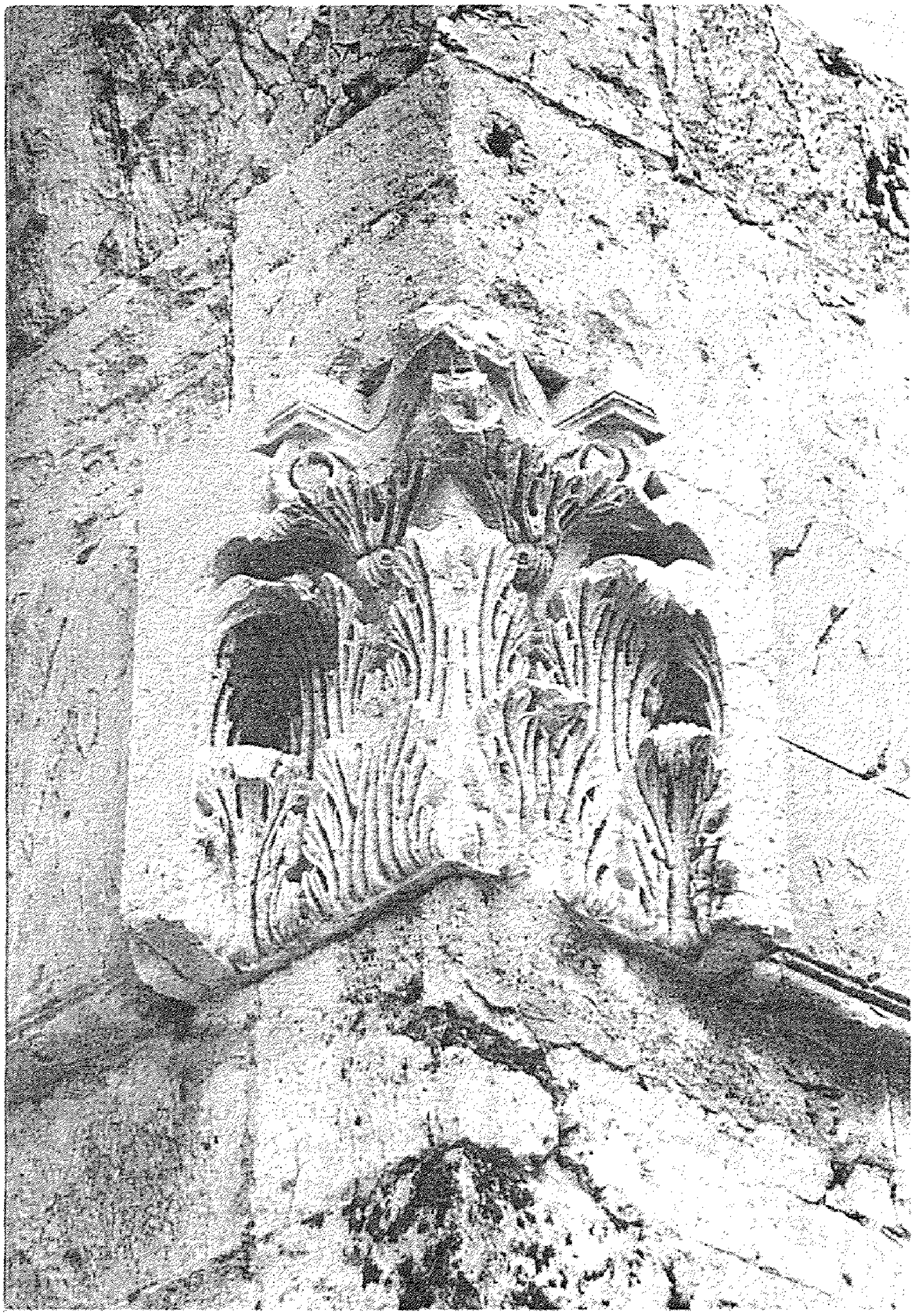


لوحة رقم ٧,٢ : الحصن، البرج والدرج شمال بوابة داود (تصوير المؤلف)



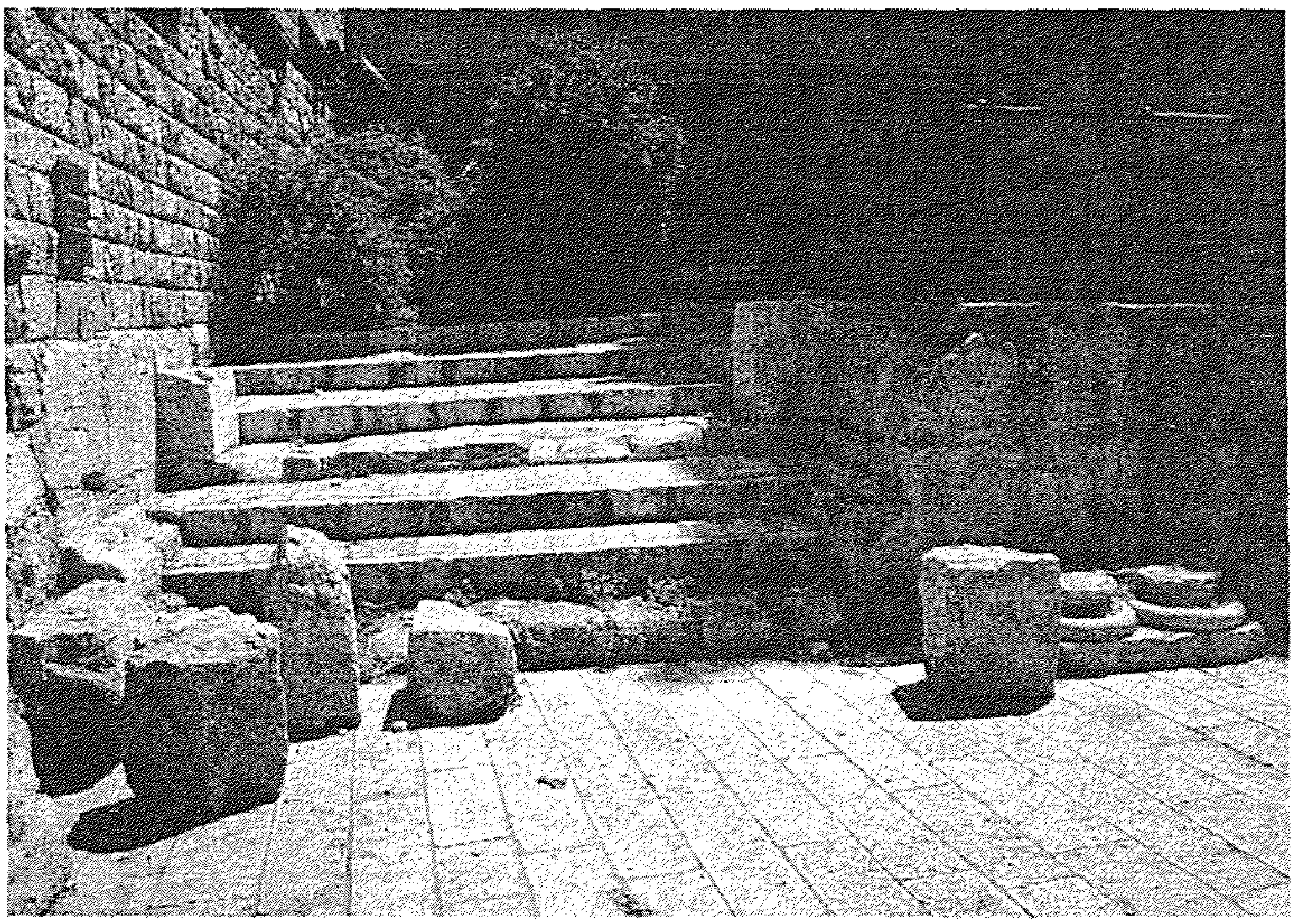
لوحة رقم ٣,٧ خريطة بيت المقدس للحاج المجهول

(هدية من دن هاج، مجموعة وثائق كوننكلجك، رقم ٧٦ ، فـ٥، ملف ١)

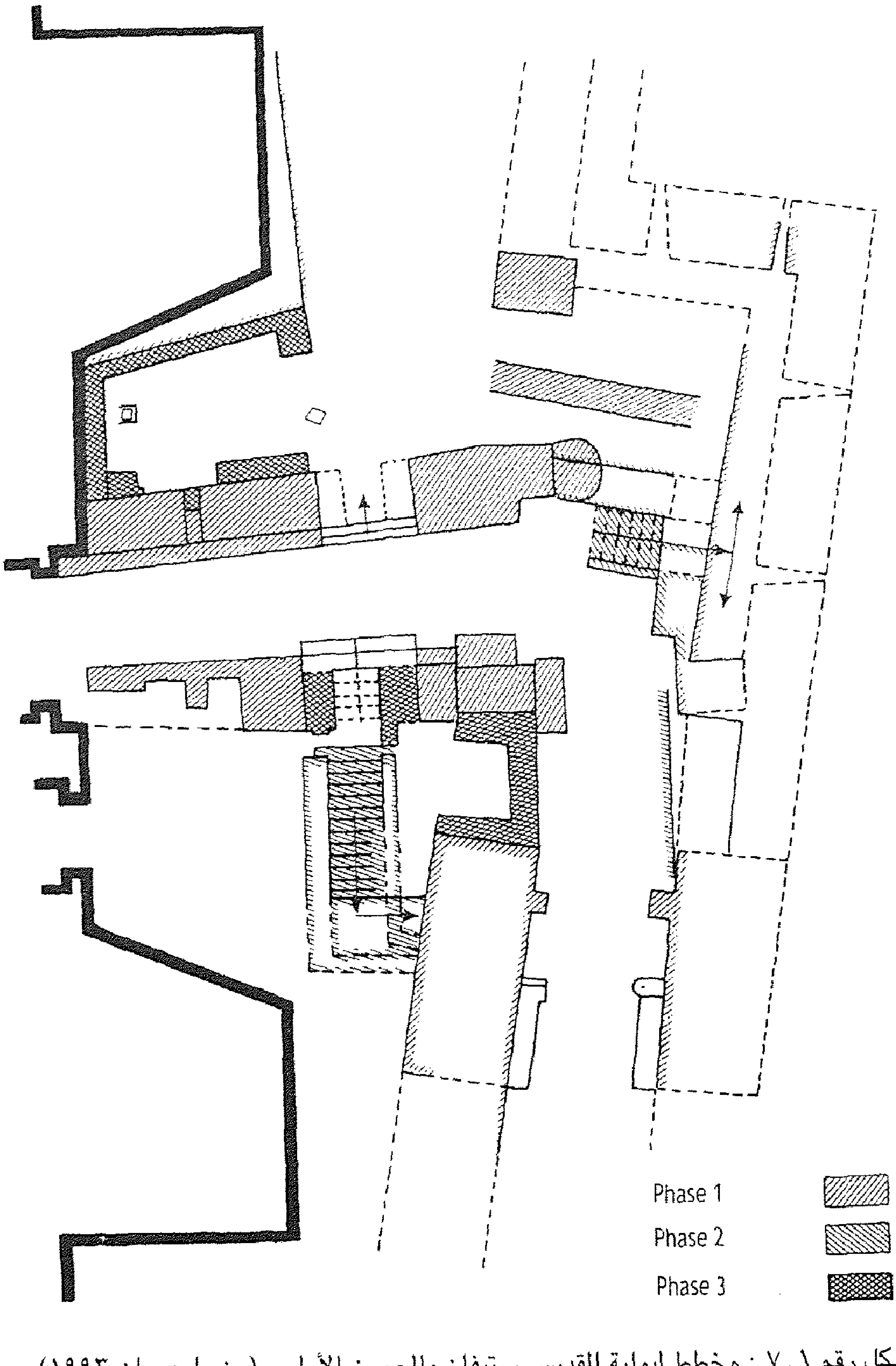


لوحة رقم ٧,٤: تاج عمود فرنجي أعيد استخدامه في بوابة يافا التركية

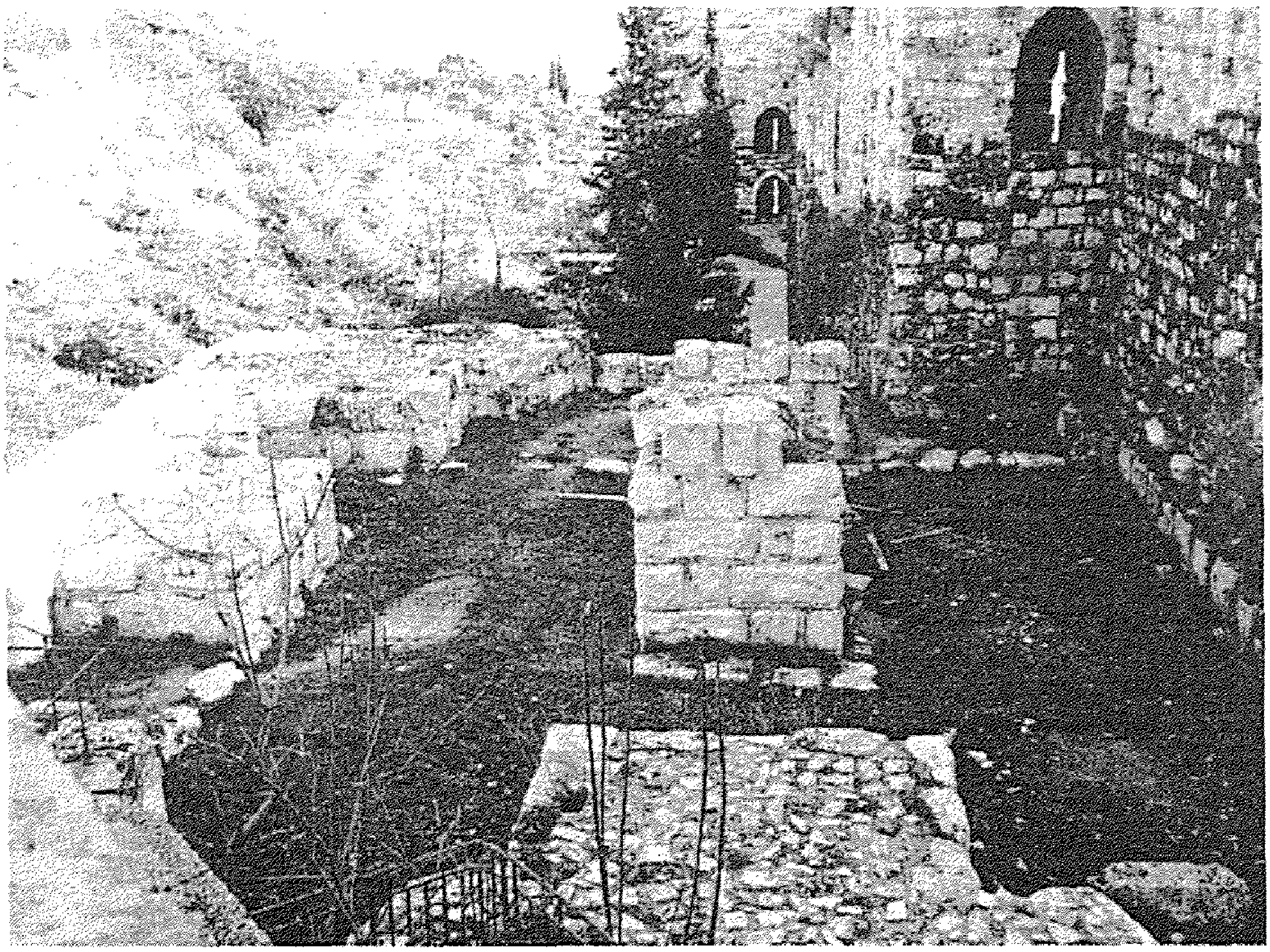
(تصوير جابي لارون)



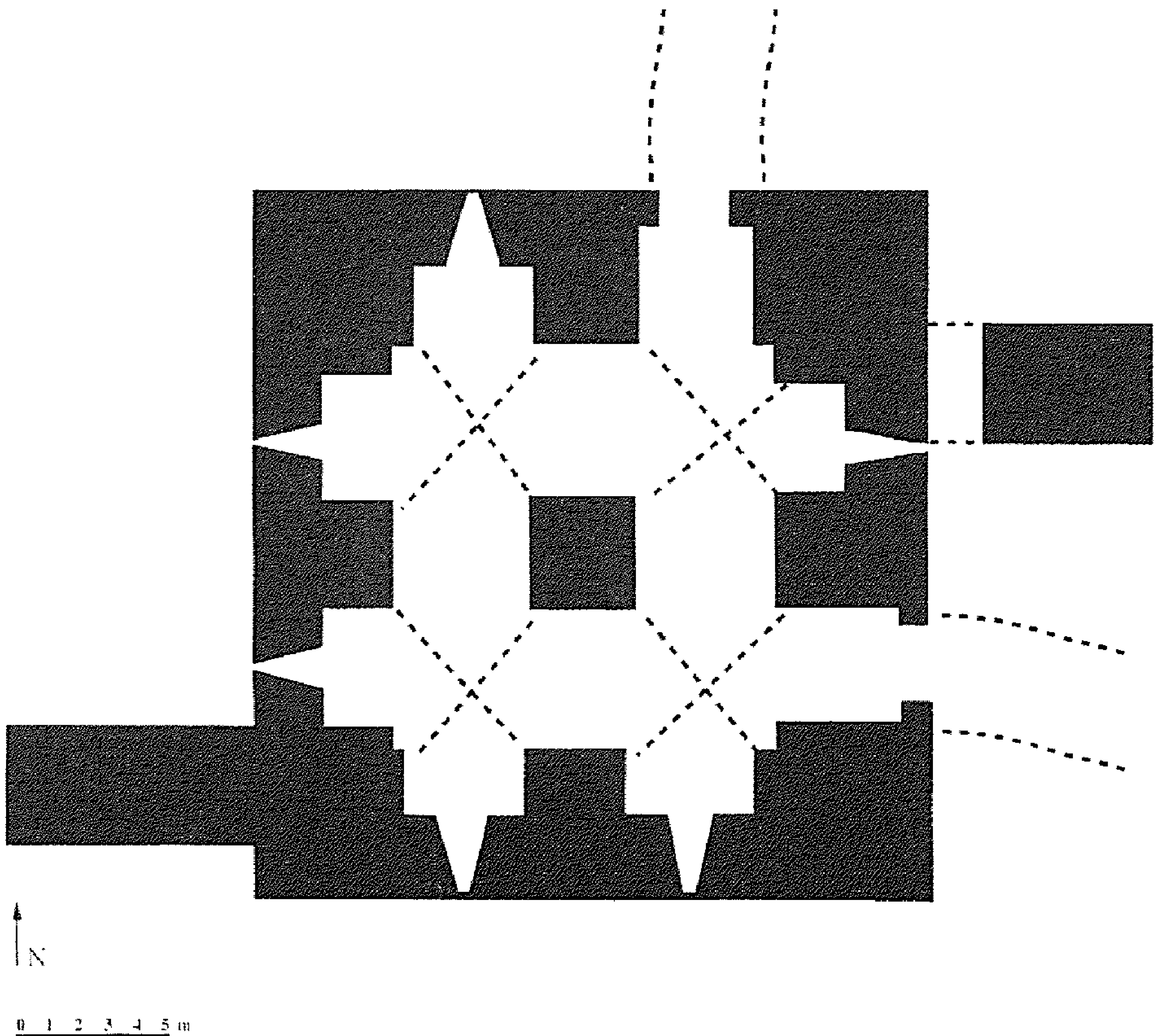
لوحة رقم ٥,٧ : بقايا أثرية لحصن أمامى صليبى خارج بوابة القديس ستيفان
(تصوير جابى لارون)



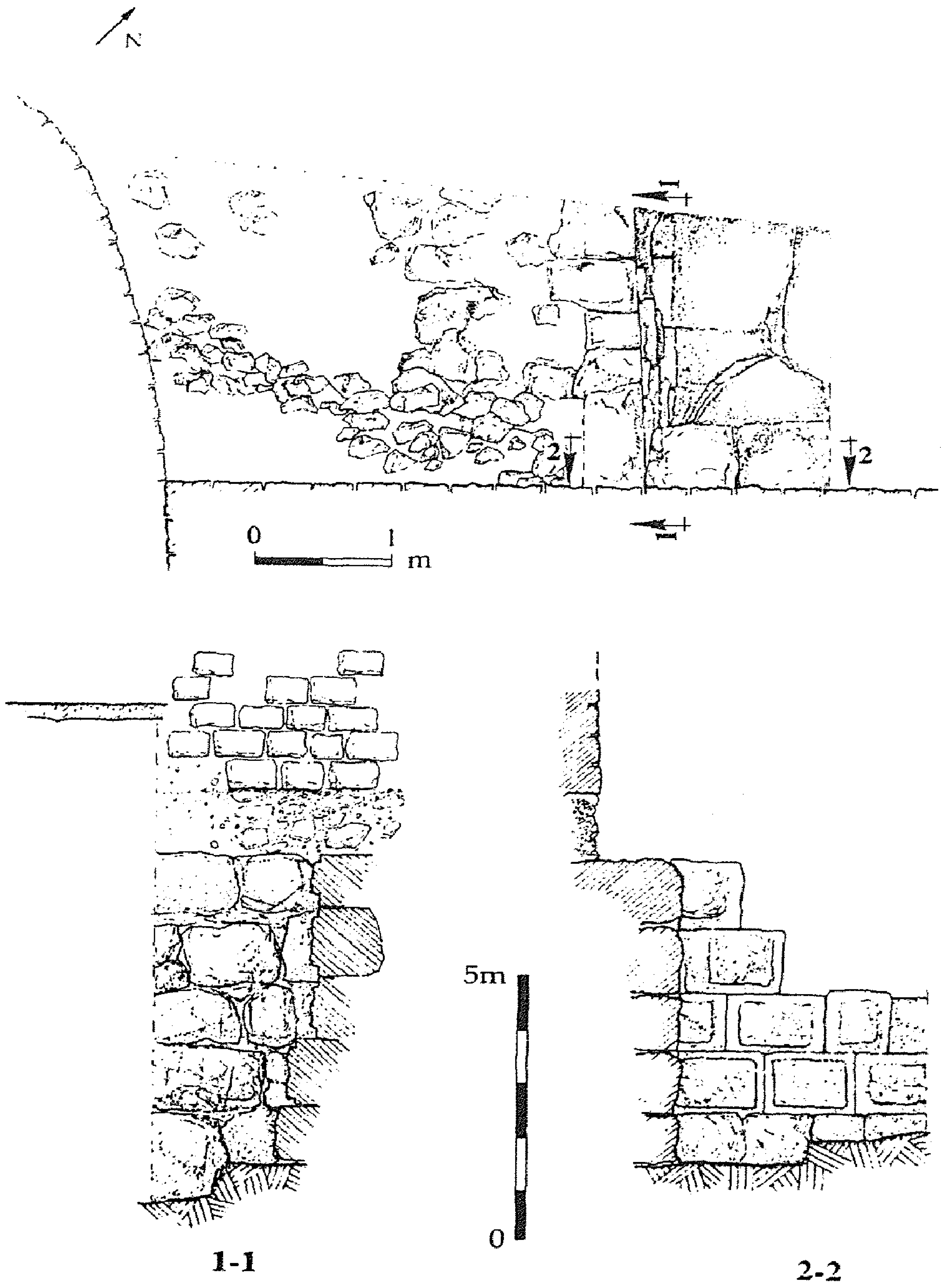
شكل رقم ٧,١ : مخطط لبوابة القديس ستيفان والحصن الأمامي (من وايت مان ١٩٩٣)



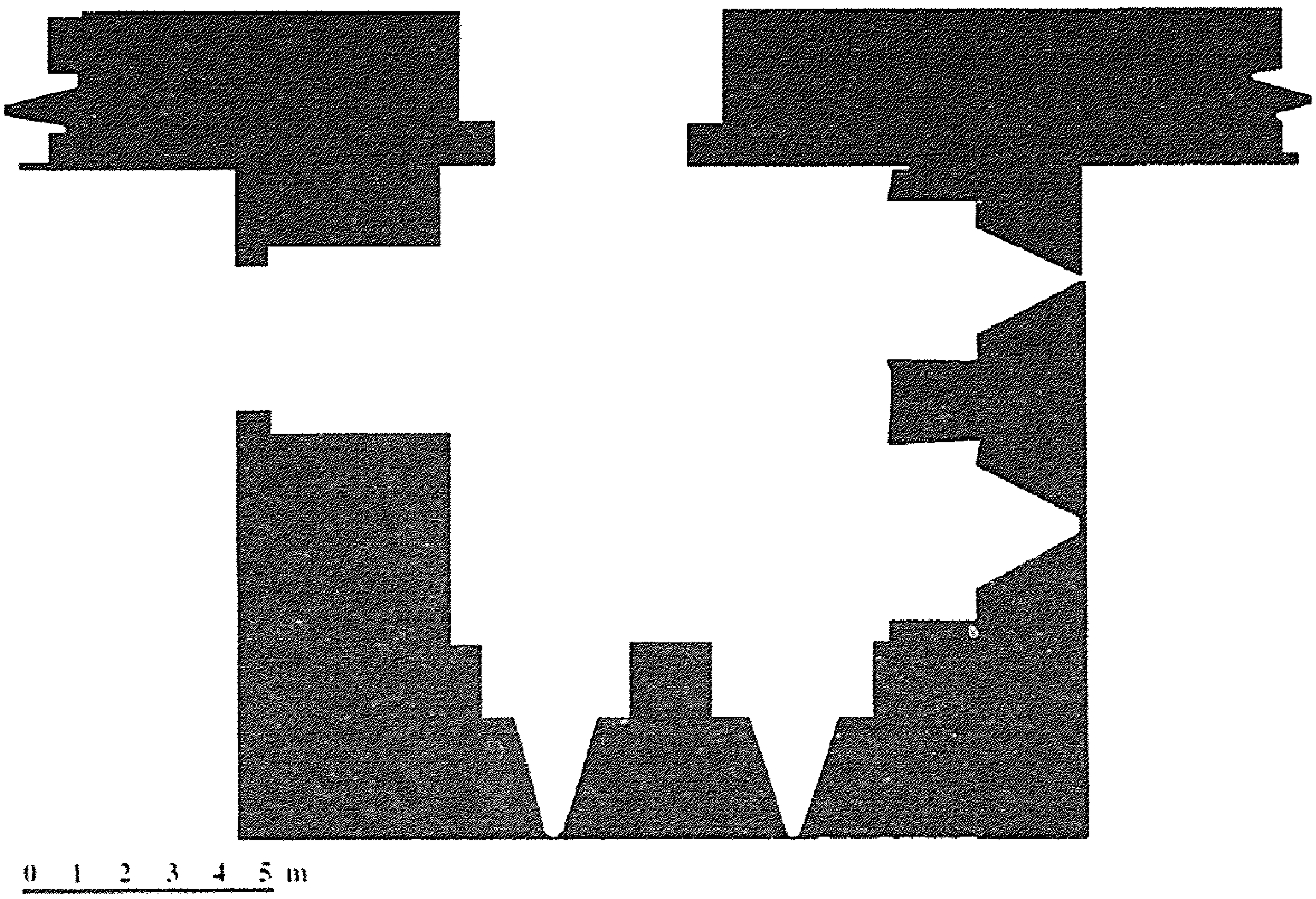
لوحة رقم ٦ , ٧ : برج بوابة صهيون فى العصر الوسيط (تصوير المؤلف)



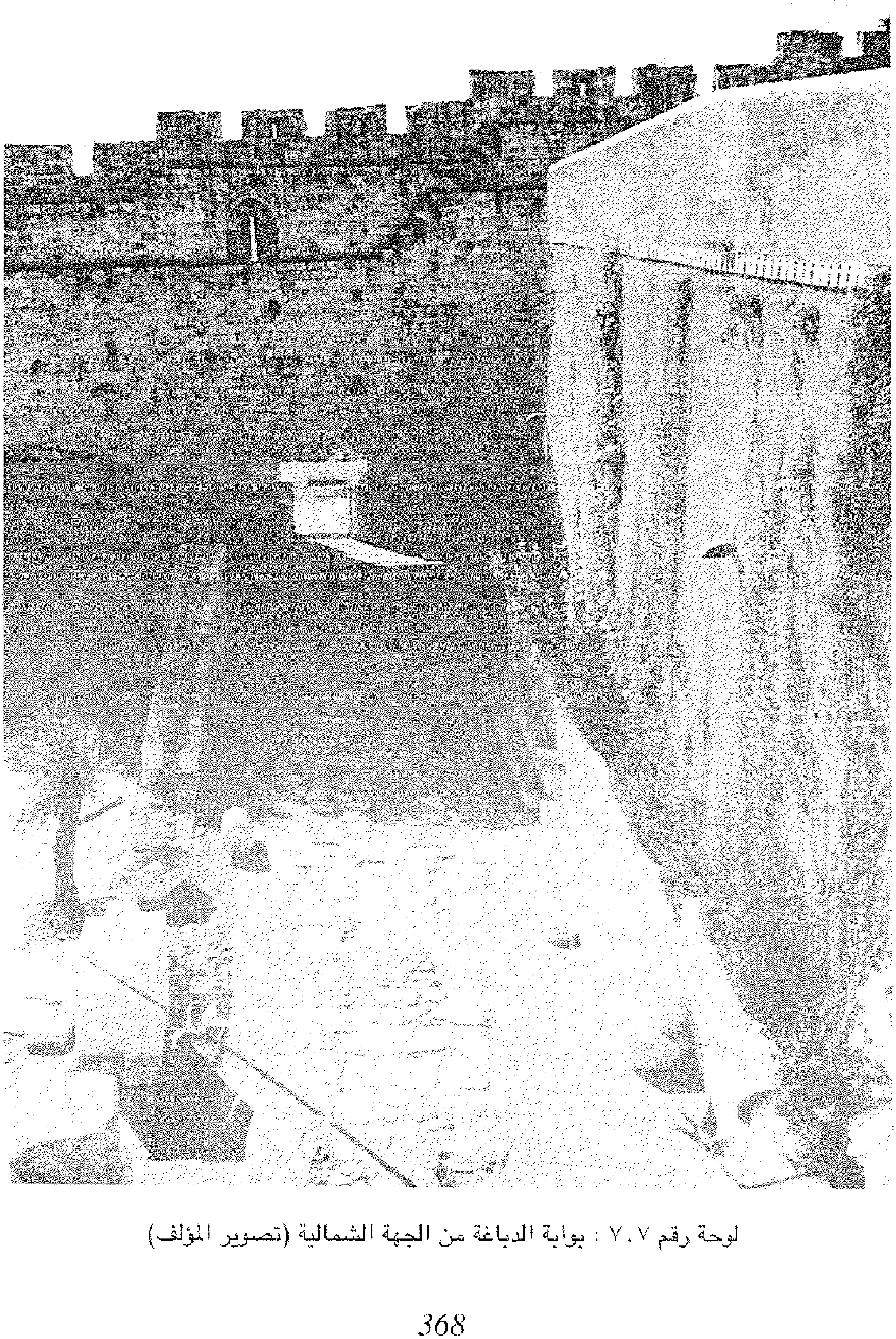
شكل رقم ٧,٢ : رسم بيانى لبرج بوابة صهيون فى العصر الوسيط (من بن دوف ١٩٨٣)



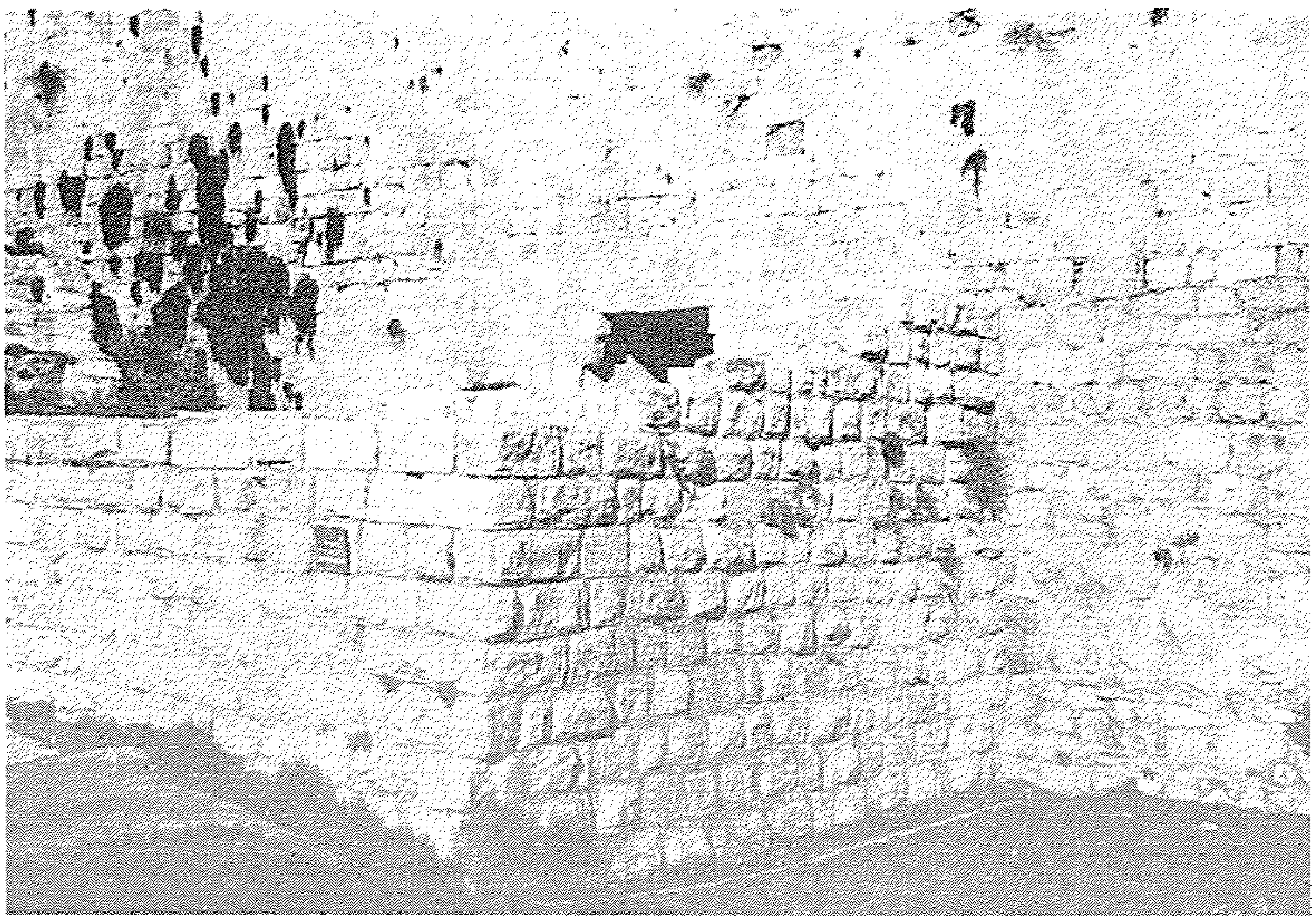
شكل رقم ٧,٣ : رسم توضيحى لجزء من الكشف الأثرى للممر الجانبى المزدان (سيلجمان ١٩٨٨)



شكل رقم ٤ , ٧ : رسم بياني لبوابة الدباغة (من بن دوف ١٩٨٣)



لوحة رقم ٧.٧ : بوابة الدباغة من الجهة الشمالية (تصوير المؤلف)



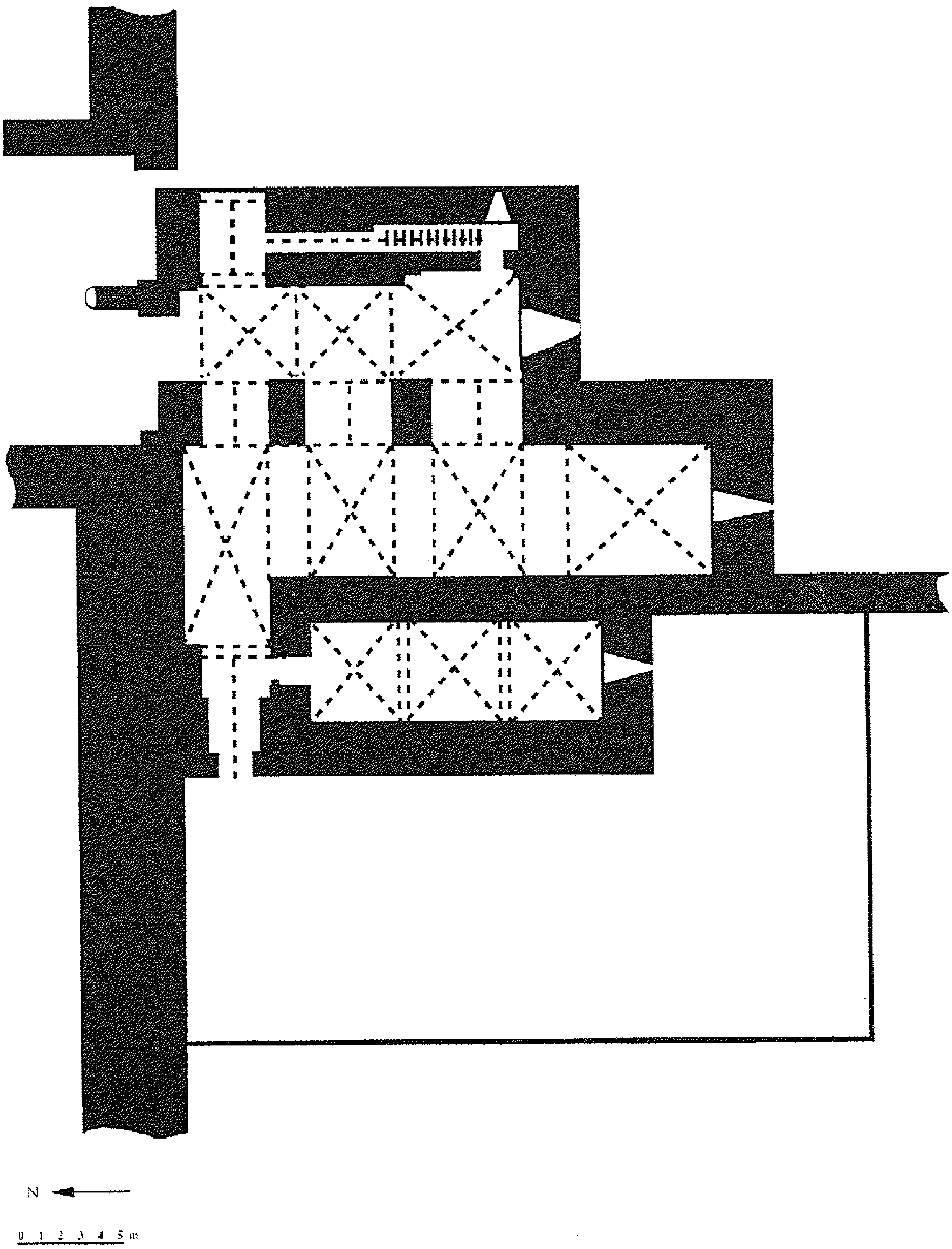
لوحة رقم ٧.٨ : برج بوابة الدباغة (تصوير المؤلف)



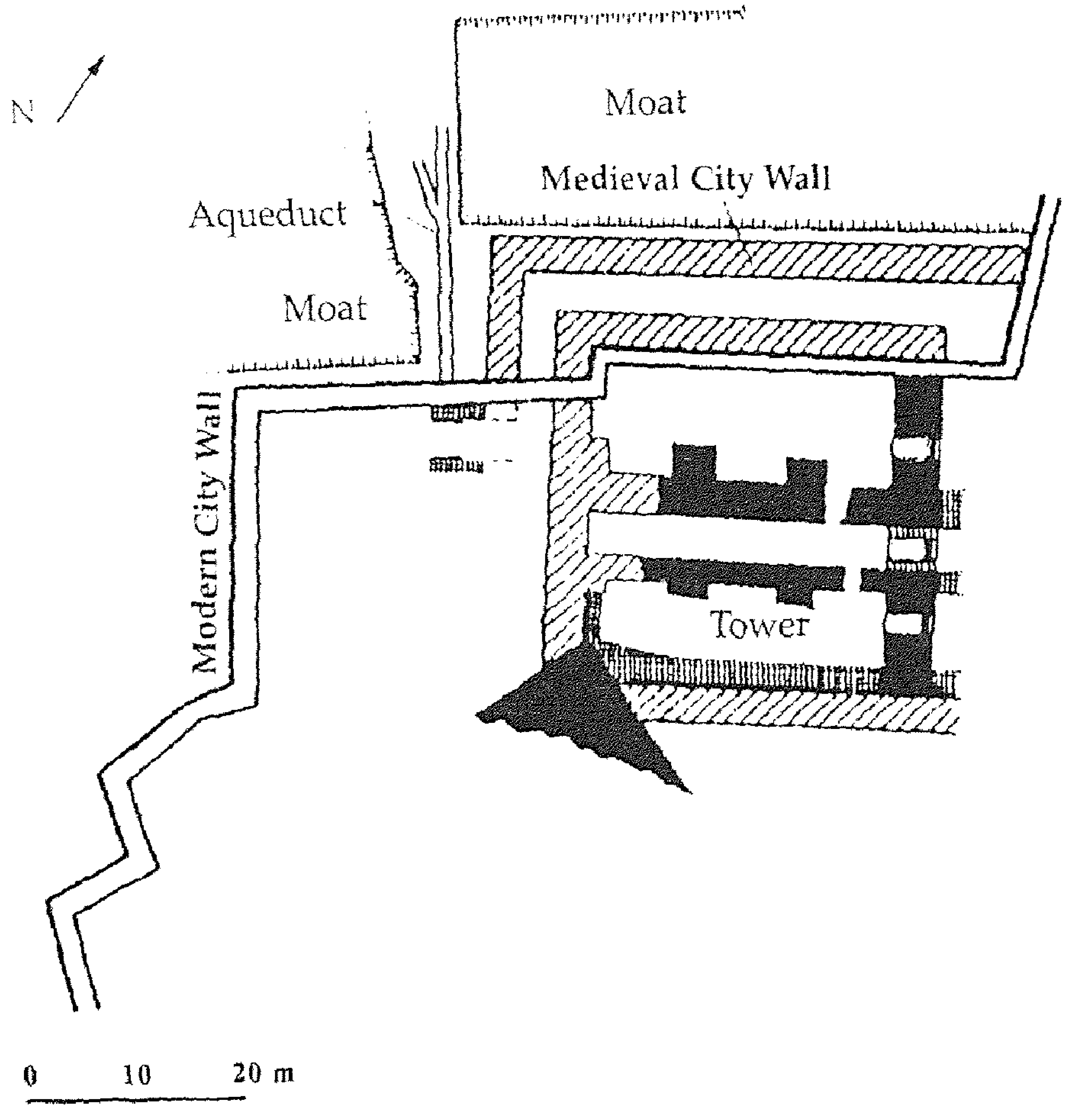
لوحة رقم ٧,٩ : تاج عمود أعيد استخدامه فى باب السلسلة / باب السكينة (تصوير المؤلف)



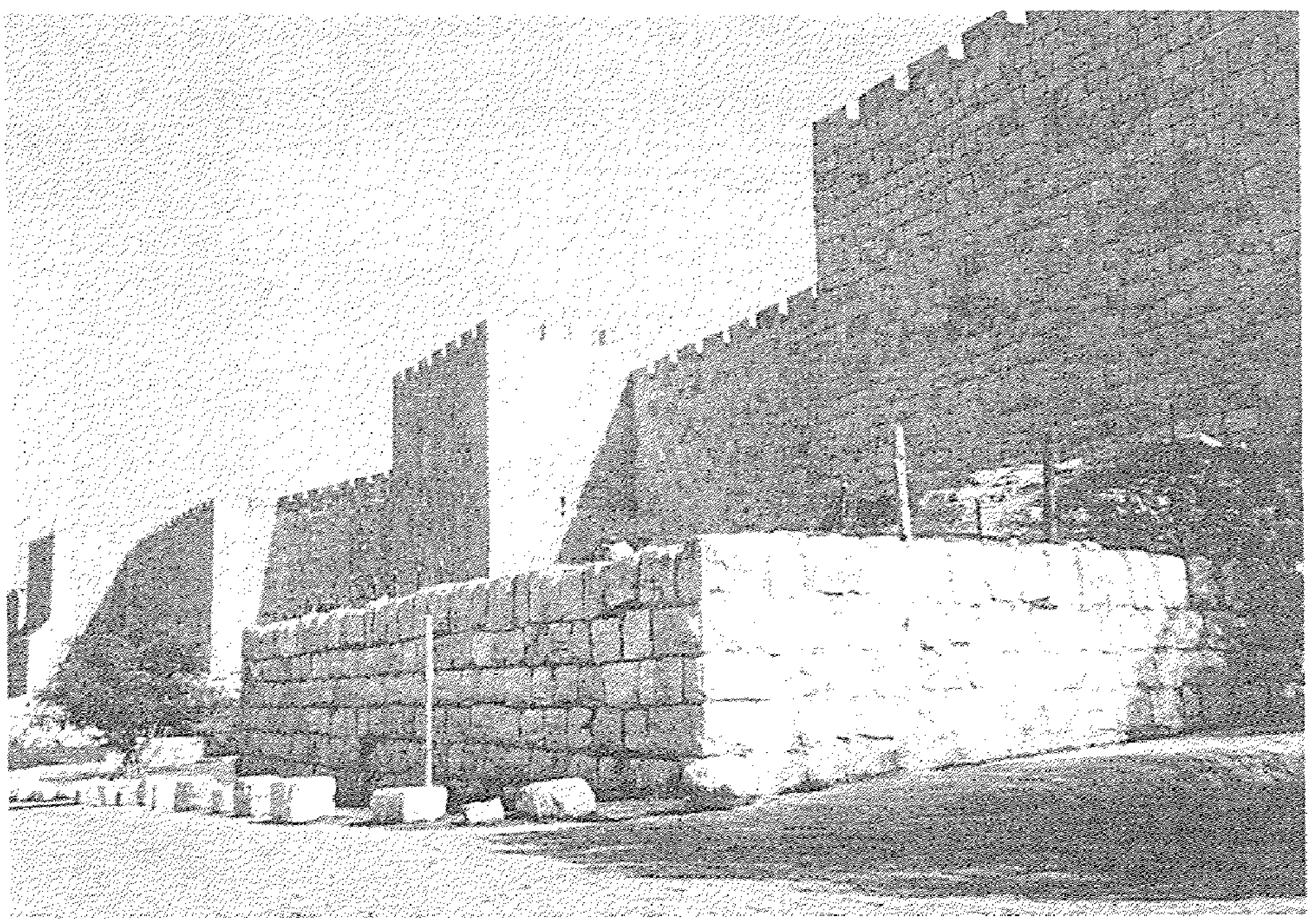
لوحة رقم ١٠, ٧ : برج البوابة المزدوجة من الجهة الجنوبية الشرقية (تصوير المؤلف)



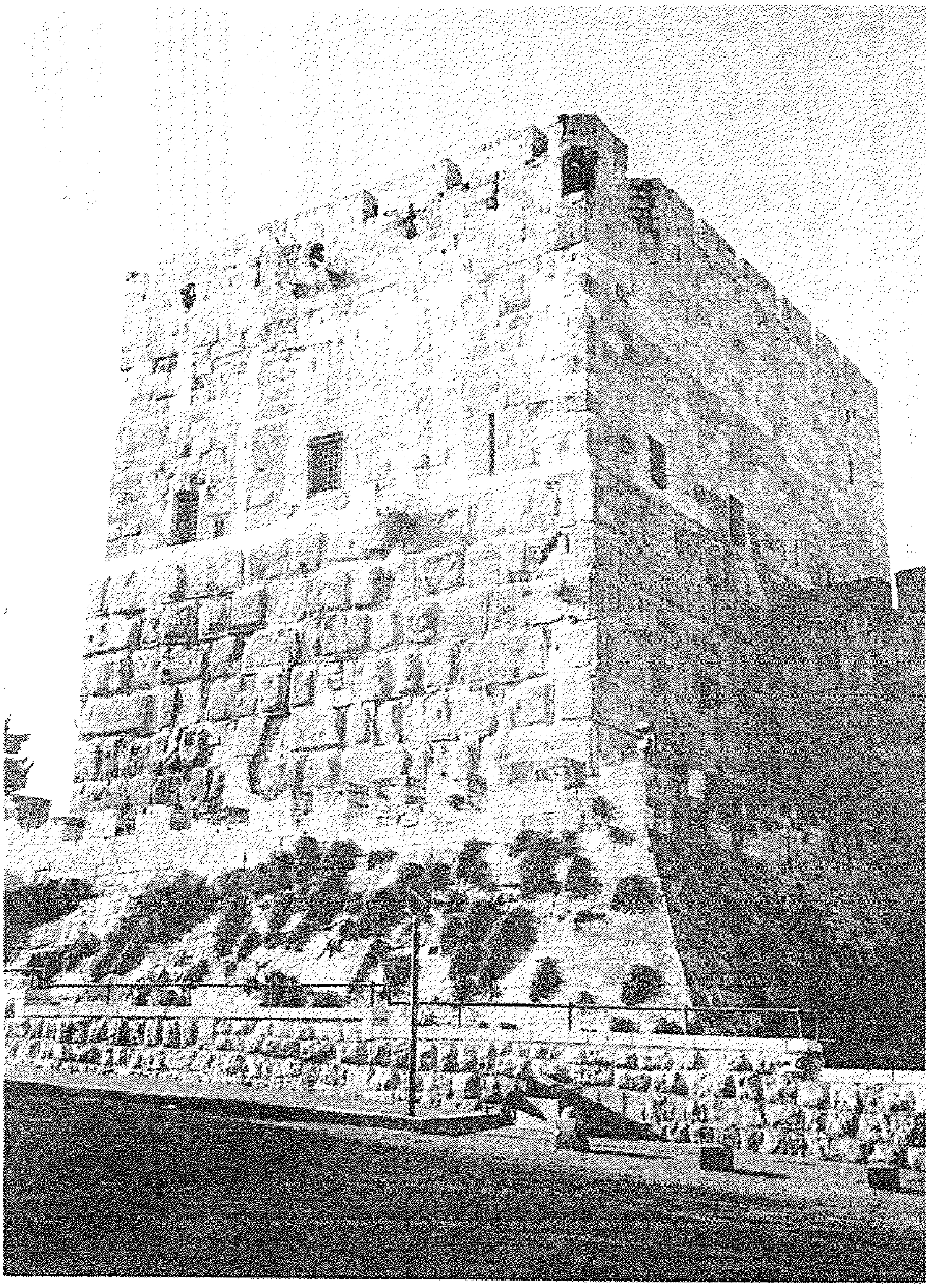
شكل رقم ٥,٧ : رسم بياني لبرج البوابة المزدوجة (من بن دوف ١٩٨٣)



شكل رقم ٧,٦ : رسم بياني لبرج تانكرد (من باهات وبن آري ١٩٧٥)



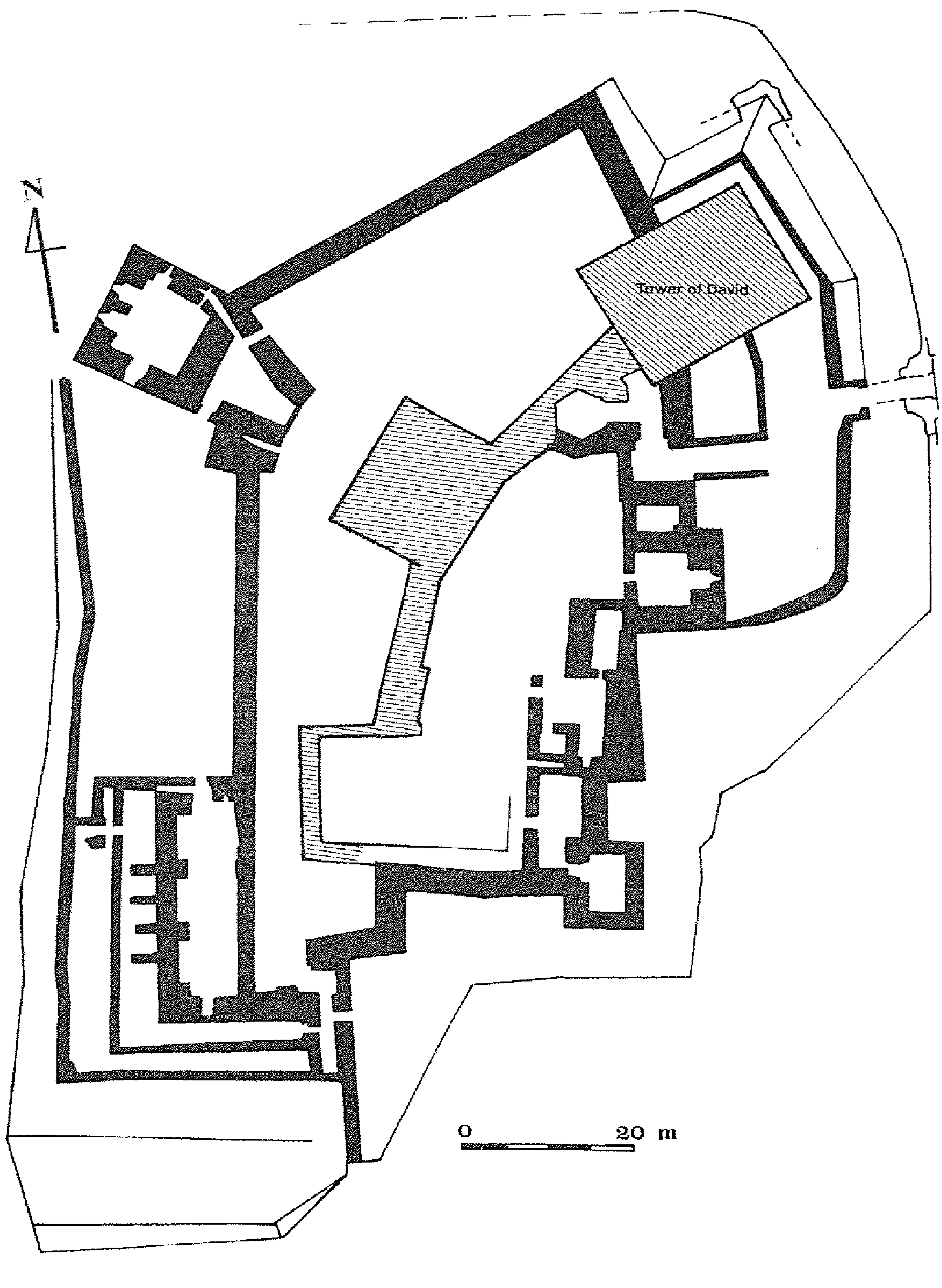
لوحة رقم ٧,١١ برج الجنوب الغربى (تصوير المؤلف)



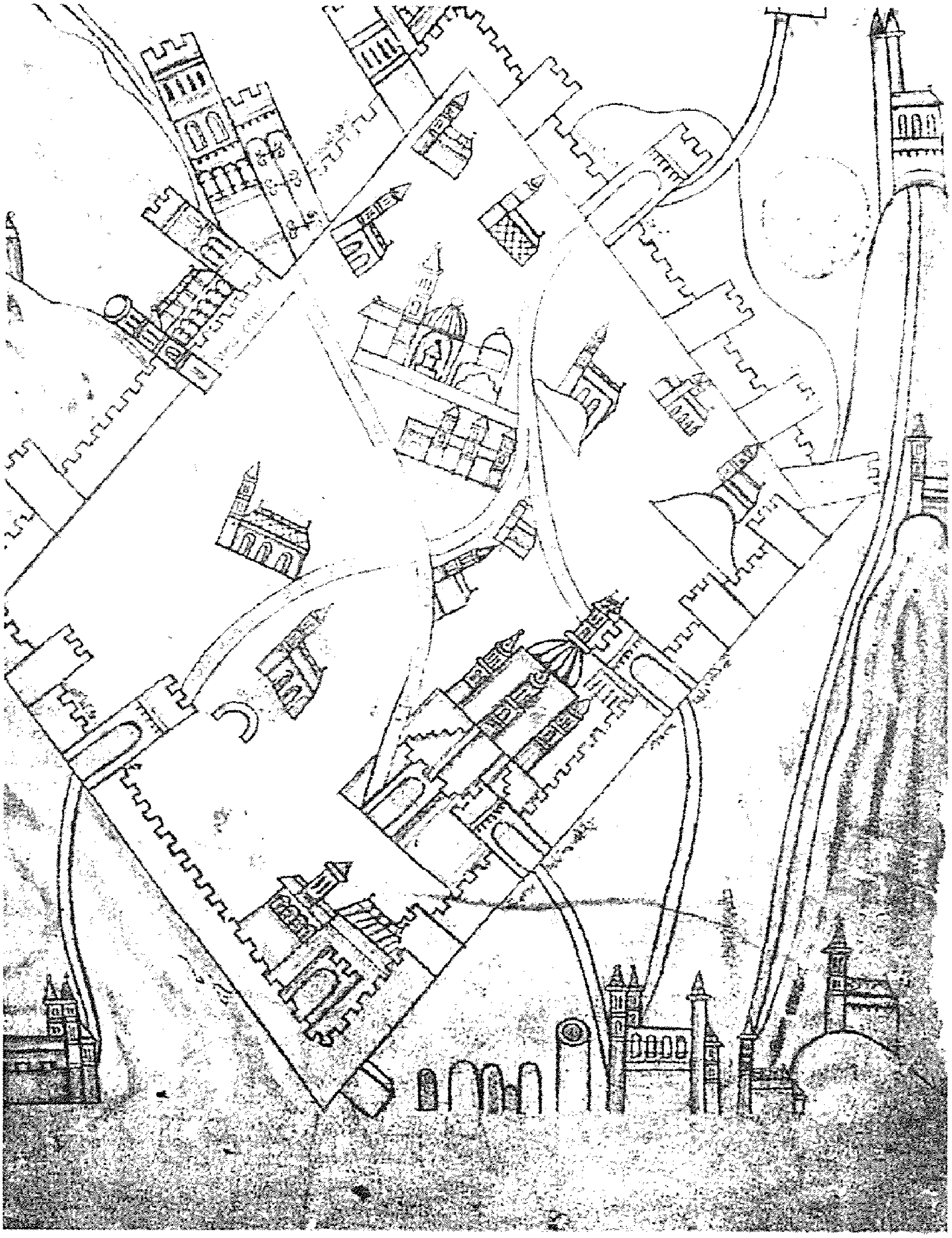
لوحة رقم ٨,١ : برج داود (تصوير المؤلف)



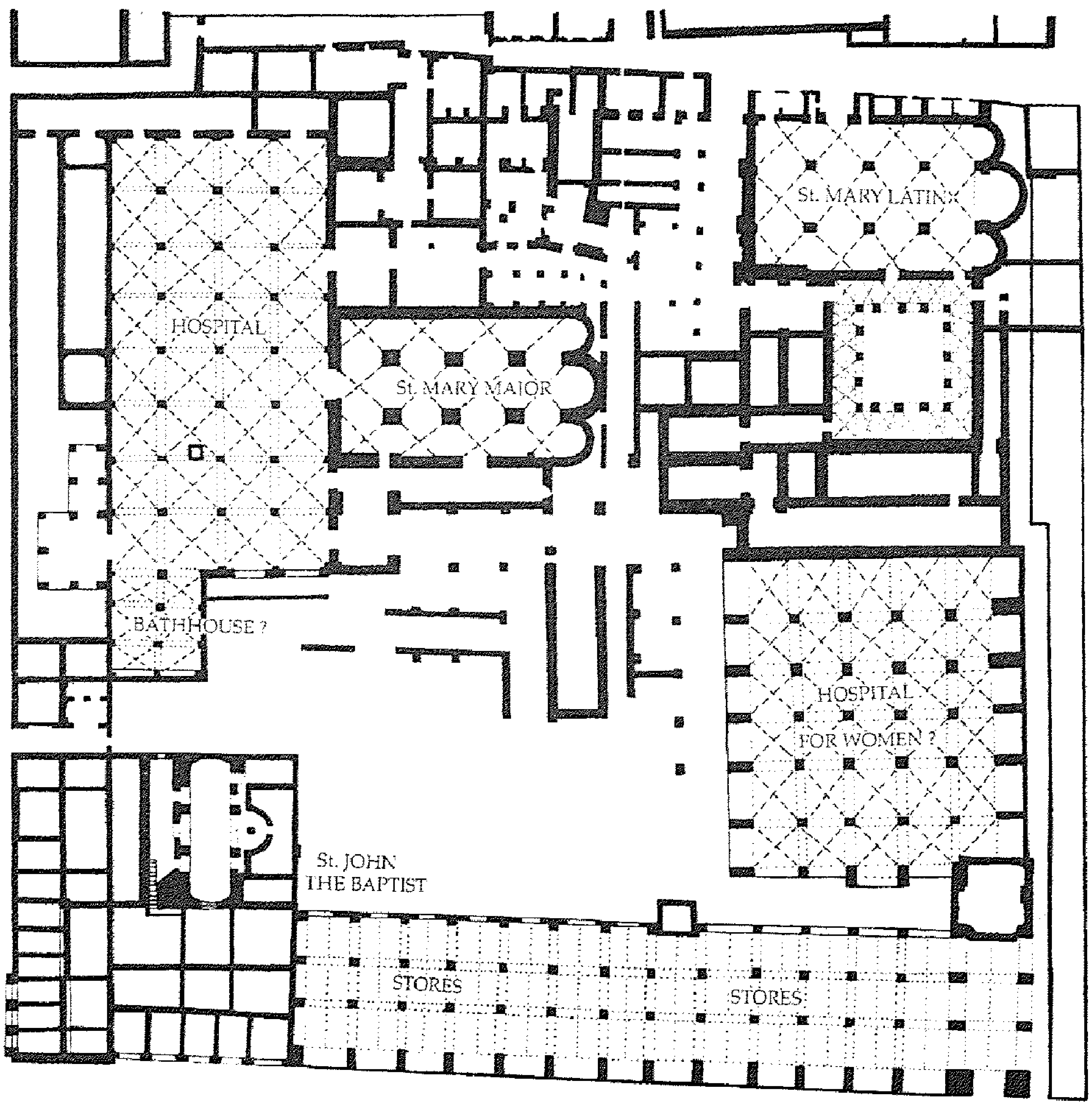
لوحة رقم ٨,٢ : برج داود مرسوم على قطعة من النقود من عهد بلدوين الثالث (١١٤٣-٦٣)
(بعد موافقة السلطات الإسرائيلية للآثار)



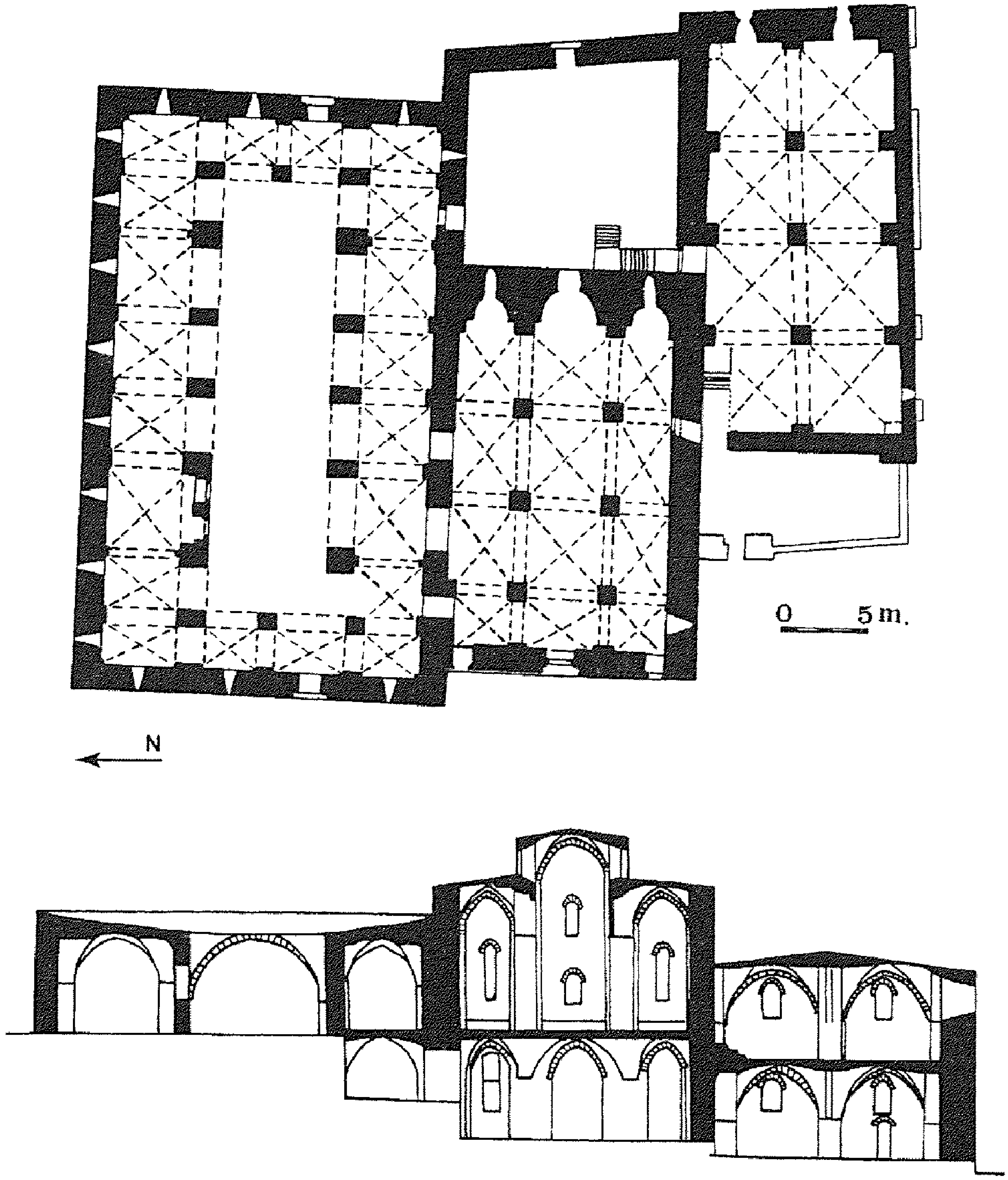
شكل رقم ٨,١ : القلعة المستطيلة (من جونز ١٩٩٧)



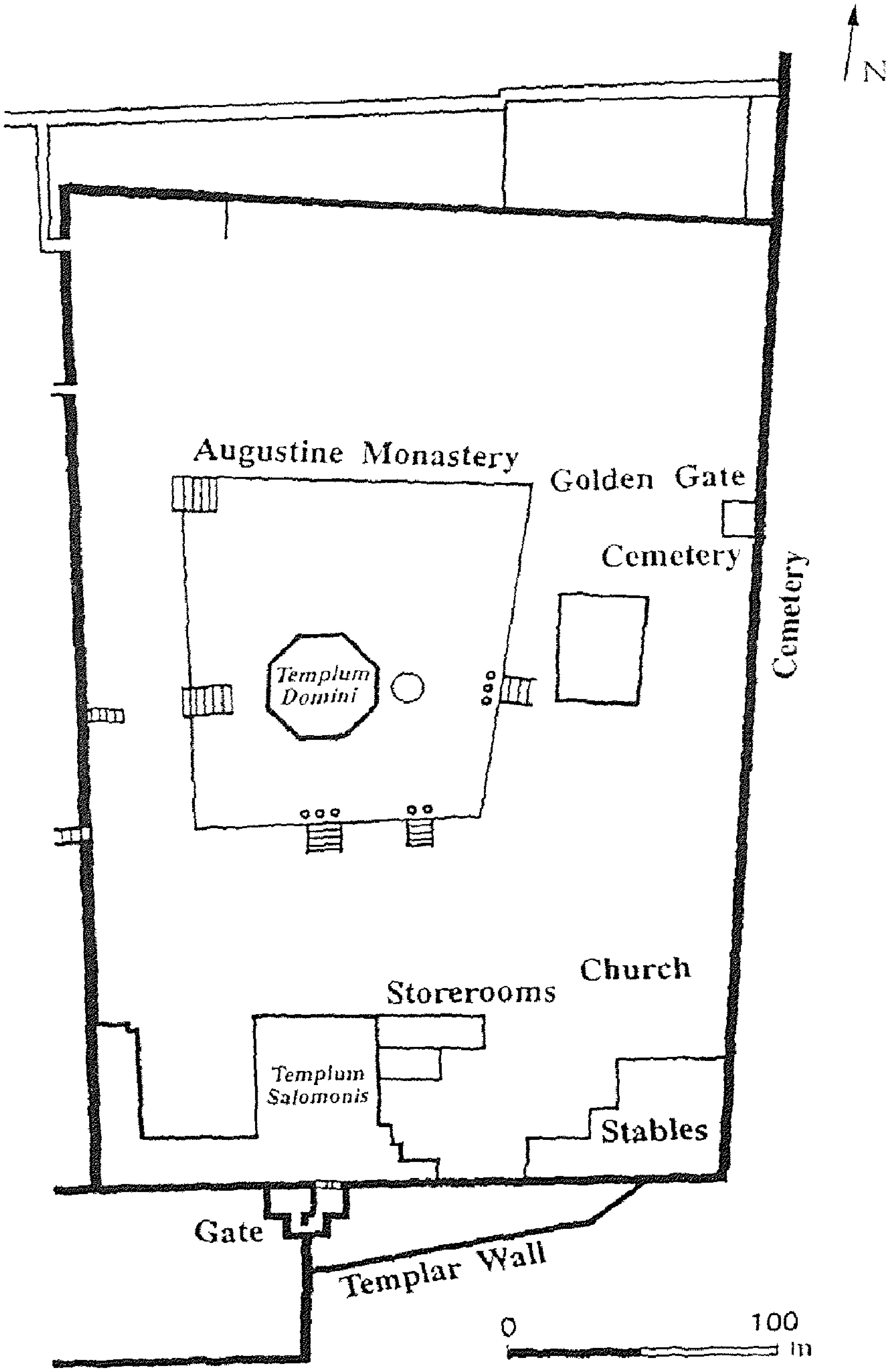
لوحة رقم ٩،١ : خريطة كمبراى للقدس (بعد موافقة مكتبة كمبراى)



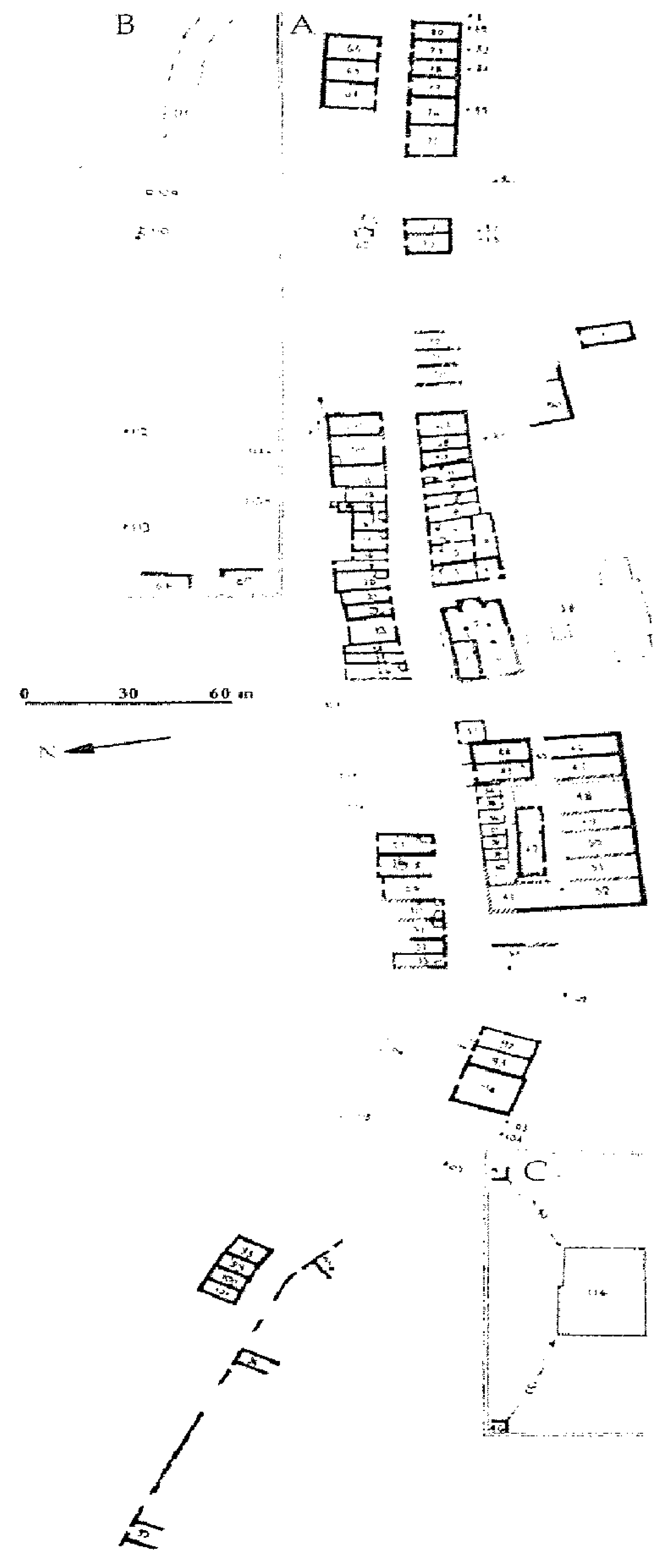
شكل رقم ١ , ١٠ : منطقة مستشفى القدس (من شيك ١٩٠٢)



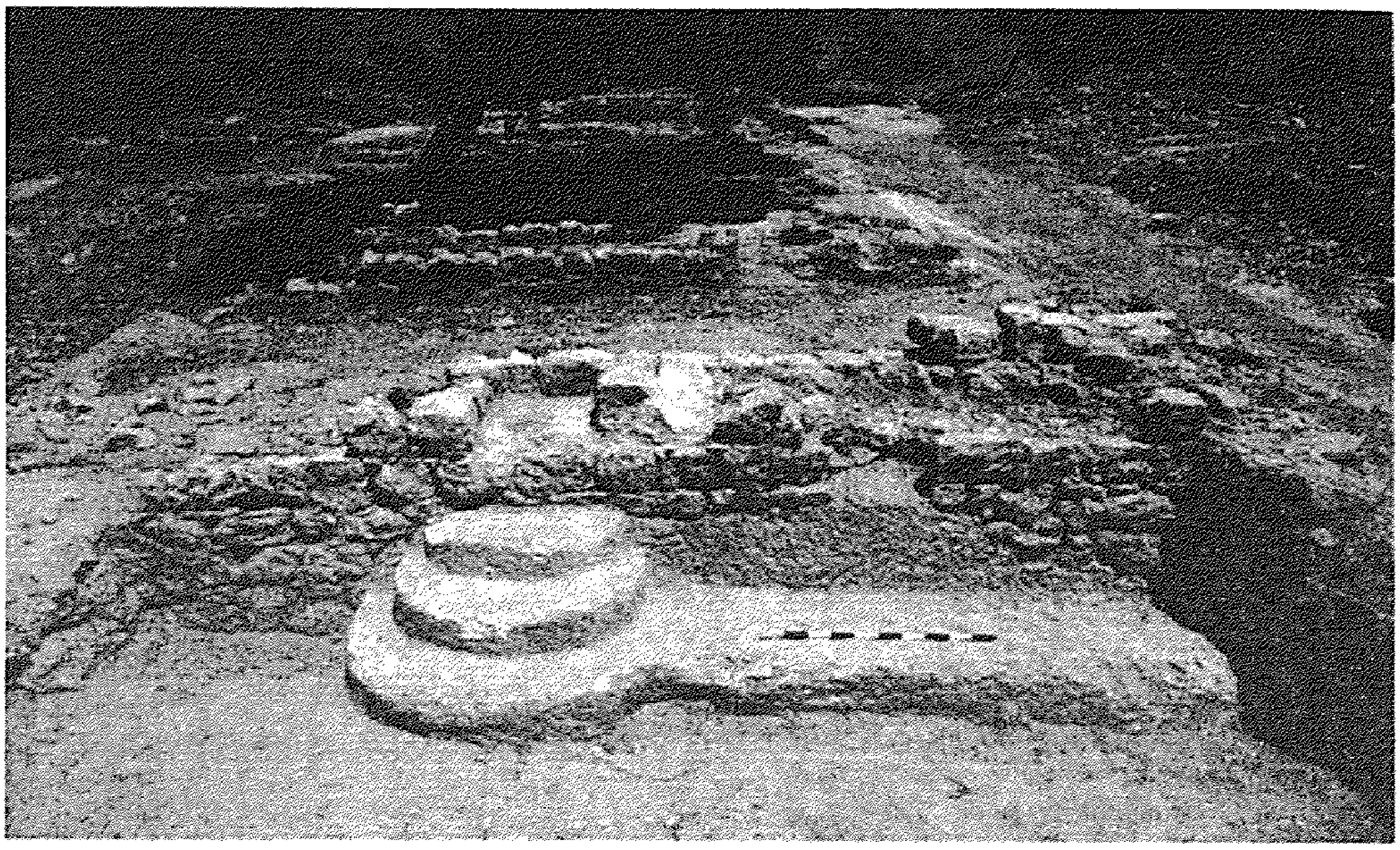
شكل رقم ١٠,٢ : مجمع مستشفى الألمان (من أوفاديا ١٩٩٣)



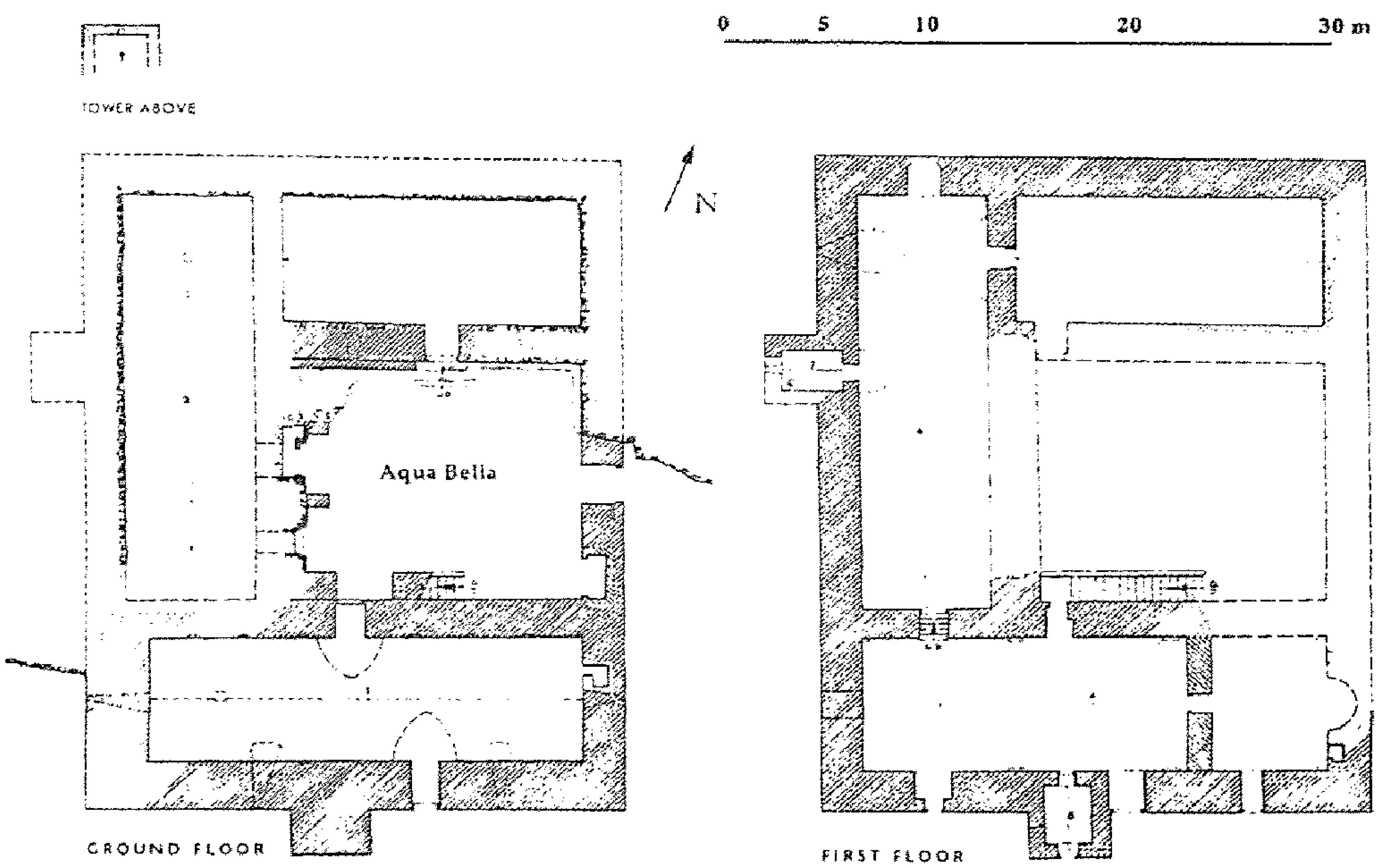
شكل رقم ٢ ,١٠ : منطقة جبل المعبد (رسم دالت واينبلات)



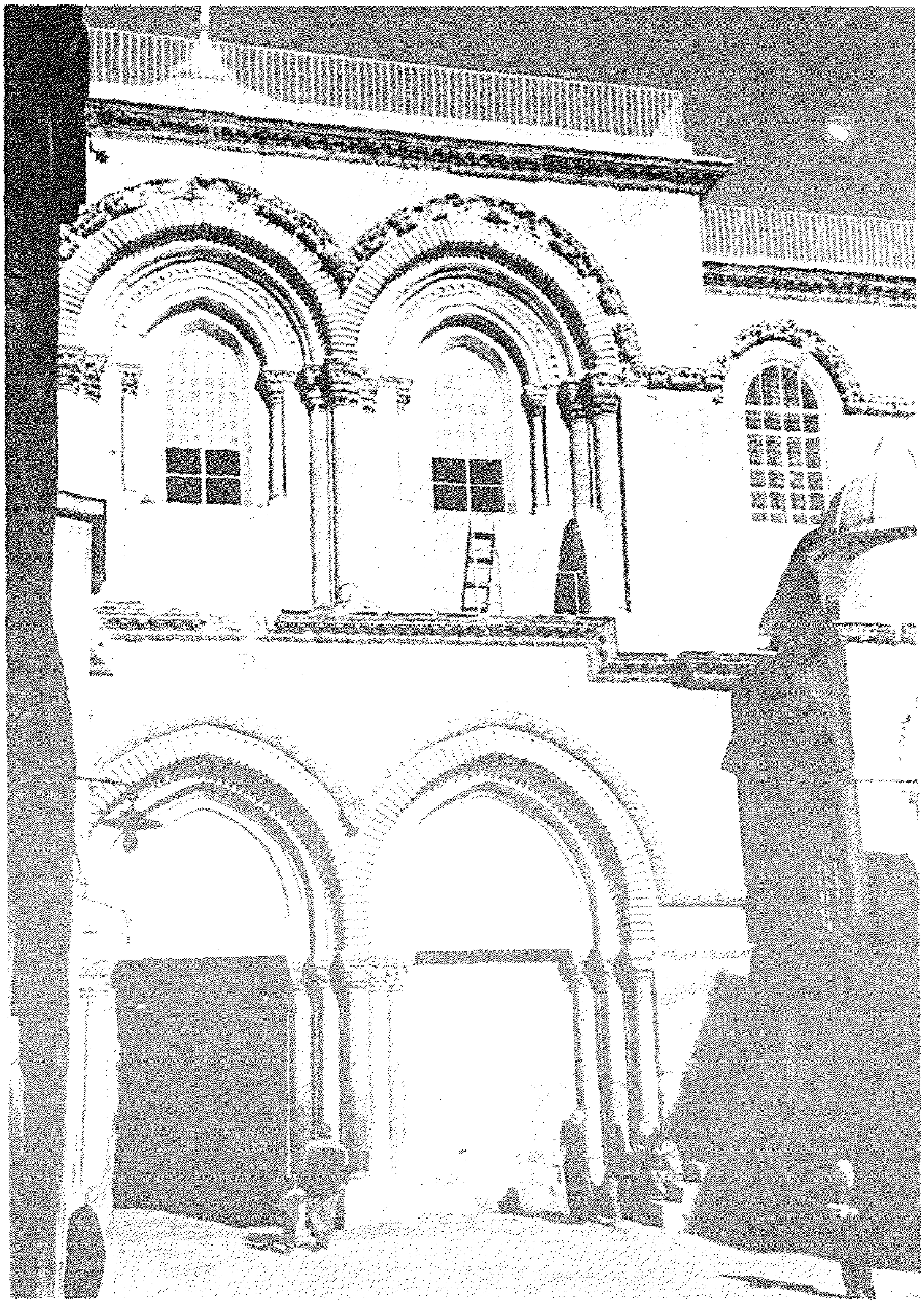
شكل رقم ١١,١ : مخطط لـ (شارع القرية)
بالقبيبة (بارفا مهمورية) (بعد العصر البجاتى ١٩٩٣)



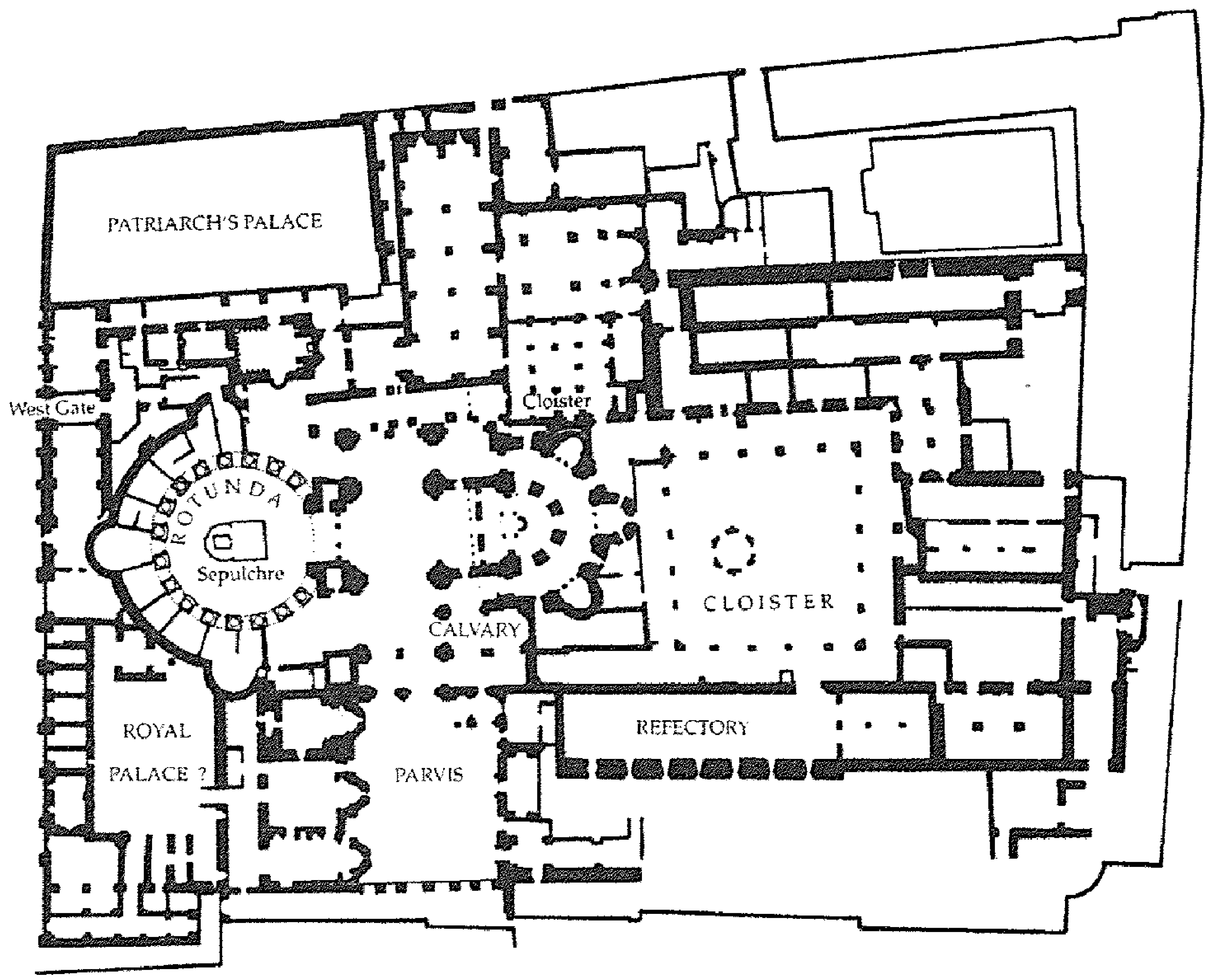
لوحة رقم ١١,١ : قرية في الكارم (تصوير المؤلف)



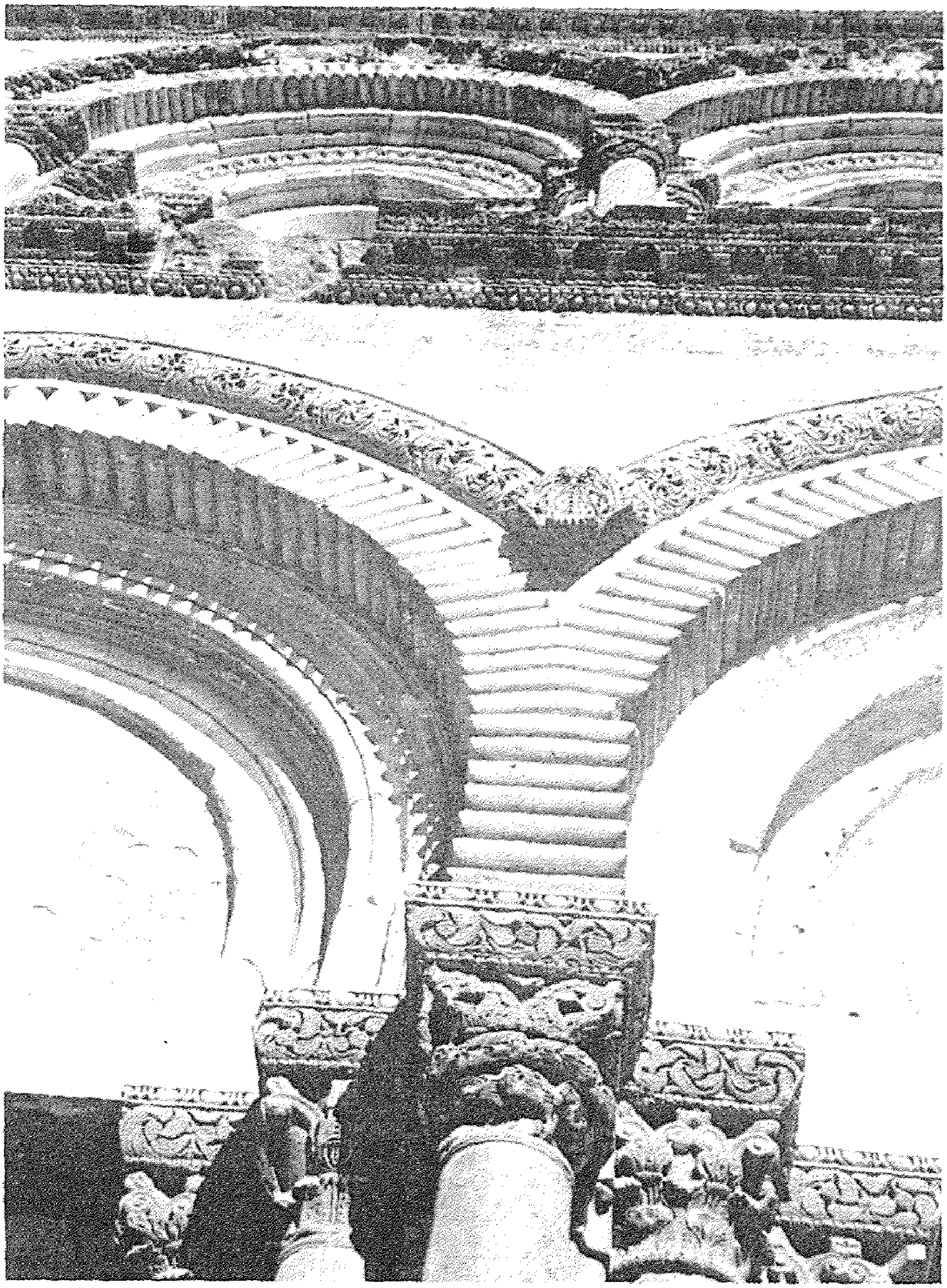
شكل رقم ١١,٢ : لمركز مستوطنة أكوابلا (من برنجل ١٩٩٣)



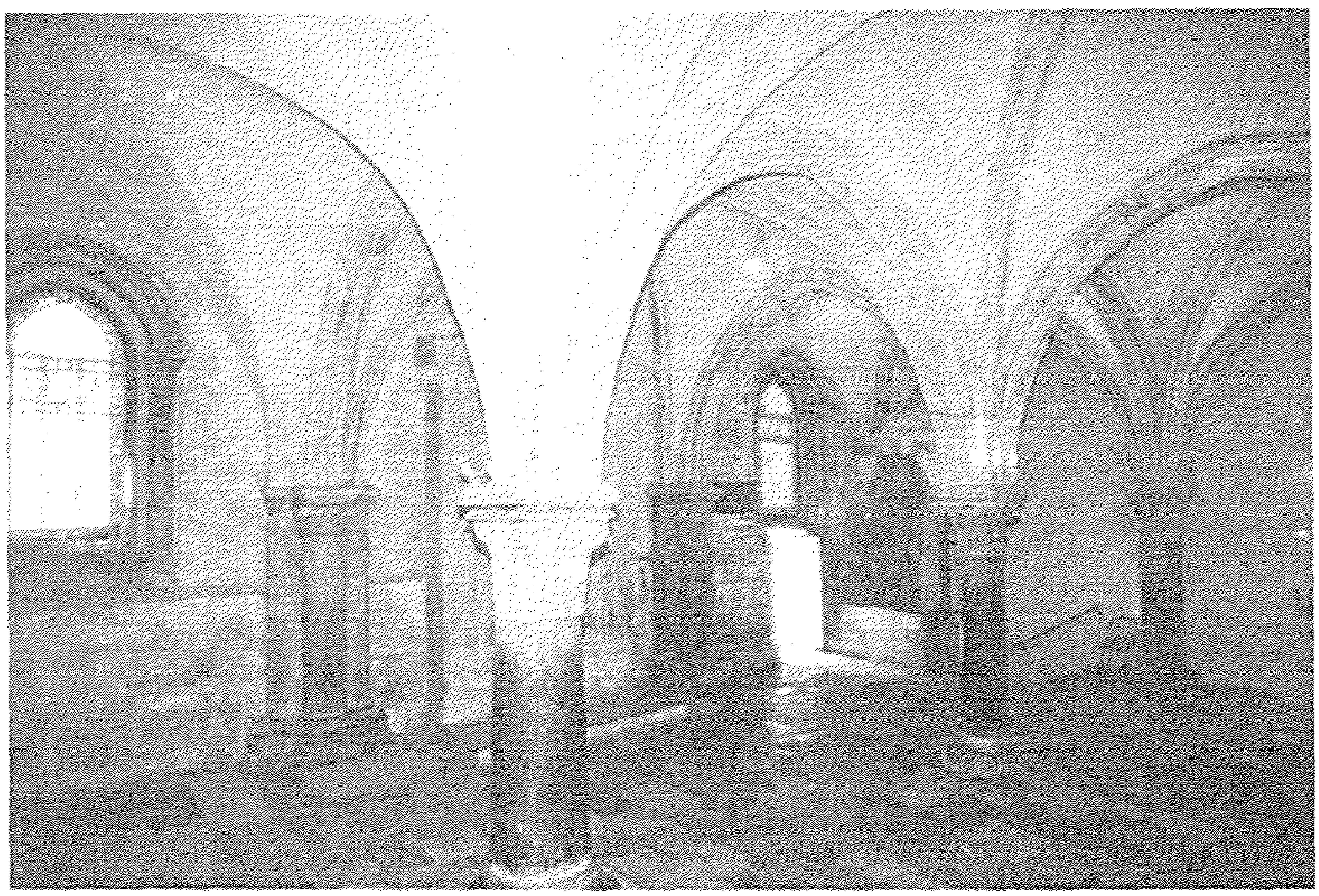
لوحة رقم ١٢,١ : واجهة كنيسة الضريح المقدس (تصوير المؤلف)



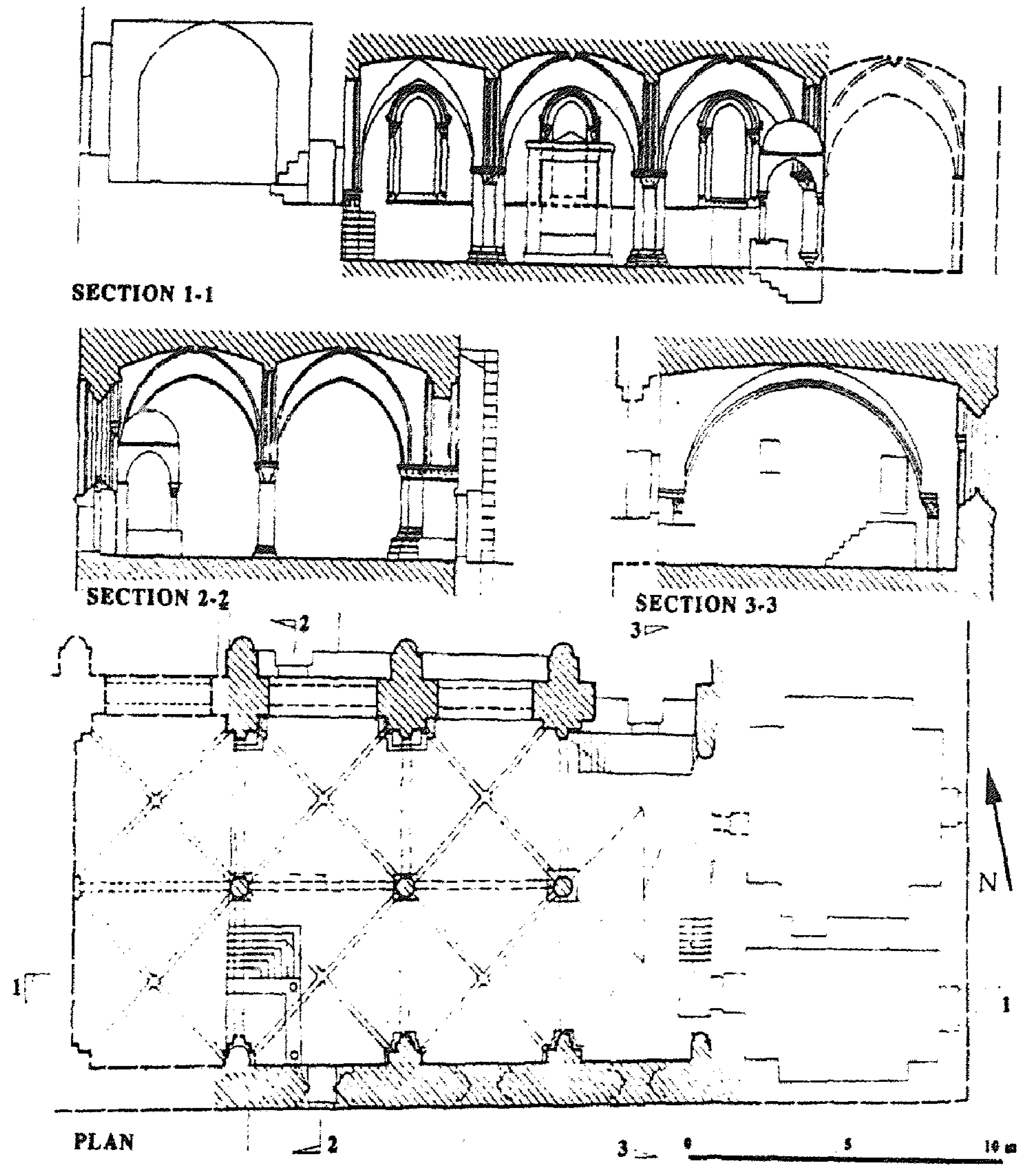
شكل رقم ١٢,١ مخطط للضريح المقدس (من إنلارت ١٩٢٥–٨)



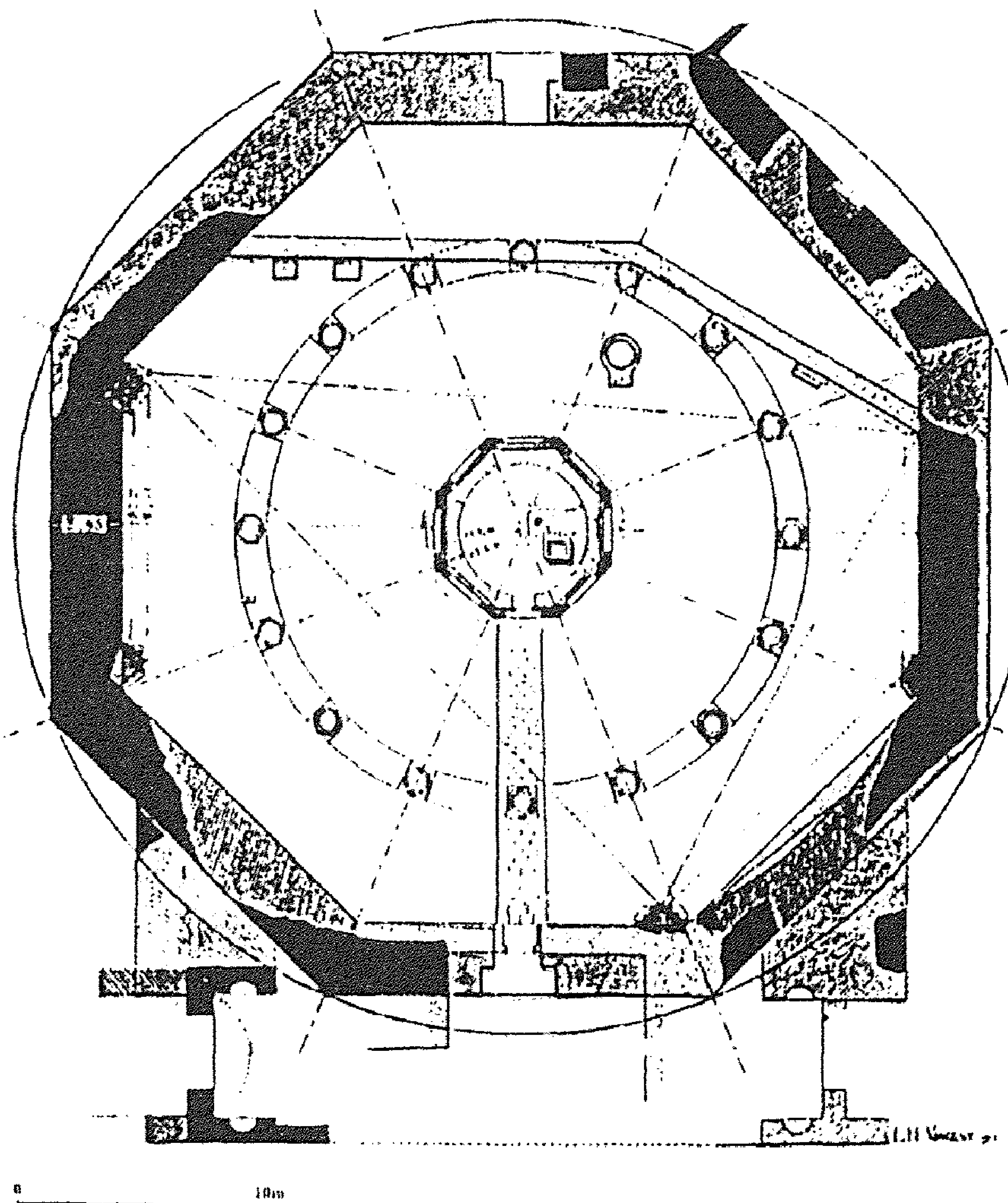
لوحة رقم ٢,١٢ : نقوش على واجهة الضريح المقدس (تصوير المؤلف)



لوحة رقم ١٢,٣ : مكان العشاء الأخير (السناكل) (تصوير المؤلف)



شكل رقم ٢ , ١٢ : مخطط للسناكل (من بلومر ١٩٨٢)



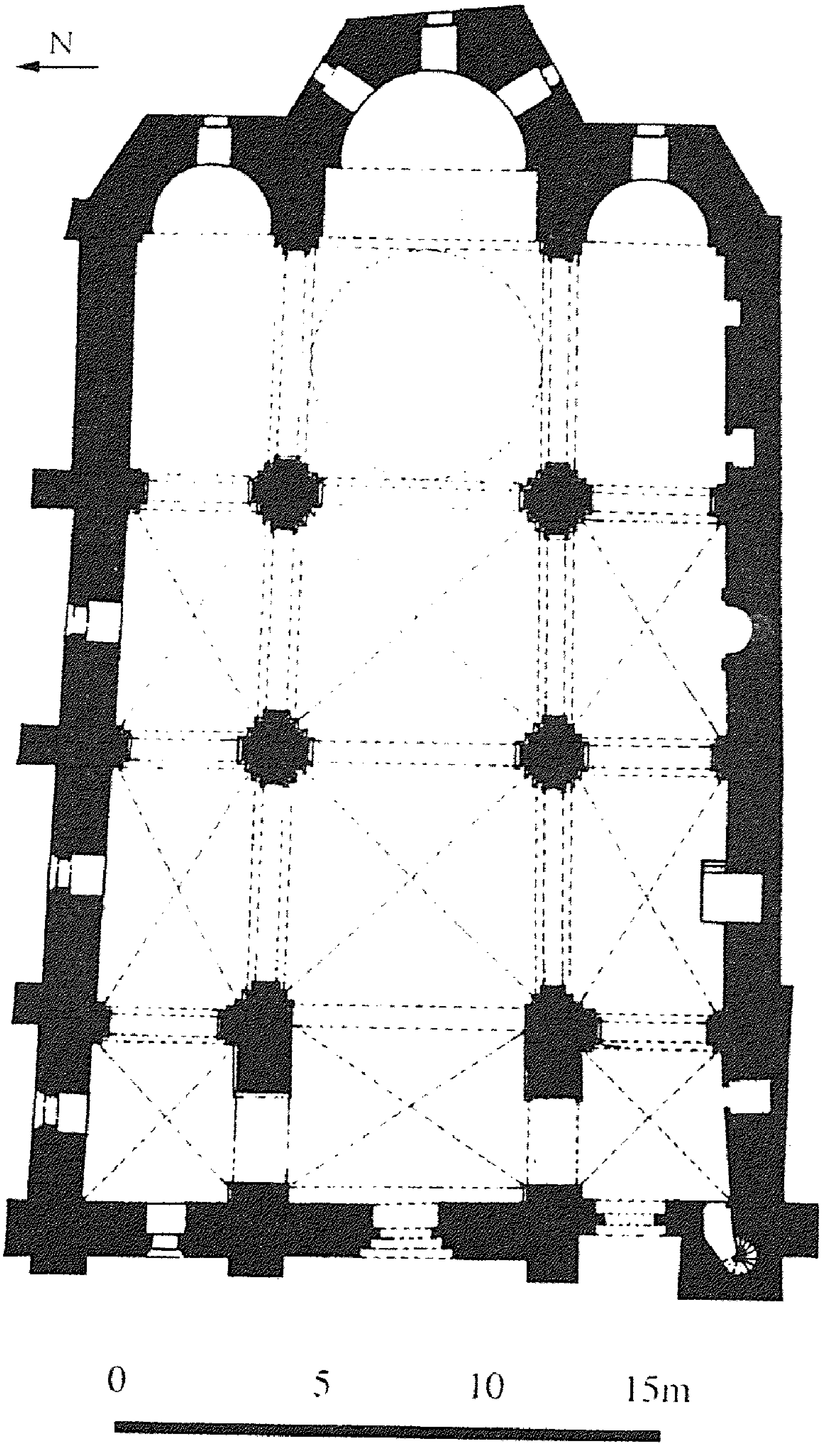
شكل رقم ١٢,٣ : رسم توضيحي لكنيسة الصعود (من كوربو ١٩٦٥)



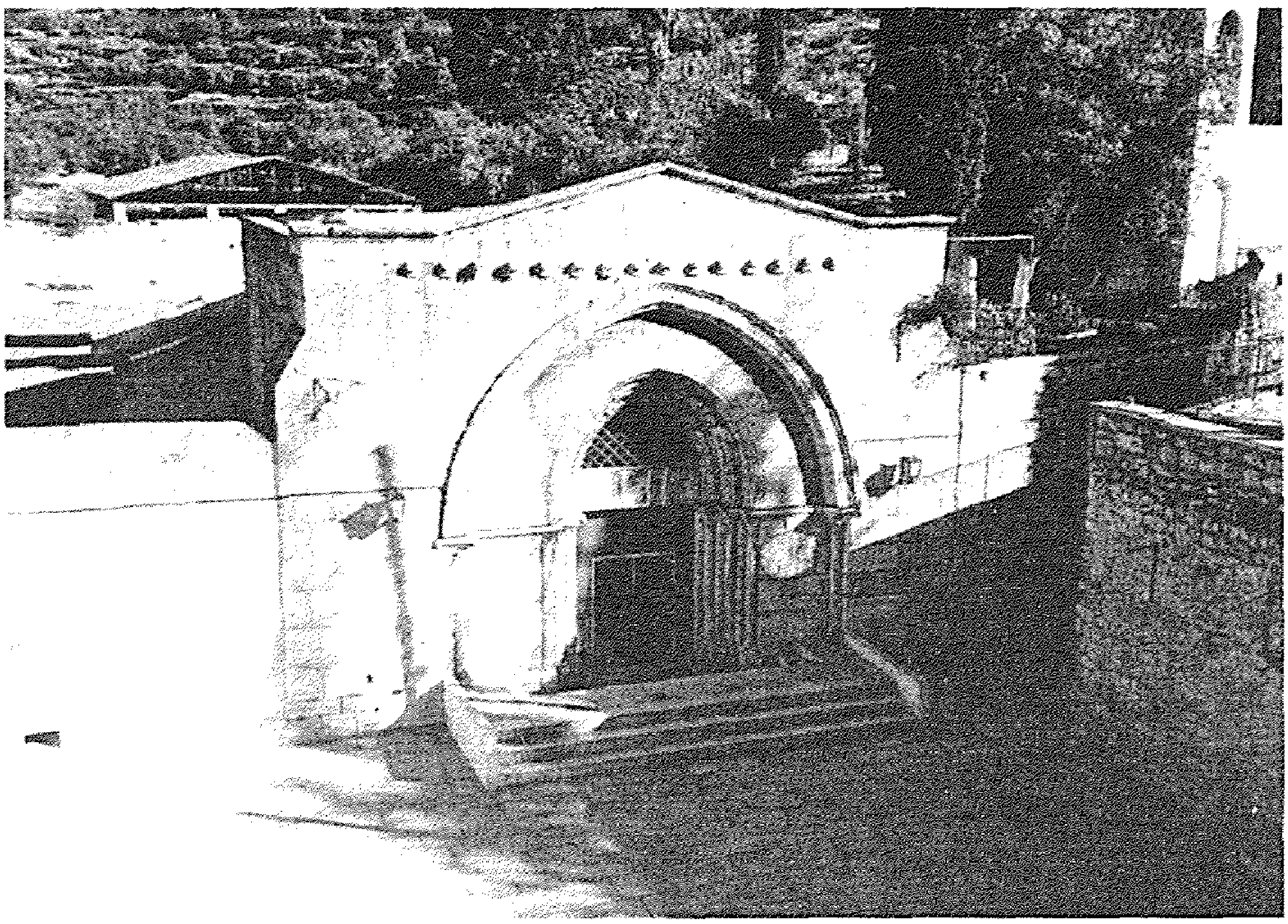
لوحة رقم ١٢،٤ : تاج عمود من كنيسة الصعود (تصوير المؤلف)



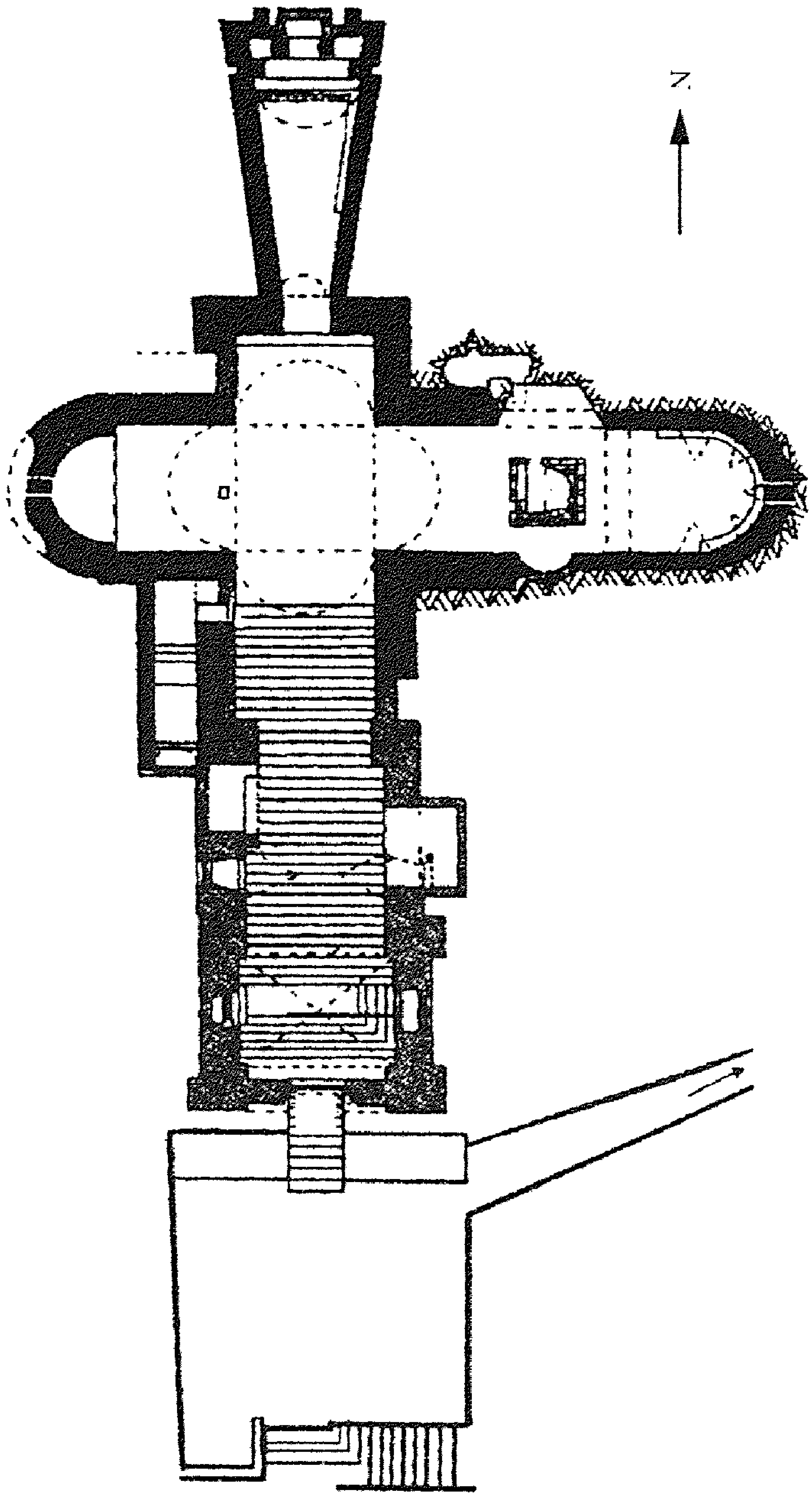
لوحة رقم ١٢,٥ : كنيسة القديسة حنة (تصوير المؤلف)



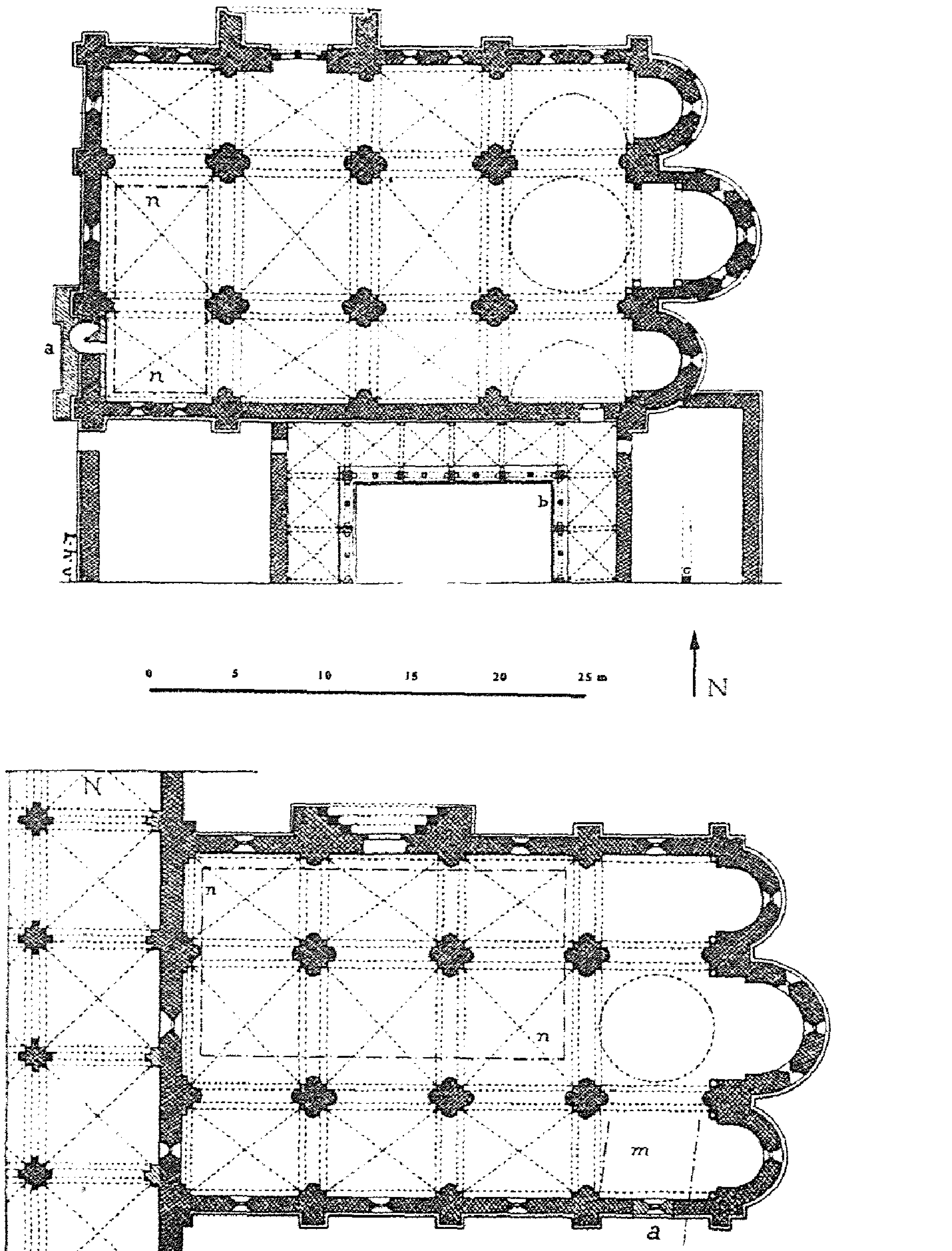
شكل توضيحي رقم ١٢،٤ : رسم توضيحي لكنيسة القديسة حنة (من فنسنت وأبل ١٩٢٦)



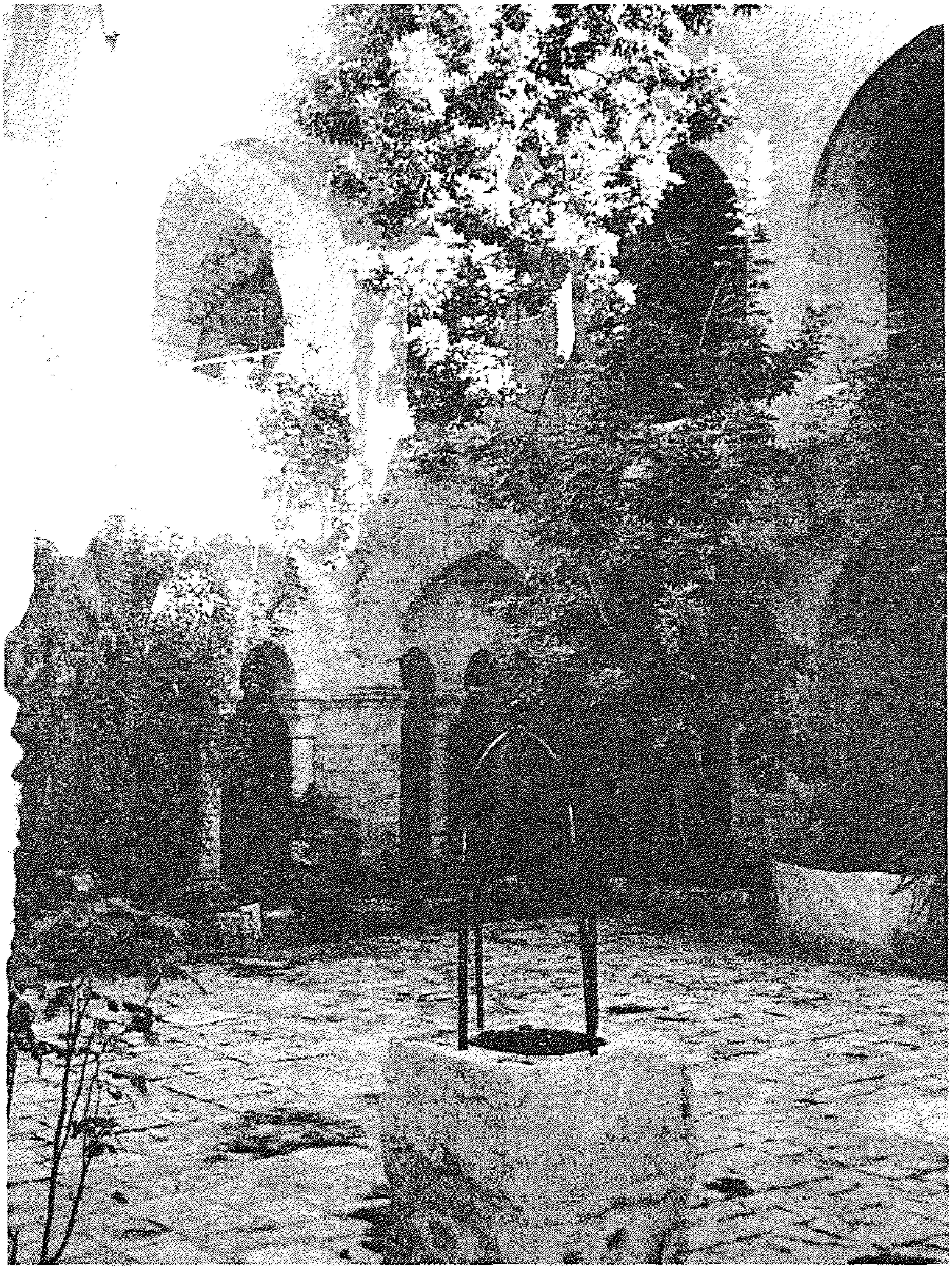
لوحة رقم ١٢.٦ : كنيسة قبر العذراء في بيت المقدس (تصوير المؤلف)



شكل رقم ٥ ,١٢ رسم توضيحي لكنيسة قبر العذراء في وادى ياهو شافاط
(من فنسنت وآبل ١٩٢٦)



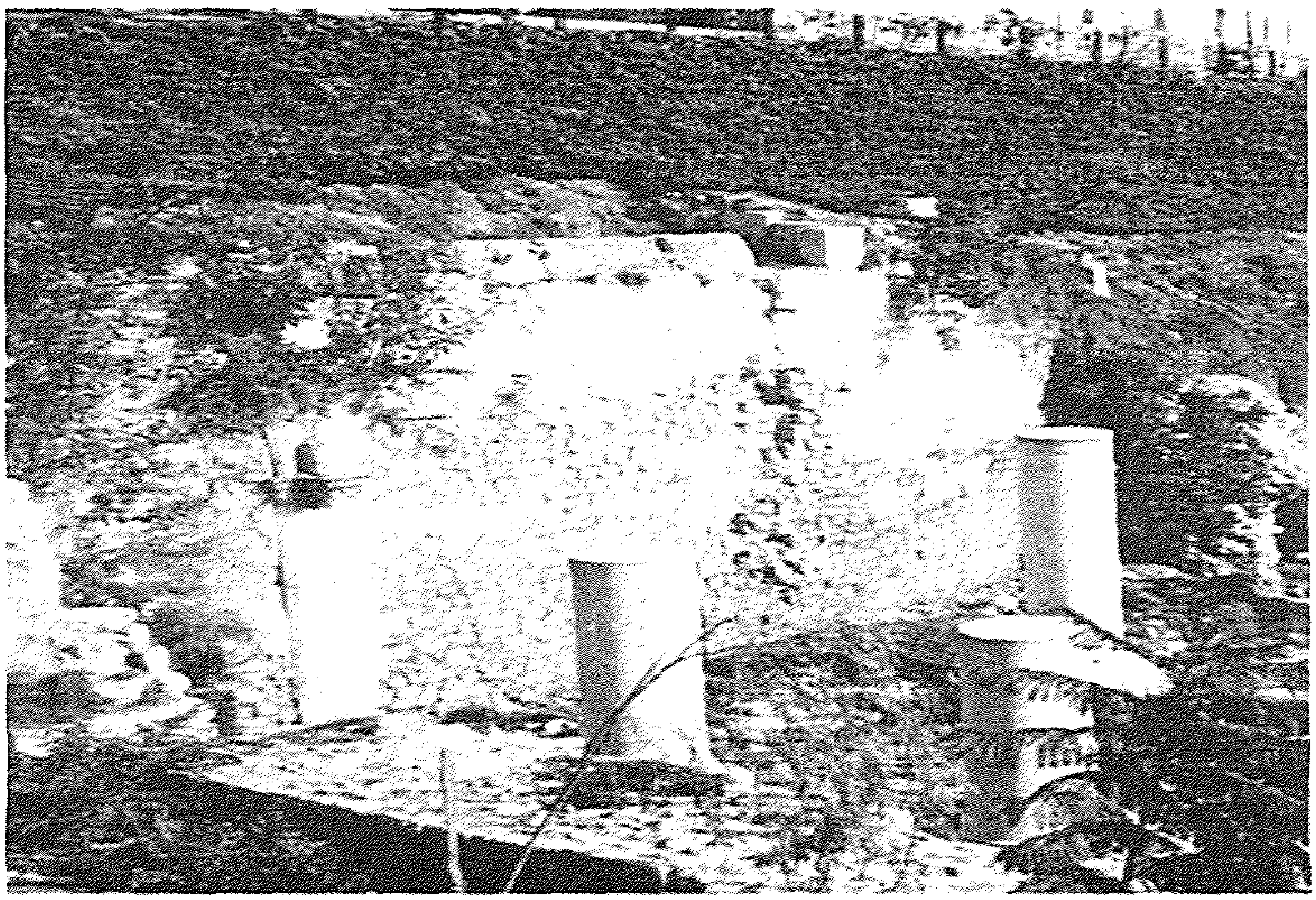
شكل رقم ١٢,٦: رسم توضيحى لكنيستى القديسة مريم اللاتينية والقديسة مريم الكبرى فى حى الاسبتارية (شيك ١٩٠١)



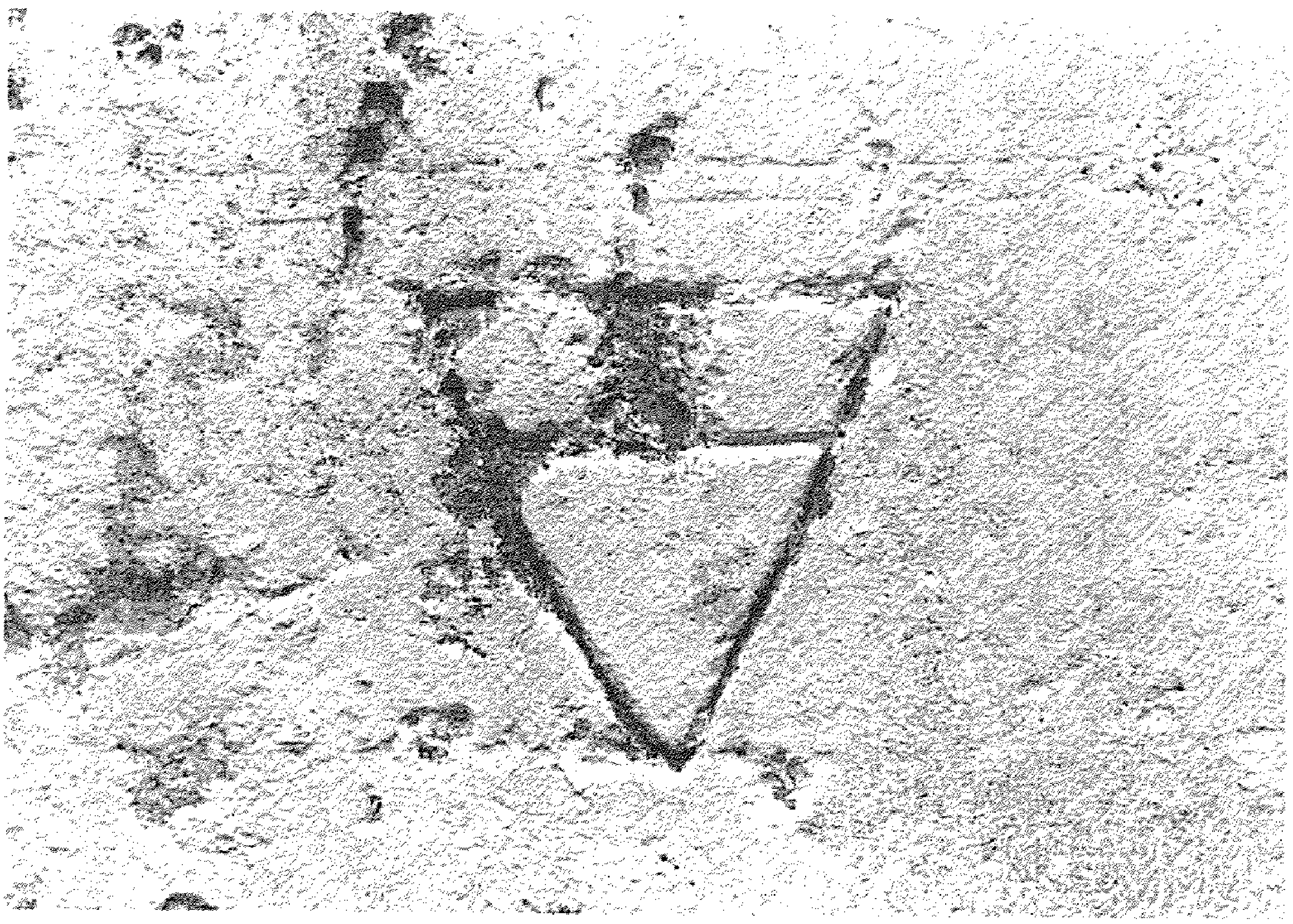
لوحة رقم ١٢,٧ : دير القديسة مريم اللاتينية (تصوير المؤلف)



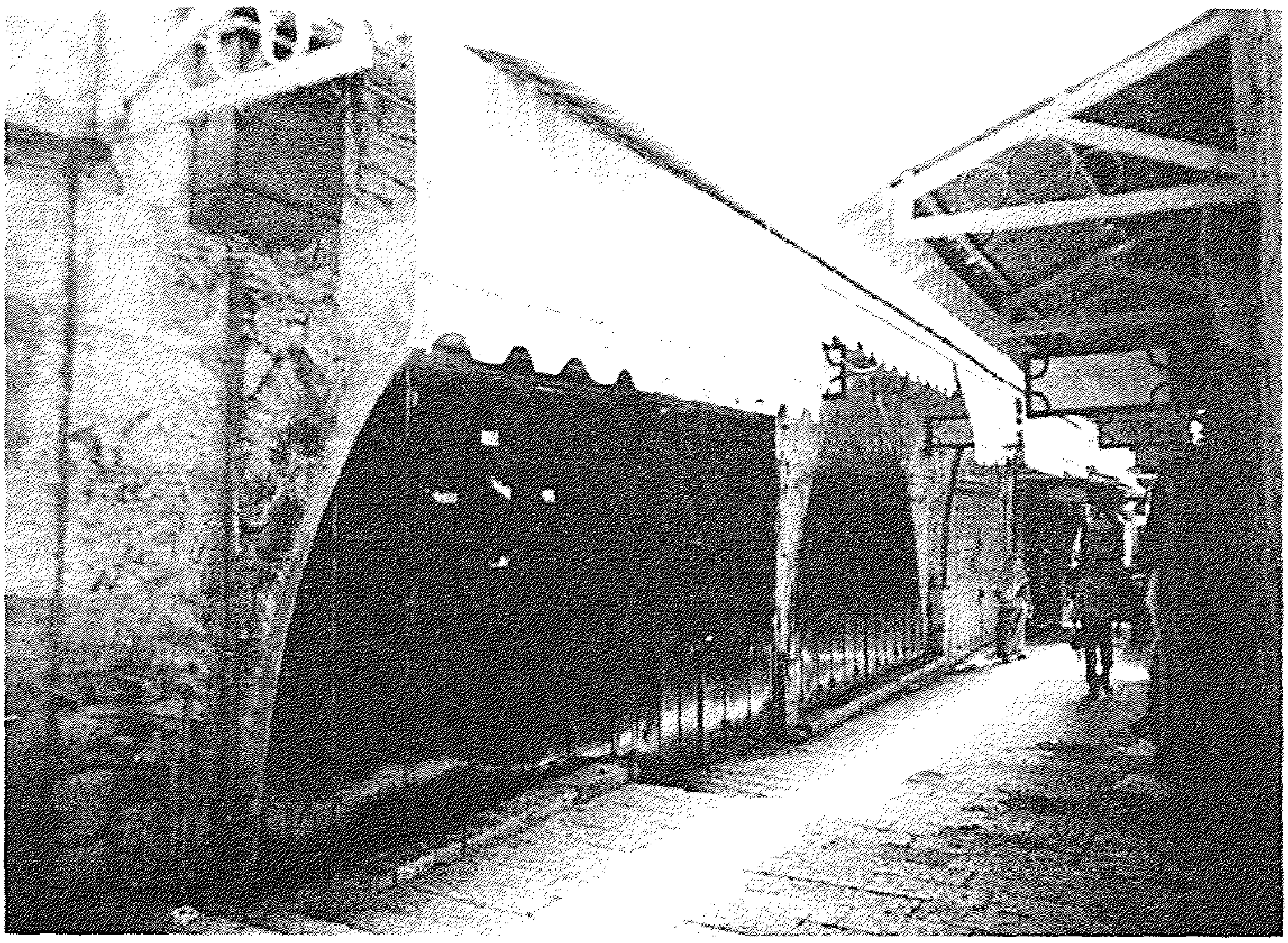
لوحة رقم ١٢,٨ : كنيسة القديسة مريم للألمان (تصوير المؤلف)



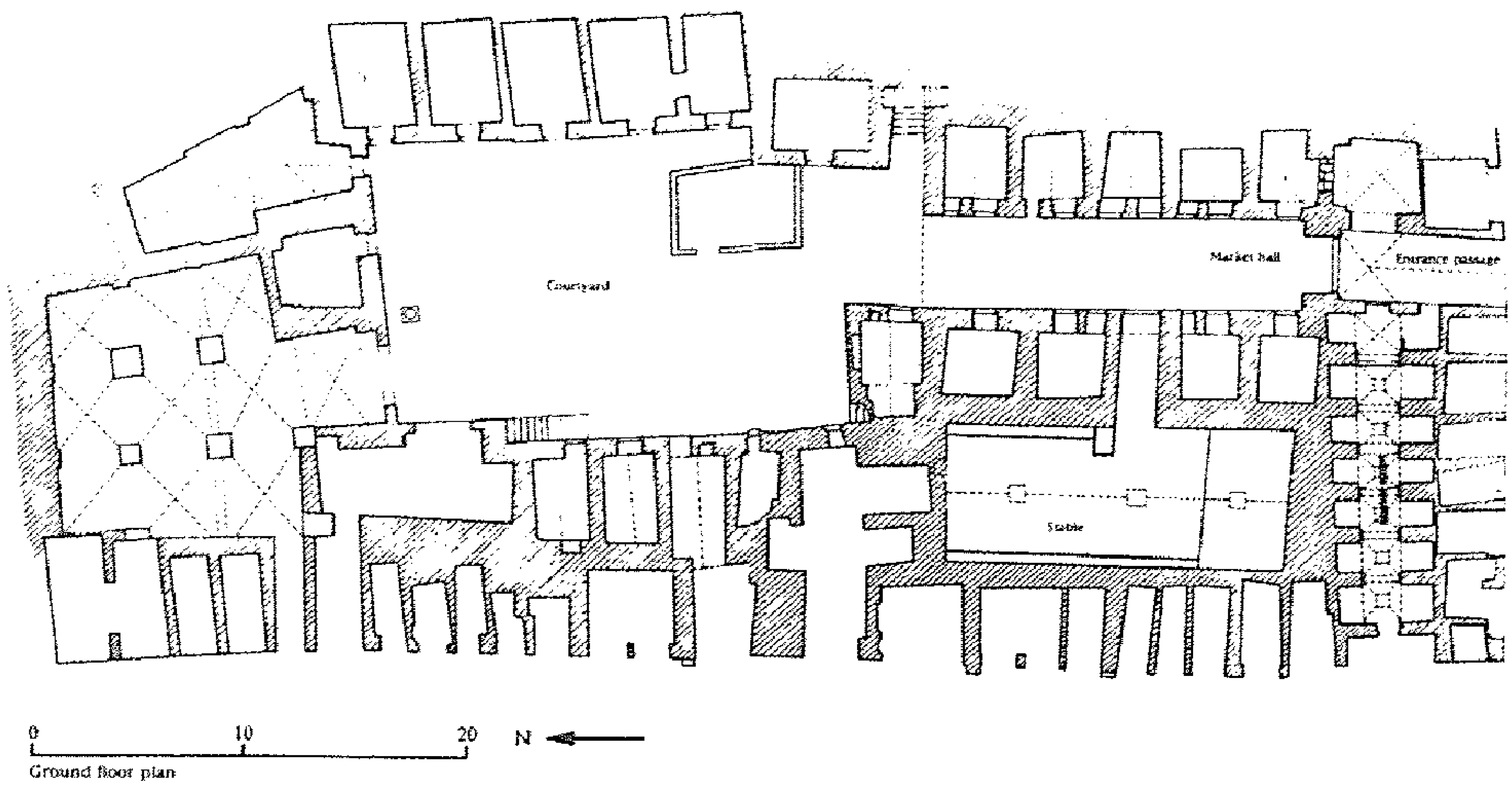
لوحة رقم ٩,١٢: كنيسة القديس بطرس متعددة الأجزاء (تصوير المؤلف)



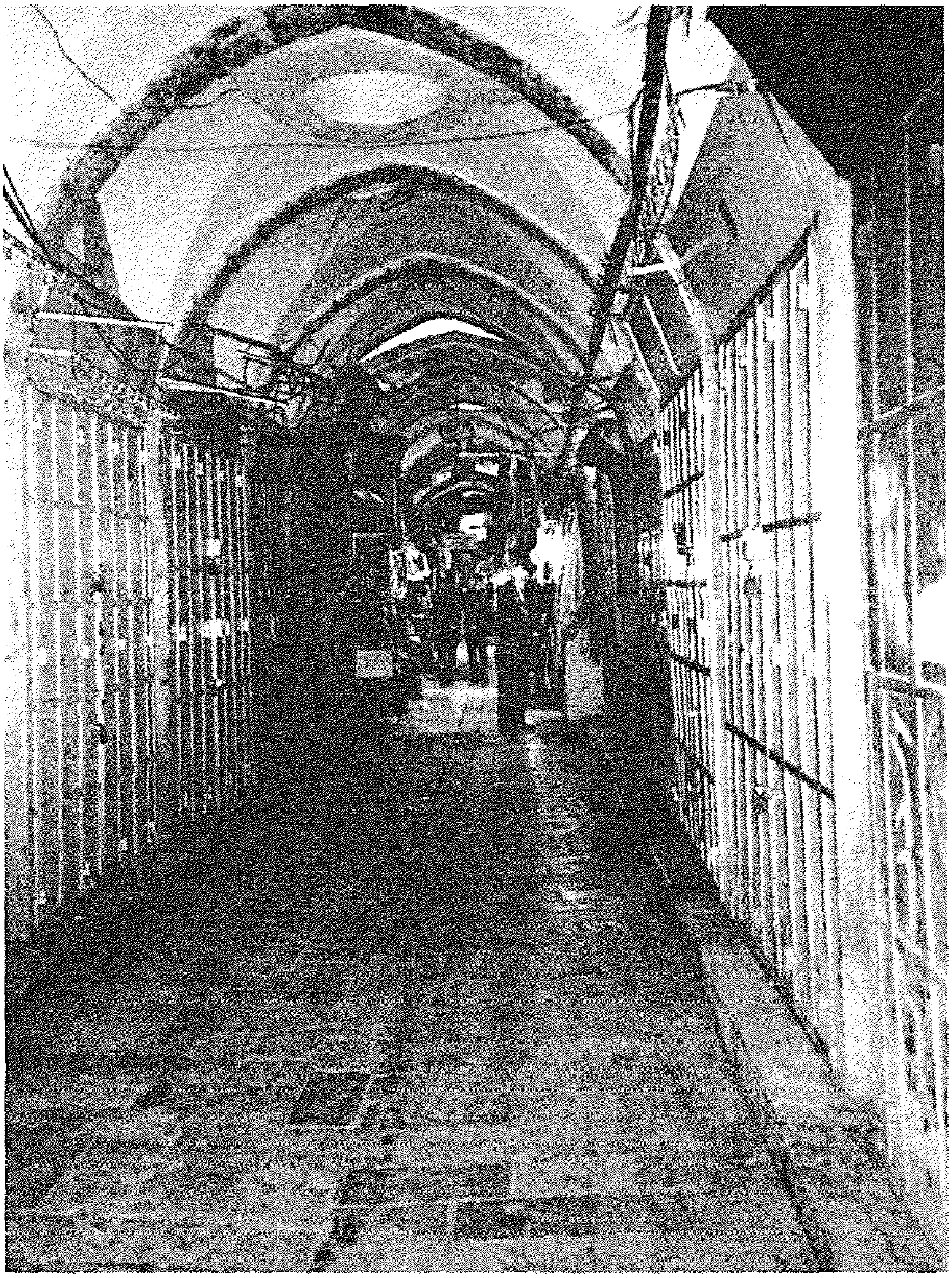
لوحة رقم ١٢,٣ : علامة ملكية الداوية (تصوير المؤلف)



لوحة رقم ١ , ١٤ : دكاكين صليبية فى شارع داود (تصوير المؤلف)



شكل رقم ١ , ١٤ : تخطيط لخان السلطان (من بيروين ١٩٨٧)



لوحة رقم ٢ , ١٤ : السوق فى موقع السوق القديم شمال شارع داود (تصوير المؤلف)



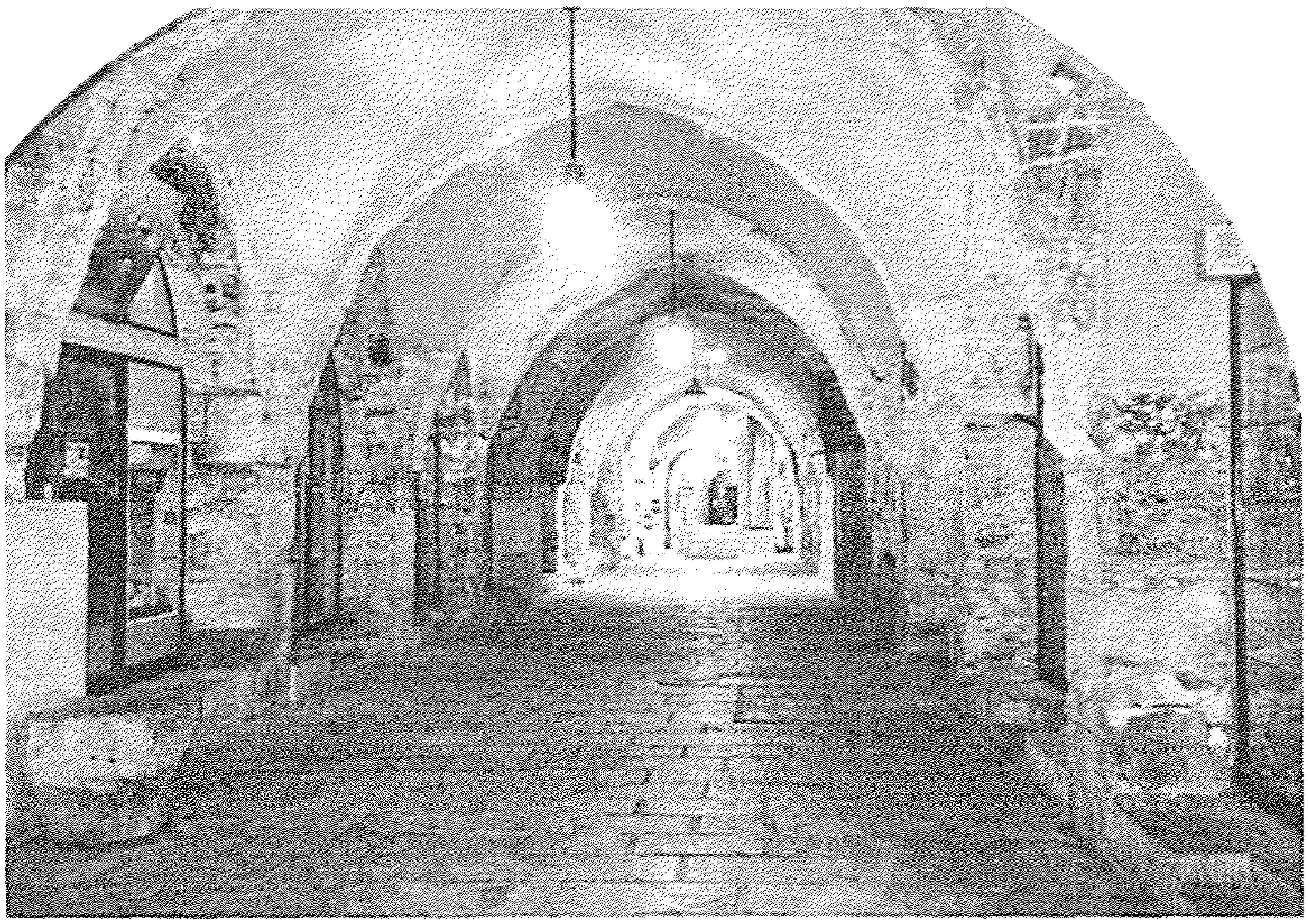
شكل رقم ٣ . ١٤ : حروف محفورة على دكان فى شارع السوق الرئيسى
(تصوير المؤلف)



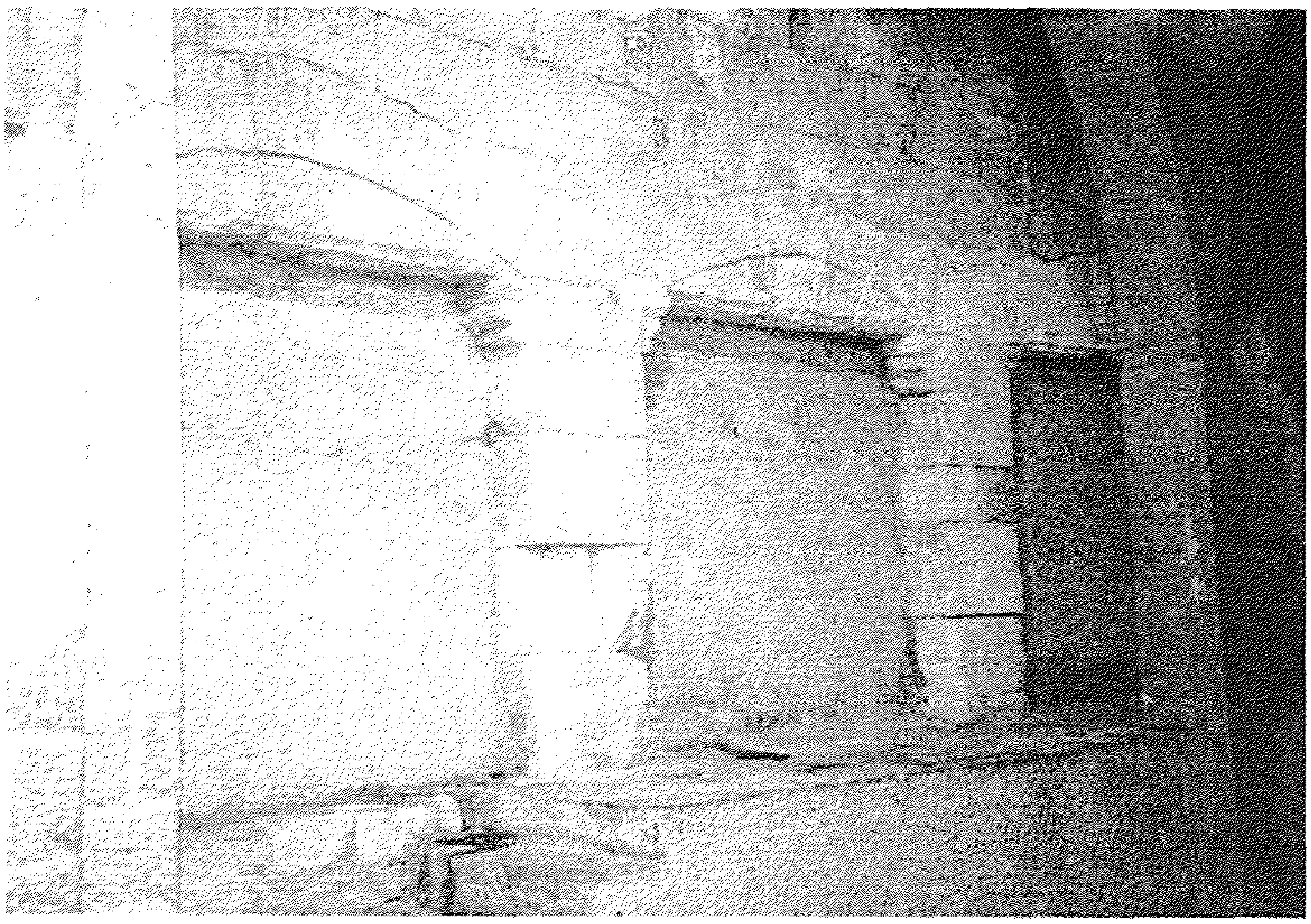
لوحة رقم ٤ , ١٤ : فتحات فى أعلى شارع السوق (تصوير المؤلف)



شكل رقم ٢, ١٤ : حجر منقوش عليه أدوات الطبخ وبعض الحروب (من كلير مونت جانو ١٨٩٩)



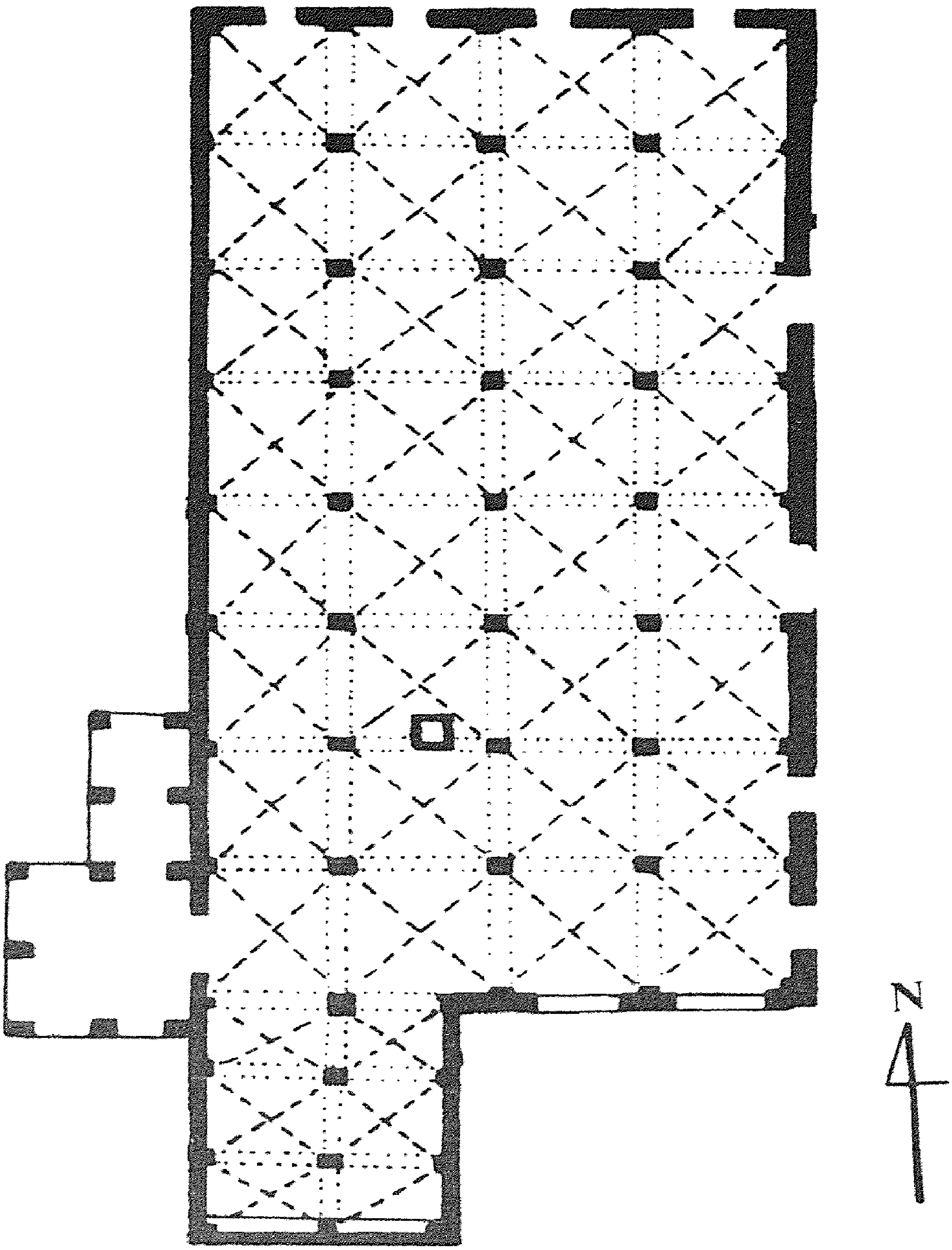
لوحة رقم ١٤.٥ : سوق فى موقع السوق القديم جنوب داود (تصوير المؤلف)



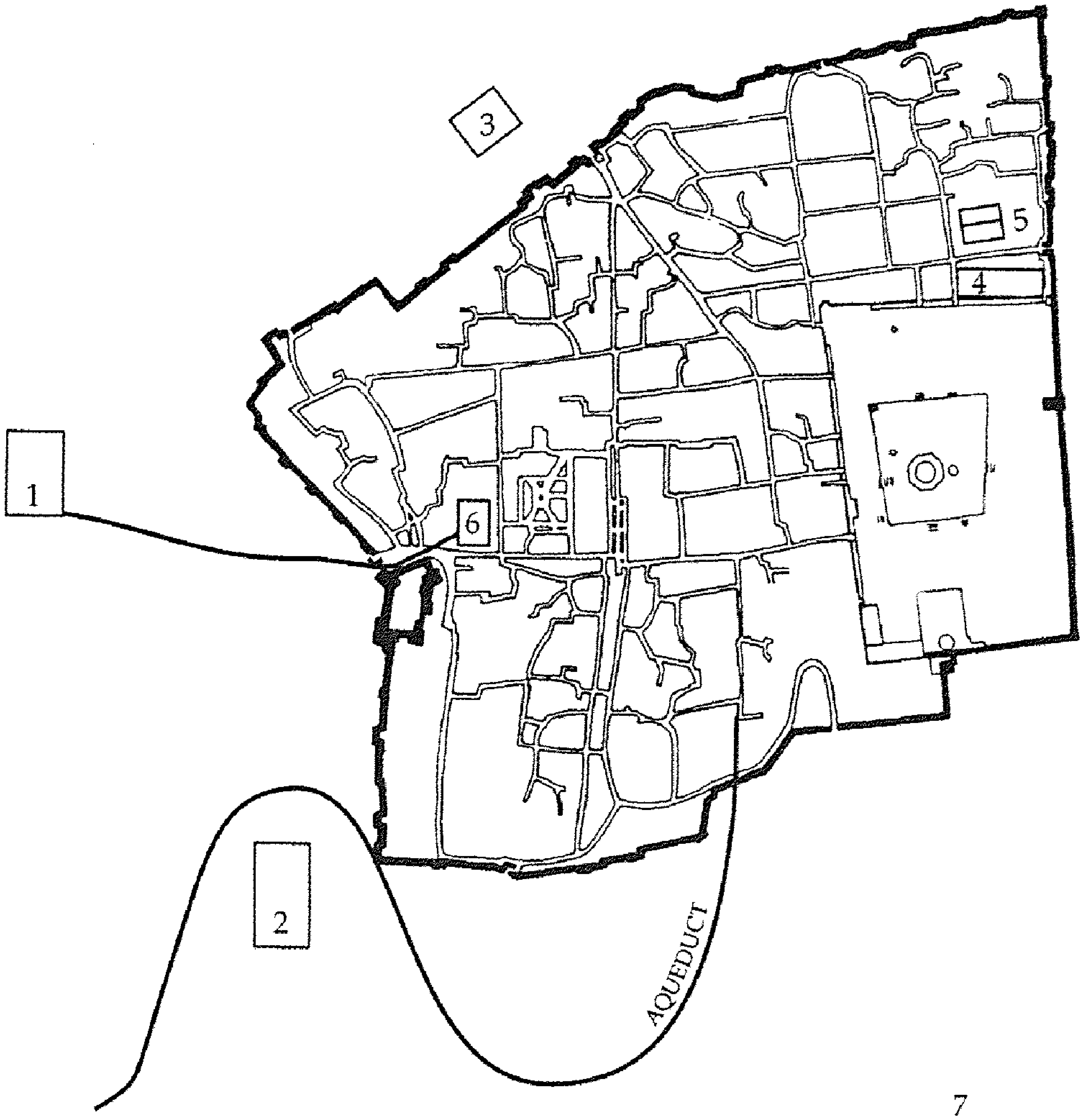
لوحة رقم ٦ , ١٤ : منزل به دكاكين فى موقع السوق القديم (تصوير المؤلف)



لوحة رقم ١٤,٧ : سوق القطانين (تصوير المؤلف)

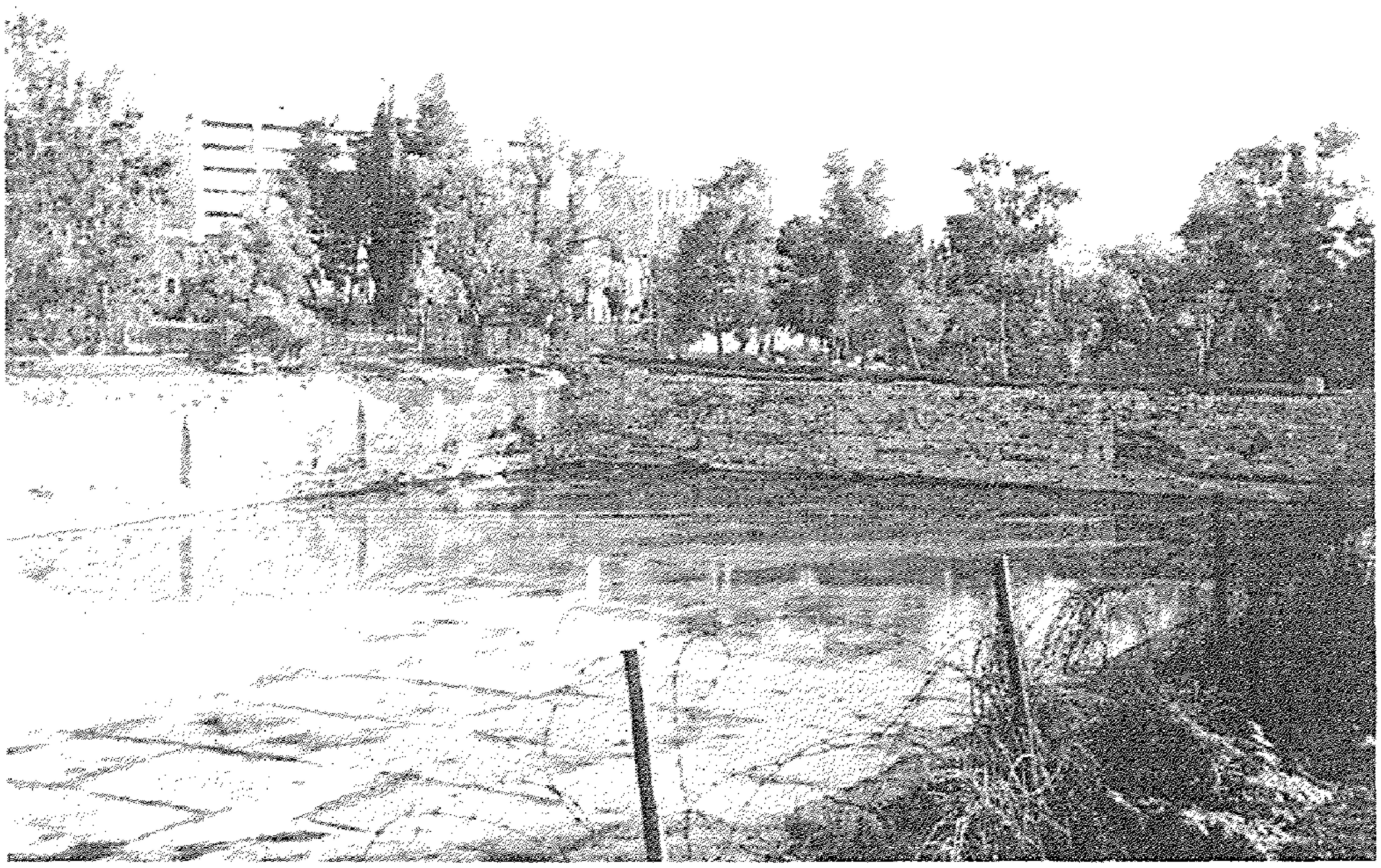


شكل رقم ١٥,١ : مخطط لمستشفى القديس يوحنا (شيك ١٩٠٢)

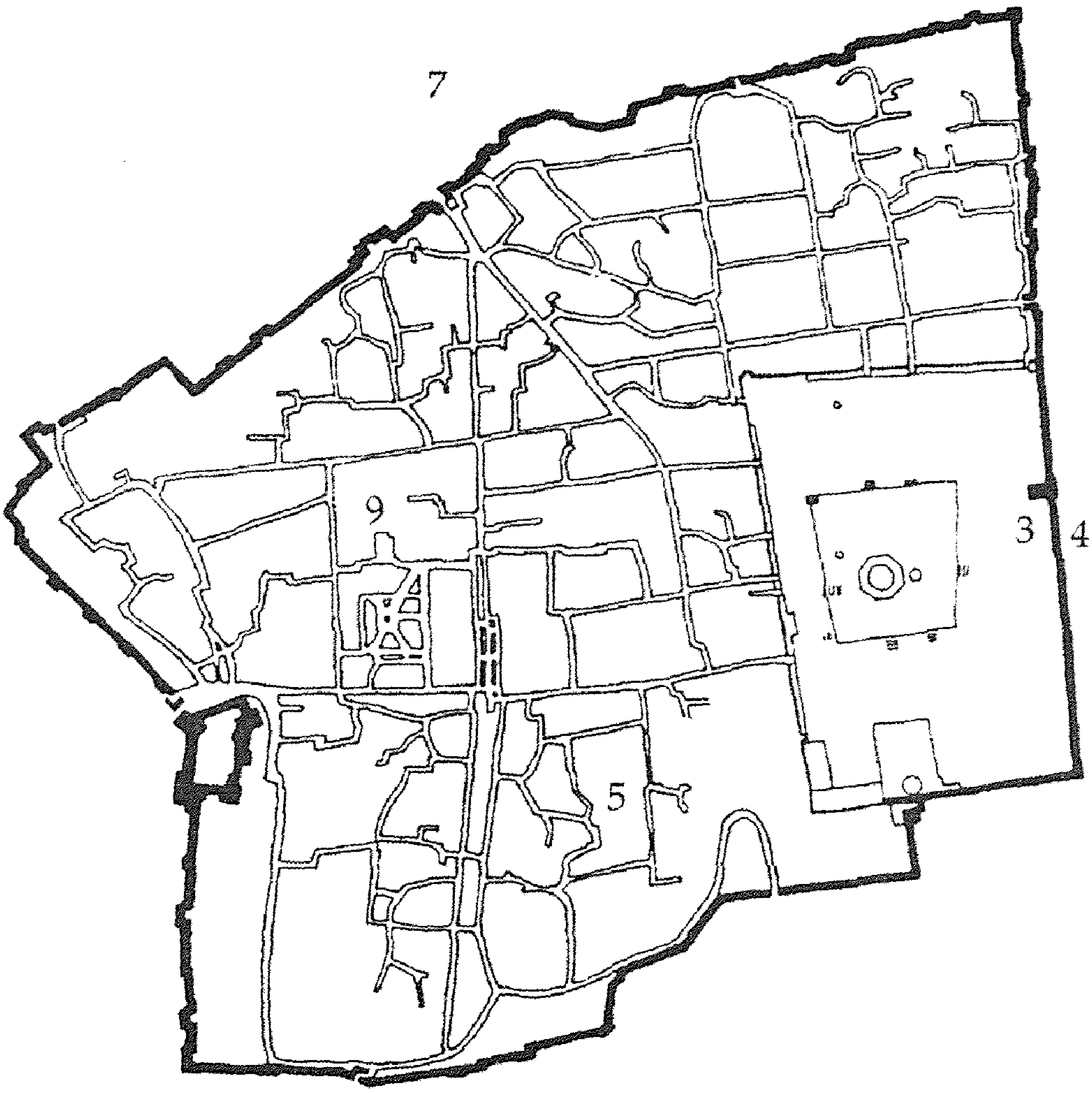


شكل رقم ١٨,١ : مصادر المياه فى القدس (رسم دالت داينبلات)

١ – بركة ماملا .
٢ – بركة الألمان .
٣ – بركة القديس لاذار .
٤ – بركة إسرائيل .
٥ – بركة الغنم .
٦ – بركة البطريرك .
٧ – بركة سليمان .
٨ – بئر أيوب .



لوحة رقم ١٨,١ : بركة البطريرك (ماملا) (تصوير المؤلف)



شكل رقم ١ . ٢٠ : أماكن الدفن في القدس وحولها (رسم دالت واينبلات)

١ – مقبرة حقل الدم .

٢ – مقبرة جبل صهيون .

٣ – مقبرة الداوية .

٤ – مقبرة الصليبيين .

٥ – كنيسة القديسة مريم للألمان .

٦ – مقبرة العذراء .

٧ – مقبرة مرضى الجذام .

٨ – مقبرة ماملا .

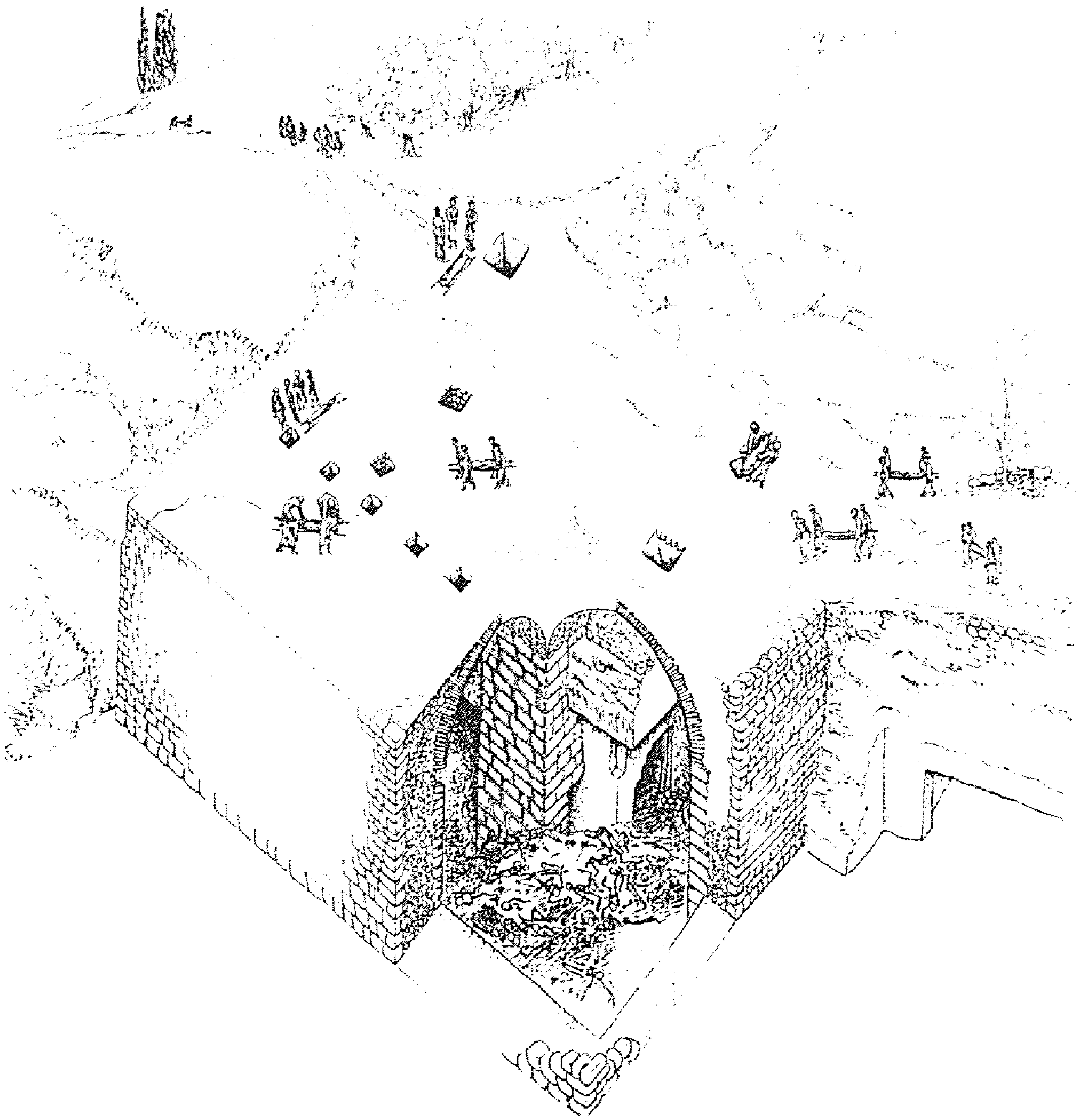
٩ – كنيسة الضريح المقدس .



لوحة رقم ١,٢٠ : أحد المقابر فى ماملا (تصوير المؤلف)

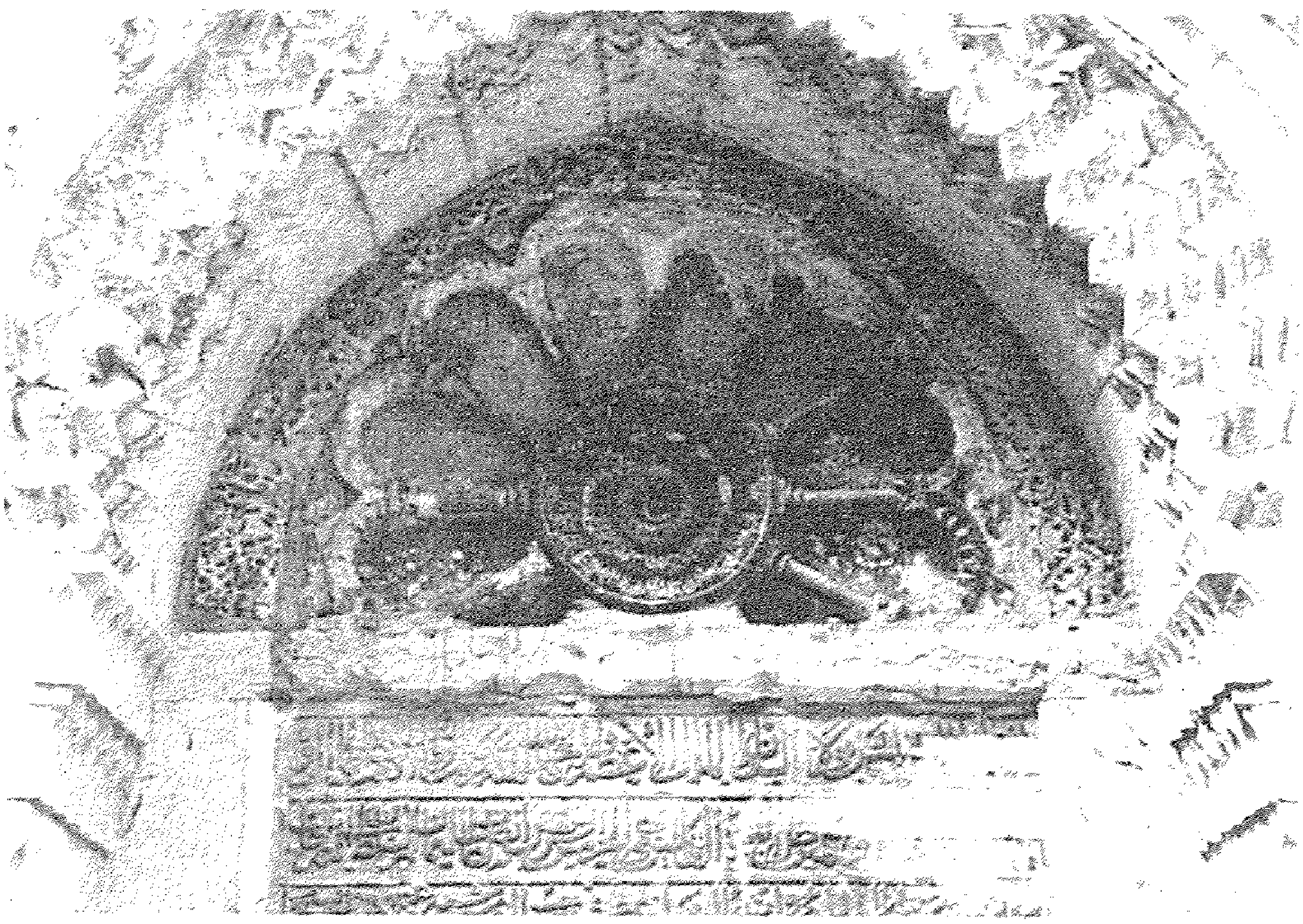


لوحة رقم ٢٠,٢ : مقبرة حقل الدم (تصوير أمت ريم)



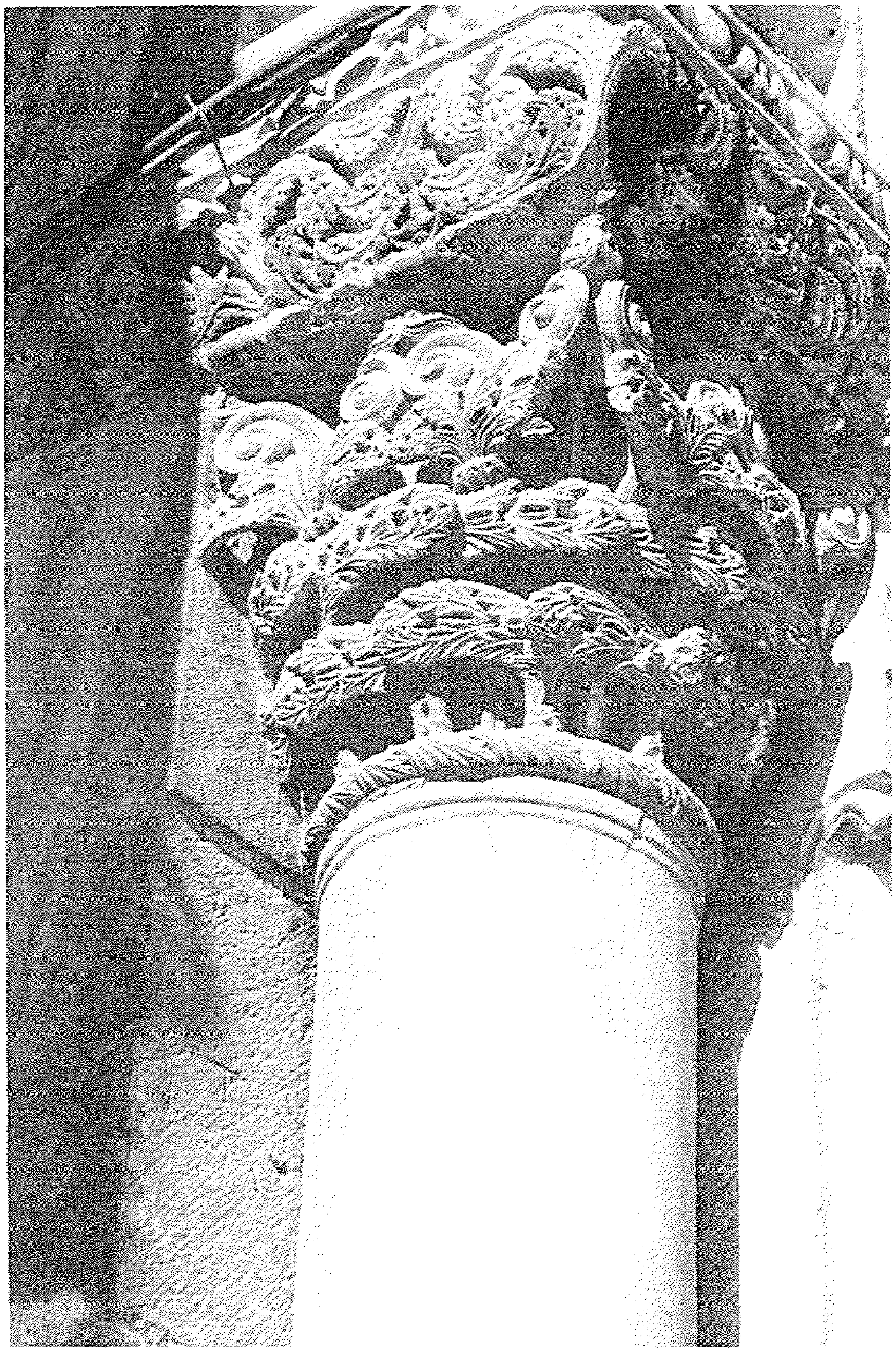
شكل رقم ٢٠,٢ : موضع حفظ جثث الموتى فى حقل الدم

(إهداء آمت ريم، رسم راشيل جراف)



لوحة رقم ١ ,٢١ : شباك مقوس أعيد استخدامه فى سبيل مملوكى

(تصوير المؤلف)



لوحة رقم ٢١,٢ : تاج عمود فى واجهة كنيسة الضريح المقدس
(تصوير المؤلف)



لوحة رقم ٢١,٣ : رسم بالموزايكو من دير الصعود

(تصوير المؤلف)



لوحة رقم ٢١,٤ : رسم بالفريسكو لملاك من كنيسة الجستمانية
(تصريح من مكتبة الفرنسيسكان)



لوحة رقم ١ ,٢٢ : صورة لقبة الضريح المقدس على قطعة نقدية من عهد عمورى الأول (١١٦٣-٧٤)
(تصريح من سلطات المتحف الإسرائيلي للآثار)

المؤلف فى سطور

أدريان جى بوس

يعمل محاضرا لآثار العصور الوسطى فى جامعة حيفا، فى إسرائيل . وله كتاب آخر عن حفائر الحروب الصليبية والذى قامت مؤسسة روتليدج أيضا بطباعته عام ١٩٩٩م . وقد تضمن كتابه هذا الكشف عن قلاع صليبية وقرى صليبـية فى فلسطين المحتلة "إسرائيل" إلى جانب بعض الكشوف الأثرية فى عكا زمن الحروب الصليبية . وهو من المهتمين بالدراسات الآثارية الخاصة ببيت المقدس والحفريات، فله دراسة بعنوان : قرية صليبية تم اكتشافها حديثا فى رامات ألون ببيت المقدس، وبحث آخر تحت اسم "الفترة الفرنجية"، ومقالة ثالثة بعنوان "الآثار الصليبية" .

* * *

المترجم فى سطور

الدكتور على السيد على

أستاذ تاريخ العصور الوسطى غير المتفرع بكلية الآداب بجامعة الفيوم، وعضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. له العديد من المؤلفات، "أولها القدس فى العصر المملوكى"، نشر دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٦م، وآخرها دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٩٩م . وله العديد من الدراسات والأبحاث المنشورة فى مجالات التاريخ الاقتصادى، والاجتماعى، والثقافى فى عصر الحروب الصليبية، والمماليك، والمغول . كما قام بترجمة كتاب "تاريخ أوربا فى العصور الوسطى"، نشر فى المجلس الأعلى للثقافة، عام ٢٠٠٤ ثم ترجم هذا الكتاب وهو بعنوان "مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية" .

* * *

التصحيح اللغوى : حسام فرج

الإشراف الفنى : حسن كامل

من المعروف أن الحروب الصليبية (1097-1291م) كانت صداماً عسكرياً، ومواجهة حضارية بين الشرق العربى تحت الحكم الإسلامى والغرب الأوربى الكاثوليكى، تمخضت أحداثها عن قيام كيان صليبى تحت سماء بلاد الشام "سوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن" عبارة عن ثلاث إمارات صليبية، هى الرها وأنطاكية، وطرابلس، ومملكة هى مملكة بيت المقدس وعاصمتها بيت المقدس أولاً، ثم عكا بعد معركة حطين 1187م؛ هذا الكيان استمر ما يقرب من مائتى عام ما بين عامى 1098م، وهو العام الذى شهد تأسيس إمارتى أنطاكية والرها، و 1291م الذى شهد طرد البقايا الصليبية ببلاد الشام على يد السلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاوون.

وعلى الرغم من وفرة الكتابة عن تاريخ الحروب الصليبية، فما زال هناك الكثير ليكتب عنه؛ حيث ما زال موضوع الحروب الصليبية يمثل مجالاً خصباً للبحث التاريخى. وإن ظهرت الآن حركة إحياء جديدة بين الجيل الحالى من المؤرخين وعلماء الآثار، إضافة إلى جهود أجيال سبقت لدراسة الحركة الصليبية وإجلاء حقائقها، واستكمال جوانبها، عربية وغير عربية فى عصر المعلومات، وك دراسات نحتاجها باعتبارنا قراء متخصصين وغير متخصصين ك تحتاجها مكتباتنا.

تصميم الغلاف: تامر زيدان